بيان

النَّظْم في القرآن الكريم

الربع الأول من سورة الفاتحة حتى سورة الأنعام



محمد فاروق الزين

محمد فاروق فارس الزين

بيان
النَّظْم في القرآن الكريم

الربع الأول

من سورة الفاتحة (١)

حتى

سورة الأنعام (٦)

الرقم الاصطلاحي: ٢٣٠٧,٠١١
الرقم الدولي : ISBN:1-59239-358-6
الرقم الموضوعي: ٢١٠
الموضوع: دراسات إسلامية
العنوان: بيان النظم في القرآن الكريم/الربع الأول
التأليف: المهندس محمد فاروق فارس الزين
التنفيذ الطباعي: دار الفكر -دمشق
عدد الصفحات: ٥٨٤ص
قياس الصفحة: ١٧×٢٥ سم
عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة
جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من المؤلف
الطبعة الأولى
١٤٢٥هـ=٢٠٠٤م
توزيع دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق-سورية
فاكس: ٢٢٣٩٧١٦
هاتف: ٢٢٣٩٧١٧ - ٢٢١١١٦٦

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ * الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ۞ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

[الحجر ١٥/٩٠-٩٣]

المحتويات

الموضوع	الصفحة
اهداء	٥
المحتويات	٧
مقدمة الربع الأول	٩
مراجع الكتاب	١٠
مقدمة الربع الرابع	١١
سورة الفاتحة -١-	١٩
سورة البقرة -٢-	٢٢
سورة آل عمران -٣-	١٩٣
سورة النساء -٤-	٣٠٣
سورة المائدة -٥-	٤٠٣
سورة الأنعام- ٦-	٤٩٢

مُقَدِّمَة

الربع الأول

القرآن الكريم منظومة متسلسلة من أوله حتى آخره، وهذا التسلسل ينطبق على الآيات القرآنية في كل سورة على حدة، كما ينطبق على ترتيب السور جميعاً من سورة الفاتحة حتى سورة الناس، وقد بدأ المؤلف في كتابه بيان النظم في القرآن الكريم بالربع الرابع منه، أي من سورة غافر (٤٠)، وحتى سورة الناس (١١٤)، ونشره في كتابه (بيان النظم في القرآن الكريم)، وفي هذا الكتاب بيان النظم في الربع الأول منه، أي من سورة الفاتحة (١)، حتى سورة الأنعام (٦)، والعمل جارٍ في استكمال الربعين الثاني والثالث إن شاء الله تعالى، والحمد لله رب العالمين،

المحرم ١٤٢٥ - شباط/فبراير ٢٠٠٤

محمد فاروق الزين

البريد الإلكتروني faruk@zein.org

مراجع الكتاب:

١- رسالة القرآن - محمد أسد The Message of the Quran, Muhammad Asad

٢- تفسير المنار - الشيخ محمد رشيد رضا

٣- التفسير الكبير - الرازي

٤- الكشاف - الزمخشري

٥- روح المعاني - الألوسي

٦- تفهيم القرآن - سيد أبو الأعلى المودودي

٧- جامع أحكام القرآن- القرطبي

٨- معاني القرآن الكريم - عبد الله يوسف علي

٩- أنوار التنزيل- البيضاوي

مُقَدِّمَة

الربع الرابع

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصّلت ٤١/٤٤]

تتسم معظم تفاسير القرآن الكريم بأنها تفسر القرآن آية آية بالتجزئة، كما لو كانت كل آية من الآيات مستقلة بذاتها عما قبلها وعما يليها، دون كثير اهتمام بترابط الآيات بعضها مع بعض، ودون التركيز على النظم القرآني المحكم، لدرجة أن البعض، في تجاهل واضح للنظم، قد يعتقد أن ليس هنالك من علاقة بين ترتيب الآيات وبين معانيها، ولا شك أن هذا الأمر وقف عائقاً بين بعض المستشرقين وبين فهم القرآن حتى أنهم توصّلوا إلى استنتاجات خاطئة من قبيل أن القرآن كتاب غير مفهوم أو غير منتظم أو غير محكم، وأدّى هذا الأمر ببعضهم إلى محاولة إعادة ترتيب القرآن بحسب ترتيب النزول الزمني في مسعى منهم لمحاولة فهمه، وهذه الصعوبة ليست مقتصرة على المستشرقين وحدهم بل تعم الكثير من المسلمين أنفسهم، ناهيك عن حديثي العهد بالإسلام منهم.

والمعروف أن للإعجاز القرآني الكثير من الوجوه اثنان منها على الأقل له علاقة بالنظم، الوجه الأول أن القرآن الكريم نزل على النبي ﷺ على مدى ثلاث وعشرين سنة من البعثة النبوية بحسب الظروف المرحلية للبعثة وطبقاً لمتطلباتها في كل مرحلة من مراحلها، وكان الوحي يبيّن للنبيّ ﷺ عند نزول كل آية موضعها الصحيح من السورة الخاصة بها، كما كان يبيّن له ترتيب

السور على النحو الذي نعرفه اليوم مما لا يطابق الترتيب الزمني للنزول، وبالتأكيد أنّ ذلك لم يكن اعتباطاً، لأن القرآن لم ينزل فقط كي يوافق المتطلبات المرحلية للبعثة النبوية وحدها، وإنما نزل كي يلائم كل العصور والأمم وليس لوقت أو أمة بعينها، ومن هنا نفهم قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾ (الإسراء ١٠٦/١٧)، وما يدل أن ترتيب الآيات والسور في المصحف ذو مغزى لا يمكن التغاضي عنه في تفسير القرآن الكريم، وقد أقر غالبية الفقهاء بإعجاز القرآن من هذه الزاوية لكنهم لم يتجاوزوا هذا الإقرار إلى الاستفادة منه في التفسير، بل إن غالبية المفسرين لم يركزوا على هذه النقطة.

فالوجه الثاني من هذا الإعجاز المذهل أن النبي الذي لم يكن يمتلك أي وسيلة من وسائل التحرير والتعديل والتنقيح، ولا أدنى وسيلة من وسائل التقانة المتاحة اليوم في هذا المضمار، وعلى مدى ثلاثة وعشرين عاماً من بعثته، ما يجعل من المستحيل أن يستطيع من تلقاء نفسه ترتيب القرآن على النحو المُحكَم الذي نعرفه، والمُغاير لترتيب النزول الزمني، وبحيث يكون القرآن مناسباً لكل العصور، مما يدل على أن ترتيب المصحف الذي نعرفه توقيفي من الله تعالى،

فهنالك إذاً نقطتان لا يمكن التغاضي عنهما: الأولى أن تعريف السورة بهذه الكلمة: (سورة) يعني أنها بمثابة سور يحيط بموضوع معين أو مواضيع مترابطة، وبمعنى أن كل سورة ذات محور يدور حوله موضوعُها أو مواضيعها، ولولا ذلك لما كان هنالك مبرر لتقسيم القرآن إلى سور، ولكان كله سورة واحدة من أوله إلى آخره، ولا بد لكل قارىء للقرآن أن يلاحظ أن لكل سورة قرآنية شخصيتها المختلفة عن الأخرى، وهذا الأمر يبدو شديد الوضوح عندما ينتهي المرء من قراءة إحدى السور وينتقل إلى الأخرى، ومن هنا يبدو أحد جوانب التحدي القرآني للكفار أن يأتوا بسورة من مثله، والنقطة الثانية أن ترتيب

السور التوقيفي يقتضي أن لهذا الترتيب مغزى لطيفاً لا علاقة لـه بطـول السـورة أو قصرها، وهو ما اجتهد الكاتب في بيان ارتباط السور المتتالية بعضها ببعض.

وإذا قرأ أحدهم القرآن دون محاولة التركيز على النظم فقد تبـدو لـه الآيـات مفككة المعاني، غير أن وضع كل آية في نصابها الصحيح مـن السـورة ودراسـة تعلقها بما قبلها وما بعدها يلقي المزيد من الضوء على معناها بما لا يقبل الخطأ.

وليس من شك أن بعض المفسرين فطن لهذا الموضـوع، ولكـن تصديهـم لـه كان جزئياً كما هي الحال في التفسير الكبير للرازي (المتوفّى ٦٠٤هـ/١٢٠٨م) الذي حاول أن يجد العلاقة أحياناً بين بعض الآيـات وبعضهـا الآخـر أو العلاقـة بين نهاية بعض السور وبداية السورة الـتي تليهـا، كمـا بـذل الألوسـي (المتوفّـى ١٢٧٠هـ/١٨٥٤م) في تفسيره (روح المعاني) ذات المحاولة الجزئيـة، غـير أنهمـا معاً لم يستفيدا من إحكام النظم في تفسيرهما للسور القرآنيـة كـل علـى حـدة، ولا للقرآن بمجمله، وقد وردت هذه المحاولة الجزئية أيضاً في تفسير المنار للشـيخ محمد رشيد رضا،

وقد لفت الإمام الزركشي (المتوفّى ٧٩٤ هـ/١٣٩٢م) في كتابـه (البرهـان في علوم القرآن) النظر لهذا الموضوع، إذ عرّف النظم بعبارة: «معرفة المناسـبات بين الآيات» فكتب: «وهذا النوع -من معرفـة المناسـبات بـين الآيـات- يهملـه بعض المفسّـرين أو كثير منهـم، وفوائـده كثـيرة»، وكتـب أيضـاً: «قـال بعـض مشايخنا: قد وهمَ من قال لا يُطلب للآي الكريمـة مناسبة، لأنهـا علـى حسـب الوقائع تنزيلاً، وعلى حسب الحكمة ترتيباً، فالمصحف مرتّبة سوره كلها وآياتـه بالتوقيف، والذي ينبغي في كل آية أن يُبحث أوّل شيء عن كونهـا مكمّلـة لمـا قبلها أو مستقلّة، ثم المستقلّة ما وجه مناسبتها لما قبلهـا؟ ففـي ذلـك علـمٌ جـمّ»، وهكذا في السور يُطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له»، ونقلَ عن الشـيخ أبي الحسن الشهرباني قولَه: «أوّل مَن أظهر ببغداد علم المناسبة و لم نكن سمعناه

من غيره هو الشيخ الإمام أبو بكر النيسابوري (المتوفّى ٣٢٤هـ/٩٣٦م) وكان غزير العلم في الشريعة والأدب، وكان يقول إذا قُرِيء عليه: لِم جُعلت هذه الآية إلى جنب هذه؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟ وكان يُزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة» انتهى.

وقد بذل محاولة متكاملة في هذا الصدد الإمام برهان الدين إبراهيم ابن عمر البقاعي (المتوفّى ٨٨٥هـ/١٤٨٠م) في تفسيره الذي سمّاه: (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) وذكر في مقدمته: «هذا كتاب عُجاب، رفيع الجناب، في فنٍّ ما رأيتُ مَن سبقني إليه » فلم يخلُ من التصنّع والتكلّف.

ومن جهة أخرى لا بد أن يلاحظ المرء أن القرآن الكريم قد لا يستنفد موضوعاً من المواضيع في مكان واحد أو في سورة واحدة، بل يعود إليه في أكثر من سورة بما قد يعطي الانطباع أن هنالك تكراراً في المواضيع، غير أن التمعن في ذلك يبين أن الموضوع يتم بحثه في كل مرة من زاوية مختلفة عن الأخرى أو متممة لها وبما قد يتناسب مع محور السورة موضوع البحث، وهو ما يشير إليه القرآن الكريم بتصريف الآيات كما في قوله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام ٤٦/٦]، وقوله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام ٦٥/٦]، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام ١٠٥/٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُورًا﴾ [الإسراء ٤١/١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا﴾ [الإسراء ٨٩/١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ [الكهف ٥٤/١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا﴾ [الفرقان ٥٠/٢٥].

وهنالك أيضاً آيات الأحكام التي لا يسردها القرآن في موقع واحد أو سورة واحدة، بل نرى هذه الآيات متداخلة مع النص القرآني في مواضع مختلفة، فالنصوص القرآنية ليست مجرد أحكام، والقرآن كتاب دعوة للإسلام، وهو أيضاً كتاب دين ودنيا مما يفسر هذا التداخل، فحياة الإنسان وحدة متكاملة لا يمكن فصل النواحي الروحية فيها عن النواحي الحياتية المعيشية.

وتبدو مبالغة بعض المفسرين في الاعتماد على (أسباب النزول) سبباً مهماً، من جملة أسباب أخرى، في تفكيك النص القرآني أو توهم تفككه، والانصراف عن نظمه المحكم وبالتالي عن معانيه، فغالباً ما تعطي أسبابُ النزول الانطباعَ بتفكك النص مع أن واقع السور يشهد بعكس ذلك.

معظم أسباب النزول جُمعت في مؤلَّفين، الأول كتبه أبو الحسن الواحدي النيسابوري (المتوفى ٤٦٧هـ/١٠٧٥م)، والثاني كتبه جلال الدين السيوطي (المتوفى ٩١٠ هـ/١٥٠٥م) - وهي مدوّنة كملاحظات بأسفل صفحات تفسير الجلالين-، علماً أن بعض هذه الأسباب - القصص- مذكور في كتب السيرة والمغازي، كما هي مذكورة أيضاً في كتب التفاسير المأثورة، ويعطي الواحدي النيسابوري أسباباً للنزول لبعض الآيات الواردة في ٨٣ سورة من مجموع سور القرآن الكريم ، في حين أن السيوطي يعطي أسباباً للنزول لبعض الآيات في كافة سور القرآن الكريم -عدا الفاتحة-، فالأسباب في مجموعها لا تغطي سوى قسماً قليلاً من القرآن، وقد أُحصيَتْ الآيات التي لها أسباب نزول عند الواحدي النيسابوري فوُجد عددها /٥٩٩/ آية من مجموع آي القرآن الكريم البالغ عددها /٦٢٣٦/ آية أي بنسبة مئوية من المجموع أقل من عشرة بالمئة، ومع ذلك يعتبرها البعض ضرورة لا بد منها لتفسير القرآن! .

واليوم يرى بعض العلماء أن أسباب النزول ضعيفة الإسناد في معظمها، وحتى ما كان منها ذا إسناد جيد -وهو أقل القليل- فإن البعض منها قد يناقض

بعضها الآخر، وفي الأغلب يجب النظر إلى الأسباب كتطبيقات لما نزل من القرآن الكريم، وليس كأسباب نزول، وفي ذلك كتب الإمام الزركشي في (البرهان، الجزء الأول ص ١٢٦) : «وقد عُرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: "نزلت هذه الآية في كذا فإنه يريد بذلك أن هذه الآية تتضمن هذا الحكم، لا أن هذا كان السبب في نزولها».

والنتيجة أنّ أسباب النزول يمكن أن تؤخذ في الاعتبار فقط عندما تشير الآية أو الآيات إلى أحداث تاريخية معينة، انظر الملحق (أ) – في نهاية الربع الرابع – الذي يبين المناسبات التاريخية لنزول بعض النصوص القرآنية، وفيما عدا ذلك يلزم التمحيص بها والتعامل معها بحذر شديد.

كما يبين الملحق (ب) – في نهاية الربع الرابع – أسماء الأعلام من مؤرخي السيرة والفقهاء وكتّاب الحديث والتفاسير وأسباب النزول، وأسماء الخلفاء المعاصرين لهم، لإعطاء فكرة عن بعد الفترة الزمنية –أو قربها– لهؤلاء الأعلام من البعثة النبوية الشريفة بما يتناسب مع العمل الذي كانوا بصدده.

وقد كتب أبو حامد الغزالي في مؤلّفه «إحياء علوم الدين» أن حُجُب فهم القرآن أربعة، أي التي تحجب فهم القرآن الكريم عن قارئه،

أولاً: حين ينصرف همّ القارىء إلى تحقيق الحروف ومخارجها، وهذا يتولّى حفظُه شيطان يصرفه عن معاني كلام الله، فلا يزال يحمله على ترديد الحروف يخيل له أنْ لم تخرج من مخارجها، فيكون تأمّله مقتصراً على مخارج الحروف، فأنّى تنكشف له المعاني؟.

ثانياً: حين يكون القارىء مقلّداً لمذهب سمعه بالتقليد وجَمُد عقلُه عليه وتعصّب له.

ثالثاً: حين يكون مصرّاً على ذنب، أو متّصفاً بكِبَر، أو مبتلىً بهوى في الدنيا.

رابعاً: أن يكون قد قرأ تفسيراً ظاهراً واعتقد أن لا معنى لكلمات القرآن إلاّ ما تناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما، وأنّ ما وراء ذلك تفسير بالرأي، وأنّ من فسّر القرآن برأيه فقد تبوّأ مقعدَه من النار، فهذا أيضاً من الحُجُب العظيمة.

ومن كل ذلك تنطلق محاولة هذا الكتاب لبيان النظم القرآني وبالتالي المعاني القرآنية، وقد بدأ الكاتب بالربع الأخير من القرآن الكريم، ويتضح الغرض من الكتاب في ثلاث مواضيع:

١-بيان ارتباط السور القرآنية بعضها مع بعض.

٢- بيان موضوع كل سورة أو ما اصطلح على تسميته محور السورة الذي تدور حوله.

٣- بيان النظم في الآيات لكل سورة على حدة.

وفي العصر الحديث، وفي الباكستان بالذات، قام أحد علمائهم وهو مولانا أمين احسان إصلاحي (١٩٠٤-١٩٩٧) بمجهود كبير بهذا الصدد في مؤلفه الضخم المكون من ستة آلاف صفحة والذي سمّاه (تدبُّر القرآن)، غير أنّه كتَبَه بلغة الأوردو، و لم يترجم حتى الآن إلى أية لغة أخرى فلم يصل إلينا.

وقد لفت نظري الأخ الكريم المهندس نزار الكردي، الذي تضاهي معارفُه الفقهية علومَه الهندسية، أنّ كوْن ترتيب السور والآيات القرآنية توقيفي من الله تعالى، أي الترتيب إلزامي غير معلّل، مما يعفي المرء من البحث عن علّة مصطنعة عندما تنتقل السورة من موضوع لآخر قد لا يبدو هنالك رابط بينهما، وهو ما اصطنعه الشيخ برهان الدين البقاعي في كتابه "نظم الدرر" في كثير من الحالات، وكما هي الحال مثلاً عندما يتم الخلط بين واو العطف و واو الاستئناف بين بعض الآيات كما في قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف ١٨/٩٩]، فالواو في قوله:

(وَتَرَكْنَا) واو الاستئناف وليست واو العطف إذ هي ابتداء لموضوع جديد بعد انتهاء قصة ذي القرنين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

شوال ١٤٢٣هـ - كانون الأول (ديسمبر) ٢٠٠٢م

محمد فاروق الزين

البريد الإلكتروني faruk@zein.org

* * *

سورة الفاتحة -١-

مكية

من أوائل السور المكية

محور سورة الفاتحة

تبدأ السورة بآية البسملة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (١)، أي نبدأ باسم الله، ونظيرُه قوله تعالى على لسان نوح: ﴿بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ [هود ٤١/١١]، وقوله تعالى على لسان سليمان: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِاسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل ٣٠/٢٧]، لأن الله تعالى هو القوة الوحيدة الحقيقية المهيمنة على كل شيء، فلذا وجب البدء باسمه، باعتباره تعالى مصدر التكوين والتشريع،

ويُلاحظ أن آية البسملة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في سورة الفاتحة جزءٌ منها، بالمقارنة مع بقية سور القرآن الكريم التي تفتتح بالبسملة، سوى سورة التوبة التي لا تفتتح بها، لأنها لم تنزل معها كما نزلت مع غيرها من السور، واستنتجوا من عدم بداية سورة التوبة بالبسملة دليلاً آخر على أنها آية مستقلة بذاتها، لكون بعض الناس يتنازعون في كون ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ آية من القرآن الكريم أم لا.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢)، الله تعالى مستحق الحمد على إيجاده لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا﴾ [مريم ٩/١٩]، ولقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ [الإنسان ١/٧٦]، كما هو مستحقّ الحمدِ على نعمائه، لقوله: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل ٥٣/١٦]، وهو غنيٌّ عن شكر الشاكرين وحمد الحامدين، غير أنّه مستحق الحمد

لِذاته سواء قدِرَ العباد على الإتيان بالحمد أم لم يقدروا، وسواءٌ حَمِدُه حامدٌ أم لم يحمد، فكَمال الحمد ملكُه وحقُّه،

وأما كلمة الربّ في قوله تعالى ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فتشمل امتزاج معنى الألوهية بمعنى التربية، وكلمة ﴿ربّ﴾ لا تُطلق على غيره تعالى إلاّ مضافة إلى شيء، كقولهم ربّ الدار أو ربّ العائلة،

﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (٣)، الرحمن صفة ذاتية لله تعالى لقوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف ١٥٦/٧]، فرحمته تعالى من صفاته القديمة الأزلية التي قام بها أمرُ الكون، وهي عامّة لكل مخلوق، ولولاها لهلك فوراً كل كافرٍ وعاصٍ عقب كفره ومعصيته دون إمهال،

والرحيم صفة فعل تدل على وصول الرحمة إلى الخلق، لقوله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف ١٥٦/٧]، أما العذاب فليس من صفاته بل من أفعاله المرتبة على صفة العدل،

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (٤)، وهو يوم البعث والجزاء الذي تتحقق فيه العدالة على أتم وجه لقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم ٣١/٥٣]، والدين من الديّان وهو صفة لله تعالى، لأن العباد صاروا مسؤولين بعد نزول الوحي عليهم، وفي الحديث: «كما تدينُ تُدان»، والمعلوم أن المسؤولية قسمان: حقوق الله، وحقوق العباد، أمّا حقوق الله فمبنيّة على المسامحة لأن الله تعالى غنيّ عن العالمين، وأما حقوق العباد فغير ذلك،

وبعد بدء السورة بالبسملة، والإقرار بالحمد، وبالربوبية لله تعالى، وبالمسؤولية الأخلاقية، تنتقل السورة إلى صيغة الدعاء بالجمع: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (٥)، ما يفيد حصر العبادة بالله تعالى وحده، والمعنى لا نعبد إلا الله، ولا نستعينُ بغيره، والآية دلالة على كلمة التوحيد المحض: ﴿لا إله إلاّ الله﴾ [محمد ١٩/٤٧]، وصيغة الجمع في هذه الآية -حتى آخر السورة- توجيه

للفرد أن يستذكر جماعة المسلمين في دعائه إذ لا بدّ أن يكون فيهم من يستحق الإجابة،

أما مفهوم العبادة فواضح من قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات ٥١/٥٦]، فمغزى خلق الجن والإنس هو العبادة، بمعنى معرفة الله عز وجل، والإقرار بالتوحيد، والاستسلام لمشيئته تعالى في الخليقة المتمثلة في قبول الرسالات المتتالية التي نزلت على الأنبياء والرسل وختامها الإسلام، وتكييف الحياة والمعيشة وفق ذلك، فالعبادة تعود بالسعادة وبالنفع على العباد وحدهم، لأنه تعالى غنيّ عن العالمين لقوله: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات ٥١/٥٧-٥٨].

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (٦)، أي بيّن لنا الطريق المستقيم وثبّتنا عليه كي لا ننحرف عن الصواب، إذ بعدما حبى الله تعالى عباده هداية العقل، ثم هداية الرسل، لم يبقَ للعبد سوى الدعاء بالتوفيق واللطف الإلهي.

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ (٧)، الذين استفادوا من نعمتيْ العقل وهدي الرسل، ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ الذين رغم أنهم عرفوا الرسالة وأيقنوا بها إلاّ أنهم يجحدونها من موقع الاستكبار، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل ٢٧/١٤]، وقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل ١٦/٨٣].

﴿وَلا الضَّالِّينَ﴾ (٧)، الذين لم تصلهم الرسالة السماوية، وفي حال أنها وصلتهم فقد وصلت إليهم بصورة مشوهة بحيث لم يفقهوا حقيقتها، أو أنها وصلتهم وهم متشبّثون بالتقليد مستسلمون للأفكار الموروثة في تجاهل واضح لِنَوْر العقل.

سورة البقرة-٢-

مدنية

مقدمة

سميت هذه السورة «البقرة» لأن قصة البقرة وردت فيها، (الآيات ٦٧-٧٣)، ولا يعني ذلك أن قصة البقرة هي موضوعها الرئيسي وإنما الاسم مجرّد تعريف أو عنوان للسورة.

نُزّلت هذه السورة بكاملها تقريباً خلال السنتين الأولى والثانية بعد الهجرة النبوية، والقليل الباقي منها نزل فيما بعد، وهكذا نرى في هذه السورة آيات تحريم الربا، (الآيات ٢٧٥-٢٨١)، التي نزلت في الأيام الأخيرة من حياة النبي ﷺ، وقيل إن (الآية ٢٨١) كانت آخر ما نزل من الوحي .

الخلفية التاريخية

قبل الهجرة النبوية إلى المدينة كانت الرسالة الإسلامية منحصرة في مكة، وموجّهة بصورة رئيسية لمشركي الجزيرة العربية، ولكن بعد الهجرة، كان على الرسالة أن تُوجَّه لليهود القاطنين في المدينة وما حولها، والمعروف أنّ عقيدة اليهود تدهورت كثيراً، عبر القرون، عن أصل الدين الذي نزل على موسى عليه السلام قبل البعثة الإسلامية بحوالي ١٨ ثمانية عشر قرناً من الزمن، وكان اليهود قد غيّروا ما تبقّى لديهم من التوراة وخلطوا كلام البشر مع الوحي الإلهي، وابتكروا كثيراً من التفاصيل والدقائق الشرعية الفرعية وتعلّقوا بالشكليات وجعلوها عبئاً على الشريعة، واستغرقوا بها حتى لم يبقَ عندهم من الدين سوى هيكلية مشوّهة من الطقوس، وشمل التدهور علماءهم وجهّالهم على السواء،

وانحلّت مقاييسهم الأخلاقية، ومعاملاتهم اليومية، وخاصة مع غير اليهود، الأغيار حسب قولهم، لأن كتبهم «المقدسة» التي حرّرها الأحبار تحضّ على خداع الأغيار والغدر بهم، واعتبارهم بمنزلة الحيوانات، فطغى عليهم شعور العرق المتفوق، وصاروا على درجة من التمسك الشديد بضلالهم حتى صاروا يقاومون كل من يحاول إصلاحهم ويعتبرونه عدوّاً لهم، والنتيجة أنهم حوّلوا دينهم إلى جنسية عنصرية عصبيّة لا غير، فلمّا وصل النبي ﷺ إلى المدينة نزل الوحي بسورة البقرة خلال العامين الأولين بعد الهجرة متضمناً دعوة اليهود للعودة إلى دينهم الأصلي الذي هو دين الأنبياء جميعاً، وانتقدت السورة تاريخ اليهود الحافل بالجرائم، ومعاندتهم موسى، وقتلهم الأنبياء، وغرورهم في الدين، وضلالهم عن دين أنبيائهم، كما انتقدت حاضرهم المتمثّل بالتفسخ الأخلاقي والديني، وبيّنت أن العبرة ليست بالشكليات ولكن بالممارسة الصحيحة والإيمان الفعلي، (الآيات ٤٠-١٤١).

ومن جهة ثانية كان وصول النبي ﷺ إلى المدينة بداية لمرحلة جديدة تعتبر نواة تأسيس المجتمع الإسلامي الجديد والدولة الإسلامية، فنزل الوحي متضمناً أسس التشريع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والديني، (الآيات ١٥٣-٢٨١).

ومن جهة ثالثة واجه المسلمون بعد الهجرة صعوبات من نوع جديد، لم يعرفوها من قبل في مكة، منشؤها النفاق والمنافقين، فقد دخل بعض الناس الإسلام لمحاولة تخريبه من الداخل، ودخل بعضهم الإسلام للاستفادة من السيطرة السياسية الجديدة للمسلمين، وفي نفس الوقت حافظ المنافقون على علاقاتهم مع الكفار تحسّباً واحتياطاً لتغيّر الظروف حسب زعمهم، وآخرون من الناس دخلوا الإسلام دون أن تكون لديهم الشجاعة الكافية والعزم على التضحية في سبيله، (الآيات ٨-٢٠).

ارتباط السورة بما قبلها:

بعد أن ختمت سورة الفاتحة بدعاء الهداية: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة ١/٦]، يستمر الخطاب في سورة البقرة بقوله تعالى مبيناً طريق الهداية: ﴿الم ۞ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢/١-٢]، ثم قوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٢/٥].

وفي سورة الفاتحة قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ١/٧]، ثم تبين سورة البقرة أنّ من المغضوب عليهم اليهود: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [البقرة: ٢/٩٠].

وقد تكررت الإشارة إلى غضبه تعالى عليهم في سور أخرى كما في آيات [الأعراف: ٧/١٥٢]، و [طه: ٢٠/٨٦]، و [المجادلة: ٥٨/١٤]، و [الممتحنة: ٦٠/١٣]، وهنا تفصّل آيات [البقرة: ٢/٤٠-١٠٥] أحوال بني إسرائيل وجرائمهم وتدعوهم إلى الإسلام.

محور سورة البقرة:

تصف أحوال ثلاثة أصناف من الناس: المؤمنين، والمصرين على الكفر، والمنافقين (الآيات ١-٢٠)، وتحشد البراهين على صدق الوحي (الآيات ٢١-٢٩)، وتصف خلافة بني آدم في الأرض، وتفضيلهم بالعلم على سائر الخلق، وتقرر مكابدة الإنسان في الحياة الدنيا ضد عناصر الشر (الآيات ٣٠-٣٩).

وتدعو بني إسرائيل إلى الإسلام وتسرد تاريخهم وجرائمهم وعنادهم، وتدعوهم إلى ترجيح الآخرة على الدنيا بعدم تفضيل الأدنى على الخير (الآيات ٤٠-١٠٥).

وتنسخ الشرائع السابقة بشريعة الإسلام (الآيات ١٠٦-١٠٧)، وتدحض عقائد اليهود والنصارى (الآيات ١٠٨-١٤١)، وتحذّر المسلمين بأنّ اليهود والنصارى لا يقبلون منهم بأقل من اتباع ملّتهم (الآية ١٢٠).

وتقرر عودة القبلة إلى مكة كعلامة من علامات انتقال النبوة من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل بعد أن رفض بنو إسرائيل آخر أنبيائهم عيسى المسيح عليه السلام (الآيات ١٤٢-١٥٢).

وتحدد نواة وأسس بناء المجتمع الإسلامي الجديد والدولة الإسلامية، متضمناً أسس التشريع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والديني (الآيات ١٥٣-٢٨١).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الم﴾ (١)

١- ﴿الم﴾ تسعة وعشرون سورة من سور القرآن الكريم، كلها مكية عدا البقرة وآل عمران، تبدأ بما يسمّى بالحروف المقطّعات، ويلاحظ أنّ عدد هذه السور يساوي عدد حروف الهجاء، إذا اعتبرنا الألف والهمزة حرفين، وهي تقارب ربع مجموع سور القرآن الكريم، ولا شك أنّ فواتح السور هذه جزء لا يتجزأ من تلك السور، فقد تواترت الأخبار بقراءتها كما نزل بها الوحي على النبي ﷺ.

ويحتمل أنّ استخدام المقطعات كان شائعاً زمن نزول الوحي من قبل الشعراء والخطباء كصور بلاغية ذات مغزى ويلاحظ ذلك في بعض الأمثلة التي وصلت إلينا من الأدب العربي الجاهلي، فيحتمل إذن أنّ معاني المقطّعات كانت واضحة للعرب وقت التنزيل، ولم تكن بالنسبة إليهم شيئاً محيّراً، إذ لم يصل إلينا أثر عن استفسار الصحابة رضي الله عنهم فيما يتعلق بمعانيها، فالقرآن الكريم نزل بلغتهم، قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (الشعراء ١٩٥/٢٦).

وقد رأى الرازي أنّ تفسير ألفاظ المقطعات بناء على ما فيها من الحروف، كقولهم مثلاً، ﴿الم﴾، بمعنى أنا الله أعلم، أو قولهم أنّ ﴿المص﴾ بمعنى: ألم نشرح لك صدرك، و قولهم أن ﴿طسم﴾ تعني طور سيناء وموسى، وأنّ ﴿الر﴾

تعني أنا الله أرى ، ...إلخ، بدون أن تكون تلك الألفاظ موضوعة في اللغة لذلك المعنى أصلاً، مما يفتح الباب للباطنية على مصراعيه في تفسير ألفاظ القرآن الكريم بما يشاكل هذا الأسلوب، انظر الرازي في تفسيره آية [الأعراف: ٧/١]،

وقد حاول الكثير من المفسرين استخراج معان لها بكثير من البراعة، فحروف المقطّعات مجموعها أربعة عشر حرفاً، أي نصف حروف الأبجدية العربية إذا أهملنا الكسر، أو إذا اعتبرنا الألف والهمزة حرفاً واحداً، وهي فوق ذلك تحوي من كل جنس من الحروف نصفه، راجع الزمخشري في الكشاف، وهي ترد في مجموعات مكونة من حرف واحد وهي (ص- ق- ن) وردت في سورة ص وسورة ق وسورة القلم، ومجموعات مكونة من حرفين وهي ﴿طه- طس-يس﴾ وردت في سورة طه وسورة النمل وسورة يس، و ﴿حم﴾ وردت في سبع سور متتاليات وهي (غافر- فصّلت- الشورى- الزخرف- الدخان- الجاثية- الأحقاف)، ومجموعات مكونة من ثلاثة حروف وهي: ﴿ألم-ألر- طسم﴾ وردت ﴿ألم﴾ في ستة سور، منها اثنتان متتاليتان هي: ﴿البقرة-آل عمران﴾، وأربعة متتالية وهي ﴿العنكبوت-الروم-لقمان-السجدة﴾، ووردت ﴿ألر﴾ في ستة سور متتالية هي ﴿يونس-هود-يوسف-الرعد-إبراهيم-الحجر﴾، غير أنها وردت في سورة الرعد ﴿ألمر﴾ بزيادة حرف الميم، ووردت ﴿طسم﴾ في ثلاثة سور متتالية هي ﴿الشعراء-النمل-القصص﴾ غير أنها وردت بدون الميم في سورة النمل كما ذكر أعلاه، ومجموعات مكونة من أربعة حروف وهي ﴿ألمص-ألمر﴾ وردت الأولى في سورة الأعراف والثانية في سورة الرعد كما ذكر أعلاه، ومجموعات مكونة من خمسة حروف متصلة هي ﴿كهيعص﴾ وردت في سورة مريم، أو غير متصلة وهي ﴿حم عسق﴾ وردت في سورة الشورى وسبق ذكرها أيضاً مع مجموعات الثلاثة حروف ﴿حم﴾ أعلاه، وجميع هذه السور مفتتحة بذكر الكتاب إلا أربعة منها هي: سور مريم، والعنكبوت، والروم، والقلم.

وقد حاول البعض اشتقاق معانٍ أو قيم عددية لكل من مجموعات الحروف المذكورة لتوافق بعض النبوءات والتصوّرات، وهنالك شطحات صوفية بعيدة في هذا المجال، كما حاول البعض إيجاد معانٍ أو عناصر مشتركة بين السور ذات مجموعات الحروف المتشابهة، ورغم كلّ ذلك لا يوجد إجماع على معناها، فالله أعلم بمراده، وقيل أيضاً أنها من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، انظر آية [آل عمران ٣/٣].

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢)

٢- ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ المعنى أن هذا الكتاب، أي القرآن، هو من الله بلا شكّ، إذا تم الوقف بعد كلمة ﴿رَيْبَ﴾، وهناك معنى آخر وهو أنه لا يتطرق الشك لأي من محتواه، إذا تم الوقف بعد كلمة ﴿فِيهِ﴾، لقوله تعالى ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة ٢/٢٣]، لأنّ كتب البشر التي تتطرق الى الغيبيات مبنية على الظن، ولكن القرآن مبني على اليقين، لأنه من عند الله ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين ستذكر الآياتُ التالية أوصافَهم ، فالقرآن موجه للجميع إنما يستفيد منه ذوو صفات معينة فقط، وأول هذه الصفات التقوى، التي يترتب عليها أن يكون ذهن المرء منفتحاً، راغباً في التوصل إلى الحقيقة وإلى التمييز بين الحق والباطل ، وبين الخير والشر، متحرراً من التقليد، أما الذين ينغمسون في الحياة المادية ويلهثون وراء أهوائهم المهيمنة عليهم، والذين أغلقوا عقولهم على التقليد وقالوا قلوبنا غلف، فليس بمقدورهم الاستفادة من هدي القرآن، أما صفات المتقين فمبينة في الآيات التالية:

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (٣)

٣- الصفة الأولى من صفات المتقين أنهم يؤمنون بالغيب: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ والغيب بمجموعة الحقائق التي لا تدرك بالحواس، مثل وجود الله تعالى،

والحياة الآخرة، وحقيقة الزمن، وعالم الملائكة والجن .. إلخ، لأن الحقيقة المطلقة ليست مقتصرة على الكون الذي «نلاحظه» بالحواس.

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ وهي الصفة الثانية للمتقين: لأنّ مجرد الإيمان النظري دون التطبيق العملي غير كافٍ للاستفادة من هدي القرآن، فالإسلام إيمان وعمل، والمقصود إقامة الصلاة على تمامها أي بما يترتب عليها من صالح الأعمال ومكارم الأخلاق وحسن المعاملة.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ الصفة الثالثة للمتقين، فهم ليسوا أشحاء، ولا من عبدة المال والدنيا، بل مستعدون لإنفاق الزكاة والصدقات، ولا يتقاعسون عن التضحيات المادية في سبيل الإسلام، والرزق ليس الثروة فقط وإنّما هو العلم أيضاً، فالانفاق بمعناه التحريدي يشمل التعليم ونشر المعرفة لمن رزقوا العلم والمعرفة، وفي الحديث: «تعلموا العلم وعلّموه الناس»، كما قد يكون الرزق نفوذاً وسلطة وما يترتب عليهما من فرص يمكن أن تستخدم لخير المسلمين.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (٤)

٤- الصفة الرابعة للمتقين: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ والمغزى أنّ فهم القرآن والاستفادة من هديه متعذّر على من ينكر استمرارية الوحي الإلهي في هداية البشرية، فيمتنع الفهم عمّن يقتصر إيمانهم على أنبيائهم فقط رافضين الوحي الذي نزل خارج نطاق قومياتهم وعصبيتهم الضيقة ﴿وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ وإن كان الإيمان بالغيب قد شملها، خصّها تعالى بالذكر لجحود الكفار بها، ومنهم أكثر بني إسرائيل، وهي الصفة الخامسة للمتقين: أي اليقين بالبعث والحساب بعد موت الجسد، واليقين يفيد الاعتقاد الجازم الذي لا يشوبه الشك بأن نجاح الإنسان أو فشله لا يقاس بالازدهار الذي قد يحققه في الحياة الدنيا فقط، وإنّما بعاقبته في الحياة الآخرة، كما في قوله تعالى على لسان الجاحد: ﴿يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر ٨٩/٢٤]، أي لحياتي الآخرة.

﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٥)

٥- ﴿أُولَئِكَ﴾ المتّصفين بالصفات المذكورة آنفاً ﴿عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ هُم على الهدى التام، وهم المفلحون، والفلاح هو النجاح.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (٦)

٦- بالمقارنة مع المتقين هنالك المصمّمون على الكفر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الذين صمّموا على الكفر تصميماً لا رجوع عنه ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ يستوي إنذارهم وعدمه، والكافر في اللغة من يغطي الحقيقة و ينكرها، والكافر أيضاً الليل المظلم لأنه يستر ويغطي كل شيء، وهو أيضاً المزارع لأنه يغطي البذور بالتربة كما في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ [الحديد ٥٧/٢٠]، والكفر في الدين إنكار النعمة وجحودها، والآية التالية تبيّن أنّ الإصرار على إنكار الحقيقة يترتب عليه موت الملكات الروحية لدى الانسان فيمتنع عليه أي تأثير إيجابي خارجي.

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٧)

٧- ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ هذه سنّة من سننه تعالى في الخلق، فإذا تمكنت من المرء اعتقادات خاطئة وتمسّك بها تعصّباً وانحيازاً وتقليداً، انغلق ذهنه عن الحقيقة، كما لو أنه خُتم على ملكاته العقلية فعلاً، وبما أنه تعالى قد سنّ قوانين الطبيعة بأكملها فهو ينسب «الختم على القلوب» إلى ذاته العليّة، رغم أن ذلك نتيجة طبيعية لحرية خيار المرء وليس قسراً مفروضاً عليه ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ كنتيجة طبيعية لما كانوا عليه في دنياهم، وفي تنكير كلمة العذاب إشارة إلى أنه عذاب مبهم مجهول عند أهل الدنيا، والمعنى أنّ الإعراض عن هدي الإسلام جزاؤه الضنك والتعاسة في الدنيا، وعذاب عظيم في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه ٢٠/١٢٤].

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٨)

٨– ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ بعد أن ذكر تعالى في أول السورة فئة المؤمنين من الناس، ثم فئة الكفار منهم ، ينتقل الخطاب هنا إلى فئة المنافقين والماديين، الذين آمنوا بأفواههم و لم تؤمن قلوبهم، ويبطنون خلاف ما يظهرون، والإشارة المباشرة هي إلى المنافقين من أهل المدينة خلال السنوات الأولى بعد الهجرة النبوية، ولكن كما هي العادة في القرآن الكريم فإن مغزى الآيات لا يقتصر على الأحداث التي عاصرت نزول الوحي وإنما المغزى عام لكل العصور ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ لأن إيمانهم مقتصر على الادّعاء والكلام ولا ينعكس إيجاباً على سلوكهم، ونلاحظ أنه تعالى وصف الكفار في آيتين (٦–٧) في حين فصّل أحوال المنافقين في ثلاث عشرة آية (٨–٢٠) تنبيهاً على خطرهم، لأن المنافق ضمّ إلى سلوكه التلبيس والكذب المبطن، وهو بسبب تهالكه على الدنيا والسلطة والمادة بأي ثمن، في الوقت الذي يدّعي الإيمان والصلاح، يكوّن خطراً كبيراً على المجتمع.

﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٩)

٩– ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أصل الخداع الإخفاء، ولذا سميت الخزانة مخدع، والخداع الخلقي هو المحاتلة، ويخادعون الله مجازاً أي يظنون أن أمورهم تخفى على الله ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ﴾ عاقبة الخداع تعود عليهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بأنّ العاقبة تعود عليهم، إذ يحسبون أن نفاقهم يخفى على الناس، في حين أنّ أمرهم مكشوف؛ لما في شخصية المنافق من التناقض.

﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ (١٠)

١٠– ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ وهو مرض النفاق وحب الدنيا، وسمّي مرضاً لأنه يحجب الحقيقة عن صاحبه، وقد يكون المرض هو الغم الذي في قلوبهم الناتج عن حسدهم وحقدهم على المؤمنين ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ لأنّ الله تعالى

يمهلهم للتوبة ولا يبادرهم بالعقوبة، فتكون النتيجة أن ينتهجوا بالنجاح المؤقت لأحابيلهم ويزدادوا نفاقاً إذ يعتقدون أن بامكانهم التوفيق بين الخطأ والصواب، والحصول على المنافع من الجانبين ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ أي بسبب تكذيبهم الرسالة، فالعذاب نتيجة مترتبة على التكذيب، ولازمة له.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (١١)

١١- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾ أي لا تفسدوا في الأرض بإنكار الوحي ومعارضة الشريعة، لأن إنكار الوحي وعدم العمل به يؤدي إلى الفساد والإفساد ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ يتوهمون أنّ لديهم مهمة جديرة يؤدونها، أو يتوهمون أنهم يتوصلون إلى الحقيقة والسلوك الصحيح بمعزل عن تعاليم الرسالة الإسلامية، وأن عقولهم في غنى عنها مع أن مفهوم الحق والباطل ملتبس عليهم.

﴿ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ (١٢)

١٢- ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ لأنهم يرفضون تنظيم الحياة العملية على أسس الإسلام، بل يحاولون استنباط الأنظمة والأفكار الوضعية فيساهمون في التخبط الأخلاقي والاجتماعي في المجتمع ﴿وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ﴾ إذ يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (١٣)

١٣- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ أي كونوا مسلمين بصدق وإخلاص مثل الناس المخلصين في مجتمع المسلمين ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ لأنهم يعتقدون أنّ من يؤمن ويدخل الإسلام بصدق ويعيش حياة مستقيمة ويرجو الآخرة، يعتبر سفيهاً، أي ضعيف العقل، وهم ينظرون إلى ضعاف الناس الذين سبقوهم إلى الإيمان نظرة دونيّة، أما الوجهاء منهم فيعتبرون

أنفسهم معذورين في التولّي عن الرسول، لأنهم لا يريدون مساواة أنفسهم بالفقراء ظنّاً منهم أنهم أعلى قدراً وأسمى فكراً، كما يعتبرون استعداء الآخرين في سبيل الحق والإصلاح ضرباً من الحماقة، أما الحكمة والنجابة عندهم فتكمن في الاهتمام بالمصالح المادية والدنيوية والشخصية ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ لأنهم ضعاف العقول حقاً إذ جعلوا الدنيا منتهى أملهم وأهملوا الآخرة ﴿وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ﴾ اختلطت عليهم الأمور بسبب اتباع الهوى والحرص على الدنيا.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ (١٤)

١٤- ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ يدّعون الإيمان نفاقاً وهذا من جملة خداعهم ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ الشيطان في العربية بمعنى العنيد العاصي المتمرس في العناد، ويستعمل للانس والجنّ معاً، وهو أيضا مشتق من قولهم تشيطن وشطن اذا ابتعد من الصلاح والخير، وفي هذه الآية بالذات تنصرف كلمة شياطينهم الى شياطين الإنس من أكابرهم الذين ماثلوا الشياطين في تمردهم، وهم أكابر الكفار وأكابر المنافقين والماديين لأنهم هم الذين يقدرون على الإفساد في الأرض، وأما أصاغرهم فلا.

﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (١٥)

١٥- ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي يجازيهم على استهزائهم، وسمّي جزاء الاستهزاء باسمه كما سمّي جزاء السيئة سيئة ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ الله تعالى يمقيهم ويلطف بهم ويمهلهم لعلهم يتوبون، فيأبون إلاّ التخبّط في ظلامهم، وفي حين أن العمى قد يكون في البصر أو الرأي، فإنّ العمه يكون في الرأي وهو التخبط والتحيّر.

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (١٦)

١٦- ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى﴾ اختاروا الضلالة وتخلّوا عن الهدى ﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾ كأنّ رأس مالهم العقل الرشيد والفطرة السليمة فتخلّوا عنهما ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ لم يبق لديهم ما يوصلهم إلى إدراك الحق والاهتداء إلى العقائد الصحيحة.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ﴾ (١٧)

١٧- ﴿مَثَلُهُمْ﴾ مَثَل المنافقين ﴿كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ وهو الباحث عن بغيته يريد أن يستنير ويبحث عن الطريق الصحيح ولكنه يتخبط في بحثه ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ﴾ أنوار الرسالة الإسلامية ﴿مَا حَوْلَهُ﴾ وأصبح ممكناً تمييز الحق من الباطل، والصواب من الخطأ ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ لم يدرك المنافقون أهمية الهدي الإلهي، فلم يستفيدوا من نور الإسلام وهديه، واختاروا البقاء في ظلمة النفاق ظناً منهم أن يأمنوا على أنفسهم من المؤمنين،

وقد يكون المعنى أيضاً أن حبل النفاق قصير، لأن المنافق إذا نجح بنتيجة نفاقه يكون كمَن: ﴿اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ ثمّ سرعان ما ينكشف أمره بين الناس: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ فيتخبّط بلا جدوى.

والآية أيضاً مثل لمن يبحث عن مغزى الحياة ليصل إلى هدفه منها فلمّا تبين له طريق الهدى أعرض عنه، أما قوله تعالى ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ أي ذهب بنور بصيرتهم، وخسروا نور الإيمان، فليس المعنى أنهم لم يكونوا مسؤولين عن بقائهم في الظلام، فقد اختاروا اتباع الأهواء الدنيوية، وأنكروا الحق فعميت بصيرتهم، فالله تعالى يمكّن الناس من اختيار ما يشاؤون، والقسر ينافي التكليف ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ في ظلمات الجهل والهوى والشرك والضلال ﴿لا يُبْصِرُونَ﴾ الحقيقة، بمحض اختيارهم.

﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ ﴾ (١٨)

١٨- ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ صمّ عن سماع الحق، بكم عن التعبير به، وعمي عن الإدراك السليم، ولذا لا يرجعون إلى الهدى الذي باعوه ولا عن الضلالة التي اشتروها.

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ (١٩)

١٩- ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ أو أنّ مَثَل المنافقين والماديين، كمثل مَن أصابه صيّب من السماء، وهو المطر الشديد، فلم يستفيدوا منه، وإنّما كان همّهم محصوراً في تفادي الشدائد المرافقة له، والصيّب من السماء رمز إلى الإيمان والقرآن، وأمّا ظلمات الغيوم الداكنة والبرق والرعد فترمز إلى المحن والابتلاء والمشاقّ والتكليف، ووجوب التخلّي عن التقليد والأهواء، والانقياد للإسلام، كل ذلك ممّا هو شاق على المذبذبين ضعاف الإيمان، والآية تصوّر حالة القلق والفزع وعدم الاستقرار التي يعيشونها ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ يظنّون أن سلوكهم يجعلهم بمنجاة من سوء العاقبة، فكما أن صم الأذنين عن صوت الصواعق لا يفيد صاحبه فكذا النفاق والمسلك بالدنيا يوقع أصحابها في عواقب عملهم ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ لا نجاة لهم إلا بالإسلام والإخلاص.

﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢٠)

٢٠- ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ لانبهارهم بالحق، ومع ذلك فإنهم يتخبطون في سبيل مصالحهم الدنيوية ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾ يتقدمون قليلاً نحو الصواب عندما تبدو لهم الظروف ملائمة ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ عندما تظهر المشاقّ في الأفق، أو عندما يترتب عليهم عمل ما يخالف أهواءهم

فانهم يجمحون ويتوقفون، والآية تمثيل لشدة حيرتهم وفزعهم وترددهم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لو شاء الله لجعلهم في الحالة التي يجعلونها لأنفسهم، أي في الضلال، ولصاروا كالكفار المذكورين في الآية (٧) الذين على سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، ولكن الله تعالى يلطف بهم ويبقي سبيل الهداية والتوبة مفتوحاً لهم، والواضح أن السمع والبصر كناية عن مقدرة الانسان الفطرية على التفريق بين الحق والباطل.

﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٢١)

٢١– بعد أن شرحت الآيات السابقة حال المؤمنين، والكفار، والمنافقين، ينتقل الخطاب لبيان الأدلة على التوحيد والنبوة والبعث: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ رسالة القرآن موجهة للناس جميعاً، والآية تذكرهم بنعمته تعالى إذ خلقهم بعد أن لم يكونوا شيئاً، فهم مدينون له بوجودهم، فلا أقل من أن يلتزم الإنسان في حياته بطاعة خالقه وعبادته، ويدخل في العبادة: التوحيد بالقلب، والخضوع بالنفس، والاستسلام للحكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وهو معنى الخوف والرجاء من الله، فالإنسان يبذل جهده في الطاعات، والمعنى لعلكم تتقون السلوك المنحرف والعواقب الوخيمة الناجمة عن العقائد الزائفة.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٢)

٢٢– ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ وهذه أيضاً من موجبات عبادته تعالى أنه سخّر الأرض ورزق الناس بالمطر والثمار، وفي الآية حثّ على التفكّر في مخلوقات الله ومعجزات الكون للثبات على التوحيد ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ عاجزون أن يفعلوا شيئاً من ذلك، والآية دعوة لإبعاد الناس عن الشرك، فربّما

اتخذ بعضهم من المخلوقات أنداداً له، وقد يستعبدهم متسلط عليهم يتّبعونه كأنه خالقهم، وقد يستعبد المال بعض الناس فينسون خالقهم ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي وأنتم تعلمون بطلان ذلك، لأن الإنسان يستطيع بفطرته أن يدرك معنى التوحيد، فيكون شركه، مع مقدرته على إدراك التوحيد، أكبر جرماً وشناعةً.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٣)

٢٣- لما بيّنَ الخالق للكفار والمشركين ما يثبت الوحدانية ويبطل الشرك، وحثّ على التفكر في الدلائل، كخلق الناس من العدَم، وخلق الأرض مستقرّاً لهم، وخلق الكون بناءً عجيباً، وإنزال المطر وإنبات الثمار، وهي كلها دلائل موصلة إلى التوحيد ومبطلة للشرك، لأن أحداً من المخلوقات لا يقدر على شيء من ذلك، أعطى تعالى البرهان الحاسم على إثبات نبوّة محمد ﷺ، وإعجاز الوحي: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ فهذه طريقة لإزالة الريب من قلوبكم: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ وقبل ذلك تحدى القرآن المشركين في مكة أن يأتوا بأي شيء مماثل للقرآن في إعجازه إن كانوا يعتقدون أن القرآن من تأليف البشر، انظر آيات [يونس ٣٨/١٠] و [هود ١٣/١١] و [الإسراء ٨٨/١٧] و[الطور ٣٣/٥٢-٣٤]، ويلاحظ أن كلمة ﴿رَيْبٍ﴾ في الآية مرتبطة مع الآية (٢) من هذه السورة بأن الكتاب لا ريب فيه، ويحتمل عود الضمير في ﴿مثله﴾ للنبي ﷺ، كما يحتمل عوده للقرآن، ومن المهم ملاحظة عبارة ﴿نزّلنا﴾ بلفظ التنزيل دون الإنزال، وهو بمعنى النزول على مهل وتدرّج، لأنهم كانوا يقولون: لو كان هذا من عند الله لم ينزّل هكذا نجوماً، آية بعد آية وسورة بعد سورة ولنزل دفعة واحدة، غافلين عن تنزّله بما يناسب ظروف البعثة، فالجواب إن ارتبتم بهذا الذي نزّل على مهل فهاتوا أنتم سورة واحدة مثله ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ادعوا أكابركم وأعوانكم ومن ادّعيتم فيهم الألوهية ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

فيما زعمتم من قدرتكم على معارضة القرآن، لأنهم قالوا: ﴿قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ [الأنفال ٣١/٨]، والإعجاز في التنزيل نجوماً أوضح وأعظم على مر العصور، لأن النبي ﷺ كان أمّياً لا يقرأ ولا يكتب، والآيات كانت تنزل عليه متفرقة، وترتيب النزول الزمني غير ترتيب القرآن الذي نعرفه، فكان يأمر بوضع الآيات في مواضعها المحكمة دون أن يكون أمامه كامل النصوص، فلا مراجعة ولا تنقيح ولا تعديل، وإنما وحي وتوقيف إلهي على مدى ثلاثة وعشرين عاماً.

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (٢٤)

٢٤- ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ لأنّ ذلك ليس في طاقة المخلوقين، وهذا التحدّي من قبيل الإخبار بالغيب والجزم به سلفاً ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ الاشارة ضمنية أن النار في الآخرة لن تكون من نصيب الكافرين فقط وانما سيجدون معهم في النار أصنامهم الحجرية ومعبوديهم من كل الأنواع التي سوف تكون من العجز وقلة الحيلة بمثابة الحجارة، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء ٩٨/٢١].

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٥)

٢٥- ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ تأكيد على وجوب اقتران الإيمان بالعمل الصالح، انظر آية [الأنعام ١٥٨/٦]، والبشارة أن إيمانهم وعملهم الصالح سوف يثمرا في الآخرة: ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أي من تحت أشجارها الأنهار، بحذف المضاف إليه ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ

رِزْقًا﴾ أي من ثمرة أعمالهم، بحذف المضاف إليه وهو كثير في التنزيل، انظر إعراب القرآن للزجاج (الباب ٣٣) ﴿قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي هذا الذي كُتب لنا رزقه منذ قمنا بعملنا الصالح في الحياة الدنيا، فهم يرون في الآخرة ثمار أعمالهم الدنيوية أي ثوابها ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ يكون الثواب مشابهاً لما قدّموا من عمل صالح ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ كلمة أزواج في اللغة تنطبق على الزوجين الذكر والأنثى، فهي تعني الزوج أو الزوجة، فالرجل زوج المرأة كما المرأة زوج الرجل، كقوله تعالى مخاطباً آدم ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة ٢/٣٥]، وقوله تعالى ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾ [النجم ٥٣/٤٥]، والأزواج مطهّرة أي طاهرة النفس والسريرة.

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٢٦).

٢٦- ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا﴾ أي لا يستبقي أن يضرب مثلاً، كما هي الأمثال السابقة: مثل الذي استوقد ناراً، ومثل الذي أصابه المطر، ومثل النار التي وقودها الناس والحجارة، ومثل الجنة التي وُعد المتّقون، ومعنى يستحيي يستبقي، كقوله تعالى على لسان فرعون: ﴿وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ [الأعراف ٧/١٢٧] أي نستبقي نساءهم، فالقرآن الكريم يضرب الأمثال بالعنكبوت والذبابة والبعوضة ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ أي بالشيء الأصغر والأكبر،

ويُعتبر ورود هذا المثل بعد آيات الجنة والنار لإبراز الطبيعة الرمزية لهذا التصوير ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ ويفهمون المغزى منها ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً﴾ يتعامون عن الحقيقة ولا

يهدفون للوصول اليها فيكون تعلقهم بتساؤلات واهية ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾ الإضلال من الله تعالى بالتخلية وترك المنع بالقهر والجبر ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ مَن ينشد الحقيقة ويتّبع الإدراك الصحيح يتعمّق في هذه الأمثال ويستوعب جوهر الحكمة التي تجسّدها ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ الذين اختاروا الفسوق، وهو الخروج عن الطاعة والإصرار عليه، والآية التالية تعرّف الفاسقين، وهم عكس المتقين المشار إليهم بالآيات (٢-٥)،

﴿ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (٢٧)

٢٧- ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ قالوا: إنّ عهود الله تعالى ثلاثة : عهد أخذه على ذرية بني آدم في الأصلاب أن يقروا بربوبيته، آية [الأعراف ٧/ ١٧٢]، وعهد مأخوذ بالرسل على الأمم، آية [الأحزاب ٧/٣٣]، وعهد خصّ به الذين أوتوا علم الكتاب أن يبينوا الحق ولا يكتموه، آية [آل عمران ٣/ ١٨٧]، ويبدو أن عدم ذكر أي شيء محدد قبل هذه الآية أو بعدها فيما يتعلق بالعهد مغزاه أنه متأصل في الانسان بالفطرة، ولذا فالحجّة قائمة على كل من وُهب نعمة العقل أن يَفهم السنن الكونية ويتفكّر في هدي الرسل، أما نقض العهد فعبارة عن عدم استخدام تلك المواهب استعمالاً صحيحاً، وهو أيضاً إنكار لبعث الرسل وعدم الاهتداء بهديهم ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ يقطعون الأرحام ويعادون المؤمنين ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾ بتخريب العلاقات الاجتماعية التي أمر الله بإرسائها على أسس سليمة، والتي يتوقف عليها الصلاح الفردي والاجتماعي للبشر، وهذه الآية عامة تشمل أخلاقيات البشر وحياتهم الاجتماعية بكاملها أفراداً وجماعات ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ خسروا أنفسهم بعدم الاستفادة من هداية العقل وهداية الدين.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢٨).

٢٨- ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ الخطاب متصل بما قبله لجهة بيان البرهان الحاسم للفاسقين، والمعنى: بأي دلالة تكفرون؟ وعلى أي شبهة تعتمدون؟ وحالكم في الموت والحياة تأبى ذلك! قارنوا إحياءكم من العدم الذي حصل، مع بعثكم بعد الموت الذي سيحصل، فإذا كان الإحياء الأول ممكناً فهو الدليل العقلي على الإحياء الثاني ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فتحاسَبون على عملكم.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢٩).

٢٩- بعد أن بيّن تعالى بعض آياته في أنفسهم، ذكّرهم بآياته في الآفاق: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ فلا يجوز أن يُستعبد الإنسان في سبيل المادة، ولا يجوز أن يُعتبر أي شيء من الموجودات أهم من الإنسان، فهذا هو التصور المثالي لمنزلة الإنسان وقيمته ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ في اللغة العربية يُستخدم العدد سبع لتكثير الآحاد بمعنى بضع، وفي العربية أيضاً كل سماء هي سماء بالنسبة لما تحتها، وهكذا فإنّ سبع سماوات قد تفيد أنظمة كونية متعدّدة شاملة ملايين المجرّات والنجوم والكواكب ممّا لا حصر له ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ في إحكام خلقه.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣٠).

٣٠- قصة الخليقة والمغزى منها: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ قصة الخلق تتصل بصورة منطقية مع الآيات التي سبقتها، ويرى البعض فيها رمزاً لإظهار الإنسان في أكمل صوره وبيان مقدرته على التفكير المجرّد، وقد ذكر الشيخ محمد رشيد رضا في المنار أن هذه الآيات من المتشابهات [آل عمران ٧/٣] التي لا

يمكن حملها على ظاهرها، لأنّ الله تعالى مُنَزّه عن مشابهة المخلوقات فلا يليق به الحوار مع الملائكة كما نعرفه نحن فذلك محال عليه تعالى، ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أي المقدّر المكتوب منذ الأزل، والخليفة من يخلف غيره ويقوم مقامه، وهو هنا من قبيل الاستعارة، فالله موجود في كل مكان، ولا حاجة لمن يخلفه، لكن المعنى أنه تعالى وكّل الأرض للإنسان يعمل فيها بأمر ربه، فكأنه استخلفه عليها وعلى غيره من المخلوقات فيها، وقيل: إن الإنسان خليفة لمن سكن الأرض قبله،

روى ابن بابويه في كتاب التوحيد عن النبي ﷺ أنه قال: «لعلّك ترى أن الله لم يخلق بشراً غيركم، بلى والله لقد خلق ألف ألف آدم أو أكثر أنتم في آخر أولئك الآدميين»، وفي كتب الشيعة عن محمد بن علي الباقر عليه السلام أنه قال: قد انقضى قبل آدم الذي هو أبونا ألف ألف آدم أو أكثر، نقله الرازي في تفسير آية [الحجر ١٥/٢٦].

﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ فهمت الملائكة من كلمة ﴿خليفة﴾ أن سوف تكون على الأرض سلالة تتمتع ببعض السلطة والحرية، فلم تستوعب كيف يمكن لسلالة الخلق التي تتمتع بالسلطة مع حرية التصرف والاختيار، بالإضافة لتمتعها بالعاطفة التي يمكن أن تسمو بها، أو أن تهبط بها إلى الحضيض، كيف يمكن لهذه السلالة أن تنضبط وفق النظام الكوني العام المبني على الكمال وعلى الطاعة المطلقة لإرادة الخالق، وكيف يمكن أن تنضبط دون إفساد وسفك للدماء، وإن كان المفهوم من الخليفة أنه يخلف صنفاً بائداً من الخلق سبق أن أفسد في الأرض وسفك الدماء، فتكون الملائكة قد استنبطت سؤالها بالمقارنة ما سبق، والنتيجة أن حكمته تعالى في خلقه تخفى أسرارُها على كافة مخلوقاته، لا يستثنى منهم الملائكة، وقد يكون أن الملائكة أرادت أن تعلم ما أعدّه تعالى لصون الإنسان عن الفساد وسفك الدماء.

﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ بلا غفلة ولا فتور ممّا قد لا يكون شأن الإنسان، والتسبيح له معنيان: المعنى الأول هو التنزيه، وسُبّوح من أسماء الله تعالى، والمعنى الثاني هو تكريس النفس بحماس وهمّة، وأما التقديس فله معنيان أيضاً: الأول هو التطهير، والقدس هو الطهر، وتقدّس معناها تطهّر، وقُدّوس من أسماء الله تعالى، والمعنى الثاني هو إعلان القداسة وتمجيدها ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ أعلم ما لا تعلمون من الحكمة في خلق الإنسان، فالحكمة الالهية اقتضت خلق سلالة على الأرض تُخوّل بعض السلطة، وذات عاطفة، وتكون لها حرية الخيار، وأنّ الانسان يكون خليفة بالعلم، لأنّه يستطيع بالعلم أن ينتهي عن الإفساد وسفك الدماء.

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣١)

٣١- ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ قد يكون المراد من الأسماء المسمَّيات، لأنّ الاسم هو صورة المعلوم في الذهن، وأنّ تعليم آدم الأسماء كلّها يعني تزويده بالمفاهيم والمُدركات، والمقدرة على المحاكمة والتفكير المجرّد واستنباط العلوم، أو الاستعداد لتحصيل علوم ومعارف لا حد لها كما نرى في عصرنا الحاضر، ومنها علوم الإنسان الروحية وإيمانه الفطري والفكري بعالم الغيب، وقد يكون المراد العلم الذي بواسطته ينتهي الإنسان عن الإفساد وسفك الدماء، جواباً على استفهام الملائكة عن الحكمة من خلق الإنسان، والواضح أنّ المقصود من آدم الجنس البشري بكامله لقول الملائكة: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، وهذه الآية دالة على فضل العلم، وتفضيل بني آدم بالعلم على غيرهم من المخلوقات، وأنّ الإنسان يستطيع بالعلم أن يصون نفسه عن الإفساد وسفك الدماء.

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ إن كنتم صادقين في أنّ دور الإنسان سيكون مقتصراً على الإفساد وسفك الدماء، في حين أنه بالعلم يستطيع أن يصون نفسه عن ذلك.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٣٢)

٣٢- ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا﴾ أي تنزيهاً لك وتعظيماً أن يعلم الغيب أحدٌ سواك، أو تنزيهاً لك وتعظيماً أن يُعترض على إرادتك، فلا علم لأحد بالأسرار المتعلقة بحكمة الله تعالى وخطّته في خلقه ﴿إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾ لأن الله تعالى منبع العلم، وقد جعل في عبادِه القدرة على التعلم وعلى التفكير المجرد والمحاكمة، والفطرة السليمة والعقل، قال تعالى: ﴿الرَّحْمَانُ ۞ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۞ خَلَقَ الإِنسَانَ ۞ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن ٥٥/١-٤].

﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ العليم بشكل مطلق، الحكيم في خلقه وأفعاله.

﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (٣٣)

٣٣- ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ هذا البرهان على مقدرة آدم المعرفية، ومقدرته على الخيار بين الخطأ والصواب، كان جواباً على الشكوك التي أبدتها الملائكة في البداية، مما جعلها تدرك أنّ الله تعالى قد خوّل الإنسان بعض السلطة والحرية كما وهبه المعرفة والعلوم أيضاً، وأنّ احتمال الإفساد وسفك الدماء بنتيجة جعل الإنسان خليفة في الأرض ما هو الاّ جانب واحد من الموضوع، أمّا الجانب الآخر فهو إيجابي ويوازن احتمال الإفساد وسفك الدماء، إذا استفاد الإنسان من العلم، قال البيضاوي: هذه الآيات تدل على شرف الإنسان وفضل العلم على العبادة ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ ما كنتم تكتمون من تعجبكم لجعل خليفة في الأرض.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٣٤).

٣٤- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ كناية عن تكريم الإنسان وتفضيله على الملائكة بالعلم، لمعرفته الأسماء كلها، انظر آية [الأعراف

٢١١/٧)، ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾ كلمة إبليس في اللغة تعني المقهور أو المسحوق أو المخذول، وفي المصطلح الإسلامي تعني الجن الذي أعلن العصيان، وهو أيضا الشيطان الذي طلب من الله تعالى إمهاله فترة يحاول خلالها إغواء الإنسان نحو الشر والخطأ ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ كان في علم الله تعالى منذ الأزل أنه سيكفر ويكون من المصرّين على الكفر، إن قصة تمرد إبليس دعت بعض المفسرين للقول بأنه لم يكن من الملائكة، لأن الملائكة يفعلون ما يؤمرون، في حين قال آخرون أن الآية توضح أنه كان منهم، والنتيجة أن هذا التمرد ذو طابع رمزي، وكناية عن تعرض الإنسان للإغواء وعوامل الشر، كما أنّ إباء إبليس، واستكباره عن السجود لآدم، كناية أيضاً عن عجز الانسان عن إخضاع روح الشر تماماً، وعجزه عن إبطال خواطر السوء (المنار).

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣٥).

٣٥- ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ وهي جنة السموّ الروحي والتعالي عن المادة، والمغزى أنه تمّ إسكان آدم وحواء في الجنة أوّلاً لاختبارهما قبل هبوط الإنسان إلى الأرض بحال خلافته، واختلفوا في المقصود بالجنة: هل هي الجنة الموعودة في الآخرة؟ أم هي جنة بالمعنى الأرضي؟ إذ قال بعضهم: إنها بستان أو غيضة من الغياض، وهو قول أبي مسلم الأصفهاني، وليس في قصة آدم التي تكررت في القرآن سبع مرات ما يؤكد أنها الجنة التي هي دار الجزاء على الأعمال، انظر شرح آية [الأعراف ٢١١/٧]، وحاصل القصة الرمزية أن الإنسان بجهله وتهالكه على المادة يهبط من المنزلة التي كرّمه تعالى بها، إلى منزلة الشقاء والسعي والكدّ وراء الدنيا الزائلة ﴿وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ تعبيراً عن إباحة الطيبات للإنسان، فالأصل في الأشياء الإباحة ﴿وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ لا تبالغا في التهالك على المادة، وقد تمت الإشارة إلى هذه الشجرة في سورة طه بقوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَاآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ

وَمُلْكٍ لا يَبْلَى﴾ [طه ٢٠/١٢٠]، زعم إبليس أنها شجرة الخلد وبما أن آدم وحواء لم يتوصّلا إلى الخلود رغم تذوقهما تلك الشجرة تبيّنَ أن وساوس إبليس كانت، ولا تزال، مجرد خداع، ومن جهة ثانية فالقرآن لا يخبرنا عن طبيعة تلك الشجرة سوى إدّعاء إبليس الكاذب بأنها شجرة الخلد، ويرى البعض أنها رمز للحدود التي وضعها الخالق عزّ وجلّ لشهوات ورغبات الانسان الجامحة والتي في حال تجاوزها يسيء المرء الى فطرته التي خلق عليها، وأن رغبة الانسان بالخلود على هذه الأرض تنطوي على رهبته من الموت وإنكاره للبعث والحياة الآخرة، وهذه الرغبة مرتبطة بوساوس الشيطان للإنسان بالحصول على ﴿مُلْكٍ لا يَبْلَى﴾ وبعبارة أخرى أن يكون حرّاً من كلّ الحدود لدرجة إنكار الإيمان بالله، وعندئذ لا يبقى للحياة معنى ولا هدف حقيقي ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالمعصية.

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ (٣٦).

٣٦- ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ وسواس ﴿الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ بإغرائهما أن يذوقا من الشجرة المحرمة ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا﴾ اهبطوا من نعيم الجنة والخلد إلى عناء الدنيا وكدّها، ويلاحظ انتقال الخطاب من المثنى إلى الجمع، لأنّ الخطاب وإن كان لآدم وزوجه فهما يرمزان لجنس البشر عامة ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ وهو ما عليه الناس من العداوة والبغي والحسد والحقد بعضهم لبعض بسبب تنافسهم على الدنيا ﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ أخرجهم الله تعالى من جنّة الراحة إلى أرض العمل كي يستقرّوا ويعملوا فيها ويتمتّعوا بخيراتها، دون الخلود فيها، فعبّر عن ذلك بالمتاع إلى حين.

﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٣٧).

٣٧- ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ﴾ وبالتالي البشر قاطبة ﴿مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ أي ألهمه تعالى إيّاها فتاب إليه بها، وهي كما في سورة الأعراف: ﴿قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا

أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف ٧/٢٣]، ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ أي قَبِل توبته، لأنّ التوبة في اللغة تعني العودة والرجوع، وتوبة الإنسان معناها تخلّيه عن العصيان وعودته إلى طاعة الله، وعندما تنسب هذه الكلمة إلى الله تعالى فمعناها قبول توبة عبده التائب ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ المراد من وصفه تعالى بالتوّاب المبالغة في قبول التوبة، وفي ذلك نقض لاعتقاد المسيحية من أتباع بولس بما يسمونه «الخطيئة الأصلية» ومؤدّاها عندهم أنّ معصية آدم تلحق به وبذريته، ولذا فإنّ الإنسان بحاجة إلى مخلّص أسندوه إلى المسيح، وهو اعتقاد سطحي ينبذه العقل والفطرة السليمة.

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣٨).

٣٨- ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ بصيغة الجمع كناية عن جنس البشر بكامله، انظر آية [الأعراف ٧/١١]، ومغزى التأكيد على هذه العبارة أنها جاءت بعد توبة آدم وقبولها، أي بعد زوال ما زعموه ربقة الخطيئة الأولى مما لا يبرر أن يكون هنالك فادي من الخطيئة كما تظن المسيحية، لكي يُصلب كما اعتقدوا ويفدي البشرية منها، بل على النقيض من ذلك فإنه تعالى لم يكتف بقبول توبة عبده آدم، بل تجاوز خطيئته ومنحه الخلافة على الأرض، وإنّ تكرار الأمر الإلهي بمغادرة الجنة والهبوط في الأرض يهدف إلى توضيح نقطة هامّة، وهي أن الأرض ليست مكاناً لعقاب البشر، فالعكس هو الصحيح، لأن الهبوط إلى الأرض كان تحقيقاً للوعد الإلهي أصلاً لقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة ٢/٣٠]، ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ عن طريق الوحي والرسل ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من وساوس الشيطان والعقائد الفاسدة وما يعقبها من الشقاء والخسران ﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على فوات مطلوب أو فقد محبوب.

والآيات الدالّة على أن سعادة الدنيا مرتبطة بالاهتداء بالدين والعمل به كثيرة، وقد حجبها عن كثير من المسلمين قول بعضهم في الكفار: لهم الدنيا ولنا الآخرة وهي مغالطة رغم حجة القرآن عليهم، قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى ۞ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه ٢٠/١٢٣-١٢٤]، وأما كون الدنيا لهم فقد جعل تعالى في الدنيا سنناً وأسباباً ومسببات من أخذ بها وصل إليها، كافراً كان أو مؤمناً، ولو جعلها للمؤمنين خالصة دون غيرهم لبطل التكليف والإختيار والإختبار ولصار الإيمان قسراً.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٣٩).

٣٩- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ آيات جمع آية وهي الإشارة أو العلامة أو الرمز، وفي القرآن الكريم لها عدة معان مختلفة بحسب سياق الكلام: فهي أحياناً تعني الرسالة السماوية، كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الأنعام ٦/٤]، أو الإشارة أو العلامة كقوله تعالى على لسان فرعون مخاطباً موسى: ﴿قَالَ إِنْ كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف ٦/١٠٦]، وأحياناً أخرى تعني ظواهر الطبيعة وعجائب الخلق، لأنها تشير إلى الحقيقة الغيبية المحجوبة بالظاهر، كقوله تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات ٥١/٢٠]، وهي أيضاً معجزات الأنبياء، أي الإشارات الإلهية التي تؤيدهم، كقوله تعالى على لسان نبيّه صالح: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ [الأعراف ٧/٧٣]، كما أنّ عبارات القرآن الكريم تسمى أيضا آيات، كقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الحج ٢٢/١٦]، لأنّها تشير إلى الحقيقة المطلقة ولأن أسلوبها وصياغتها ومضمونها وإعجازها كلّ ذلك يعتبر إشارات واضحة لمصدرها ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لأنّ بصيرتهم عميت عن الحقيقة رغم كلّ الآيات الدالّة عليها.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ (٤٠).

٤٠- يلاحظ ارتباط هذه الآية مع ما سبقها لجهة استمرارية الوحي الإلهي منذ بدء الخليقة، وخصّ بني إسرائيل بالذكر، لأنهم أوّل من نزل عليه الوحي من الأمم الباقية إلى اليوم، وتركيز القرآن الكريم على قصص بني إسرائيل يعتبر من قبيل الإخبار بالغيب، وذلك لأهمية الدور الكبير، وهو دور الكفر والفساد والإفساد، الذي لا يزالون يلعبونه في تاريخ البشرية حتى يومنا هذا.

وهذه الآية والتي تليها تذكّر بني إسرائيل أنّ ما جاء به النبي ﷺ ليس جديداً أو غريباً، لكونه استمرار الوحي الذي نزل على أنبيائهم، وناسخاً له، انظر آية [البقرة ١٠٦/٢]، وأنه قد عُهد الآن إلى قوم غير اليهود وهم العرب بحمل ونشر الرسالة التي فشل اليهود بحملها ونشرها، بل شوهوها وحوّلوها إلى مجرّد طقوس وعصبية وجنسية، والآيات التالية تكشف حقيقة التدهور في الحياة الدينية والأخلاقية لليهود، وتبيّن أن تقواهم التي زعموها ليست في حقيقتها سوى زيفاً وتعصباً أعمى وغلوّاً، كما ألغت هذه الآيات المكانة الدينية والأخلاقية لليهود أمام سكان المدينة ومشركي الجزيرة العربية وقوّضت معنويات اليهود إلى درجة لم يتمكنوا بعدها من معارضة الإسلام بعد أن انكشف زيفهم:

﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ بيعث الأنبياء منكم، وإنزال الهداية عليكم، واختياركم بين كل الأمم لحمل الرسالة الإلهية، واسرائيل لقب يعقوب ابن اسحق ابن ابراهيم عليهم السلام وأُطلق على ذريته لقب بنو اسرائيل،

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ عهده تعالى لهم أن يبعث نبياً من وسط إخوتهم أي من بني اسماعيل وأن يؤمنوا به، وهو مذكور في كتبهم (سفر التثنية ١٨/١٨)، وهذه دلالة أنّ النبي ﷺ كما كان مبعوثاً إلى العرب إبتداء فقد كان

مبعوثاً إليهم أيضاً، هذا هو العهد الخاص لهم، وذلك عدا العهد الإلهي العام الذي أخذه تعالى على جميع البشر بمقتضى الفطرة [الأعراف ١٧٢/٧] بالتدبّر والتفكّر والنظر في الرسالات السماوية بميزان العقل والموضوعية لا بميزان الهوى والغرور [البقرة ٢٧/٢]، والنتيجة أن عليهم قبول الإسلام، وأما عهدهم فهو سعادة الدنيا والآخرة،

﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ دون غيري، أي إن كنتم تخشون فوات المنافع الدنيوية وزوال الرئاسة عنكم إذا اتبعتم الحق ودخلتم الإسلام، فالأحرى أن تخافوا وترهبوا من بيده الخير كله.

يلاحظ التركيز في القرآن الكريم على عقائد اليهود والنصارى، أكثر بكثير من التركيز على عقائد الوثنية التي لم ترد الإشارة إليها سوى مرات قلائل، ولم تُذكر آلهة الوثنيين سوى مرة واحدة في سورة النجم [النجم٥٣/١٩-٢٧]، رغم أن الهدف المباشر للنبي ﷺ كان إنقاذ الجزيرة العربية من الوثنية التي كانت العدو الأول للدعوة الإسلامية في ذلك الوقت، وقد يتوقع المرء أن يكون تركيز الوحي على دحض عقائد الوثنية بالدرجة الأولى، ولكن الأمر كان على العكس من ذلك إذ ركّز الوحي على عقائد أهل الكتاب منذ أوائل سني الدعوة في مكة، وقبل حدوث المواجهة بين المسلمين وبين يهود المدينة بوقت طويل، وحتى بعد إنهاء الخطر اليهودي في المدينة فقد استمر الوحي القرآني بالتركيز على انحرافات عقائد أهل الكتاب من يهود ونصارى وانتقادها، مع العلم أن عقائد أخرى في المنطقة كالزرادشتية والهندوسية والبوذية كانت شائعة حينئذ في فارس والهند اللتين كانتا على علاقات مباشرة مع العرب سياسياً وتجارياً، وقد يتوقع المرء أن يوجه القرآن في حينه بعض انتقاداته لهذه الديانات، ولكن تطور الأحداث بعد البعثة قد فسّر تماماً توجهات القرآن الكريم، فمن وجهة نظر سياسية محضة مَن كان يتوقع أن تكون روما، وليس فارس، الجهة النهائية والأكبر التي قدر لها أن

تواجه الدعوة الإسلامية وأن يواجه العالم الإسلامي تحدياتها؟ أضف إلى ذلك إلى التحدي اليهودي المُعاصر! لقد كان ممكناً أن تضمحل أهمية الكثير من آيات القرآن الكريم المتعلقة بأهل الكتاب لو صادف أن الفرس أو الهند بقيا العدو الأكبر للإسلام، ولكن التاريخ أظهر أن الأمر لم يكن كذلك، لقد استطاع المسلمون بعد وفاة النبي ﷺ أن ينشروا الدعوة في فارس والهند والشام وشمال إفريقية والأندلس خلال قرن من الزمن، وبعد ذلك في آسية الصغرى وشرق أوروبة، في حين بقي الغرب المسيحي وحده عائقاً مستمرا أمام انتشار الدعوة الإسلامية، ثم أصبح التحالف البروتستانتي/ اليهودي في القرن السادس عشر القوة الأكبر التي تهدد العالم الإسلامي، ولا يزال اليوم محور المواجهة اليوم بين الثقافة الغربية والإسلامية، وهكذا نرى أن الأهمية الكبرى التي خصصها الوحي القرآني لعقائد اليهود والنصارى كانت مطابقة تماماً للتطورات التاريخية التي تبعت نزوله.

﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ (٤١).

٤١- ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ ادخلوا الإسلام وآمنوا بالقرآن، لأنه يصدّق ما تبقّى معكم من الوحي الصحيح، انظر شرح آية [آل عمران ٣/٣]، وبواسطته تستطيعون التمييز بين الصحيح والزيف في كتبكم المحرفة ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ لاتبادروا إلى الكفر بالقرآن وأنتم تعرفون صدقه قبل غيركم، فالأجدر بكم السبق إلى الإسلام، والمعنى أنهم كانوا أول المصرين على الكفر وقت البعثة النبوية، والكلام موجّه إلى اليهود في كل زمان ومكان ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ الثمن القليل هو الرئاسة والمصالح الدنيوية خافوا عليها الفوات لو دخلوا الإسلام، واعتقادهم الباطل أن فضل الله تعالى محصور بهم وأنّه لا يُبعث نبي إلاّ منهم.

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٤٢).

٤٢- ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ الإشارة إلى تلاعب أحبارهم بكتبهم المقدسة ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ بإغفالهم المتعمّد لنصوص كتبهم مما لا يوافق هواهم ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الحقّ، أو أنتم تعلمون أنكم على الباطل، فهم يتعمّدون تفسير كتبهم على نحو باطل، ومن ذلك النص الذي ورد في سفر (التثنية ١٨/١٨) مخاطبا موسى عليه السلام: « أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه»، والواضح أن العرب هم المقصودين بكلمة «إخوتهم» وخاصة العرب المستعربة من ذرية إسماعيل، ومنهم قريش قبيلة النبي ﷺ، والنص يشير بوضوح إلى بعث النبي الموعود من سلالة إسماعيل، وقد كان العرب الأمّيون يطلبون المشورة من اليهود بشأن بعثة الرسول ﷺ لما توهّموه عن اليهود من إيمانهم بالأنبياء وخبرتهم بالكتب المقدسة، فكان اليهود يستغلّون هذه الأسئلة لإدخال الشكوك والهواجس والريبة في أذهان الناس، والافتراء على النبي ﷺ، واتّباع أسلوب المناقشات الجدلية حول مسائل فرعية افتراضية، كما هي عادتهم في التضليل والمراوغة حتى الآن.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (٤٣).

٤٣- ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ بعد دعوة اليهود إلى الإسلام، دعاهم الى إقامة الصلاة على تمامها وإيتاء الزكاة، ولكن اليهود اعتادوا على صلاة بالشكل وليس بالروح، وأكلوا الربا بدلاً من إيتاء الزكاة، والزكاة هي الصدقة المفروضة لتزكية المال وتزكية النفس من الأنانية ومنها اشتق الاسم، والصدقة تطلق على الفرض وعلى النفل ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أي اركعوا مع المسلمين في الصلاة، بمعنى صيروا مسلمين مثلهم.

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٤٤)

٤٤- ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ فتتبعون معايير مزدوجة؟ لأن من الوصايا الموجودة في كتب اليهود النهي عن القتل وعن السرقة وعن الزنى وعن أكل الربا، ولكنهم كانوا يفهمون منها النهي عن قتل اليهودي أو سرقته أو الزنى والنهي عن أكل الربى فيما بينهم، في حين أنهم يُحلّون، بل يحضّون، على تقتيل غير اليهود وإبادتهم وطردهم وسرقتهم والاحتيال عليهم وأكل الربا منهم، وينشرون الزنا بين الآخرين، الأغيار حسب تعبيرهم، بل يعتبرون كل امرأة من الأغيار مومساً، كل ذلك أدخله الأحبار في كتبهم التي يسمّونها مقدسة ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ يتلون الكتاب ويفسرونه على هواهم، بل يتلاعبون بمحتواه ويضيفون من عندهم الكثير، وقد فعل أحبارهم ذلك على مر العصور ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن الناس كلهم عباد الله ، وأنه لا يصح تقسيمهم إلى يهود وغير يهود، أغيار كما يسمّونهم، كما لا يصح أن يكون هناك ازدواجية في التعامل مع الناس، وأنه لا يوجد في دين الله عنصرية ولا تفرقة، والنتيجة: ألا تعقلون أنّ ممارساتكم ليست ديناً وإنّما تقليداً أعمى لمنكرات مناقضة للمعقول.

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (٤٥).

٤٥- ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ استعينوا على شرور نفوسكم وما تحبون من الدنيا بالصبر والصلاة الصحيحة لِمن يوقنون بالآخرة ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ الصلاة ثقيلة وشاقة على من يتهالك على الدنيا ﴿إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ فهي قرة عين لهم، وراحة وطمأنينة.

﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (٤٦).

٤٦- ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ يظنون بمعنى يوقنون، فالظنّ هنا بمعنى اليقين، كما أنهم يظنّون الموت والرجوع إلى ربّهم في كلّ لحظة، فلا يفارق الخشوع قلوبهم.

﴿ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٤٧).

٤٧- ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ ببعث الأنبياء منكم ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ببعث الأنبياء منكم في وقت من الأوقات، إذ كان المطلوب منهم تقبّل الهدي الإلهي لصالحهم وصالح باقي الأمم، مما فشلوا فيه أشدّ الفشل، والمراد من الخطاب تنبيه العرب أيضاً، لأنّ التفضيل لحقهم ببعث النبيّ ﷺ منهم بعد أن اقتضت الحكمة الإلهية انتقال النبوة من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل.

وقصة بني إسرائيل وارتكاسهم المتكرر إلى الوثنية مثال عن انحراف بني آدم عن هداية الوحي ومعاناتهم المريرة في التوصل إلى الهداية ومحاولة تجنب الضلال والشقاء.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٤٨).

٤٨- ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ يوم الحساب ﴿لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ هذه إشارة إلى العقيدة المسيحية التي ابتدعها بولس، عن افتداء الخطيئة بالنيابة، وإلى اعتقاد اليهود أنهم الشعب المختار، وظنهم أنهم لا يحاسبون يوم القيامة، بل يغفر لهم بشفاعة أنبيائهم، والقرآن الكريم يدحض مثل هذه العقائد قطعياً.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ (٤٩).

٤٩- ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ واذكروا إذ نجّيناكم من عذاب آل فرعون، لأنه عندما خاف الفراعنة مغبة النمو السكاني عند اليهود في مصر عملوا على انقراضهم بقتل المواليد الذكور منهم ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ ويستبقون نساءكم ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ

عَظِيمٌ﴾ البلاء هو المحنة إن كانت الإشارة إلى صنيع آل فرعون، ونعمة إن أشير به إلى نجاة اليهود، وأصل البلاء: الاختبار، ولّما كان اختبار الله تعالى لعباده تارة بالمحنة وتارة بالمنحة أطلق عليهما معاً.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ﴾ (٥٠).

٥٠- ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ واذكروا إذ فرقنا بكم البحر، وهي قصة نجاتهم من فرعون وغرق فرعون وجنوده في البحر، وهذه الآية وسابقتها تذكّرهم بعض نعمه تعالى عليهم، ورغم هذه المعجزة الباهرة وغيرها من المعجزات التي وقعت لبني إسرائيل كانوا يعودون إلى العصيان في كل مرة، فكان الجحود والعصيان سمة في أوائلهم، استمرت فيهم، ولا تزال في أواخرهم ﴿وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ﴾ فشاهدتم ذلك عياناً.

وفلق البحر كان معجزة وقعت على يد موسى وقت كان الإنسان في مرحلة الطفولة الفكرية تجذبه دهشة الخوارق إلى الإيمان، ولا يمنع هذا الاعتقاد من الاهتداء بسنن الله تعالى في خلقه، والاعتقاد أنها لا تتحول ولا تتبدّل، وقد دخل الإنسان مرحلة الرشد الفكرية بنزول الرسالة الإسلامية حيث أرشده القرآن إلى استعمال العقل وتتبّع الدلائل في التوصّل إلى الإيمان وتصديق الوحي الذي نزل على الأنبياء.

﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (٥١).

٥١- ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ بعد خروج بني إسرائيل من مصر إلى سيناء نزل الوحي على موسى بالحضور إلى الجبل لمدة أربعين يوماً وليلة كي يتعلم ثم يعلّم أمّته الشريعة والأخلاق [الأعراف ١٤٢/٧]، ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ اتخذتم العجل معبوداً بغياب موسى، لأنهم تشرّبوا في قلوبهم عبادة العجل التي كانت منتشرة في مصر، وقد حاولوا تقليد عجل معبد عُزيريس Osiris في العاصمة المصرية ممفيس، لشدة تأثرهم بالوثنية المصرية، وكان التفسّخ

والانحطاط الفكري لدى اليهود قد تغلغل فيهم بعد زمن يوسف عليه السلام لدرجة أنهم اعتادوا على الممارسات الفاسدة التي كانت منتشرة بين حكامهم، بما فيها عبادة العجل ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ ظالمون أنفسكم بهذه الوثنية التي ارتكستم إليها بعد أن عرفتم طريق الهداية الصحيح.

وبعد حوالي قرنين من الزمن ارتكس اليهود مرة أخرى إلى عبادة العجول الذهبية، بعد وفاة سليمان وانقسام مملكته إلى جزئين، إذ قرر الملك يربعام، ملك الجزء الشمالي المسمّى إسرائيل، تكريس العبادة للعجل الذهبي في كل من المعبدين الملكيين دان و بيت إل، وأنشأ عجلاً ذهبياً في كل منهما يفترض أنه كان يرمز إلى إله اليهود يهوه، ولكنه في نفس الوقت كان يرمز إلى بعل إله الكنعانيين، انظر سورة [الصافات ١٢٥/٣٧]، كل ذلك رغم ما خصّ الله به اليهود من الرسالة والمعجزات، وهو دليل على تشرّبهم الوثنية وعبادة المادة، ومنه قوله تعالى عنهم: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة ٩٣/٧].

﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٥٢).

٥٢- ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أمهلهم تعالى لعلّهم يشكرون، ولفظ الشكر يتناول القيام بالطاعات قولاً وعملاً، وليس بالقول فقط، قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ ١٣/٣٤].

﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (٥٣)

٥٣- ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ التوراة وفيها الفرقان، وقد يكون تقدير الخطاب أيضاً: الكتاب، وهو الفرقان، وسمّي الفرقان لأنه يفرق بين الحق والباطل، وقيل أيضاً: إن الفرقان هو مقدرة المؤمن على التفريق بين الحق والباطل، كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال ٢٩/٨]، ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ للتفريق بين الحق والباطل.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٥٤).

٥٤- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ باتخاذكم العجل معبوداً ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ الباريء هو الخالق عزّ وجلّ الذي جعل الخلق بريئاً من التفاوت ﴿فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾ قال بعض المفسرين: إن الأمر يقتضي أن يقتل اليهود أنفسهم، أو يقتلوا من بينهم أولئك الذين جعلوا العجل مستحقاً للعبادة، ورووا الكثير من الإسرائيليات في ذلك ممّا لا يصحّ، والأصح أن القتل مجازي والمقصود به اقتلوا نفوسكم الشريرة الأمّارة بالسوء، وذلك بالإخلاص في العبادة وبالتوبة الصادقة، كما يقال قتل فلان نفسه ندماً، والدليل أنه تعالى عفا عنهم بعد عبادتهم العجل (الآية ٥٢)، وبدليل توبتهم وتوبة الله عليهم بقوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ (٥٥)

٥٥- ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ وهي صورة أخرى من بلادتهم وعنادهم وماديتهم إلى أقصى الحدود، فبعد أن رأوا كل المعجزات الباهرات لم يقتنعوا، بل طلبوا أن يروا الله جهرةً أي عياناً حتى يصدّقوا موسى، ممّا يدلّ على أنهم ماديون لا يؤمنون إلا بما تدركه حواسهم، دون عقولهم، والذين طلبوا ذلك هم سبعون رجلاً اختارهم موسى من كبار القوم لميقات ربه [الأعراف ١٥٥/٧]، ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ ليس بالضرورة أن الصاعقة أماتتهم، والظاهر أنّه أخذهم ما ينظرون إليه لقوله: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ فلو كانت الصاعقة هي الموت لامتنع كونهم ناظرين إليها (الرازي).

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٥٦).

٥٦- ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ قيل هو الموت الفكري بمعنى ذهاب المقدرة على التفكير السليم، لأن من يطلب رؤية الله جهرة يكون فاقداً قواه العقلية، وقيل الموت بمعنى الغشيّ أي ذهاب الحواس كما في النوم، وقال بعضهم: هو الموت فعلاً، وأنهم بُعثوا بعد الموت.

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٥٧).

٥٧- ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ بيان المزيد من نعمه تعالى عليهم والمعجزات التي خصّهم بها، سخّر تعالى السحاب كي يظلّهم في صحراء سيناء حيث لا يوجد ملجأ من حرارة الشمس، وعندما نذكر أعدادهم الكبيرة التي هاجرت من مصر إلى فلسطين عبر الصحراء القاحلة، فلولا هذه النعمة لأهلكتهم شمس الصحراء الحارقة ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ وتلك معجزة أخرى استمرت خلال فترة أربعين عاماً من التيه في سيناء، قالوا: إنّ المنّ يشبه بذور الكزبرة وكانت تنبت بعد هطول الندى على الأرض ليلاً، والسلوى طيور السمّان كانت تأتيهم بكميات وفيرة أنقذتهم من المجاعة، وقيل: إنها كانت طيور مهاجرة من إفريقية، ولا سيّما مصر، تصل إلى سيناء تعبة فتقع على الأرض أو تسقُ فتؤخذ باليد ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ بمعصيتهم وذنوبهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ظلموا أنفسهم بأن كفروا هذه النعم، وضرر الكفر يعود عليهم.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٥٨).

٥٨- ومن نعمه تعالى عليهم أيضاً أن كتب لهم دخول فلسطين، في ذلك الوقت، والاستمتاع بخيراتها بعد إخراجهم من عبودية الفراعنة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا

ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ القرية في لغة القرآن هي المدينة أو المجتمع أو البلد، كقوله تعالى: ﴿عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف ٤٣/٣١] أي مكة والطائف، أو فارس والروم، والعرب تسمّي المدينة قرية، وفي هذه الآية يبدو أن الإشارة لفلسطين، وقيل بيت المقدس أو أريحا ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ تمتعوا من خيراتها ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ ادخلوا فلسطين متواضعين خاشعين لله تعالى، مستغفرين تائبين، ولا تدخلوها دخول الطغاة المحتلين، وكونوا قدوة لغيركم من الناس في المعاملة وحسن الدعوة، حتى يدخلوا في الدين أفواجاً، مثلما دخل النبي ﷺ مكة وقت الفتح، ومثلما دخل المسلمون البلدان المفتوحة بعد فجر الإسلام ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ كان المطلوب منهم دخول القرية تائبين مستغفرين طالبين من الله تعالى أن يحطّ عنهم خطاياهم، وتقدير الخطاب: حاجتُنا حَطّةٌ، أي نرجو الله أن يحط عنا ذنوبنا حطّة ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أجراً وثواباً.

﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ (٥٩).

٥٩- ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ بدّلوا رسالة الإيمان والدعوة إلى الخير والقدوة الحسنة بالطغيان والفساد، وقد دخلوا فلسطين دخول الطغاة على عكس ما طلب منهم من التواضع والخشوع، ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ بعد دخولهم فلسطين، بلغ التمرد والوحشية منهم مبلغاً حتى سلط الله عليهم الرجز، وهو العذاب المشار إليه في آية [المائدة ٥/٣٣] وآية [الأعراف ٧/١٦٧]، وقصص دخول اليهود فلسطين بصورة وحشية مذكورة في كتبهم بالتفصيل، وهي الكتب التي حرّرها أحبارهم وجعلوها جزءاً من كتابهم المقدس، وقد حفلت بفنون الغدر والمباغتة والفظائع الوحشية والأعمال التروبعية، وإشاعة الهلع والذعر بين السكان، وتقتيل الأطفال والشيوخ والنساء، وتقطيع الأشجار وردم الآبار، وحتى البقر والغنم والحمير لم تسلم منهم، انظر

(سفر يشوع ٢/٤٢، ٨/٢٤-٢٦، ١٠/٢٨-٣٨، ١١/١١، ٢٤/٩-١١)، (سفر الملوك الثاني ٣/٢٥)، (سفر التثنية ٢/٣٣، ٣/٣-٦، ٧ / ١، ٢٢ ، ٢٥ / ١٩)، (سفر صموئيل ١٥/٣)، ولعل عبودية التسخير التي عاشوها تحت الفراعنة قرابة أربع مئة عام، وشعور الضعف ومعاناة التخلف والقهر، كل ذلك ترك في نفوسهم عقدة التذبيح والتقتيل والغدر بالآخرين ونكران الجميل، و لم ينفعهم نزول الرسالة السماوية عليهم، ولا شك أنّ هذه النفسية القبيحة استمرت في ذريتهم إلى يومنا هذا، ممّا يفسّر سبب تركيز الكثير من آيات القرآن الكريم عليهم ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بسبب فسوقهم، وهو خروجهم عن الحق.

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٦٠).

٦٠- ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ بيان آخر لنعمه تعالى على بني إسرائيل ومعجزاته لهم ﴿فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ انفجرت من الحجر اثنتا عشرة عيناً بعدد قبائل بني إسرائيل، وتقدير الخطاب: فضرب فانفجرت، وحذف المعطوف عليه للإشارة لسرعة الامتثال، حتى كأنّ الإيحاء وضرب الحجر أمر واحد، وأن انفجار الماء بأمره تعالى، كأنّ فعل موسى لا دخل له فيه (الألوسي)، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ كي لا يقتتلوا على الماء ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ استكمال بيان النعم في هذه الآية وما يليها، بعد الأمر بدخول فلسطين، لبيان شناعة معصيتهم وإفسادهم رغم كل هذه النعم والمعجزات لصالحهم ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ المقصود أنّ إباحة الرزق والنعم لهم كي يستمدّوا منها القوة للقيام بأعباء الرسالة والطاعات والأعمال الصالحة، لا أن تكون باعثاً على الشر والعدوان والفساد في الأرض.

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (٦١).

٦١- بعد أن استسقوا موسى وشاهدوا بأعينهم معجزة انفجار الماء من الحجر، طلبوا منه تغيير أنواع طعامهم، وهو دليل على تفكيرهم بحاجاتهم المادية فقط: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ المنّ والسلوى ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ لم يكتفوا بانفجار الماء من الحجر، ونزول المنّ والسلوى عليهم، بل يفرضون الشروط على نبيهم أن تنبت لهم الأرض مختلف أنواع الأطعمة، دون جدّ منهم ولا عمل ولا تعب ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ بدلاً من التفكير والتركيز على الرسالة السامية التي أخرجوا من مصر لأجلها لم يزالوا يفكرون بعقلية مادية بحتة، تطغى عليهم غرائز الجسد، فلم يصبروا ولو موقتاً على عدم وجود الأطعمة التي اعتادوا عليها في مصر، فيكون مغزى الآية: أتستبدلون المنافع الدنيوية بالرسالة السامية التي حتتم من أجلها؟ ويحتمل المعنى أيضاً أن نفوس بعضهم تاقت لأسلوب العيش الذي تركوه في مصر، وعلى هذا يكون المعنى: أتستبدلون العبودية وأسلوب العيش الذي كنتم فيه، بالحرية التي أصبحتم فيها، وذلك بدليل تتمة الآية، ويلاحظ أيضاً أنهم قالوا لموسى ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ و لم يقولوا ﴿ربّنا﴾ وفيه جانب من وقاحتهم المعهودة،

﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ ارجعوا إلى عبودية مصر إن شئتم فلكم فيها ما تطلبون من المادة، والعبرة من القصة أن اليهود لطول إقامتهم تحت قهر الفراعنة قد اعتادوا الذل والعادات والشعائر الوثنية، ثم إنهم في سيناء صاروا يتبرمون بموسى ويحمّلونه مسؤولية المشاق في الصحراء ويتحسّرون على أيامهم

في مصر ويستبطئون وعد الله، وقبل ذلك قالوا له في مصر ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف ١٢٩/٧]، وكان موسى يحاول نزع ما في قلوبهم من الشرك، وما في نفوسهم من الذلّ الذي طُبعوا عليه في مصر، وأن يدخل بهم فلسطين، ولكنهم عصوه فقالوا له ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ [المائدة ٢٤/٥]،

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ بمادیتهم لأنّ من يكون مادياً صرفاً يكون ذليلاً، انظر آية [الأعراف ١٦٧/٧]، ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ بتفضيلهم ماديّة الدنيا على سموّ الرسالة ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ كلمة ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الذلّة والمسكنة التي ضربت عليهم، وأنّ سببها كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء، وهو ما حصل في حقبة لاحقة من التاريخ اليهودي وفعل ﴿كَانُوا﴾ يتضمن معنى الاستمرارية ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي مع علمهم أنّهم على غير الحق بقتل الأنبياء ﴿ذَلِكَ﴾ أي ضرب الذلة والمسكنة عليهم ﴿بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ بسبب عصيانهم وعدوانهم.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٦٢).

٦٢- بعد أن أسهبت الآيات السابقة في بيان معاصي اليهود وخسّة نفوسهم وجرائمهم، حتى ليحسبهم المرء من الخاطئين جميعاً، استثنت هذه الآية الصالحين منهم وطمأنتهم أنّ الله تعالى يحاسب الناس فرادى ولا يحاسبهم أقواماً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الذين آمنوا برسالة النبي محمد ﷺ ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ اليهود، وقيل سمّوا يهوداً لقول موسى: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف ١٥٦/٧]، وقيل لنسبهم إلى يهوذا ابن يعقوب ﴿وَالنَّصَارَى﴾ مشتقة من النصرة لأنّ عيسى عليه السلام قال للحواريين ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران ٥٢/٣]، وهم الذين نصروا عيسى عليه السلام وبقوا على النصرانية، ولم ينحرفوا عن رسالته كما فعل

بولس وأتباعه من المسيحية ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ وفي اللغة الآرامية الصابغين وهم طائفة موحِّدة، بين اليهود والنصارى أتباع يحيى عليه السلام، اشتق اسمهم من الكلمة الآرامية: صبغة، لأنهم كانوا يعمّدون أي يصبغون المعتنق الجديد لدينهم في نهر الاردن فصاروا يُدعون الصابغة، ومنه قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة ١٣٨/٢]، ولكن العرب في إحدى لهجاتها كانت تلفظ الغين همزة فصارت الصابئة، وأصلها الصابغة، وهم أتباع يحيى عليه السلام وكان يسمى يحيى الصابغ أي المعمدان أي الذي يقوم بالتعميد وهو نوع من الوضوء بماء النهر (انظر عبد الأحد داود)، ويجب عدم الخلط بينهم وبين صابئة حرّان الذين انتحلوا الاسم لأنفسهم للاستفادة من تسامح الدولة الإسلامية مع أهل الكتاب ومع طوائف الموحّدين.

﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ وحده لا شريك له ﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ آمن بالبعث والحساب ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ اقترن إيمانه بالعمل الصالح ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يجب قراءة هذه الآية ضمن سياقها وهو الحديث عن بني إسرائيل، فيكون الهدف الأساسي منها دحض أوهام اليهود أنهم الشعب المختار، وأنهم يحتكرون ثواب الله ومغفرته من دون غيرهم من الأمم رغم عصيانهم وجرائمهم ، فالآية تحدد أنّ المهم عند الله هو الإيمان به وحده لا شريك له والإيمان بالبعث والحساب والقيام بالعمل الصالح، وليس بمجرد الانتساب إلى طائفة دينية معينة ولا أن يكون الدين جنسية كما يزعم اليهود، ويحتمل أن يكون المقصود بذلك اليهود والنصارى والصابئين قبل أن تبلغهم البعثة الإسلامية، وهو أيضاً استثناء من قوله تعالى عن اليهود في الآية السابقة ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾، أي إنه تعالى استثنى منهم من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً، والمعروف أنّ هنالك طائفة من اليهود تدعى السدوقيين لا تؤمن بالآخرة.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٦٣).

٦٣- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ واذكروا إذ أخذنا ميثاقكم، وهو الميثاق المشار له بالآيتين (٨٣-٨٤) ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ شاهداً عليكم، وهو جبل طور سيناء الواقع جنوب شبه جزيرة سيناء بين ذراعي البحر الأحمر، ويدعى الآن جبل موسى، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۞ وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين ٩٥/١-٢]، ويقال: إن بني إسرائيل خيّموا على سفوحه قرابة عام كامل ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ أي تمسّكوا بالكتاب بجدّ وعزيمة ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ احفظوا ما فيه واعملوا به ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ المعاصي وعواقبها السيئة، إذا أتبعتم القول بالعمل.

﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٦٤).

٦٤- ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن الرسالة السماوية ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ بمعاصيكم وماديتكم وتلاعبكم بالتوراة وتحرير غيرها ونسبتها إلى الله ﴿فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بإمهالكم، وعدم التعجيل عليكم بالعقوبة، وإعطائكم الفرص للتوبة ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ فور ارتكابكم المعاصي بلا إمهال.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (٦٥).

٦٥- ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ فكان عليكم أن تعتبروا بهذه الحادثة وبعواقبها، وقد ورد تفصيل هذه الحادثة في آية [الأعراف ١٦٣/٧]، إذ كان المفروض أن يكرّس اليهود يوم السبت للعبادة والراحة والامتناع عن الأعمال الدنيوية، وكان هذا الأمر مشدداً عندهم لدرجة أن كتبهم جعلت الموت عقاب المخالف، ولكن عندما شاع فيهم التفسخ الديني والاخلاقي انتهكوا شريعة السبت فصارت مدنهم تنشط باعمال الحرف والتجارة جهاراً ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً﴾ قالوا إن التحول إلى قردة بالمعنى

المجازي، وأنه تعالى مسخ قلوبهم بمعنى الطبع والختم على القلوب، أي صاروا كالقرود متجردين من السمو الروحي الذي يتمتع به البشر، متهالكين على المادة والدنيا فقط، مستبدلين الذي هو أدنى بالذي هو خير (الآية ٦١)، وقد قال عنهم تعالى أيضاً: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة ٦٢/٥]، ولأنّ الإنسان إذا أصر على جهالته بعد ظهور البينات فالعرب تقول عنه مجازاً: إنه حمار أو قرد، ويحتمل المعنى أيضاً أن وجوه بعضهم صارت مشابهة للقرود كما نراهم اليوم ﴿خَاسِئِينَ﴾ أي أذلاء مطرودين.

﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٦٦).

٦٦- ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ أي تلك العقوبة ﴿نَكَالاً﴾ أي عقوبة غليظة رادعة ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ عبرة للناس في زمانهم ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ وعبرة للأجيال القادمة ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ وهذا من سنن الله تعالى أن من يفسق عن أمر ربّه ينزل عن مرتبة الانسان، الذي كرّمه الله، الى مرتبة الحيوانات، وتخلو حياته من أي هدف سام.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٦٧).

٦٧- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ ابتلى اليهود بفكرة تقديس البقرة (الآية ٥١) ولتحريرهم من ذلك أُمروا بذبحها، وكان اختباراً قاسياً لهم ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ حاولوا التملّص بانتحال أعذار عن نوع البقرة المطلوب ذبحها، وقد اقتبس اليهود فكرة تقديس البقرة من المصريين خلال فترة عبوديتهم، لأن المصريين كانوا يعبدون تمثالاً لعجل ذهبي في معبد أُزيريس Osiris، وهنالك أكثر من مغزى لهذه القصة كما سيرد ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي أعوذ بالله أن أقول عليه كذباً.

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ (٦٨).

٦٨- ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي إنها ليست كبيرة في السن وليست شابة، ولكن وسط بينهما ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ بلا جدال.

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ (٦٩).

٦٩- ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾ زيادة في التنطع بالسؤال ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾.

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ (٧٠).

٧٠- ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ كلّما أمعنوا في طلب التفاصيل كانوا يضيقون الخناق على أنفسهم.

﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٧١).

٧١- ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ﴾ أي إنّها حرة من النير الذي يربط عادة في رقاب البقر المستخدمة للحرث ﴿وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ لا تستخدم في رفع المياه من الآبار للسقاية، فهي بقرة سائبة ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ سالمة من العيوب مطلقاً ﴿لا شِيَةَ فِيهَا﴾ لونها الأصفر خالص غير موشّى بغيره أي غير ممتزج بسائر الألوان ﴿قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ حتتنا بكلّ المعلومات عنها ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ بعد أن كان بإمكانهم أن يذبحوا أي بقرة كانت ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ كادوا أن لا يذبحوها لشدة تلكؤهم وإلحاحهم في طلب التفاصيل، ويلاحظ في طريقة الحوار سفاهة اليهود وقلة احترامهم لنبيهم وعدم الامتثال

لأمره وإلحاحهم وخفتهم وتنطعهم في السؤال، وتكرار قولهم ﴿ربّك﴾ ولم يقولوا ﴿ربّنا﴾.

ومغزى القصة يشير إلى نقطة فقهية هامة وهي كراهة طلب تفاصيل إضافية لشرع عامّ، لأن من شأن ذلك تعقيد الأمور على المجتمع، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة ٥/١٠١]، وروى أبو داود في سننه أن النبي ﷺ قال: «لا تشدّدوا على أنفسكم فيُشدَّد عليكم، فإنّ قوماً شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم»، وعن ابن عباس: لو اعترضوا بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم.

ومن ذلك أنّ نظرة السلف الأول الى الدين كانت بسيطة ومباشرة، فهموه بشكل فطري دون إشكالات ولا تعقيدات، ولكنّ بعض من جاؤوا بعدهم استغرقوا في استنباط التفاصيل، فجعلوا الشريعة عبئاً ثقيلاً على الناس بعكس ما هدف إليه القرآن والسنة، ويحتمل أن اختيار اسم البقرة لهذه السورة نابع من المغزى الهام الذي تنطوي عليه هذه القصة.

ومن جهة أخرى رأى البيضاوي أن ذبح البقرة كناية عن ذبح شهواتهم وأهوائهم، فيكون تقدير الآية: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة أهوائكم، والمعنى أن تتخلصوا من ضلالكم، عدا أن ذبح البقرة قربى إلى الله تعالى رجاء الوصول إلى المبتغى.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (٧٢).

٧٢- في شرع اليهود أنه إذا وجدت جثة قتيل لم يعرف قاتله فتذبح بقرة ويدعى كبار القوم في المنطقة فيغسلون أيديهم فوق البقرة الذبيحة قائلين أن لا علاقة لهم بالقتل، وأنهم لا يعرفون القاتل، وبذلك يخلون أنفسهم من المسؤولية ومن لا يفعل ذلك منهم يُعرف أنه القاتل (سفر التثنية ٢١/١-٩)، وقد يكون في الآيات (٦٧-٧١) إشارة لذلك:

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ أي فاختلفتم وتدافعتم في مسؤوليتها، والخطاب للجمع، وفيه إشارة للمسؤولية الجماعية ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ الله معلن ما كنتم تسرّونه عن القاتل.

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٧٣).

٧٣- يرى بعض المفسرين أن المقصود هو ضرب جثة القتيل ببعض أجزاء البقرة الذبيحة ممّا أعاد الحياة مؤقتاً إلى القتيل كي يشير إلى قاتله، ومع أنه لا يوجد لهذا التصور والتفصيل سند واضح في القرآن أو السنة، فلا يمنع أن تكون هذه الحادثة من جملة المعجزات الكثيرة التي خصّ تعالى بها بني إسرائيل، فبعثُ القتيلِ وقع بناء على أفعال أمرهم تعالى بها فنفذوها بأيديهم، وكلّها مما لا يحيي الموتى، فضرب قتيل بقتيل لا يولد حياة جديدة، لكن قدرة الله جعلت هذا الضرب مؤثراً في تلك الحالة، فقام القتيل مؤقتاً ليخبر عن قاتله، وليشاهد اليهود عياناً إحياء الموتى، حتى يؤمنوا بالبعث، وليعلموا أنّ من أحيا قتيلاً على هذه الصورة قادر على إحيائهم وحسابهم بعد الموت، فاليهود كانوا على مستوى من البلادة والطفولة الفكرية دون منطق العقل والفكر بكثير.

ومن وجهة نظر ثانية يُحتمل أنّ كلمات الآية ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ لا تنطوي على ذلك، فمن جهة ليس من تطابق في الجنس بين ضمير المذكر في الهاء بكلمة ﴿اضْرِبُوهُ﴾ وبين النفس القتيلة المشار لها بقوله تعالى ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾، ومن جهة ثانية فان كلمة «ضرب» كثيراً ما تُستخدم مجازا كقولهم «ضرب مثلا» و «ضرب في الأرض» أي تجوّل فيها، و «ضربت عليهم الذلة»..الخ، ومن جهة فليس من المؤكد أن يعود ضمير المؤنث في ﴿بعضها﴾ إلى البقرة المذكورة بالآية (٧١)، وقد يكون أنّ ﴿اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ معناه: اضربوا مبدأ المسؤولية الجماعية ببعض حالات القتل المجهولة ﴿انظر محمد أسد﴾، ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ أي يمنع سفك الدماء بمثل هذه الأحكام

وهو شبيه بقوله تعالى ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة ٥/٣٢]، ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لعلكم تستخدموا ملكة العقل لديكم وتفقهوا الحكمة من الشريعة.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٧٤).

٧٤- ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ من بعد كل هذه المعجزات والبيّنات والوحي، ارتكبتم من الجرائم والفساد، ليس في حق أنفسكم فقط، بل في حق الآخرين أيضاً، وفشلتم في حمل الرسالة ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ بمعنى أنّ قلوبهم مادية صرفة خالية من الروحانية، لا همّ لهم سوى الدنيا، وقد شبّه تعالى قلوبهم بالجمادات و لم يشبههم بالحيوانات لأن الحيوانات لا تأخذ من الدنيا إلا ما تقتضيه غريزتها للبقاء ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ حتى الحجارة تتأثر بجريان الماء قليلاً أو كثيراً، أما قلوبهم فلا تتأثر بشيء ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ يتردّى من أعلى الجبل، وهو شبيه بقوله تعالى ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر ٥٩/٢١]، ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فسوف يجازيكم على قسوتكم ومعاصيكم.

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥).

٧٥- ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ أيها المسلمون ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ الخطاب موجّه في الأصل إلى حديثي العهد بالإسلام من أهل المدينة، وإن كان موجهاً للمسلمين في كل العصور، إذ سبق أن أخبرهم اليهود أنّ نبياً على وشك الظهور، وأنّ أتباعه سوف يتغلّبون على باقي شعوب العالم، فكان ظنّ العرب أن يكون

اليهود في طليعة من يدخل الإسلام، غير أن أملهم خاب بسبب اعتقاد اليهود أن النبي المنتظر يجب أن يكون منهم، فهم يعتبرون الدين والأنبياء حكراً لبني إسرائيل فقط دون غيرهم من الناس، وكانت النتيجة أن استغلّ المنافقون والمشركون موقف اليهود لبث الشكّ في النفوس، وزعموا أن لو كان محمد نبياً حقاً لما أحجم اليهود وعلماؤهم عن الإيمان به ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ تحريف كلام الله هو تغييره، والفريق منهم هم الأحبار الذين كتبوا الأسفار اليهودية «المقدسة»، انظر شرح الآية (٧٩)، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ اقتنعوا به عقلانياً، ورفضته قلوبهم، وتغلبت عليهم أهواؤهم ومصالحهم ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ تمام العلم شناعة فعلهم.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٧٦)

٧٦- ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ وهم المنافقون من اليهود ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ لشدة جهالتهم وعنصريتهم، إذا خلا الأحبار مع عوامهم قالوا لهم: أتحدثون المسلمين بما فتح الله عليكم من أوصاف النبي المنتظر ﴿لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ ليكون لهم الحجة عليكم عند الله ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وهو قول الأحبار لأتباعهم إمعاناً منهم في العنصرية والتضليل والاستغلال، وخوفاً على مكاسبهم الدنيوية أن تزول.

﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ (٧٧).

٧٧- ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يظنّون أن إخفاء جرائمهم في الدنيا ينقذهم من عقاب الآخرة، كما يظنون أن الإله خاص بهم فقط، أي هو إله إسرائيل دون باقي الناس.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (٧٨).

٧٨- ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ من اليهود أمّيون لجهة جهلهم بكتابهم ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ أي كتابهم ﴿إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ ومفردها أمنية، والمعنى أنهم لا يعلمون من

كتابهم إلاّ ما تتمنّاه قلوبهم، يقبلون ما يُقال لهم على علاّته، كزعمهم أن لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ﴿وَإِنْ هُمْ إِلاّ يَظُنُّونَ﴾ ليس عندهم من العلم اليقيني سوى أنهم يقلّدون ويتّبعون الدين الذي ابتكره أحبارهم، وإن كان لا يمتّ إلى شرع موسى بأية صلة ممّا جعلهم يعيشون في فردوس خاص بهم مبني على الأوهام الخادعة بأنهم الشعب المختار، متعلّقين بالآمال الزائفة بشفاعة الأنبياء لهم.

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (٧٩).

٧٩- ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ هم الأحبار الذين حرّروا الكتب اليهودية المقدسة وزعموا أنها كلام الله المنزل، والدليل أن العهد القديم ومن ضمنه التوراة التي بين أيدينا اليوم أكثرها من كتابتهم، بلا جدال، ويعود تاريخ تحريرها إلى عدة قرون من الزمن بعد موسى، وليس فيها من بقايا الوحي إلا القليل، وهذا ينطبق على جميع كتبهم وأسفارهم التي يزعمون أنها مقدّسة، وهي زاخرة بقصص الخرافات، والعنصرية البشعة، والمنكرات والموبقات، ممّا ينسبونه إلى أنبيائهم قبل عوامهم، ولا يعقل أن يكون وحياً، وأضافوا عليها قصص تاريخهم القومي، وتشريعات إباحية من عندهم ضد الأغيار، ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ الثمن القليل هو زعامتهم الدنيوية وأغراضهم المادية التي أرادوا الحفاظ عليها عن طريق غش الآخرين ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الزيف ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ ما يكسبون بنتيجة الزيف.

وهذه الآية من قبيل إخبار النبي ﷺ والمسلمين بالغيب، لأنه لم يكن بوسع النبي ﷺ ولا المسلمين في عصره أن يعلموا من تلقاء أنفسهم أن كتب اليهود مزيفة.

﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَاتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ (٨٠).

٨٠- ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ وهذا من جملة غرورهم، لأنهم يتوهمون أنه بغض النظر عمّا يرتكبون من شرور، فعقابهم في الآخرة سيكون محدوداً، لأنهم الشعب المختار بزعمهم، وهم غارقون في هذا الغرور والتبجّح، ممّا يدحضه القرآن بقوله تعالى ﴿قُلْ﴾ لهم أيها النبي، أو أيها القارىء، أو السامع ﴿أَاتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ بما تزعمون ﴿فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ فإنّ الله تعالى لم يعهد لكم بشيء من ذلك ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ تمنّون أنفسكم بالباطل، وليس لكم به علم يقيني.

﴿ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(٨١).

٨١- ﴿بَلَى﴾ خلافاً لما يعتقدون، وهو جواب لقولهم لن تمسّنا النار إلاّ أياماً معدودة، والفرق بين بلى و نعم: أنّ بلى جواب النفي، و نعم جواب الإيجاب ﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ وهي الذنوب التي يُعذّب مرتكبها بالنار ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ أي خطيئاته، وأحاطت به أي استغرقت شعوره ووجدانه، ورانت على قلبه، فصار همّه مقتصراً على دنياه، وإرضاء شهواته على مرّ الليل والنهار، و لم يبقَ للدين سلطان عليه ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لأنّ العمل السّيىء لم يدع للإيمان أثراً صالحاً في نفس صاحبه، ولو كان معه شيء من الطاعات لما أحاطت به السيّئة من كلّ جانب.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٨٢).

٨٢- ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ استثناء الصالحين منهم كي لا يقنطوا من رحمة الله ويلاحظ أن آيات الوعيد مقترنة بآيات الوعد، كما أنّ الإيمان مرتبط بالعمل الصالح لا ينفك أحدهما عن الآخر، انظر آية [الأنعام ١٥٨/٦].

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٨٣).

٨٣- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ﴾ بعد أن بيّنت الآيات (٧٤-٨١) عناد بني إسرائيل وقسوة قلوبهم وجهلهم وغرورهم، تذكّرهم هذه الآية أن طريق التقوى قد بُيّنت لهم بتشريعات سلوكية وأخلاقية يجب أن يلتزموا بها ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ عاملوا الناس معاملة حسنة، ولا تعاملوهم معاملة دونيّة، ولا تزعموا أنهم أغيار، ولا يكون هنالك ازدواجية في مقاييسكم ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ التزموا بالعبادات والصدقات ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ فلم تعملوا بشيء من ذلك ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ انصرفتم عن دعوة الحق متعمّدين غير مكترثين ولا عازمين على التوبة، إلاّ قلّة منهم.

ويلاحظ ترتيب الطاعات في الآية، بعد عبادته وحده سبحانه: الإحسان وحسن المعاملة بالفعل والقول، مع الوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين، خاصةً، والناس عامةً، ثم الصلاة والزكاة.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ (٨٤).

٨٤- قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة كانت قبائل اليهود في منطقة المدينة متحالفة بعضها مع الأوس وبعضها الآخر مع الخزرج، فعندما تنشب الحروب بينهما كانت كلّ من قبائل اليهود تقاتل إلى جانب حلفائها مما سبّب أن يقتل اليهود بعضهم بعضاً نتيجة تحالفهم مع قبائل وثنية متنازعة وفي ذلك خرق للميثاق المذكور في كتبهم، والمشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ يلاحظ أن الخطاب

للمجتمع بكامله وبشكل فيه تأكيد على وحدة الأمة إذ جعل سفك دم الفرد كأنه سفك دم الجميع، وإخراج الفرد من داره يعادل إخراج الجميع ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ بالميثاق ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ على أنفسكم بلزومه،

وفي المعنى العام للآية أن اليهود أساؤوا التصرف وارتكبوا من الجرائم على مدى تاريخهم ما أدى إلى أن يصيبهم التقتيل والطرد من الديار، انظر آية [المائدة ٣٣/٥]، كما حدث لهم عام (٧٠)م وعام (١٣٥)م عندما نكّل الرومان بهم وطردوهم من القدس وفلسطين.

﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٨٥).

٨٥- ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ يقتل بعضكم بعضاً ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ كانوا يفتدون أسراهم، بحجة أنهم ينفذون تعاليم كتابهم، بعد أن كانوا قاتلوهم وأخرجوهم من ديارهم، الأمر المشار اليه بقوله تعالى ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ يطبقون معايير دينية مزدوجة، ومن ذلك تنفيذ تعاليم الكتاب بافتداء الأسرى، ويتفاضون عنها عندما يقتل بعضهم بعضاً، ويُخرج بعضهم بعضاً من ديارهم ﴿فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الخزي العاجل في الحياة الدنيا، انظر آية [المائدة ٣٣/٥]، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ أشدّ من الخزي الحاصل في الدنيا ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فيحصي عليكم أعمالكم ليوم الحساب.

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٨٦)

٨٦- ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ﴾ جعلوا الدنيا همّهم الوحيد و لم يكترثوا بالآخرة ﴿فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ارتباط العذاب مع التهالك على الدنيا، وهو ارتباط المسبب بالسبب، وهذه الآية قاعدة عامة في أمثالهم وغير مقتصرة عليهم.

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ (٨٧)

٨٧- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ التأكيد على تعاقب الرسل لدى اليهود، بعد موسى عليه السلام، مما لا يترك لديهم مجالاً لادّعاء الجهل ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ وهو آخر رسل بني إسرائيل، والآيات البينات هي براهين الحقيقة المفترض أن تقنع كل باحث موضوعي ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أيّدناه بالمعرفة عن طريق الوحي، وسمّي القدس لأنّ العلم بواسطته يكون مقدّساً، أو أنه يقدّس النفوس أي يطهرها، وقيل هو ملاك الوحي جبريل عليه السلام، انظر أيضاً آية [المائدة ١١٠/٥] حيث تشرح التأييد بروح القدس، وفي آية [المجادلة ٢٢/٥٨] ورد أيضاً تأييد الله تعالى للمؤمنين بروح منه ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ الانتقال في التعبير من الفعل الماضي ﴿كَذَّبْتُمْ﴾ إلى الفعل المضارع ﴿تَقْتُلُونَ﴾ يوضح استمرارية النية المبيّتة لدى اليهود، عن عمد منهم، بتكرار قتل الأنبياء، حتى أنهم تآمروا على قتل النبي ﷺ.

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٨٨).

٨٨- ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ فلا تحتاج إلى مزيد من الرسل، وغُلْفٌ صُمٌّ، ومَن قرأ: غُلُفٌ، بضمّ اللام، أراد جمع غلاف، أي قلوبنا أوعية ممتلئة بالعلم فلا

حاجة لنا بغيره، والمعنى أنهم صامدون في ضلالهم لدرجة أنهم لن يغيروا من قناعاتهم مهما جاءهم من براهين، ومثل هذا القول سمة مشتركة لذوي التعصب الأعمى الذين يسيطر على عقولهم التحامل والتحيّز المسبق، وهو ما يتبجّحون بأنها قناعات يتمسّكون بها لمجرّد أنهم توارثوها، بغضّ النظر عن البراهين الحاسمة بزيفها، وهو المشار إليه بقوله تعالى ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي بسبب كفرهم، لأن الكفر هو التغطية، فهو يحجب الحقيقة عن صاحبه، ويمنعه من التفكير الموضوعي ويعمي بصيرته فيبتعد عن رحمة الله، وهو معنى اللعنة ﴿فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ﴾ قليلاً ما يؤمنون بالصواب، لأنّ معتقداتهم متمحورة ومنغلقة حول أنفسهم، ويحتمل المعنى أيضاً أنه لا يؤمن منهم بخاتم الأنبياء والرسل المذكور في كتبهم إلا القليل، فيظلّون بانتظار غيره أبد الدهر.

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٨٩).

٨٩- ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وهو القرآن الكريم ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ لما تبقى معهم من الوحي انظر شرح الآية ﴿٤١﴾ وآية [آل عمران/٣/٣] وآية [المائدة ٥/١٣]، ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قبل بعثة النبي ﷺ كان اليهود يتوقعون ظهور النبي المنتظر، المذكور في كتبهم، بفارغ الصبر وكان يقولُ بعضُهم لبعض: ليضطهدنا الناس الآن فعندما يأتي نبيّنا المنتظر سوف نسوّي حساباتنا معهم ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ كانوا ولا زالوا يعتقدون أن النبوة حكر عليهم، فلمّا جاءهم النبي المنتظر من بني إسماعيل محققاً النبوءات المذكورة عندهم كفروا به، انظر كتاب «محمد في الكتاب المقدس» للبروفسور عبد الأحد داوود، سابقاً كبير الكهنة الكلداني دافيد بنجامين، يفصل فيه نبوءات كتب اليهود والنصارى عن قدوم النبي الأحمد ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ الكافرين الذين يغطون الحقيقة عن أنفسهم، لأن هذا هو معنى الكلمة كما في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾

[الحديد ٥٧/٢٠] فها هنا الكافر بمعنى الزارع، لأنه يغطي البذور بالتربة، فالكفار تعمى بصيرتهم عن الحقيقة، ويبتعدون عن رحمة الله، وهو معنى اللعنة التي أوجبوها لأنفسهم، فارتباط اللعنة بالكفر، أي بتغطية الحقيقة، كارتباط المسبب بالسبب.

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (٩٠).

٩٠- ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ بئس ذلك الكبرياء الزائف الذي من أجله خسروا أنفسهم، واشترى بمعنى باع، والمعنى بئس الشيء الذي اختاروا لأنفسهم حيث استبدلوا الباطل بالحق والكفر بالإيمان ﴿بَغْيًا﴾ حسداً للعرب ﴿أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ إذ قالوا: انما كانت الرسل من موسى إلى عيسى من بني إسرائيل، فما بال هذا من بني إسماعيل؟ يريدون أن يكون الوحي حكراً عليهم دون غيرهم من الناس ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ استحقوا غضب الله مرة أخرى بكفرهم بالنبي الأحمد المنتظر، كما استحقّوه في السابق بعصيانهم موسى، وبكفرهم بعيسى عليهما السلام ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ مترتّب على إنكارهم الحقيقة.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٩١).

٩١- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ يدّعون الإيمان بما أنزل على أنبيائهم فقط ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ ينكرون الوحي الذي نزل على عيسى ومحمد عليهما السلام ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ مصدّقاً لما تبقى معهم من الوحي الصحيح، والمعنى أنه لا يمكن تمييز الصحيح من الزيف في كتابهم إلا عبر النظر إليه من منظار إسلامي ﴿قُلْ فَلِمَ﴾ كنتم ﴿تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أسند القتل اليهم رغم أنه من فعل آبائهم، لأنهم راضون به

وعازمون على تكراره ﴿إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ إن كنتم مؤمنين بكتابكم كما تزعمون، فليس فيه الأمر بقتل الأنبياء.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (٩٢).

٩٢- ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وهي المعجزات القاهرة كفلق البحر وغيره ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ معبوداً ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ عبدتم العجل بعد أن ذهب موسى لميقات ربه في الطور، وبعد وفاة سليمان أيضاً ارتكستم إلى الوثنية وإلى عبادة العجول الذهبية ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ لأنفسكم، والمعنى أنكم تدّعون الإيمان بما أنزل عليكم، مع أنكم عبدتم العجل رغم البينات التي جاءكم بها موسى.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٩٣).

٩٣- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ واذكروا إذ أخذنا ميثاقكم عند جبل الطور ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾ تمسكوا بالتوراة بجدّ وبعزيمة، واسمعوا ما فيها سماع تفكّر وتفهّم ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ سمعوه فتلقّوه بالعصيان، لأنّ أعمالهم التي تلت الميثاق تبرر هذا التعبير المجازي، فقد أضاعوا معظم التوراة وحرّروا بدلاً عنها من عند أنفسهم وحسب أهوائهم، وكفروا بمن جاءهم من الأنبياء بعد موسى ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ﴾ حبّ ﴿الْعِجْلَ﴾ و تهالكوا على عبادة المادة التي رمز إليها بعبادة العجل الذهبي، انظر شرح الآية (٥١)، ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ بسبب كفرهم وإنكارهم الحقيقة ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ﴾ لأنّ إيمانكم الذي تزعمون يأمركم بالشرور والآثام لا غير ﴿إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فإنكم غير مؤمنين حقيقةً.

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٩٤).

٩٤- ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ إشارة إلى ادعائهم المذكور بقوله تعالى ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ (١١١)، ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم المذكورة.

﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٩٥)

٩٥- ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ بل هم حريصون على الحياة الدنيا ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بسبب ما قدّموا من المعاصي ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ بخبايا نفوسهم ونفاقهم.

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٦)

٩٦- ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ وهو سبب كل مصائبهم وضلالهم وإضلالهم، لا يبالون أن يعيشوا حياة نفاق ودجل ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ حرصهم على الدنيا أشد من حرص المشركين عليها ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾ الألف سنة تعبير عن المبالغة في الكثرة، والمغزى أن اليهود يعلمون أنهم على ضلال ولذا يرون أن الدنيا ومنغصاتها خير لهم من الآخرة وما ينتظرهم فيها من العقاب ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ فيحاسبهم بأعمالهم.

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٩٧).

٩٧- ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الكلام متصل بما قبله من حيث تسلسل أعذار اليهود في عدم الايمان بالنبي ﷺ، فقد

زعموا أولاً أنهم مؤمنون بكتاب ولا حاجة بهم إلى وحي جديد، ثم زعموا أنهم ناجون في الآخرة على كل حال، لأنهم شعب الله المختار، والآن يتعللّون بعذر أغرب مما سبق، فقد ورد في العديد من الروايات الصحيحة أنّ أحبار اليهود في المدينة كانوا يصفون جبريل عليه السلام بأنه عدو الله لثلاثة أسباب:

الأول: زعموا أن جميع المصائب التي لحقت ببني إسرائيل في مطلع تاريخهم تكلّم بها جبريل، في حين أنّ ميكال كان يحمل إليهم الأنباء السارة فأصبح صديقهم بزعمهم،

والثاني: لأنّ القرآن نزل به جبريل على محمد ﷺ وهم أرادوا أن يكون النبي المنتظر منهم،

والثالث: أن القرآن يشتمل على النقد المرير لبني اسرائيل بسبب عصيانهم رسالة موسى،

فأخبرهم تعالى إن جبريل ينزّل بالوحي على محمد ﷺ بإذن الله وليس من عند نفسه ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مصدّقاً لما تبقّى من الوحي الذي نزل على أنبيائهم، وليس تصديق كتب اليهود والنصارى بوضعها الحالي ولا بالوضع الذي كانت عليه وقت نزول القرآن، لأنها خضعت لكثير من التحريف والتغيير عبر تاريخها، كما أنه ليس المقصود تصديق تشريعات اليهود والنصارى لأن القرآن نسخها، انظر الآية (١٠٦)، ولكن المقصود تصديق ما تبقى من الحقائق الأساسية في كتبهم وقت نزول القرآن ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ لو قبل اليهود رسالة الإسلام لاستفادوا من هديه وتبشيره، ولكن استياءهم وغيظهم موجّه ضد الهداية الصحيحة.

﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ (٩٨).

٩٨- ما دام ذلك سبب عدائهم لجبريل عليه السلام فليعلموا أنه ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ عطف الخاص على العام ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ فيعاقبهم على عصيانهم وتعاميهم عن الحقيقة.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ﴾ (٩٩).

٩٩- ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ واضحة لا لبس فيها ولا يسع العاقل إلا الإيمان بها ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ﴾ المصرّون على المعصية، الذين فضّلوا تقليد الآباء والأجداد والزعماء والعصبية على نور الفطرة والعقل.

﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٠٠).

١٠٠- ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ العهود التي عاهدوها ونبذوها كثيرة، ومنها المذكورة في آيات [البقرة ٢/٤٠، ٥٩، ٦٣، ٨٣، ٨٤، ٩٣]، عدا نقضهم العهود مع النبي ﷺ في المدينة، وهذا النقض لم يكن عفوياً، بل اتباعاً لما تنص عليه كتبهم المحرّفة من وجوب نقض العهود مع الأغيار، وهم يزعمون أنّ إلههم يهوه قال لهم: (لا تقطع لهم عهداً، ولا تشفق عليهم) (سفر التثنية٧/٢)، حتى صار نقض العهود سمة متأصلة فيهم كما هي اليوم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ بأصل الوحي الذي نزل عليهم، وإنما يصدقون كتابات الأحبار.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (١٠١).

١٠١- ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وهو النبي محمد ﷺ ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ مصدّق لما تبقى معهم من الوحي الصحيح حتى يتمكنوا من التمييز بين الغث والسمين، وبين الزيف والحقيقة ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ الفريق هم أحبار اليهود ﴿كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ نبذوا ما يعلمون أنه كتاب الله حقّاً وهو القرآن الكريم، أما الأسفار المنْسوّعة التي حرّرها الأحبار فتمسّكوا بها ﴿كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ الحقيقة، وكأنهم لايعلمون أن النبي المنتظر الذي كانوا يتوقعونه سيكون من سلالة إسماعيل، كما هو واضح من كتابهم في سفر (التثنية ١٨/١٨).

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (١٠٢).

١٠٢- استمرار الخطاب من الآية السابقة، أي بدلاً من اتباع النبي ﷺ للوصول إلى أعلا المراتب، اتبعوا أساليب السحر والشعوذة لاستعادة مجدهم، لأنهم ظنّوا أن مملكة سليمان كانت قائمة على ذلك:

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾ أي ما كانت تتلوا الشياطين ﴿عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ أي على زمن مملكة سليمان، وكلمة الشياطين في هذه الآية تنصرف إلى شياطين الإنس والجن معاً، و﴿تتلوا﴾ بمعنى تقول كذباً، والمعنى أنّ بني إسرائيل بدلاً من اتّباع محمد ﷺ فقد اتّبعوا ما نسبته شياطين الإنس إلى ملك سليمان إذ كان بعضهم-شياطينهم- يشيع أنّ عظمة ملك سليمان عليه السلام قامت على السحر والطلاسم، وأنهم لو توصّلوا لعلومها لاستعادوا ملكه، فاستحوذ ذلك على عقولهم وانهمكوا فيه بسبب انحطاطهم الفكري ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ أي إنّ السحر أو محاولته ليس سوى كفر، وأطلق اسم الشياطين على من يحاوله، وسليمان والأنبياء معصومون منه (البيضاوي)، وقد ذكر اليهود في كتبهم أنّ سليمان كان يشتغل بالسحر فيحرق البخور ويقدم القرابين للأوثان (سفر الملوك الأول١١/١-١٠) وهذه الآية تدحض ذلك ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ أي اليهود-أو شياطينهم- يعلّمون الناس السحر ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ خلال وقوع اليهود في عبودية الأسر البابلي (٥٨٦-٥٣٧ ق. م) قيل إنّه نزل فيهم رجلان سُمّيا ملَكين-بفتح اللام- باعتبار وقارهما فشُبّها بالملائكة، وقيل إنّ ﴿ما﴾

نافية أي إنّ اليهود يعلّمون الناس السحر ويسندون ذلك إلى الملكين ببابل مع أنّه لم ينزل السحر على الملكين وإنّما اخترعاه من عند أنفسهما فكيف يعلّمونه الناس؟ (البيضاوي)، ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ﴾ يقولان إننا أولو فتنة، وننصحك بعدم الكفر، ولعلهما يقولان ذلك لإيهام الناس بفضلهما وللمحافظة على حسن اعتقاد الناس بهما ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ ليس في الآية ما يدل على أن ما يتعلمونه مؤثر بذاته لسبب غيبي أو خارق للعادة ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ إذا صادف أن أصيب أحدهم بضرر من عملهم فهو بإذن الله، أي يكون عائداً لسبب من الأسباب التي ربطت بها المسبَّبات، فليس هنالك قوة غيبية وراء عملهم ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ﴾ الضرر ناتج عن تركهم العمل الجاد، ولجوئهم إلى الشعوذة لمحاولة الوصول إلى المبتغى ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنْ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ في الآية تحذير واضح من محاولة تغيير مجريات الأمور باتباع وسائل فوق طبيعية -في ذهن أصحابها على الأقل- وأن مثل هذه المحاولة تنفي نصيب صاحبها في الآخرة، روى أحمد في مسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «من أتى كاهناً أو عرّافاً فصدّقه فقد كفر بما أنزل على محمد»، ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾ كم هو بائس ما باعوا به أنفسهم، أي سيؤدي بهم إلى البؤس ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ الحقيقة، ولكنهم متعلقون بالأوهام.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (١٠٣).

١٠٣- ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ ببعثة النبي ﷺ ﴿وَاتَّقَوْا﴾ الكفر والطغيان ﴿لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ لكان خيراً لهم من محاولة أساليب السحر والشعوذة ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ العلم الصحيح، لكنهم يتّبعون الظنّ والخيال والعصبية، والآية التالية تحذّر المسلمين من تقليدهم ومن الوقوع في حبائلهم.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٠٤).

١٠٤- ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ انتقال الخطاب إلى المسلمين فيما يخص أحابيل اليهود ﴿لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ لفت النظر إلى مثال من المخطاط تفكير اليهود وسفاهتهم، فعندما قدم النبي ﷺ ومعه المهاجرون إلى المدينة حاول اليهود إشغال المسلمين بقضايا جدلية فرعية لتلويث أفكارهم بأمراضهم الفكرية التي ابتُلوا بها، فكان اليهود عندما يحادثون النبي ﷺ ينفثون نكاياتهم وضغينتهم باستخدام تعابير مموّهة ذات معنى مزدوج، ظاهرها البراءة وباطنها السوء، والعبارة المشار لها في هذه الآية والتي أُمر المؤمنون بتجنّبها ﴿رَاعِنَا﴾ كان يستخدمها اليهود في حديثهم مع النبي ﷺ ليس بمعناها الظاهري، أي إصغ إلينا، بما تنطوي عليه من الوقاحة، ولكن لكونها تشبه كلمة في العبرية ذات مغزى سيء، ولذا أُمر المسلمون بتجنب هذه الكلمة واستخدام عبارة ﴿انظُرْنَا﴾ بمعنى لطفاً أعطنا انتباهك، أو لطفاً أعطنا برهة لنتابع ما تقول ﴿وَاسْمَعُوا﴾ أُمروا بالإصغاء جيداً لحديث النبي، ومغزى الآية تنبيه المسلمين عموماً كي لا يقعوا في أحابيل اليهود، وهي مقدمة للآية التالية أنهم لا يريدون الخير لهم ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ كنتيجة حتمية وطبيعية مترتبة على إنكار الحق والإصرار على الضلال والإضلال،

وكما هي العادة في القرآن الكريم فإنّ مغزى الآية غير مقتصر على ظروفها التاريخية وإنّما يمتد لكل العصور لوجوب التزام المسلمين بتعليمات السنة النبوية وعدم تقديم رغباتهم الشخصية عليها.

﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (١٠٥).

١٠٥- ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ المصرين على كفرهم بلا رجوع ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ اليهود ﴿وَلا الْمُشْرِكِينَ﴾ من مشركي العرب والمسيحية ﴿أَنْ يُنَزَّلَ

عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ الخير المشار إليه هو الوحي، لأنّ الوحي هو الخير المطلق، بدليل تتمة الآية، وهم يبغضون أن يُنزّل الوحي على المسلمين ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ باختيار من يشاء من الأقوام لنزول الوحي، والآية إشارة واضحة إلى إنكار اليهود والمسيحية إمكانية نزول الوحي على غيرهم من الأمم، وغرورهم بالاعتقاد أن الوحي مقتصر عليهم ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ فيختار لرسالته من يشاء وفق حكمته البالغة، انظر آية [آل عمران ٧٣/٣]، وآية [النساء ٥٤/٤] حيث وردت كلمة ﴿الفضل﴾ بمعنى الوحي.

كما وردت كلمة ﴿الرحمة﴾ بمعنى الوحي أيضاً في آية [آل عمران ٧٤/٣] وآيات [هود ٢٨/١١، ٦٣]،

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٠٦).

١٠٦- ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هذه الآية استمرار مباشر لما سبقها، وهي إجابة على الشكوك التي حاول اليهود نشرها، إذ قالوا: ما دام القرآن والكتب السابقة منزّلة من الله فلماذا أبدل القرآن بعض النصوص والأحكام في الشرائع السابقة بأحكام جديدة؟ كما أبدوا استغرابهم من إدانة القرآن لهم لكونهم أضاعوا جزءاً من كتبهم، فقد زعموا استحالة ضياع الوحي الإلهي من الكتب أو من ذاكرة البشر، وفي كل ذلك لم يكن هدفهم موضوعياً ولكن لإلقاء الشكوك حول أصالة القرآن، فالآية تقرر أنّ ما ينسخه تعالى من الشرائع السابقة وأحكامها، أو ما ينساه البشر أو يحرّفونه أو يضيعونه أو يبتكرون غيره-كما أضاعوا التوراة والإنجيل- يُنزّل الله مثله أو خيراً منه في القرآن، وأنّ كل شريعة سابقة نزلت في وقتها لتناسب عصرها، إلى أن خُتمت الرسالات السماوية ببعثة خاتم الأنبياء والرسل محمد ﷺ الذي أرسل رحمة للعالمين جميعاً وليس لأُمّة بعينها، والمعنى شبيه بقوله تعالى ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ

الْكِتَابِ﴾ [الرعد ٣٩/١٣]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل ١٠١/١٦]، بمعنى أنه تعالى نزّل الرسالات السماوية بالتدريج واحدة تلو الأخرى بحسب تطور الإنسان الفكري والاجتماعي، ولمّا ختمها برسالة القرآن اتهم أهلُ الكتاب النبيّ بالافتراء، وليس المعنى نسخ بعض الآيات القرآنية كما يظن بعض المفسرين؛ راجع أيضاً شرح آية [المائدة ٤٨/٥]،

وقد نسب تعالى الإنساء إلى ذاته العلية مع أنه من فعل البشر، فكل شيء في الكون يسير بتقدير من الله ولا يمنع ذلك أن الإنسان مختار لأعماله، قال تعالى عن اليهود ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة ١٣/٥]، وقال عن المسيحية أيضاً ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة ١٤/٥]، وما ذكّروا به هو الذكر، أي الوحي الذي نزل على أنبيائهم، وسُمّي الوحي ذِكراً لكونه يذكّر البشر بالميثاق الفطري المأخوذ عليهم، أنظر شرح آية [الأعراف ١٧٢/٧].

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج ٥٢/٢٢] فقد يكون أنه نسخ الحديث الشريف بالقرآن، أو أنه النسخ لِما يحاول الشيطان إلقاءه في روع الأنبياء من مطامع الدنيا، وليس في الآية ما يدل على غير هذا المعنى، وعلى أية حال فإن قوله: ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ فيه استثناء للنبي ﷺ ويدل على أن الآية تشير لمن قبله فقط من الأنبياء.

أما لو قبلنا رأي بعض المفسرين أنّ المقصود من هذه الآية نسخ بعض آيات القرآن الكريم، فعندئذٍ لا يستقيم المعنى ولا يحصل بين هذه الآية وبين ما قبلها أو بعدها علاقة ولا ارتباط، وينقطع النظم القرآني، ويحصل فساد في الترتيب، وذلك لا يليق بكلام الله تعالى، ولكن يستقيم النظم سابقاً ولاحقاً عندما يكون المقصود نسخ الشرائع السابقة.

وقد ذكر الرازي عن المفسر الشهير أبي مسلم محمد بن بحر الأصفهاني: «أنّ المراد من الآيات المنسوخة هي الشرائع القديمة من التوراة والإنجيل»، وأن «ليس في القرآن آية منسوخة»، و «أنّ النسخ خلاف الأصل فوجب المصير إلى عدمه بضرب من التخصيص أو التأويل»، ويعتمد الأصفهاني على التخصيص والتأويل لإبطال كل ما قاله بعض المفسرين عن نسخ بعض الآيات القرآنية، إذ ثبت في علم أصول الفقه أنّه إذا وقع التعارض بين النسخ والتخصيص كان التخصيص أولى، أي إنّ معنى الآية التي يقولون: إنّها منسوخة، ينصرف إلى إيضاح حالة خاصة، «أما قولهم بالنسخ فهو بعيد، فكأنهم شغفوا بتكثير الناسخ والمنسوخ من غير ضرورة ولا حاجة، والحقّ ما قرره أصحاب أصول الفقه أن الأصل عدم النسخ، فوجب السعي بتقليله قدر الإمكان» (الرازي).

كما ذكر الشيخ محمد رشيد رضا في تفسير المنار ما يلي: «كان لبعض العلماء ولع بتكثير استخراج الناسخ والمنسوخ من القرآن لما فيه من الدلالة على سعة العلم بالقرآن، وإن كان علماً بإبطال القرآن بادي الرأي، من غير حجة تضاهي حجة القرآن في القطع والقوة، ولا ينبغي للمؤمن أن يحسب هذا هيّناً وهو عند الله عظيم» (المنار ص١٢١/ج٢).

يضاف إلى ذلك أنه ليس لفكرة نسخ الآيات القرآنية أساس تاريخي أو سند صحيح في السنّة، وترجع في أصلها إلى:

أولاً: عجز المفسرين عن التوفيق بين بعض آيات القرآن الكريم وبعضها الآخر، فيتجاوزون هذه الصعوبة بمقولة النسخ بطريقة اعتباطية ليس فيها إجماع حتى بين مؤيدي مقولة النسخ أنفسهم،

وثانياً: بسبب اعتبارهم كلمة (آية) بمعنى ضيّق فقط على أنها جملة من القرآن الكريم، مع أنها تحتمل عدة معانٍ، انظر شرح الآية (٣٩).

وثالثاً: بسبب اعتبارهم آية النسخ هذه بمعزل عن سياق المعنى، مما يفسد النظم القرآني ولا يليق بكلامه تعالى،

يضاف إلى كلّ ذلك أنه لا يوجد إجماع بينهم على الآيات التي يُزعم أنها منسوخة، فالزُهري (المتوفّى ٧٤٢م، قرّر أنها ٤٢ آية)، ثم ازداد العدد بعده باطراد حتى زعم ابن سلامة (المتوفّى ١٠١٨م) أن عددها ٢٤٨، وبعده عاد العدد للتناقص فقال السيوطي (المتوفّى ١٥٠٥م) أن عددها ٢٠ فقط، ثم قال شاه ولي الله الهندي (المتوفى ١٧٦٢م) أنها خمسة.

ومن ذلك مثلاً آيات تحريم الخمر الواضح أنها ليست سوى تدرج في التشريع نحو التحريم:

١- ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل ٦٧/١٦]

٢- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة ٢١٩/٢]

٣- ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء ٤٣/٤]

٤- ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة ٩٠/٥].

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ (١٠٧).

١٠٧- ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ أيها الإنسان ﴿أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ فينسخ من الشرائع السابقة ما يشاء بحسب حكمته البالغة ما قد يفوت إدراك البشر، وبحسب ارتقاء الفكر البشري من عصر لآخر، وأن من له ملك

السماوات والأرض قادر على بعث النبوة في غيرهم من الأمم، وقد ختم الرسالات ببعثة خاتم الأنبياء والرسل ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ فلا يغني عنهم شيئاً أنهم كانوا من أتباع موسى وعيسى أو كونهم من سلالة الأنبياء السابقين إن لم يتبعوا الرسالة الإسلامية.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (١٠٨).

١٠٨- ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ أيها اليهود ﴿أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ لأنه عندما أنزل تعالى جواز النسخ في شرائعهم دأبوا على الدخول مع النبي ﷺ في مناقشات جدلية، و﴿رَسُولَكُمْ﴾ هو الرسول محمد ﷺ الذي بُعث للناس كافةً، وسؤالهم موسى من قبل أن قالوا له: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ (٥٥/٢)، وقولهم أيضاً ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ (١١٨/٢)، ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ بدلاً من فهم براهين الحق عقلياً وتقويم رسالة القرآن الكريم من حيث جدارتها مما يودي إلى الإيمان بها، فهم إمّا مكابرون متعجرفون، أو مصرّون على براهين مادية حسية، وذلك هو الضلال عن الطريق القويم.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٠٩).

١٠٩- ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ لأن من شأن الحاسد أن يحاول أو يتمنّى سلب النعمة من محسوده، ولو لم تكن ضارة به، فكيف لو أدّت إلى سيادة المحسود، أو مساواته مع الحاسد؟ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ تبينت لهم آيات النبوة، وانطبقت على البشارات المذكورة في كتبهم، واستيقنتها نفوسهم فجحدوا بها

﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ أيها المسلمون، والعفو ترك العقاب، والصفح هو الإعراض وترك اللوم، والمقصود توجيه المسلم ألا يغضب ولا يثور ولا يكون عدوانياً، بل يكون موضوعياً، لدى مناقشاته الدينية مع أهل الكتاب ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيأذن بنصرة دينه على من عاداه، عندما تأذن الحكمة الإلهية بذلك، وعندما يكون المؤمنون جديرين بالنصر بعملهم، كما سوف تبين الآية التالية، وشبيه بذلك قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة ٥/١٠٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود ١١/١١٨].

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١١٠).

١١٠- ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ بعد أن أمر تعالى المؤمنين بالعفو والصفح عن أهل الكتاب، أمرهم بإصلاح أنفسهم بإقامة الصلاة على حقها والتوجّه إلى الله تعالى والانقطاع اليه، ليجدوا في ذلك السكينة، وليوقنوا أن أمر الله آتٍ ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ لصلاح المجتمع ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ لأن عمل الخير يعود على أصحابه، وبارتقاء المجتمع، فيتحقق وعد الله لهم بحسب سننه تعالى في خلقه ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فبثبيكم بحسب أعمالكم.

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١١١).

١١١- ﴿وَقَالُوا﴾ وهم أهل الكتاب المشار إليهم بالآية (١٠٩)، ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ اليهود يعتقدون أن الهداية مقتصرة عليهم وانتهت بهم، والمسيحية من أتباع بولس مصرون على أن المسيح افتدى المؤمنين به من ربقة الخطيئة ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ ذلك من قبيل الأماني والتمنّي، حتى أقنعوا أنفسهم أنّ الوهم حقيقة ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ لأن البرهان على

هذه الدعوى وغيرها لا يقوم إلا من الكتب التي نزل بها الوحي، وليس من الكتب التي حرّرها الأحبار والكتبة ﴿إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم.

﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١١٢).

١١٢- ﴿بَلَى﴾ خلافاً لما تزعمون ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ مَن أسلم نفسه بالكامل الى الله تعالى، وتوجّه إليه وحده دون سواه، وهو التعريف الحقيقي للمسلم، وبهذا المعنى يستخدم مصطلح المسلم والإسلام في القرآن الكريم ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في عمله ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ هذا المبدأ القرآني بأن ثواب الآخرة ليس حكراً على ملّة معينة، بل هو مفتوح لكل من أسلم نفسه لله وقام بالعمل الصالح تطبيقاً عملياً لإيمانه.

﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتْ النَّصَارَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١١٣).

١١٣- ﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾ رفض اليهود الإيمان ببعثة المسيح عليه السلام ﴿وَقَالَتْ النَّصَارَى﴾ من أتباع المسيح ﴿لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ ما لم يؤمنوا بعبادتهم ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ ينسبون ذلك الاعتقاد إلى كتابهم، أو يعتقدونه رغم أنهم يقرؤون الكتاب ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ وهم مشركو الجزيرة العربية، و كل من يعتقد أن ثواب الله في الآخرة مقتصر عليه ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيؤكد الصحيح من معتقداتهم، ويبيّن الزائف منها.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١١٤).

١١٤- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ لأن اليهود كانوا يمنعون غيرهم من دخول معابدهم، وكان دخول معبد القدس من قبل غير اليهود يُعدُّ جريمةً عقوبتها الموت، وبالعكس تعرض اليهود للاضطهادات الدينية من قبل النصارى في كثير من العصور ﴿وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ يخرّبون معابد بعضهم البعض بحجّة أن كلّ فريق منهم يعتقد ضلال الطرف الآخر، ومغزى الآية وجوب احترام أماكن العبادة التي يعبد فيها الله رغم الخلاف الديني مع أصحابها، انظر أيضاً آية [الحج ٢٢/٤٠]، وقد استقبل النبي ﷺ وفد نصارى نجران في مسجده في السنة العاشرة من الهجرة وسمح لهم أن يمارسوا شعائرهم في مسجده رغم الخلاف الكبير بين العقيدتين الإسلامية والمسيحية ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ﴾ لا يحق لهم دخولها إلاّ خائفين من الله تعالى فكيف يدخلونها مفسدين ومخربين؟ ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ لأنّ تعطيل المساجد وإنكار الدين يؤديان إلى الفواحش والمنكرات والشرور، وفساد وتفكك وانهيار المجتمع، فينالهم خزي الدنيا ﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ عدا ما لحق بهم من خزي الدنيا.

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (١١٥).

١١٥- ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ المشرق والمغرب كناية عن الخلق بكامله ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ الله ليس محدوداً بالمكان، والآية استمرار لما قبلها بحرية التوجه إلى الله تعالى في الصلاة والمساجد، وفيها نهي ضمني عن الاضطهاد الديني والتزمّت والتعلّق بالشكل.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ (١١٦).

١١٦- ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ وهي العقيدة المسيحية التي ابتكرها بولس بعد رفع المسيح وروّج لها بين الوثنيين الهلنستيين في الإمبراطورية البيزنطية ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي تنزّه الله عن الصفات البشرية، لأنّ اتّخاذ الولد حتى بالمعنى

المجازي يتضمّن عدم الكمال ﴿بَلْ لَـهُ مَـا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ من كافة الخلق ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ مطيعون، بمن فيهم المسيح بن مريم.

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (١١٧).

١١٧- ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي خالقهما ومبدعهما على غير مثال سابق ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ فكما هو مبدع السماوات والأرض فإنّما أمره لأي شيء آخر إذا قضاه هو كن فيكون، كخلق المسيح من غير أب.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (١١٨).

١١٨- ورغم أنه تعالى مبدع السماوات والأرض فالجهّال يطلبون آية فأي آية أكبر من الخلق؟ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ أخفقوا في استيعاب الحقيقة فطلبوا أن يظهر الله تعالى لهم أو أن يشاهدوا «معجزة» تلمسها حواسُّهم ليقتنعوا أنّ ما جاء به محمد ﷺ هو الحقيقة، ونظيره قوله تعالى ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً﴾ [المدثر ٧٤/٥٢].

﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ مثل هذا القول قال الذين كفروا بالرسل من قبل، وبالذات اليهود ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ في التعنّت والطغيان ﴿قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي إنّ الآيات المعجزات والإشارات موجودة في كل مكان، ولكنها لا تفيد سوى الذين يبصرون الحقيقة أما المصرّون على المكابرة فما الذي يفيدهم؟

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ (١١٩).

١١٩- ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ فما عليك الاّ البلاغ أيها الرسول ﴿وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ الذين وضعوا أنفسهم بمنزلة

أصحاب الجحيم، فلست مسؤولاً أيها النبي عن إنكار المنكرين المصرين على الكفر ولا يضرّك تكذيبهم.

﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ (١٢٠).

١٢٠- ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ وهو هدفهم النهائي، فهم ليسوا طلاّباً للحقيقة، والخطاب موجّه لكل مسلم في كل عصر، كي لا ينخدع بمظاهرهم، ولا شروطهم التعجيزية، فهي ليست سوى جهود لتفريق المسلمين وإضعافهم، والخطاب عنهم كأمم وجماعات وليس كأفراد، انظر الآية (٦٢)، ﴿قُلْ﴾ لهم أيها النبي أو أيها القارىء أو السامع ﴿إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ الوحيد والحقيقي، وما عداه زيف وضلال ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ لأنّ ما يريدون هو اتباع الهوى ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ العلم اليقيني في القرآن ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ لأن اتباع الهوى ليس خروجاً عن الدين فقط، بل خسارة للدنيا أيضاً.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٢١).

١٢١- ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ من اليهود والنصارى ﴿يَتْلُونَهُ﴾ ضمير الغائب يعود إلى العِلم، المذكور في الآية السابقة وهو القرآن، أي إذا قرؤوا القرآن: ﴿حَقَّ تِلاوَتِهِ﴾ أي قراءة موضوعية بغية الفهم والتدبّر، ولتقويمه من حيث جدارته، لا باتخاذ موقف مسبق، ولا بعقل منغلق مسلفاً، فعندئذٍ يؤمنون به.

ويحتمل عود الضمير في قوله ﴿يَتْلُونَهُ﴾ إلى كتابهم أي لو قرؤوا كتابهم-بما فيه من تشويه- بفكر تحليلي ومستقل لانكشف لهم الزيف الذي أضافه الأحبار والرهبان ولآمنوا بالقرآن ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ فعندئذٍ يؤمنون بالعِلم الذي

جاءك وهو القرآن ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ من المعاندين والمقلدين والمكابرين والزعماء ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ خسروا أنفسهم في الدنيا والآخرة.

﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (١٢٢).

١٢٢- بعد أن بيّن تعالى الحجج الدامغة على بني إسرائيل، دعاهم إلى ترك الغرور الذي يمنع الإيمان فقال عزّ شأنه: ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ تفضيله تعالى لهم بأن بعث منهم الرسل والأنبياء، وصار هذا التفضيل حجّة عليهم لكثرة ما رفضوا الرسل والأنبياء وقتلوا منهم، وقد سبق تذكيرهم بنعمته عليهم بالآية (٤٧)، ثم بعد أن أقام الحجج عليهم تكرر هنا تمهيداً لما سوف يرد من انتقال الرسالة إلى غيرهم، وفي هذا المجال نسرد الخلفية التالية:

(١) كان إبراهيم، بعد نوح، عليهما السلام، النبي المبعوث لنشر رسالة الإسلام العالمية، وقد تجوّل إبراهيم لهذا الغرض لعدة سنوات من العراق إلى مصر ومن سورية وفلسطين إلى أجزاء من الجزيرة العربية داعياً الناس إلى الله، وقد أرسل ابن أخيه لوطاً إلى شرق الاردن وابنه إسحاق إلى سورية وفلسطين وابنه الأكبر إسماعيل إلى الجزيرة العربية حيث بنى في مكّة الكعبة المشرّفة التي أصبحت فيما بعد قبلة المؤمنين.

(٢) تفرعت ذرية إبراهيم إلى فرعين، أحدهما ذرية إسماعيل ممّن قطنوا الجزيرة العربية ومنهم قريش وبقية القبائل العربية بما فيها تلك القبائل التي لم تنحدر بالضرورة من ذريته، ولكنها اعتنقت دعوته وتعاليمه الدينية، والثانية ذرية إسحاق ومنهم نشأ أنبياء عديدون مثل يعقوب ويوسف وموسى وداوود وسليمان ويحيى وعيسى عليهم السلام، وكان يعقوب ﴿ابن إسحاق ابن إبراهيم﴾ يُلقب إسرائيل فعُرفت ذريته ببني إسرائيل وقد تبعهم أقوام آخرون لم يكونوا بالضرورة من ذرية إسرائيل، ولكن ممّن قبلوا دعوتهم الدينية.

(٣) بعد وفاة إبراهيم استمرّ إسحاق ويعقوب وذريتهم الذين عرفوا ببني إسرائيل بالدعوة الدينية العالمية، وتلك هي النعمة التي يذكرها القرآن مراراً بتفضيلهم على العالمين، أي بتحميلهم عبء الرسالة في زمانهم، وفي زمن سليمان اتّخذ بنو إسرائيل القدس مركزا للدعوة وأصبحت القدس بذلك قبلة لهم يتجهون إليها في صلواتهم.

(٤) المعروف أنّ اليهودية والمسيحية ليستا سوى تسميات متأخّرة جاءت بعد موسى وعيسى بزمن طويل ولم تكونا سوى تشويهاً لتعاليمهما الأصلية.

(٥) أقامت الآيات الحجج على اليهود، وأوضحت حالة التفسّخ والانحطاط التي صاروا إليها حتى فقدوا كل إمكانية لاتباع الهدى، فضلاً عن هداية غيرهم.

(٦) لمّا تخلّى اليهود عن دعوة إبراهيم، وفقدوا كل إمكانية عملية للنهوض بها، أوكلَ تعالى المهمة الى غيرهم، انظر آية [الأنعام ٨٩/٦]؛

(٧) تشرح السورة بعثة النبي محمد ﷺ الذي صلّى لأجل قدومه كلّ من إبراهيم وإسماعيل وقت بناء الكعبة، الآية (١٢٩)، وتبيّن أن الدعوة التي بُعث بها النبي ﷺ هي ذات الدعوة التي جاء بها الأنبياء السابقون إبراهيم وإسحاق وإسماعيل ويعقوب وغيرهم.

(٨) انتقال الزعامة الدينية العالمية من بني إسرائيل الى بني إسماعيل، اقتضى تغيير وجهة القبلة إلى مكة المكرمة، وقد كان النبي ﷺ خلال وجوده في مكة يستقبل الكعبة والقدس معاً في صلاته ثم بعد إقامته في المدينة نزل الوحي بتغيير القبلة نحو مكة المكرمة، ولم يكن بمقدور المشركين ولا حتى أهل الكتاب إنكار ذلك إلاّ تجاهلاً، فالكعبة بناها كل من إبراهيم وإسماعيل.

(٩) بعد إعلان انتقال الزعامة الدينية العالمية إلى المسلمين زوّدتهم السورة، في الآيات (١٣٦-٢٨٦)، بالتوجيهات والتشريعات التي نسخت الأديان السابقة، انظر الآية (١٠٦).

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (١٢٣).

١٢٣- ﴿وَاتَّقُوا﴾ أيها اليهود ﴿يَوْمًا لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ الإشارة إلى اعتقاد اليهود أنّ نسبهم إلى إبراهيم سوف ينجيهم من الحساب والعقاب في الآخرة، وهو اعتقاد ينفيه القرآن مراراً وقد تقدّم ذلك في الآية (٤٨).

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (١٢٤)

١٢٤- استمرار الخطاب من الآيات السابقة لأن اليهود ينتسبون إلى جدهم إبراهيم لجهة إسحاق: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ الكلمات هي الخبرات الصعبة التي مرّ بها إبراهيم في حياته وتجاوزها بنجاح ممّا أهّله للقيام بعبء البعثة، فقد كانت حياته منذ تبينت له الحقيقة حتى وفاته مسلسلاً من التضحيات والمشاق، وعزم على التضحية بابنه إسماعيل، وتحمّل أقصى ما يستطيع البشر أن يتحمله من الصعاب في سبيل الدعوة ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ تجاوز إبراهيم كل المحن والابتلاء ﴿قَالَ﴾ تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ بعد أن تجاوز إبراهيم تلك المحن بعثه تعالى إماماً للناس، أي قدوة لهم كي يتبعوا رسالته ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ سأل إبراهيم ربّه إن كانت الإمامة سوف تطال بعض ذرّيته، ولعلّ في ذلك تعبير عن رغبة الإنسان أن ترث ذريّته مناقبه وخصاله ومركزه ﴿قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ المعنى سوف أستجيب لطلبك وأجعل من ذريتك أئمة للناس، سوى أنّ الإمامة هي من حقّ الأتقياء منهم فقط ولا يصلح لها الفاسق، وهكذا لزم انتقال الإمامة من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل لأن ظلم بني إسرائيل بلغ الذروة بكفرهم بآخر أنبيائهم عيسى عليه السلام، وهذه الآية تدحض ادّعاء بني إسرائيل أن الإمامة حق أبدي لهم لمجرد انتسابهم إلى

إبراهيم، وتدحض ادعاءهم أنهم الشعب المختار تفضيلاً على غيرهم من النـاس، وهي أيضاً إيضاح أن المشركين من ذرية إسماعيل لا حق لهم بالإمامة أيضاً.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (١٢٥).

١٢٥- ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ﴾ الذي بناه إبراهيم وإسماعيل ﴿مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾ أي مقصداً يرجعون إليه ﴿وَأَمْنًا﴾ أماناً وملاذاً، لأن الحكمة والخطة الإلهية اقتضت انتقال عبء الرسالة من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ مقام إبراهيم هو المكان الذي صلّى فيه إبراهيم، وقيل إنه الحرم بكامله أو مواقف الحج كلّها ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ من الشرك والوثنية ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ الطواف حـول الكعبة ومغزاه تذكير المؤمنين أن كل أعمال الإنسان ومساعيه يجب أن تتمحـور حول الله ووحدانيته .

أما البيت فيطلق على البيت الحرام أو البيت العتيـق أو المسـجد الحـرام الـذي بناه إبراهيم وإسماعيل وقد ارتبـط اسمه عنـد العـرب بـإبراهيم حتـى قبـل البعثـة الاسلامية.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (١٢٦).

١٢٦- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَـدًا آمِنًـا﴾ محفوظـاً مـن الأعـداء الذين يقصدونه بسوء ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَـرَاتِ مَـنْ آمَـنَ مِنْهُـمْ بِاللَّـهِ وَالْيَـوْمِ الآخِرِ﴾ خصّ إبراهيم دعاءه بالمؤمنين فقط ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً﴾ أجابه تعالى إنّ النعم الدنيوية تعمّ المؤمن والكافر معاً في الحياة الدنيا، وسمّى المتاع قليلاً لكونه محدود الأجل في جنب الآخرة، ونظيره قوله تعـالى ﴿وَلَكُـمْ فِـي الأَرْضِ

مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة ٢/٣٦]، لأنه لو اختصّت النعم بالمؤمنين فقط لبطل الإختبار والتكليف ولصار الإيمان قسرياً ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ الذين يختارون الكفر بمحض إرادتهم، يقودهم ذلك الخيار إلى عذاب الآخرة اضطراراً، وهذه الآية تميّز بين من يشرّفهم الله تعالى بالقيادة الروحية وهداية الناس، وبين من يسبغ عليهم نعمه الدنيوية فقط.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٢٧).

١٢٧- ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ استوطن إسماعيل وأمه هاجر الحجاز، وتزوج فتاة قحطانية من قبيلة جرهم، وبذلك صار جدّاً للعرب المستعربة، وأطلق عليهم هذا الاسم لكونهم من أب عبري وأم قحطانية، وخلال إحدى زيارات إبراهيم لابنه إسماعيل قام إبراهيم ببناء الكعبة يساعده إسماعيل، وكان استيطان إسماعيل في الحجاز بداية الخطّة الإلهية لنقل النبوة من سلالة إسحاق الى سلالة إسماعيل ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وهو دعاؤهما بعد أن عهد لهما تعالى ببناء الكعبة.

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١٢٨).

١٢٨- ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ حتى نعبدك كما تريد ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ استعجاب سبحانه لدعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بأن جعل المسلمين من ذرية إسماعيل.

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٢٩).

١٢٩- ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ﴾ في ذرية إبراهيم وإسماعيل ﴿رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ وقد بعث فيهم النبي محمد ﷺ ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ تلاوة آيات الوحي، أي

تعليمهم المنهج الذي ينبغي أن يسيروا عليه ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ الأحكام التفصيلية التي جاء بها القرآن نظاماً للفرد والمجتمع ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يطهّر أمّته من العقائد الفاسدة والعادات الخاطئة في حياتها الاجتماعية والثقافية والسياسية ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ومن استجابته تعالى لدعاء إبراهيم وإسماعيل أن نهضت الأمة الإسلامية نتيجة العمل بهذه النقاط الثلاث، بما أغنى عن فلسفات وأهواء البشر.

﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٣٠).

١٣٠- ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ لا يترك ملّة إبراهيم إلاّ من كان ضعيف العقل، فكأنه يستخفّ بعقله وبنفسه، والمقصود من عبدوا الأوثان وجعلوا لله شركاء ﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾ أي اصطفينا إبراهيم لهداية الناس ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ كما سيرد في الآية التالية إذ استجاب لدعوة ربه وأسلم نفسه طائعاً مختاراً.

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٣١).

١٣١- ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ المسلم من يسلم نفسه طائعاً لله، ويعبده إلهاً واحداً جديراً وحده بالعبادة، ويسيّر حياته وفق هديه، ووفق هذا التعريف فإنّ جميع الأنبياء منذ بدء الخليقة كانوا مسلمين.

﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٢).

١٣٢- ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ كلّ من إبراهيم ويعقوب أوصوا أبناءهم بالإسلام، وخصّ يعقوب بالذكر دون الباقين لأنّ بني إسرائيل ذرّيته المباشرة ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ وهو تتمة كلام إبراهيم ويعقوب لبنيه، أي إنّ الله تعالى اختار لكم

الإسلام ديناً فتمسّكوا به في كل لحظة من حياتكم لئلا تموتوا على غيره، والدين في المصطلح القرآني ليس مجرّد الملّة أو النحلة، وإنّما طريقة الحياة والسلوك وهو النظام الذي يحدد العقيدة والعمل.

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (١٣٣).

١٣٣- ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ الخطاب موجه إلى بني إسرائيل- بني يعقوب- ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ وهي وصية يعقوب لبنيه، وفي جوابهم له يلاحظ ذكر الآباء والأجداد كونهم انفردوا بعبادة الإله الواحد ودعوا الأمم إليه، وقد ذكر إسماعيل مع الآباء مجازاً رغم أنه عمّ يعقوب ﴿إِلَهًا وَاحِدًا﴾ لا نشرك به غيره ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ مستسلمون ومذعنون ومنقادون، والمغزى أنّ يعقوب-إسرائيل- قد وصّى بنيه بالاستسلام والإذعان لمشيئة الله، فما بال ذريته من اليهود يخالفون وصيته؟

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٣٤).

١٣٤- ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ ذهبت من الدنيا ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من أعمال تجزى بها ﴿وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ من أعمال تجزون بها ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تأكيد على مبدأ المسؤولية الفردية في الاسلام، وبه أيضاً دحض لاعتقاد اليهود أنّهم الشعب المختار لمجرّد نسبهم إلى كبار الأنبياء رغم انحرافهم عن تعاليمهم وهديهم، والمعنى لا تدّعوا هؤلاء الأنبياء لكم، أيها اليهود، فسوف تحاسبون بأعمالكم وليس بأنسابكم.

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٣٥).

١٣٥- ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ أي من دون حاجة لاتباع بعثة خاتم الأنبياء والرسل بزعمهم، مع أنّ الطقوس والأنظمة المعقدة التي تتصف بها اليهودية اليوم لم تظهر سوى في القرن الخامس أو السادس قبل الميلاد أي بعد موسى عليه السلام بحوالي ستة قرون، أما المسيحية بمعتقداتها ومبادئها اللاهوتية التي نعرفها اليوم فقد تجسّدت على يدي شخصين مختلفين في عصرين مختلفين، الأول بولس، حوالي الفترة ٥٥-٦٥م، الذي ابتدع عقيدة جديدة نسبها للمسيح، والثاني الإمبراطور الوثني قسطنطين بعد عيسى المسيح بأكثر من ثلاثة قرون، وقد قرر ألوهية المسيح في المجمع المسكوني الأول عام ٣٢٥م، ولذا ينشأ السؤال تلقائياً: لو كانت هداية الناس متوقفة على اتباع اليهودية أوالمسيحية فماذا يمكن القول عن إبراهيم وباقي الأنبياء عليهم السلام، الذين يعترف بهم اليهود والنصارى، وقد جاءوا قبل اليهودية والنصرانية بعدة قرون؟ والمغزى أنّ استقامة الإنسان لا تتوقف على كونه يهودياً أو نصرانياً حسب مصطلحهم، ولكنها تتوقف على اتباع الحقيقة الأزلية التي اهتدى بها الناس على مرّ العصور ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الحنيف من فعل حنف أي مال إلى الطريق الصحيح، وترك ما كان عليه أهل عصره من الضلال والشرك، وأطلق على إبراهيم لأنّ الناس في أيامه كانوا على طريقة واحدة هي الكفر فخالفهم، وهذه العبارة ذات دلالة توحيدية قبل البعثة النبوية إذ اتصف بها الأشخاص الذين زهدوا عن مادية الدنيا وانصرفوا عن عبادة الأصنام.

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (١٣٦).

١٣٦- ﴿قُولُوا﴾ أيها المسلمون ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ عدم التفريق بين الأنبياء يقتضي الإيمان أنهم كانوا جميعاً على الحق، إذ يتلقون الوحي من منهل واحد ويدعون الناس إلى الحقيقة الواحدة، أما من يؤمنون بنبي ويكفرون بآخر فهم في الواقع يكفرون حتى بالنبي الذي يدّعون الإيمان به، لأنهم لا يستوعبون وحدة الرسالات السماوية ، فدينهم ليس سوى تعصب وتقليد وجنسيّة توارثوها عن أجدادهم.

﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٣٧).

١٣٧- ﴿فَإِنْ آمَنُوا﴾ وهم أهل الكتاب وغيرهم ﴿بِمِثْلِ مَا آمَنتُمْ بِهِ﴾ وهو الإيمان بكافة الرسالات السماوية، وبعثة خاتم الأنبياء والرسل ﴿فَقَدْ اهْتَدَوا﴾ تلك الهداية الصحيحة لا غير، ولا يوجد غيرها من الحلول الوسط، أو أنصاف المؤمنين ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الإيمان بكافة الأنبياء والرسل وبخاتمهم النبي الأحمد ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ كما هو واضح من تاريخهم القديم والحديث، تفرقوا شيعاً ومذاهب وكنائس متعددة لا حصر لها، ولا تزال فرقهم في ازدياد ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ وعد للمؤمنين بالحفظ والنصرة على من عاداهم ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لدعائكم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بعقيدة ونوايا الطرفين.

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ (١٣٨).

١٣٨- ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ استمرار الخطاب من الآية السابقة، والمعنى: اتخذنا نحن المسلمون صبغة الله، فماذا يريد أهل الكتاب

وغيرهم أحسن منها؟ فمن يؤمن بما أنزل على جميع الأنبياء كافةً فقد اتّخذ صبغة الله، وفي كلمة (صبغة) إشارة إلى عادة اليهود وقت بعثة يحيى وعيسى عليهما السلام تغطيس المعتنق الجديد للدين في ماء النهر تعبيراً عن غسل خطاياه السابقة، واتخاذه صبغة جديدة في الحياة، ولذا أطلقوا على يحيى عليه السلام لقب (يحيى الصابغ أي المعمدان)، ومنه قوله تعالى ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ (٦٢) أي الصابغين، وقد استمرت هذه العادة لدى النصارى وصار يطلق عليها «التعميد»، واستخدمت أيضاً مع حديثي الولادة، أما مغزى الآية فهو كما يلي: ما فائدة التعميد أو التغطيس الشكلي بالماء؟ فالمهم اتخاذ صبغة الله ليس بالغسيل الظاهري للجسد، ولكن بتطهير الروح بواسطة الإيمان الصحيح والأعمال الصالحة ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ نحن المسلمون عابدون لله وحده، بلا شرك.

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ (١٣٩).

١٣٩- ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي إنّ ما جاء به محمد ﷺ لم يكن سوى الدعوة إلى عبادة الله وحده، وهو ربّ الجميع، وليس في ذلك ما يدعو إلى الجدل بين المؤمنين، ولكنّ الجدل ينتج عن اعتقاد اليهود أن النبوة من حقهم فقط دون غيرهم من الأمم، ثمّ اعتقاد المسيحية بألوهية المسيح، وكل منهم يعتقد أن النجاة في الآخرة من نصيبه فقط ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا﴾ نُحاسب بها ﴿وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ تُحاسبون بها، وهو تأكيد على مبدأ المسؤولية الفردية في المعتقد والسلوك وحرية الخيار، فالمسلمون لن يُكرهوا أحداً على اعتناق الإسلام ﴿وَنَحْنُ﴾ المسلمون ﴿لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ فلا نعبد غيره.

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (١٤٠).

١٤٠- ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ الأسباط هم ذريّة يعقوب، والخطاب موجّه إلى جماهير اليهود والنصارى الذين اعتقدوا أن جميع الأنبياء كانوا على ديانتهم ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ وهُم أحبار اليهود ورهبان النصارى يعلمون تمام العلم أن اليهودية والنصرانية بمفاهيمها الحالية نشأت في وقت متأخر بعد الأنبياء، ومع ذلك تظاهروا بأنّ الحقيقة في متناول أيديهم فقط، وضلّلوا عامة الناس، ونشروا المفاهيم الخاطئة بأن نجاح الدنيا ونجاة الآخرة يكمن في اتباع المعتقدات والمؤسسات والنظم التي ابتكروها هم أنفسهم بعد ذهاب الأنبياء بوقت طويل، فلو سُئل أحدهم: إلى أي من الديانات كان ينتسب كل من إبراهيم وإسحاق ويعقوب؟ لما جرؤوا على الادعاء بأن الأنبياء المذكورين ينتمون إلى ملّتهم أو طائفتهم، وفي الوقت ذاته لا ينفون ذلك صراحة، لأنهم لو فعلوا لكان نسفاً لما يدعونه من احتكار الحقيقة ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من إضلال عامّة الناس.

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٤١).

١٤١- ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لاتؤاخذون بسيئات من سبقوكم ولا تنفعكم حسناتهم، وتكرار هذه الآية في مجال افتخارهم بالأنبياء إشارة إلى أنّ السعادة والنجاة متعلقة بالمسؤولية الفردية، ولا علاقة لها بالآباء والشفعاء.

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٤٢).

١٤٢- ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ وهم اليهود ﴿مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ كان النبي ﷺ في مكة يصلّي تجاه الجدار الجنوبي للكعبة متجهاً شمالاً، مستقبلاً الكعبة وبيت المقدس معاً، ولمّا هاجر إلى المدينة استمرّ في التوجه شمالاً لحوالي ستة عشر شهراً حتى نزل الوحي بالتوجّه نحو الكعبة، فامتعض يهود المدينة، والآية تشير إليهم، فمن وجهة نظر قرآنية لم يكن هنالك تغيير لوجهة القبلة لأنّ الآية (١٤٤) هي أوّل ما نزل بتعيينها، وهنالك تسلسل بين الآية (١٤٢) والآيات التي سبقتها من حيث إنّ إبراهيم هو الذي بنى الكعبة ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ تنبيه لضعاف العقول والمغرضين الذين يعلّقون أهمية شكلية على جهة الصلاة، كما لو كان تعالى في جهة معينة فقط، في حين أنّ الذين يتقبّلون الهدي الإلهي من ذوي العقول الموضوعية يترفّعون عن الخوض في الشكليات لأنهم يفهمون جوهر الدين ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي يهدي من يشاء الهداية فيوفّقه إلى ذلك.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١٤٣).

١٤٣- ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ كذلك ببعث خاتم الأنبياء جعلناكم أمةً وسطاً، وكذلك جعلنا القبلة في مكة بدلاً من القدس بعد إزاحة بني إسرائيل من القيادة الروحية للعالم وإحلال أمّة محمد ﷺ مكانهم ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ بأن يكون المسلمون أمّة تحافظ على الاتزان والاعتدال بين النقائض، في كل نواحي الحياة، فالأمة واقعية في نظرتها لطبيعة الإنسان والوفاء

برغباته، وفي نفس الوقت ترفض الفسوق وعدم الالتزام المطلق، كما ترفض المبالغة في الزهد والتنسّك، والقرآن يحذّر المسلمين من المبالغة في التركيز على النواحي المادية في الحياة، ولكنه في الوقت ذاته يبيّن أن النزعات والرغبات البشرية للمرء طبيعية ويجب إرضاؤها وفق الشريعة، وأن ليس من تناقض بين الجسد والروح ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ الغرض من جعل المسلمين أمّةً وسطاً أن تكون الأمة قدوة للناس أجمعين في أعمالها وسلوكها فتحقق العقيدة الإسلامية قولاً وعملاً، بممارسات حياتية عملية تكون في ذاتها قدوة للناس، وبالتالي دعوة عملية إلى الإسلام، وتكون حياتهم شهادة فعلية لبيان الصواب من الخطأ ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ كما كان الرسول قدوة لكم بأعماله وسلوكه وأخلاقه ودعوته،

إنّ هذا التكريم الذي حظي به المسلمون أن يكونوا شهداء على الناس، هو في الوقت ذاته مسؤولية ضخمة لقيادة العالم أجمع عن طريق القدوة بالأعمال الحسنة والخلق الصحيح قولاً وعملاً، وكما نقل الرسول ﷺ الرسالة إلى المسلمين فهم بدورهم يتحمّلون مسؤولية نقلها إلى باقي الناس بالقدوة الحسنة، وإذا قصّروا في ذلك فإنّ الزعامة الروحية التي أوكلت إليهم تكون وبالاً عليهم، كما كانت على بني إسرائيل، فهي ليست مجرّد زعامة معنوية وإنّما مسؤولية ثقيلة يحاسبون عليها ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا﴾ أي التي كنت تتّبعها ﴿إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ لكي يتمّ، وفق سنن الأسباب والمسبّبات، فرز الذين سيطرت عليهم عصبيتهم القومية وغلو النسبّ من الذين تحرروا من هذه التوجهات الجاهلية وارتفعوا إلى المستوى الذي يمكّنهم من رؤية الحقيقة ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ كان اختباراً صعباً على الكثيرين ممّن سبق أن ربطوا التوجه نحو بيت المقدس برسالات الأنبياء السابقين، ولكنّ أقوياء الإيمان لم يجدوا صعوبة في قبول ذلك،

لأنهم يعلمون أن إبراهيم عيه السلام هو الذي بنى الكعبة رمزاً للتوحيد ومركزاً فكرياً لوحدة المسلمين، ورغم أنها كانت تعج وقتئذ بأصنام المشركين ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ إيمان المؤمنين، لن يذهب سدى عند الله.

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (١٤٤).

١٤٤- ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الآية تدلّ على أنّ النبي ﷺ كان يتوقّع هذا الأمر، لشعوره أن الوقت قد حان لكي تعود الكعبة مركزاً لدعوة إبراهيم عليه السلام مع نهاية عصر الزعامة الروحية لبني إسرائيل ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ باتجاهه ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ لأنهم يعلمون أن بُناة الكعبة هم إبراهيم وإسماعيل، وقد ذكر عبد الأحد داوود في كتابه «محمد في الكتاب المقدس» أنّ انتقال بيت المقدس إلى بلاد جنوبية مذكور في رؤيا إدريس Enoch's Apocalypse وأن بيت الله في الجنوب يكون أعظم وأكبر منزلةً من سابقه، ويلاحظ أن المروة والصفا في مكة يحملان ذات الإسمين ﴿موريا﴾ و ﴿زيون﴾ للمرتفعين في القدس ولهما نفس المعنى ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ من تجاهل ذلك، فيحاسبهم عليه.

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٤٥).

١٤٥- ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، وبالتالي لأمة المسلمين في كل العصور، والمعنى

أن الحقيقة مهما كانت ساطعة، والحجة مهما كانت باهرة، فإن التحامل والعناد والتقليد مسيطر على تفكير أهل الكتاب ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ لأنهم منقسمون طوائف كثيرة، كل منها تدعي الحقيقة لنفسها في حين أنهم يتوجهون إلى قبلة أهوائهم وعصبياتهم ومصالحهم المادية والشخصية فلكل منهم وجهة هو موليها كما سيرد: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ المعنى أنه لا يمكن الوصول إلى حل وسط معهم إلا باتباع أهوائهم، ونظير ذلك قوله تعالى ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران ٣/١٠٠]، والمغزى أيضاً أنه لا عذر في التولّي لمن جاءه علم الكتاب.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٤٦).

١٤٦- ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾ يعرفون الرسول محمد ﷺ المشار إليه بالآية (١٢٩)، ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ كما يعرف أحدهم ابنه من بين أبناء الناس كلهم، وكانت العرب تضرب هذا المثل في صحّة الشيء، وأهل الكتاب أيضاً يعرفون مكان القبلة الجديد القديم بداهةً، وفي الكتاب اليهودي المقدس المسمّى العهد القديم (سفر التكوين ١٨/٢١) ورد صراحة أن ستنشأ أمة عظيمة من سلالة إسماعيل، وأن سيكون منها النبي المنتظر الشبيه بموسى (سفر التثنية ١٨/١٨)، ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ﴾ وهم العلماء من بينهم كما سيرد ﴿لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ لأنهم على علم أنّ إبراهيم هو الذي بنى الكعبة أصلاً، وأنّ مسجد القدس بناه سليمان بعد ذلك بأكثر من عشرة قرون، فالكعبة كانت هي القبلة طيلة تلك الفترة، وتلك حقيقة تاريخية يعرفونها حقّ المعرفة ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ الحق، كما يعلمون أنهم على ضلال.

﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ (١٤٧).

١٤٧- ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي هذه هي الحقيقة النهائية، والخطاب موجّه لكل مسلم في كلّ عصر أن لا يكون في شكّ من ذلك.

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٤٨).

١٤٨- ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ قال القرطبي أنّ الضمير المنفصل ﴿هُوَ﴾ يعود على لفظ ﴿وَلِكُلٍّ﴾، أي هو-كل فرد من الأفراد- مولّي قبلته وجهه ونفسه، والمعنى لكلّ صاحب ملّة، قبلة يولّيها وجهه ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ الأهم هو التوجّه نحو الاستقامة والتقوى واستباق الخيرات التي تمحّض عليها الصلاة، أي التركيز يجب أن يكون على المضمون وليس فقط على الشكل، لأنّ المغزى من التوجه نحو القبلة يجب أن يكون في استباق الخيرات، وهذا المعنى شبيه بآية [المائدة ٥/٤٨]، ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ فيثيبكم أو يجازيكم على أعمالكم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا يعجزه شيء.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٤٩).

١٤٩- ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أعاد الأمر لبيان أنه شريعة عامة في كل زمان ومكان ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ إعلان عن حقيقة وشريعة ثابتة ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ في قبولكم للحقيقة.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٥٠).

١٥٠- ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ جمع بين الخطاب للنبي ﷺ ولعامة المسلمين،

وتعليل ذلك فيما يلي: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ بما أن القرآن يؤكد أن المسلمين هم أتباع إبراهيم لذا وجب أن يتّبعوا قبلته، فلو توجهوا في صلاتهم لغير الكعبة لاحتجّ الناسُ عليهم بذلك ﴿إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ إنّ اتباع الكعبة لا يترك حجة للناس إلاّ الذين ظلموا منهم واستعمال الفعل الماضي بكلمة ﴿ظَلَمُوا﴾ يؤدّي معنى الإصرار على الإنكار والمكابرة والعدوان فلا يرجى منهم العودة إلى الصواب، كما في الآية ﴿٦﴾، ﴿وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ بفتح مكة ودخول المسجد الحرام ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى الحقيقة.

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (١٥١).

١٥١- ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ﴾ الخطاب متّصل بما قبله أي: ولأتمّ نعمتي عليكم بفتح مكة ودخول المسجد الحرام، كما سبق أن أنعمت عليكم بإرسال الرسول منكم ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾ فيبين لكم منهاج الحياة الصحيح ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ يطهّر نفوسكم من الوثنية والشرك ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ﴾ القرآن ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ الفقه والعلم والفهم ﴿وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ ممّا لا طريق إلى معرفته إلاّ بالوحي، الآية (١٢٩).

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾ (١٥٢).

١٥٢- ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ في الحديث القدسي: «أنا عند ظنّ عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»، والمعنى كما ذكرتم بفضلي فاذكروا ربّكم ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾ وكما تعطفتُ عليكم بالنعم فاشكروها، وشكرها يكون بالقول والعمل.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (١٥٣).

١٥٣- ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ الآية استمرار لما قبلها من حيث أنّ جعل المسلمين أمةً وسطاً تدعو الناس إلى الإسلام، وكون الرسالة السماوية الأخيرة نزلت عليهم وظهر فيهم خاتم الأنبياء والرسل، فانتقلت إليهم الزعامة الروحية للعالم بعد بني إسرائيل، كل ذلك سيجعل اليهود والمسيحية يتهجّمون عليهم، فأمر تعالى المسلمين بالاستعانة على عداوة الناس بالصبر والصلاة، كما أنّ الآية توجيه لكل مسلم لمواجهة كل محنة بالصبر والصلاة لأن الإيمان، وما يترتب عليه من العمل، يصاحبه مشاق وعناء كما سيرد في الآية (١٥٥)، ولو كانت النعم الدنيوية ملازمة للإيمان لبطل الاختبار والتكليف ولصار الإيمان قسرياً، انظر الآية (١٢٦).

﴿وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ﴾ (١٥٤)

١٥٤- ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ﴾ استمرار للخطاب السابق كأنه تعالى قال: استعينوا بالصبر والصلاة في إقامة الدين ومجاهدة عدوّكم، فإن حصل فيكم القتل فاعلموا أن قتلاكم أحياء عند الله، وأيضاً استعينوا بالصبر والصلاة عند المصيبة، واعلموا أن قتلاكم أحياء عند الله.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (١٥٥).

١٥٥- ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ استمرار الخطاب أي استعينوا بالصبر والصلاة عندما نبلوكم بالخوف والجوع، نتيجة محاربة الآخرين لكم، والابتلاء هو الاختبار وقلّله في قوله ﴿بِشَيْءٍ﴾ لأنّ كلّ بلاء أصاب الإنسان فهو أقلّ مما فوقه، وإنّما وعد الله عباده ذلك قبل وقوعه ليوطّنوا نفوسهم عليه (الزمخشري)، وقيل: إنّ

نقص الثمرات هو موت الأولاد، وقد تكون فقد بعض الأعضاء والحواس كفقد النظر ومثله، غير أن نقص الثمرات قد لا يعني بالضرورة موت بعض الأولاد، وإنما فقدهم المعنوي، كأن يختار أحدهم طريق الضلال، والمغزى أنّ بحرّد الإيمان لا يقتضي سعة الرزق والنجاح وانتفاء المخاوف والأحزان، بل تجري الأمور بسنن الله تعالى في خلقه وفق الأسباب والمسبّبات، فلا بد من الصبر: ﴿وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ﴾ بأنّ الفوز الأخير لهم.

﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (١٥٦).

١٥٦- ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ﴾ إقرار من العبد لخالقه بالملك ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ إقرار بالبعث والنشور، وليس القول باللسان فقط ولكن بالقلب أيضاً، وهو الرضا بالقضاء وترك الجزع، قال ابن مسعود: لأن أخرّ من السماء أحبّ إليّ من أقول لشيء قضاه الله ليته لم يكن.

﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (١٥٧).

١٥٧- ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ صلوات الله على عباده هي المغفرة، والمعنى من صبر عند المصيبة، وقال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، كُتب له ثلاث خصال: المغفرة، والرحمة، وتحقيق سبل الهدى.

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (١٥٨).

١٥٨- وهذه الآية تتمة للموضوع من حيث إنها بشارة ضمنية للمسلمين أنّهم سوف يفتحون مكة ويدخلون المسجد الحرام ويقيمون فيه مناسك إبراهيم ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ أي علَماً من أعلام طاعة الله، وقد جعلهما الله تعالى كذلك لأنهما من آثار هاجر وإسماعيل بعدما تركهما إبراهيم في مكة بوحي من الله، وإسماعيل في ذلك الوقت لم يزل طفلاً، فلمّا اشتدّ بهما العطش وخافت هاجر على حياة ولدها أخذت تجري بين الصفا والمروة بحثاً عن الماء

حتى تفجّر ماء زمزم فأنقذهما، فصار السعي بين الصفا والمروة رمزاً للابتلاء والإيمان المطلق برحمة الله والصبر على الشدائد، وهذا أيضاً من علاقة الآية بما قبلها فهو تحقيق لما ذُكر بالآية (١٥٥) من أنه تعالى يبتلي عباده بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وأنّ الله مع الصابرين (الرازي)، ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ كان الناس في الجاهلية يسعون بين الصفا والمروة تعظيماً لصنمين كانا عليهما، ولذا تحرّج المسلمون من الطواف بينهما، فبيّنت الآية أنّ الصفا والمروة من شعائر الله ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ مَن تطوّع خيراً فاعتمر فإنّ الله شاكر لعمله، عليم به، فالحجّ فريضة، والعمرة تطوّع.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ (١٥٩).

١٥٩- في هذه الآية عودة إلى أصل السياق وهو عداوة اليهود للنبي ﷺ وإنكارهم مكان القبلة، وكتمانهم البشارات بقدوم النبيّ الأحمد، كما كتموا الدلائل على نبوّة المسيح من قبل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾ قالوا: إن المقصود بالكتاب هو كتاب اليهود والنصارى، فتكون الإشارة بهذه الآية لهم، لأن أحبارهم وعلماءهم كانوا يحتكرون علم الكتاب ولا ينشرونه بين عامة الناس، بل إنهم كتبوا غيره من عندهم، و لم يُترجم كتابهم المقدس إلى اللغات الأوروبية إلاّ في القرن السادس عشر،

ويحتمل أن تكون العبرة بعموم اللفظ أي لا يجوز كتمان ما أُنزل على الأنبياء من الكتب والوحي والعلم ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾ أصل اللعن في اللغة هو الطرد والإبعاد وفي الشرع هو الإبعاد من رحمة الله ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ الملائكة والمؤمنون يسألون ربّهم أن يبعد الكفّار من رحمته، والمغزى أنّ جميع الكائنات تراهم جديرين بلعنة الله.

﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١٦٠).

١٦٠- ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا﴾ عن الكتمان ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ عملهم باتباع البيّنات والإسلام ﴿وَبَيَّنُوا﴾ جاهروا بعلمهم وعملهم وبيّنوه للناس ﴿فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ أقبل توبتهم، وقد أسند تعالى إلى ذاته العليّة فعل التوبة الذي أسنده إليهم ﴿وَأَنَا التَّوَّابُ﴾ يصف سبحانه وتعالى نفسه بكثرة الرجوع إلى العبد والتوبة عليه حتى لا ييأس العبد من رحمة ربّه ﴿الرَّحِيمُ﴾ يرحمهم الله تعالى رغم التفريط العظيم منهم.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١٦١).

١٦١- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أصرّوا على كفرهم حتى ماتوا، بالمقابلة مع الذين تابوا المذكورين في الآية السابقة ﴿أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ جميع من يعلم حالهم من الكائنات يراهم جديرين بلعنة الله وهي الحرمان من رحمته.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ (١٦٢).

١٦٢- ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ كنتيجة طبيعية ولازمة لأعمالهم ﴿وَلا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ لا يُمهلون، لأنّ الإمهال كان في الحياة الدنيا.

﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (١٦٣).

١٦٣- ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ تنبيه للمشار إليهم في الآيات السابقة ممّن يكتمون البيّنات والمصرّين على ضلالهم وشركهم، أنّ الخير والرحمة بيد الله وحده، فلا رجاء من غيره، وهذه الآية أيضاً هي أساس التوحيد.

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا

وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١٦٤).

١٦٤- إثباتاً لما ورد في الآية السابقة تشرح هذه الآية بعض الآيات الكونية الدالّة على التوحيد، وعلى رحمة الله، ومثيلاتها في القرآن الكريم كثيرة، وهي تحثّ الإنسان على استخدام العقل ودراسة العلوم والتفكير في العجائب اليومية للطبيعة، بما فيها الناتجة عن عبقرية الإنسان نفسه كالسفن التي تجري في البحر، وكلّها مؤشرات على وجود سلطة عليا مدبّرة للكون.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ (١٦٥).

١٦٥- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا﴾ أي رغم كل البراهين والدلائل الكونية القاطعة، ممّا هو مذكور في الآية السابقة، فمن الناس من يتّبع من دون الله أنداداً ، والندّ هو الذي يُطلب منه ما لا يُطلب إلاّ من الله عزّ وجلّ، ومنهم الأحبار والأسياد والرؤساء والزعماء الذين يطيعُهم البعض فيحلّون بطاعتهم ما حرّم الله، ويحرّمون ما أحلّ الله، أو يعتمدون عليهم في دفع المضار وجلب المنافع متوهّمين فيهم السلطة الغيبية، أويتّبعون رؤساءهم لارتباط مصالحهم الدنيوية بهم في المادة والجاه ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ يحبّون الانقياد لهم والتقرب إليهم، كحُبّ المومنين لله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ وليس للأنداد ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ وجواب (لو) محذوف: أي لَعلموا أنّ أسيادهم عاجزة لا تنفعهم.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ (١٦٦).

١٦٦- ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ تتصلّ الزعماء من أتباعهم، كما هو مفصّل في آيات [الأعراف ٧/٣٨-٣٩]، ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ الذي نتج عن

سوء عملهم ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ زالت العهود بينهم وما كانوا يتواصلون به من الضلال.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ (١٦٧).

١٦٧- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ عودة إلى الدنيا ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾ وهم السذّج الذين استسلموا لخداع زعمائهم، والانتهازيين الذين تهالكوا على مصالحهم الشخصية في الحياة الدنيا فرجّحوا طاعة أسيادهم على طاعة الله ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ فالعذاب بنتيجة الحسرة على ما قدّموا من سيىء الأعمال ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ لأن فترة الاختبار تكون وقتئذٍ قد انتهت، فليس من فرصة ثانية بالعودة إلى هذه الدنيا كما يتمنّون.

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (١٦٨).

١٦٨- يلاحظ اتصال الكلام بما قبله، لأنّ البعض يطيع الأنداد في التحليل والتحريم بلا أساس من الكتاب والسنّة، فيقرّون للأنداد بحق إصدار تشريعات ذات صفة دينية أو شبه دينية، إضافة إلى العادات الاجتماعية التي سوّغتها التقاليد، وهيمنت عليهم، فصارت ملزمة لهم أكثر من الشرع:

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً﴾ كلوا بطريق الحلال ﴿طَيِّبًا﴾ وصف الحلال وحده أنه طيب، وهو أمر بطرح المحرّمات المنبثقة عن الخرافات والعادات والتقاليد، لأنّ الأصل في الأمور الحلّ إلاّ ما نصّ على حرمته الكتاب والسنة ﴿وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ لأنه يزيّن للناس ضلالهم ويزين لهم التحليل والتحريم من عند أنفسهم ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (١٦٩).

١٦٩- ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ﴾ الفحشاء المعاصي الكبيرة القبيحة ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ الإشارة إلى الشرائع الوضعية التي يبتدعها البشر من عند أنفسهم وينسبونها إلى الدين كما تفعل المجمعات المسكونية، وإلى التكاليف «الشرعية» التي يقرّها البعض من دون سند قطعي من القرآن والسنة الصحيحة ويجعلونها جزءاً من العقيدة يلزمون به الناس.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾ (١٧٠).

١٧٠- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ الكفار مصرّون على التقليد، ومبررهم الوحيد لاتّباع المعتقدات الخاطئة والمحرّمات أنهم توارثوها من التقاليد جيلاً بعد جيل بلا تفكير، مفضّلين عقول آبائهم على عقولهم، ولذلك شبّههم تعالى بالبهائم في الآية التالية ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾ أي لا يعقلون شيئاً من الشرائع الإلهية، ولا يهتدون سبيلاً إلى مصالحهم الدينية والدنيوية.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ (١٧١).

١٧١- ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ شبّه تعالى الذين صمّموا على الكفر بالبهيمة التي تشعر بنداء المنادي- الراعي- فلا تفقه منه سوى أنّه مجرّد تصويت ونداء، ولا تفهم معناه، والمعنى أن الكَفَرة، لكونهم أسرى لأفكارهم أو لانهماكهم في التقليد، لا يفكرون فيما يتلى عليهم من الوعظ ولا يتأمّلون فيه ولا يستوعبونه ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ صمّ عن سماع الحق سماع الفهم والتفكّر، ولا يتكلمون به عن اعتقاد وعلم، ولا يبصرون آيات الله في الخلق ﴿فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ ينقادون لغيرهم كما تتبع البهائم الراعي دون أن يفقهوا النداء.

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (١٧٢).

١٧٢- ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ توسيع الحلال وإباحة ما في الأرض، سوى ما حرّم عليهم كما هو مبين في الآية التالية، والمغزى عدم مشروعية المبالغة في الزهد بتعذيب النفس وتحقير الجسد وترك حاجاته الطبيعية، كما يفعل الرهبان وبعض المتصوّفة ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ بالقول والعمل ﴿إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فلا تتبعوا الآباء، ولا التقليد، في التحليل والتحريم ﴿الآية ١٧٠﴾، بل اتبعوا القرآن.

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٧٣).

١٧٣- ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ﴾ وفي آية [المائدة ٥/٣] مزيد من التفصيل عن اللحوم المحرّمة ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ هو ما يذبح قرابين لآلهتهم أو أنصابهم أو قدّيسيهم ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ﴾ اضطرته الحاجة الشديدة وهو لا يبتغيه ولا يستسيغه ﴿وَلَا عَادٍ﴾ ولا يتعدّى حاجته فيه ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في تناوله عند الضرورة لأن إلقاء النفس إلى التهلكة أشد ضرراً من أكله ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما فعل ﴿رَحِيمٌ﴾ بالرخصة فيه.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١٧٤).

١٧٤- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ الكتاب اسم جنس لكل ما نزل من الوحي على الأنبياء ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ كل لمن يؤخذ عوضاً عن الحق فهو قليل ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ أي يأكلون في بطونهم الأغراض الدنيوية التي تهالكوا عليها فتكون سبباً لدخولهم النار ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ كناية عن إعراضه تعالى عنهم وغضبه عليهم

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ لا يطهّرهم من ذنوبهم بالمغفرة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بنتيجة عملهم.

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾ (١٧٥).

١٧٥- ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ كأنّ رأس مالهم الهدى فتخلوا عنه واختاروا عليه المآرب الدنيوية العاجلة ﴿وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ لأنّ المتهالك على الدنيا في عذاب دائم فهو دوماً في طلب المزيد ولا يقنع بشيء، عدا عذاب الآخرة الذي ينتظره، فكأنّه فضّل العذاب على مغفرة الله ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ أي ما أجرأهم على العمل الذي يقرّبهم إلى النار.

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ (١٧٦).

١٧٦- ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ ذلك تشير إلى الحكم المذكور بالآيتين السابقتين هو بسبب أنّ الوحي نزل متضمناً بيان الحق ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ﴾ الذين أنكروا الكتاب أو كتموا بعضه أو رفضوا بعضه الآخر ﴿لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ بعيدون جداً من الصواب، وفي خصام كبير فيما بينهم فتراهم فرقاً وشيعاً كل منهم يبتكر من أفكاره الخاصة ما يظنه بديلاً عن الكتاب، ومصداق ذلك ما نشاهده اليوم من تفرق أهل الكتاب شيَعاً بالمئات، كل كنيسة وفرقة منهم ذات عقيدة مختلفة عن الأخرى.

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (١٧٧).

١٧٧- ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ المعنى أنّ مجرّد التقيد بالشكليات والمظاهر الخارجية لا يكفي للتقوى، والإشارة للآية (١٤٢) التي تتضمن اعتراض السفهاء على التوجه إلى المسجد الحرام في الصلاة، لأنّ البرّ هو ما ثبت في القلوب من الإيمان وما يظهر من أثره في النفوس من العمل وليس البرّ بمجرّد الصلاة من دون عمل ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ذَكَر الإيمان باليوم الآخر بعد الإيمان بالله، لأن الإيمان باليوم الآخر يقتضي اليقين بتحقق العدالة في كل الأمور، وأن الحياة الآخرة ليست سوى استمرار للحياة الدنيا بشكل آخر، أو هي مرحلة مترتبة عليها ﴿وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ﴾ المراد بالكتاب اسم جنس وهو كل ما نزل من الوحي على الأنبياء، و ذكر الملائكة لأنها متضمنة في الإيمان بالغيب الذي لا يدركه البشر بحواسّهم ﴿وَالنَّبِيِّينَ﴾ بلا تفريق بينهم ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ أي رغم حبّه للمال، أو لأجل حبّ الله، والمقصود بإيتاء المال غير الزكاة، لأنّ الزكاة وردت مستقلة في تتمة الآية، أخرج الترمذي والدارمي عن فاطمة بنت قيس أنها سمعت النبي ﷺ يقول: «إنّ في المال حقّاً سوى الزكاة» ثم تلا هذه الآية، وقد أجمعت الأمة أنه عند الضرورة ينفق المرء من ماله ما يدفع الضرر وإن كان أدّى الزكاة بكاملها (الرازي)، ﴿ذَوِي الْقُرْبَى﴾ ذوو القربى أحق الناس بالنفقة والبر وصلة الرحم ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ﴾ والمساكين أي أهل السكون من الفقراء قعد بهم العجز عن كسب قوتهم فسكنت نفوسهم على ما هم عليه، لأنّ نفوسهم تأبى الاستجداء ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ المسافر الذي انقطعت به سبل العيش بسبب ظروفه، واللاجئين، ومَن في المنفى ﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ الذين تدفعهم الحاجة للسؤال ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ العتق من العبودية، لأن التخلص من الرق هو أحد الأهداف الاجتماعية في الإسلام، وكان يستحيل إلغاء الرق بصورة فورية وقت نزول القرآن لما يسببه من خلل في النظام الاقتصادي الشائع آنذاك ولذا هدف الإسلام

إلى التخلّص منه تدريجياً، وفي آيات عديدة من القرآن أوجب تكفير الذنوب بإعتاق العبيد [النساء ٤/٩٢]، [المائدة ٥/٨٩]، [المجادلة ٥٨/٣] وكما في أحاديث شريفة عديدة أيضاً ﴿وَأَقَامَ الصَّلاَةَ﴾ على أكمل وجه ﴿وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ قلّما تذكر الصلاة في القرآن إلاّ مقرونة بالزكاة لأنّها تصديق لها ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ وهنا انتقال من البر في العمل إلى البر في الأخلاق الحميدة والمعاملات والوفاء بالعهود ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ البأساء هي الفقر، والضراء ما يضر الإنسان من مرض أو فقد محبوب من أهل ومال، وكلمة ﴿الصَّابِرِينَ﴾ مفعول به منصوب على المدح، تقديرها: وأمدح الصابرين، أو أخص بالذكر منهم الصابرين ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ البأس اشتداد الحرب، لأنّ الفرار من الزحف من أكبر الكبائر ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ صدقوا في الإيمان بأن قاموا بكل ما ذكرته الآية، وليس مجرّد الإيمان بأفواههم دون عمل ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ المتقون للأخطاء والمهالك وسوء الآخرة.

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٧٨).

١٧٨- ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ بعد أن حدّدت الآية السابقة أنّ التقوى ليست عبادات فقط بل هي عمل أيضاً، انتقل البحث في هذه الآية إلى تطبيقات حياتية ذات علاقة بسلوك الإنسان، فكما أنّ التقوى لاتتمّ من دون الأعمال الصالحة، فكذلك الاستقامة الفردية لا تتمّ ما لم يكن هنالك اتّفاق في المجتمع على الحقوق والواجبات الاجتماعية، أي أن يكون هنالك قانون عملي يضبط سلوك الفرد تجاه المجتمع والعكس، ولذا فإنّ التشريع يشغل حيّزاً كبيراً في النظام الإسلامي، ونرى الآيات التشريعية متداخلة مع الآيات الغيبية، وبما أن سورة البقرة كانت أول ما نزل من الوحي في المدينة

بعدما أصبح للمجتمع الإسلامي في المدينة كياناً خاصاً، وبما أن الحفاظ على حياة الإنسان هي أهم مشكلة تواجه أي مجتمع فقد لزم أن ينزل التشريع بذلك أولاً،

قال الرازي إن كلمة القصاص في اللغة تعني «التسوية»، فالقصاص عبارة عن تسوية، وقيل أيضاً إن معنى القصاص هو مقاصّة ديّات بعض القتلى بديّات بعضهم الآخر، وقال عدنان الرفاعي بل هو قصّ أثر المجرم والقصاص منه دون غيره، فالآية تحدد بوضوح أن القصاص يجب أن يكون من القاتل فقط، وتنهى عن تجاوزه إلى غيره ممّن لم يقتل، لأنهم كانوا يفعلون ذلك في الجاهلية ولا يزالون حتى في العصر الحاضر على العديد من المستويات، فكانوا في الجاهلية إذا قتل عبدٌ من قبيلة سيداً من قبيلة أخرى لم يكن دم العبد كفواً لدم السيد القتيل، فلا يكتفون بقتل العبد بل يقتلون أسياداً من قبيلة العبد ممّن لا علاقة لهم بالجريمة، وبالعكس إذا كان القتيل عبداً والقاتل سيداً فيقولون إن دم العبد أقل من دم السيد فلا يجوز قتل السيّد، لذا نصّت الآية أنّ: ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى﴾ الإعجاز في الآية واضح، فقد ضربت مثلاً بهذه الحالات الثلاثة: الحر بالحر، والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى، لبيان مبدأ عدم التجاوز في القتل إلى غير القاتل، أي لا يُقتل بالقتيل غير قاتله، مهما كانت المرتبة الاجتماعية لأيٍّ منهما، و لم تتطرق الآية إلى حالات أخرى مثل أن يقتُل العبد حرّاً أو العكس، أو أن يقتل رجل امرأة أو العكس، فيكون معنى الآية كما يلي: إذا ارتكب الحرّ جريمة قتل فيطبق عليه القصاص، وإذا ارتكب الجريمة عبد فيطبّق عليه القصاص ... إلخ، أي يجب تطبيق القصاص على القاتل فقط، بغضّ النظر عن شخصيته ومركزه الاجتماعي، ولا يشترط أن يكون القصاص قتلاً، وإنّما يتوقف على ظروف جريمة القتل إن كان قتل عمد، أو دفاع عن النفس، أو قتل خطأ ..الخ، ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ الإشارة في ضمير

الغائب بكلمة «أخيه» تعود إلى القاتل، أما الأخ نفسه فهو القتيل، أو ولي أمره من عائلته، ويمكن أن يكون شخصية معنوية مجسّدة بالمجتمع في جهازه الإداري والقانوني، وهو المحامي العام، وبالتالي فإنّ عبارة ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ تشير إلى احتمال الظروف المخفّفة، إذا كان القتل خطأ أو بسبب استفزاز أو دفاع عن النفس ...إلخ وفي مثل هذه الحالات لا يلزم قتل القاتل وإنّما يُكتفى بتغريمه ديّة القتيل كما نصّت الآية (٩٢) من سورة النساء ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ الظروف المخففة يجب أن تُتبع بالمعروف، أو المطالبة تكون بالمعروف ﴿وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ تسديد الدية يجب أن يتمّ دون مماطلة، ثم إبراء ذمة القاتل من قبل وليّ المقتول ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ في هذه الحالات ﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مَن اعتدى بعد أن تتم التسوية فله عذاب أليم، في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا لقوله ﷺ: «لا أعفي من قَتل بعد أخذه الدية» أي إنّ وليّ المقتول إذا أخذ الدية ثم قتل غريمه بعد ذلك فيطبّق عليه القصاص، وله عذاب أليم في الآخرة لقوله تعالى ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاأُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٧٩).

١٧٩- ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ لأن خوف القصاص في ذاته رادع عن القتل فيكون في ذلك حياة الجميع، والمغزى أنّ القصد من القصاص ليس الانتقام وإنّما المحافظة على حياة الأفراد وأمن المجتمع ﴿يَاأُولِي الأَلْبَابِ﴾ ذوي التفكير السليم والعقل الكامل ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لعلكم تتقون الاعتداء وتكفّون عن سفك الدماء، وتتقون الفوضى الاجتماعية.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (١٨٠).

١٨٠- يلاحظ التسلسل المحكم في سياق الآيات بدءاً من آية التوحيد (١٦٣) وما يتبعها من شرح له، وما يترتب عليه من أمور عملية كالبر والتقوى

وعدم الاقتصار على الشكليات، ثمّ البحث في الأبعاد الاجتماعية لذلك حفاظاً على الأرواح والممتلكات (تشريع القصاص في الآية السابقة)، وتشريع الوصية في هذه الآية حفاظاً على توزيع المال بالشكل العادل:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ المراد حضور علامات الموت كالمرض الشديد، وفي الحديث: «ما حقّ امرئ مسلم له شيء يوصي فيه أن يبيت ليلتين إلاّ ووصيته مكتوبة عنده»، ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ قالوا إنّ لفظ الخير في هذه الآية مختص بالمال الكثير ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهو تأكيد على وجوب الوصية، وقد ورد وجوب الوصيّة أيضاً في سورة المائدة [المائدة ٥/١٠٦]، وفي آية المواريث بقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء ٤/١٢]، وتنصرف الوصية إلى ما لا يزيد عن ثلث المال كما في الحديث الشريف، وهي أولاً للوالدين بالإضافة لما نصّت عليه آية الإرث [النساء ٤/١١] أي في حال حاجتهم ووجود الخير الكثير في التركة، وثانياً الأقربين ممن لا يرثون الشخص من أقاربه، وثالثاً لأعمال الخير ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ التكليف بالوصية واجب على المتقين، فبالأحرى أن يعمّ المتقين وغيرهم،

﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٨١).

١٨١- ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ كلمة إنّما للحصر أي مَن بدّل محتوى الوصية أو بدّل ما سمعه أو علم به من الموصي فيتحمّل وحده إثم التبديل، ولا يأثم مَن استفاد من التبديل من دون علمه، لأنّه تعالى لا يؤاخذ أحداً بذنب غيره ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فهو تعالى سميع للوصية عليم بها، ولا يخفى عليه تبديلها.

﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٨٢).

١٨٢- ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾ أصل الجَنَف الميل نحو الهوى، والفرق بين الجنف والإثم أنّ الجنف هو الخطأ من حيث لا يعلم به، والإثم هو العمد ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ إذا لم يعدل الموصي في وصيته، سواء خطأً أو عمداً، فتنازع في ذلك الموصَى لهم، أو تنازعوا مع الورثة، فدَخل بينهم وسيط وأصلح الخطأ ﴿فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في هذا التبديل لأنه تبديل باطل إلى حق، وهو بخلاف المذكور في الآية السابقة، فالله تعالى أوجب الإثم على الذين يبدّلونه في الحالة الأولى، وأزاله عنهم في الثانية ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بالمصلح.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٨٣).

١٨٣ . بعد تشريع القصاص في القتلى، وتشريع الوصية، ينتقل الخطاب إلى تشريع الصيام:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي أنّ الصوم عبادة قديمة فرضها تعالى على الأمم من قبل ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي لعلكم تتقون المعاصي.

﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١٨٤).

١٨٤- ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ هي أيام شهر رمضان ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ رخصة للمريض وللمسافر بالإفطار في رمضان، وصيام غيره من الأيام ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ يطيقونه بمشقة شديدة، أي يقدرون على الصوم مع المشقة الشديدة، فعليهم إطعام مسكين عن كل يوم فطر لا يصومونه، وأيضاً في حال الإفطار لمرض أو

لسفر يصوم أياماً أخر، ويطعم المساكين إن كان ذلك في طاقته، فيعود الضمير في ﴿يُطِيقُونَهُ﴾ إلى الإطعام ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ من تطوّع بزيادة الفدية بإطعام أكثر من مسكين واحد عن كل يوم فطر، أو من تطوّع بالصيام زيادة على الأيام المعدودات، أو بإطعام أكثر من مسكين، فذلك خير له ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لو أدركتم ما في الصوم من مغزى ومقاصد لعلمتم أنه خير عظيم لكم.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٨٥).

١٨٥- ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ تفسير للأيام المعدودات المشار إليها في الآية السابقة، أي هي أيام شهر رمضان ﴿الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ وهي الحكمة في تخصيص هذا الشهر بالصيام، لأنه الشهر الذي أنزل فيه القرآن، والمقصود ابتداء التنزيل في ليلة القدر من شهر رمضان لقوله تعالى ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر ١/٩٧]، ثمّ نُزّل نجوماً، أي متفرقاً، خلال ثلاث وعشرين سنة، والآية تثبت أنّ بين الصوم وبين نزول القرآن مناسبة عظيمة، فلمّا كان رمضان مختصّاً ببدء نزول القرآن وجب أن يكون مختصّاً بالصوم ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ القرآن هدى للناس أجمعين ﴿وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى﴾ فيه آيات واضحات تهدي إلى الحق ﴿وَالْفُرْقَانِ﴾ فيه معايير التفريق بين الحق والباطل ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ مَن كان منكم حاضراً حلول الشهر فليصمه، وقد لاحظ الشيخ رشيد رضا في تفسير المنار أنه تعالى قال ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾ و لم يقل «فصوموه» وهذا من إعجاز القرآن، فكما أنّ القرآن لم يحدد مواعيد الصلاة فلنفس الحكمة خاطب الأفراد في الصوم و لم يخاطب الجماعة، لأن القرآن موجّه لجميع البشر في

جميع أنحاء العالم، فمن البلاد كالمناطق القطبية ما لا شهور لها ولا أيام معتدلة المدة وقد يصل الأمر ببعض المناطق أن تكون السنة كلها يوماً وليلة فترك تعالى لهم أن يقدروا لليوم قدره، وللشهر قدره، في تحديد مواعيد الصلاة والصوم ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أعيد ذكر الرخصة لئلاّ يتوهّم البعض أنها غير محمودة في رمضان ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ تعليل لما قبله ولسائر ما يشرع من الأحكام أن يكون الدين يسراً تاماً لا عسر فيه ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ وهي استيفاء صيام الأيام المعدودات ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ لتكبّروا الله عند انقضاء الشهر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لأنّه تعالى، مع جلاله وعزّته واستغنائه عن جميع المخلوقات، خصّ عبيده بهذه الهداية العظيمة فصار ذلك داعياً لشكره.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (١٨٦).

١٨٦- ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ بعد أن أوجب تعالى الصوم على عباده وأمرهم بالتكبير الذي هو ذكر الله، بيّن أنه بلطفه ورحمته قريب من العباد لا واسطة بينه وبينهم ولا حجاب ولا شفيع ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ وفي الحديث: «الدعاء هو العبادة»، لأنّه الصلة بين الإنسان وخالقه، ويجب أن يقترن الدعاء بالعمل بأن يتّخذ المرء الأسباب الموضوعية بطرقها الصحيحة من العلم والعزيمة والجهد، ثمّ يكون الدعاء بطلب التوفيق من الله، وفي قوله تعالى: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ [الأنعام ٤١/٦] فجعل الاستجابة متعلقة بمشيئته تعالى، وفي الحديث: «ما من أحد يدعو الله إلاّ آتاه الله ما سأل، أو كفّ عنه من السوء مثله، ما لم يدعُ بإثم أو قطيعة رحم».

﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ بالطاعة وبالعمل ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ إيماناً يقينياً ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ حتى يستجيب تعالى لدعائهم.

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (١٨٧).

١٨٧- ثم توضح هذه الآية حل الجماع ليلة الصيام: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ الرفث هو الجماع، وكان المسلمون الأوائل يظنّون حرمة الجماع بعد صلاة العشاء في رمضان، فأزالت الآية هذا الظن ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ تشبيه الزوجين باللباس لأنهما عندما يعتنقان يصبح كلّ منهما للآخر كالثوب الذي يلبسه فسمّي كلّ منهما لباساً لصاحبه ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ تختانون أنفسكم: بمعنى عدم الوفاء لأنفسكم بحاجتها، أي تنقصونها حاجتها بعدم الجماع ليلة الصوم ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ فلا يحملكم مشقة ذلك لأن الإسلام يسرٌ وليس عسراً، والتوبة من الله على العبد الرجوع إليه بالرحمة والإحسان، وأمّا العفو فهو التجاوز عن العقوبة ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ لفظ المباشرة مشتق من تلاصق البشرتين عند الجماع ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ من المباشرة، يعني ابتغوا هذه المباشرة التي كتبها الله لكم وكنتم تظنّونها محرّمة، وهو قول أبي مسلم الأصفهاني، لأنه ما دام الإنسان يفكر بطلب اللذة والشهوة فلا يمكنه التفرّغ للطاعة والتعبّد، فيكون معنى الآية: فالآن باشروهنّ حتّى تتخلّصوا من تلك الخواطر المانعة للتعبّد وبعدها ابتغوا ما كتب الله لكم من التعبّد والذكر والتسبيح ﴿الرازي﴾، أو ابتغوا ما كتب الله لكم من المباشرة التي جعلها تعالى من طبيعة الحياة ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ كناية عن بياض أول النهار وسواد آخر الليل وقت الفجر ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ إلى غروب الشمس عندما يبدو سواد الليل في الأفق الشرقي ﴿وَلا

تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ الاعتكاف هو المكوث في المسجد بعيداً عن مشاغل الدنيا بقصد التعبد والتأمل ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي التي تحدد الأعمال ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ بمجرّد الاقتراب منها، وهو إرشاد إلى الاحتياط في أمرها ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ المعاصي.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١٨٨).

١٨٨- بعد تشريع الصيام وأحكامه بالآيات (١٨٣-١٨٧)، تبين هذه الآية أن العبادة يجب أن تكون مشفوعة بالاستقامة:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ حرّم الاستيلاء على المال دون وجه حق، سواء كان الاستيلاء عنوةً أو بالغش أو الاحتيال أو بأكل الربا أو أكل الأجور، ولفظ ﴿أَمْوَالَكُمْ﴾ بالجمع، إشعاراً بوحدة الأمة وتضامنها ولأنّ التعدّي على مال الآخرين يعرّض كل مال للضياع ﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ﴾ أي لاترشوا الحكام لتأكلوا أموال الناس ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وأنتم تعلمون أنكم على الباطل، ومن مغزى الآية أيضاً تحريم استخدام الأحابيل-القانونية- للاستيلاء على حقوق الآخرين، أخرج ابن ماجه عن أبي ذر أنه سمع النبي ﷺ يقول: «من ادّعى ما ليس له، فليس منّا، وليتبوّأ مقعده من النار».

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٨٩).

١٨٩- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ الإشارة إلى الشهور القمرية التي بها يتحدد شهر الصوم وشهر الحج، وبحيث يدور شهر الصوم وموسم الحج على فصول السنة الشمسية، فيترتّب على ذلك تغيّر فترة الصيام قصراً وطولاً بين الفجر والمغيب، وتغير حصول الصيام والحجّ بين فصول

الحرّ والبرد، وزيادة سهولة كلّ منهما أو صعوبته مع الفصول، ودوران ذلك على الأماكن المتفرقة من أنحاء العالم ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ إتيان البيوت من ظهورها كناية عن الإنحراف، وأما إتيان البيوت من أبوابها فهو كناية عن اتباع الأساليب الصحيحة في الوصول إلى الأهداف ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾ المعنى أنّ البر ليس مجرّد التمسك بالشكليات وبالمواقيت رغم أهميتها، ولكن البر هو التقوى، وإنّ مجرد القيام بالعبادات وحده غير كافٍ بل يجب أن يتعدّاه إلى العمل لأنّ التقوى عمل، ويجب أن يكون الباطن مطابقاً للظاهر، انظر الآية (١٧٧) بهذا المعنى ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ هذه كناية معروفة في كلام العرب، والمعنى لكي تصلوا إلى مبتغاكم أطلبوا الأمور بطرقها الصحيحة وبأسبابها الموضوعية العلمية ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي اتّقوا الله على الوجه الصحيح لعلكم تظفرون بالمراد.

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (١٩٠).

١٩٠- انتقال الآيات (١٩٠-١٩٥) لبيان شروط القتال وأحكامه خلال الأشهر الحرم:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ الهدف الأساسي من الآية التأكيد على عدم استخدام القوة إلاّ عندما لا يكون هنالك مناص من استخدامها، فالقتال مشروع فقط لأغراض الدفاع، أي ضدّ من يقاتلون المسلمين، وهذا المبدأ واضح أيضاً بقوله تعالى: ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا﴾ [الحج ٣٩/٢٢]، وفي آية [الممتحنة: ٦٠/ ٨]، وآية [النساء: ٩١/٤]، أي إنه تعالى أمر بالجهاد بشرط إقدام الكفار على المقاتلة ﴿وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي لاتعتدوا بابتداء القتال، أو بقتال من نُهيتم عنهم كالنساء والشيوخ والأطفال، أو بقتال من بينكم وبينهم عهد، أو بمباغتة من غير دعوة للقتال (الزمخشري).

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ (١٩١).

١٩١- ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ ولهذا السبب أجلى رسول الله ﷺ كل مشرك من الحرم، ثم أجلاهم أيضاً من المدينة، أخرج أحمد في مسنده ومالك في الموطّأ أنه ﷺ قال: «لا يجتمع دينان في جزيرة العرب» ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ الفتنة بمعنى الاضطهاد الديني ومنع حرية العبادة فهي في هذه الحالة سلب الحرية، فمبرر القتال أنه لضمان حرية العبادة وحرية العقيدة (الآية ١٩٣)، والقتل سلب الحياة، فجعل تعالى سلب الحرية أشد من سلب الحياة ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ الإذن بالقتال مشروط بأن يبدأ المشركون به.

﴿ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٩٢).

١٩٢- ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إن تركوا قتال المسلمين فإنّ الله غفور لذنوب من آمن منهم وتاب من شركه، رحيم به في آخرته.

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (١٩٣).

١٩٣- ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ حتّى يزول الاضطهاد الديني، وهو سبب الأمر بالقتال ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ تكون العبادة لله وحده ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ إن انتهوا لا يجوز قتالهم، ولا يعاقب منهم إلاّ من طغى وتجاوز كل الحدود في عداوته للمسلمين، انظر آية [الأنفال ٣٩/٨].

﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١٩٤).

١٩٤- ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ أي من قاتلكم من المشركين في الشهر الحرام فقاتلوه في الشهر الحرام، والأشهر الحرم منذ زمن ابراهيم عليه السلام هي أشهر الحج: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، وشهر العمرة رجب، وقد تعارف العرب منذ القدم على حرمة القتال فيها ليتمكن الحجاج والمعتمرون من قضاء مناسكهم بسلام ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ ليس للمسلمين أن ينتهكوا هذه الحرمات إلاّ إذا انتهكها الخصم أوّلاً فعندئذ يدافعون عن أنفسهم ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ مع أنه تعالى رخّص للمسلمين بالقتال، إذا بدأ الآخرون به، فقد أمرهم بمقابلة العدوان بالمثل فقط، دون زيادة ولا طغيان.

﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٩٥).

١٩٥- ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ المعنى لا تسببوا هلاككم بمنع النفقة في سبيل الله، وعن أبي أيوب الأنصاري أنّ التهلكة هي الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد (الزمخشري)، وعن ابن عباس: ليست التهلكة أن يُقتل الرجل في سبيل الله ولكنها الامساك عن النفقة في سبيل الله (الطبري).

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (١٩٦).

١٩٦- ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ لوجه الله، وليس للرياء والسمعة ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ بمرض أو غيره، أي إذا بدأتم الحج أو العمرة ثمّ حُبستم ومُنعتم منهما

بسبب خوف من عدوّ أو مرض أو علّة تمنع الوصول إلى البيت ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ فانحروا ما استيسر من الهدي، ومعنى الهدي ما يهدى إلى بيت الله عزّ وجلّ تقرّباً إليه ويُطعم للمساكين، فإذا نُحر الهدي حَلّ المُحصَر من الإحرام، فإن فاته الحجّ وكان قاصداً حجّة الفريضة فعليه قضاؤها، وإن كانت حجّة تطوّع أو عمرة فلا قضاء عليه، وقيل ليس عليه حجّ أو عمرة إلاّ أن يشاء ﴿وَلا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ المحلّ هنا اسم للزمان الذي يحصل فيه النحر، والمعنى لا بدّ من النحر قبل التحلّل بحلق الرأس، والمُحصَر مأمور بنحر الهدي سواء كان في حرم مكة أو خارجه ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ﴾ فاضطر أن يحلق رأسه قبل الهدي ﴿فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ إذا كان الحاجّ مريضاً أو لحقه أذى في رأسه فيتداوى، وله أن يحلق قبل أن يحلّ من إحرامه، ثمّ يفدي بصيام ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين، أو ذبح شاة، وهذا الحكم عام في جميع محظورات الحجّ ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ﴾ من العدو، أو من سبب الإحصار ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ كان الحاج المُحصَر يعتمر بعد زوال الخوف أو المرض ثم يحلّ من إحرامه منتظراً حج العام القادم، ولكن الآية تنطبق على الحاجّ سواء كان مُحصَراً بسبب مرض أو خوف أو غير محصر، أي إذا أدّى العمرة وقت وصوله البيت ثمّ استمتع بإحلاله منها إلى أن يحرم ثانية للحجّ فعليه الهدي، وسمّي متمتّعاً لأنّ الحاجّ بعد تحلله من العمرة يستمتع بمحظورات الإحرام قبل أن يحرم ثانية للحجّ ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ مَن لم يستطع الهدي فيصوم عشرة أيام تعتبر كاملة في البدل عن الهدي وتقوم مقامه ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ذلك: أي التمتّع بالعمرة إلى الحج مختص بحجّاج الآفاق فقط، وليس لأهل مكة، وفيه تيسير للقادمين من الأمصار إذ يجمعون الحجّة والعمرة في سفر واحد، وأمّا أهل مكة فلا متعة ولا قران لهم

لأنهم مقيمون، وكان عمر رضي الله عنه ينهى أهل مكة عن الاعتمار في موسم الحجّ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما فرض عليكم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن عصاه.

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِي يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾ (١٩٧).

١٩٧- ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ هي شوال وذو القعدة وذو الحجة لأن نية الحجّ والإحرام لا تنعقد إلاّ فيها ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ أي أوجب على نفسه الحج في هذه الأشهر بالنية أو الإحرام ﴿فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ﴾ بمعنى النهي عنهما في الحجّ، والرفث ما يتعلّق بالجماع ويدخل تحته فُحش القول، والفسوق هو المعاصي ﴿وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ لا خلاف في مواعيد الحجّ ومناسكه، ولا نسيء، فقد استقام أمره الآن، والنسيء هو التلاعب بأوقات الأشهر الحرم، كانوا يفعلونه في الجاهلية ليناسب أغراضهم كالغزو في الأشهر الحرم وغيره، كما كانوا يختلفون في المناسك ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِي يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾ كان بعضهم يتحرّج من التزوّد للحجّ بحجّة أنهم ضيوف الرحمن ثمّ يتطفّلون على الناس، فأمرهم تعالى بالتزوّد لسفر الدنيا، كما أرشدهم إلى زاد الآخرة الذي هو التقوى، وبيّن لهم أنّ زاد الآخرة خير من زاد الدنيا.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ (١٩٨).

١٩٨- ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ لا مانع من طلب الرزق وقت الحج بالتجارة ونحوها، فذلك مباح في أثناء الحجّ على ألا يسبّب نقصاناً في العبادة، وعلى أن يكون المرء خلالها مستحضراً ذكر الله ﴿فَإِذَا

أَفَضْتُمْ﴾ أي تركتم عرفات مندفعين منها كما يفيض الماء-أي بسبب كثرتكم- ﴿مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ بعد مغيب التاسع من ذي الحجّة ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ بجمع صلاتي المغرب والعشاء بالمزدلفة ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ واذكروه على كل الأحوال بالدعاء والتسبيح والحمد، كما هداكم لدين الإسلام.

﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٩٩).

١٩٩- ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ أمرهم بالنزول من عرفات وسلوك الطريق الذي سلكه قبلهم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وأتباعهما، والمعنى أنّ الإفاضة من عرفات بهذا الطريق شرع قديم لم يتغير ولا خلاف فيه، ومغزى الآية تجاوز النوازع والفروقات الفردية والالتزام بجماعة المسلمين والمساواة بين الناس بلا تعصب بين الأجناس والطبقات والمراتب الاجتماعية، وكانت قريش تتخذ طريقاً للإفاضة غير طريق عامة الناس من العرب ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الأحاديث كثيرة في فضل الاستغفار خاصة بعد قضاء العبادات.

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ (٢٠٠).

٢٠٠- ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ كانوا في الجاهلية يذكرون آباءهم ويتفاخرون بهم، فالآية تحثّهم على ذكر الله كما كانوا يذكرون آبائهم أو أكثر من ذلك ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ مَن يجعل همّه الدنيا فيعمل لها ويدعو لها فقط فلا يكون له نصيب في الآخرة.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (٢٠١).

٢٠١- ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ يطلبون الدنيا ولا ينسون الآخرة ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أي احفظنا من الشهوات والذنوب المؤدية إلى النار.

﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (٢٠٢).

٢٠٢- ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا﴾ وليس ممّا طلبوا بالضرورة-في الدعاء السابق- والمعنى أنهم ما داموا يطلبون الدنيا بواسطة الأسباب والسنن الكونية والسعي في الرزق، كما يسعون للآخرة سعيها بالعبادات والتقوى، فلهم نصيب من كسبهم في الدنيا والآخرة ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يوشك أن يقيم القيامة ويحاسب العباد، وقد يرى الإنسان عاقبة عمله في الدنيا، وإن لم يكن فالآخرة قريبة لأنّ الحياة قصيرة الأمد، فسرعان ما ينقضي الأجل ويحين وقت الحساب.

﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (٢٠٣)

٢٠٣- ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ هي ثلاثة أيام بعد يوم النحر أي الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من ذي الحجة ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ لا فرق أن ينفر الحاج من منى بعد يومين أو ثلاثة أيام من يوم النحر ليكون رحيل الحجاج وتخفيف الازدحام على مراحل ﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾ المهم أن يكون من المتقين، قال تعالى ﴿إنّما يتقبّل الله من المتقين﴾ [المائدة ٥/٢٧]، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بعد الحجّ ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ المعنى أن المُصرّ على الذنب لا ينفعه حجّه، وإن كان قد أدّى الفرض ظاهرياً، ولعلّ هذه هي العلاقة بين هذه الآية والتي تليها .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾ (٢٠٤).

٢٠٤- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الآية عامة في كل من له آراء جذّابة ظاهرياً في أمور الحياة الدنيا ويتمتع بالخلابة اللسانية ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ يدّعي الصدق وحسن النية، ورغبة في الصلاح العام، في حين أنّه طالب دنيا فقط، ويهدف لصالحه الذاتي ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ شديد الخصومة والجدل بالباطل، يفحم خصومه باستخدام حجج ظاهرها الصلاح وحقيقتها الضلال، ويدعو إلى «مباديء أخلاقية» من ابتكاره، وهنالك علاقة واضحة بين هذه الآية والآيات (٨-١٢) من هذه السورة.

﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾ (٢٠٥).

٢٠٥- ﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ إذا تولّى بعض أمور الناس وحصلت له القيادة أو السيطرة بشكل كامل أو بشكل جزئي ﴿سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ الإفساد بسوء الخلق وعن طريق إدخال الشبهات في قلوب المسلمين والابتعاد عن الشرع، بغضّ النظر إن كان ذلك بنيّة مبيّتة ضد الدين، أم للصالح الشخصي فقط ﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ الحرث هو الزرع أو نتاج الزرع وهو بمعنى المال، والمراد أنّه يخرّب النظام الاقتصادي، والحرث أيضاً بمعنى النساء لقوله تعالى ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ [البقرة ٢/٢٢٣]، والنسل هو الذريّة، فيكون الإفساد بتخريب النظام الاقتصادي والنظام العائلي، وبالتالي تفتيت النسيج الاجتماعي بأكمله، لأنه حالما يتم القبول بالمعايير الفاسدة كأساس للسلوك الاجتماعي، يكون ذلك بداية حتمية لانتشار التفسخ الخلقي وتفكّك المجتمع.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (٢٠٦).

٢٠٦- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ﴾ من قبل ناصح يحاول ردعه عن الغي ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ﴾ أخذته الحميّة الجاهلية والكبر لما في قلبه من التكبر،

والعناد، وعدم النظر في الدلائل القرآنية ﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ بئس المستقرّ الذي مهده لنفسه.

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (٢٠٧).

٢٠٧- ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ الذين هم على النقيض من الناس المذكورين في الآيات (٢٠٤-٢٠٦) ﴿مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ﴾ يشري بمعنى يبيع كقوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ [يوسف ٢٠/١٢] أي باعوه، والمعنى أنّه من الناس مَن يضحّي بكافة مصالحه الشخصية ويبذل نفسه إذا اقتضت مرضاة الله ذلك، والآية تتمة لما قبلها لأنّ من ينصح الفاسق الذي حصلت له الولاية يكون مستعدّا لبذل نفسه ابتغاء مرضاة الله، وقيل إنّ عمر رضي الله عنه قرأ هذه الآية ثمّ قال: «إنّا لله وإنّا إليه راجعون، قام رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فقُتل» ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ فمن رأفته تعالى أنّه لا يكلّف نفسا إلاّ وسعها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٢٠٨).

٢٠٨- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ كونوا كالمذكورين في الآية (٢٠٧)، ولا تكونوا كالمذكورين في الآيات (٢٠٤-٢٠٦)، والسلم هو الإسلام، والخطاب للمؤمنين بأن يدخلوا في كافة شرائع الإسلام بشكل متكامل، وبحيث يكون سلوك المسلم ومعاملاته مع الناس وتطلّعاته ومساعيه كلّها وفق الإطار الإسلامي، بحيث يكون عمله مطابقاً لقوله ﴿وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي ما خالف شرائع الإسلام ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ يوسوس لكم ويزّين لكم سوء أعمالكم، راجع آية [الأعراف ١٧/٧].

﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢٠٩).

٢٠٩- ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ﴾ إن زللتم عن الإسلام إلى الباطل والشكوك ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ في القرآن ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ في عقابه، فبعد أن أمر تعالى الناس بدخول شرائع الإسلام كافة، بيّن أنّه لاعذر لهم بعد أن

جاءتهم الأنبياء بالرسالات والوحي والحقيقة الواضحة وأنذرته بالعواقب، ولا عذر لهم بالشك والإنكار واتباع الباطل، فعندئذ يوجبون العقاب على أنفسهم.

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ (٢١٠).

٢١٠- ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ هل ينتظرون؟ وهم المشار إليهم في الآية السابقة ﴿إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ﴾ أمر ﴿اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ﴾ أي هل هم بانتظار ذلك حتى يكونوا على يقين من الحقيقة؟ والمغزى أنّ اختبار الإنسان يكمن في اختياره الحرّ بقبول الحقيقة المطلقة أو رفضها، رغم أنّه لا يستطيع تحقّقها بحواسّه الخارجية، ولكنه يستطيع الاستدلال عليها بالوحي الذي نزل على الأنبياء، وبالعقل والتفكّر بالمعجزات الكونية، ولكن الكفار ينتظرون أن يأتيهم أمر الله والملائكة حتى يؤمنوا، فلو حدث ذلك لقضي الأمر وفات الأوان ﴿وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ الإيمان والتوبة لا يفيدان حينئذ، لأنّ الإيمان والطاعة لهما قيمة ما دامت الحقيقة بادية بشكل غير قسريّ، ممّا يمكّن الانسان من قبولها أو رفضها بخياره الحر، فإذا كشفت الحجب وظهرت الحقيقة سافرة، انتفى مجال الخيار وحرية الفكر والاختبار.

﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٢١١).

٢١١- بعد بيان الآيات (٢٠٧-٢١٠)، ضرب تعالى مثلاً ببني إسرائيل فقال عزّ ثناؤه: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ ومع ذلك كفروا بها ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ وهي الوحي الذي نزل على الأنبياء، وتبديلها بتحريف الكتب وتغييرها ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ والخطاب ينطبق على بني اسرائيل وغيرهم، أي إنّ العاقبة السيئة مصير من يبدّل نعمة الله بعدما جاءته، فهذا من سننه تعالى في الخلق وليس خاصاً بالأمم الغابرة فقط.

﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٢١٢).

٢١٢- بعد أن ذكر تعالى حال من يبدّل نعمة الله بعد ما جاءته، أتبعه بذكر السبب الذي لأجله فعلوا ذلك فقال ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ فانهمكوا بالجري خلفها دون حساب لما وراءها ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يسخرون منهم بأنّهم فوّتوا على أنفسهم لذّات الدنيا، لأنّ القول بالآخرة باطل عندهم ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يكون المتّقون فوق الكفار في الثواب والمنزلة ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ الله تعالى يرزق المؤمن والكافر في الحياة الدنيا، وقد جعل في الدنيا سنناً وأسباباً ومسبّبات، من أخذ بها وصل إليها كافراً كان أو مؤمناً، ولو جعلها للمؤمنين خاصةً لبطل التكليف والاختيار والاختبار، ولصار الإيمان قسراً، انظر شرح الآيات (٣٦ ، ١٢٦ ، ١٥٥).

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٢١٣).

٢١٣- ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي على الفطرة والتجانس في حياتهم البسيطة الأولى، كما كانوا أيضاً أمة واحدة على الجهل والترقب والبحث عن الحقيقة، يحاولون الاهتداء بما يرشد إليه العقل والفطرة السليمة حتى بُعث فيهم الأنبياء ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ مبشّرين بثواب الآخرة والجنة، ومنذرين بالعقاب والنار ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ﴾ أي مع الأنبياء ﴿الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ الكتاب بمعنى الوحي وليس كتاباً بعينه، وهذا المعنى يتكرر في أماكن عديدة من القرآن الكريم ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ يبيّن لهم الحق من الباطل فيما اختلفوا فيه من العقيدة والسلوك ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ

مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ سبب الاختلاف هو البغي، أي التعدّي والاستطالة على الحق من قبل البعض ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ﴾ الذين كانوا يبحثون عن الحقيقة من منفتحي الذهن اهتدوا بهدي الله، بعد الاختلاف مع غيرهم ﴿بِإِذْنِهِ﴾ الاختلاف بين أتباع الحق وأتباع الباطل بإذن الله، لأنه تعالى كرّم الإنسان بحرية الخيار، انظر آيات إهود/١١٨-١١٩)، فالخلاف من الطبيعة البشرية التي جُبل الناس عليها، ولو شاء تعالى لخلقهم جميعاً بلا هوى أو شهوة أو غواية، ولكنه بحكمته وتكريمه بني آدم قضى أن يكون الانسان موكولاً إلى فكره وحرية خياره ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يوفق من يشاء الهداية إلى الطريق المستقيم.

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (٢١٤).

٢١٤- ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ الخطاب استمرار لقوله تعالى إنّه يهدي من يشاء الهداية إلى صراط مستقيم، والآية تضيف أنّ الهداية ليست مجرّد قناعة معرفية تكفي صاحبها لدخول الجنة، بل يلزم أن يرافقها الاستعداد للتضحية وتحمّل المشاقّ في سبيلها، مثلما تحملها المؤمنون من الأمم الماضية ﴿مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ﴾ البأساء هي الشدّة التي تصيب الإنسان كخسارة المال والإخراج من الديار وتهديد الأمن، والضرّاء هي ما يصيبه من المرض أو الجرح أو القتل ﴿وَزُلْزِلُوا﴾ اضطربوا اضطراباً شديداً بما أصابهم من الشدائد، حتى أشرفوا على الزلل ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ لشدة ما أصابهم الهول، وطول أمده، كادوا يفقدون الأمل فاستعجلوا الفرج بقولهم ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ فأجابهم تعالى

﴿أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ وكلمة ﴿الرَّسُولُ﴾ في الآية دالّة على الرسل بشكل عام، لأنّ الإشارة قبلها إلى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٢١٥).

٢١٥- ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ استمرار الخطاب، لأن الإنفاق من جملة التضحيات المطلوبة لدخول الجنة ﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ السؤال عن بيان ما ينفقون؟ وأجيبوا ببيان جهة الإنفاق للتأكيد على الأولوية في الإنفاق، ولأنّ النفقة لا يعتدّ بها إلاّ أن تكون في جهة الاستحقاق، أخرج النسائي وأحمد عن النبي ﷺ أنه قال: «يد المعطي العليا، وابدأ بمن تعول، أمّك وأباك وأختك وأخاك، ثمّ أدناك أدناك»، ثم تبيّن الآية (٢١٩) أن الإنفاق يكون بما يزيد عن الحاجة، بما لا يرهق المرء إذا تصدّق به ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ فيثيبكم عليه، وهو عليم بنواياكم في الإنفاق، إن كان عن إيمان ويقين، أو كمن ينفق ماله رياء الناس الآية (٢٦٤).

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (٢١٦).

٢١٦- استمرار الخطاب في التضحيات: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾ روى مسلم وغيره عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «من مات و لم يغز، و لم يحدّث نفسه بغزو، مات على شعبة من نفاق»، ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ لقصور عقل الإنسان عن الإحاطة بكل شيء، من جهة، وكمال علمه تعالى من جهة ثانية، وهو سبحانه أعلم بالعواقب.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢١٧).

٢١٧- بعد أن فرض تعالى القتال على المؤمنين بيّن مشروعية القتال في الشهر الحرام ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ أي هل يصح أن يكون فيه قتال ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ الجواب أن القتال فيه ذنب كبير بسبب حرمة الأشهر الحرم، ولكن يجب أحياناً ارتكاب أخف الضررين إن لم يكن بدّ من أحدهما ﴿وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ فالكفر وصدّ الناس عن الإسلام وعن الحج والعمرة في المسجد الحرام وإخراج المسلمين منه، كل ذلك أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام، وهذه الآية تُقرأ مع آيات [البقرة ٢/١٩٠-١٩٤] و [الحجّ ٢٢/٣٩]، ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ الاضطهاد والظلم ومنع حرية العبادة أشنع من القتل ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ هذا هو الهدف النهائي لهم مجتمعاتٍ، وليس أفراداً بالضرورة، والآية وإن نزلت في كفار قريش فهي ككلّ آيات القرآن الكريم ذات مغزى عام لكلّ الأزمنة، انظر آيات [البقرة ٢/١٠٥، ١٠٩-١٢٠]، ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ تبطل أعمال المرتد كأن لم يعمل خيراً في حياته قط، فلا يناله الثواب من أعماله في الدنيا ولا في الآخرة ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وهو مصير المرتدين عن الإسلام.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢١٨).

٢١٨- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ هم في الأساس مسلمو مكة الذين هربوا من اضطهاد المشركين لهم، وهاجروا إلى المدينة كي يعيشوا فيها

بحرية، ويقيموا شعائر الإسلام، ويؤخذ من سبب وجوب الهجرة في زمن البعثة، أنها تجب في كل زمان ومكان بمثل ذلك السبب، أي أنه لا يجوز للمسلم أن يقيم في بلد لا يستطيع فيه إقامة شعائر الإسلام بحرية، ولايستطيع التصريح بما يعتقده قولاً وكتابةً، مما يعرضه للأذى وللاضطهاد ﴿وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ مفهوم الجهاد أوسع من معنى القتال لأنه يشمل تكريس الفكر والنفس والمال لخدمة الدين ونشر الدعوة سواء بالقول أو الكتابة أو الجهد ﴿أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ﴾ هُم أحدر أن ينالوا ما يرجون من رحمة الله، لأنهم عملوا لها بكل ما استطاعوا، أما طلب المنافع ودفع المضار من غير عمل، فليس رجاءً، بل تمنّياً وغروراً ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ للتائبين المهاجرين المجاهدين.

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢١٩).

٢١٩- انتقال الآيات (٢١٩-٢٤٥) إلى جوانب من التشريع متعددة:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ ذكر تعالى الإثم أولاً، والمنافع ثانياً، لرجحان إثم الخمر والميسر على منافعهما المادية، وهذه قاعدة فقهية هامة أن ما كان إثمه أكبر من نفعه فيجب الاجتهاد باجتنابه، كما يُفهم منها أيضاً أن الأحكام الاجتهادية التي لم تثبت بالنص القطعي لا تُجعل تشريعاً ملزماً، لأن النبي ﷺ لم يلزم الأمّة بتحريم الخمر والميسر بعد نزول هذه الآية، إلى أن نزل النص القطعي بتحريمهما في سورة (المائدة ٥/٩٠-٩١)، ومن هنا يُعرف سبب تساهل السلف في المسائل الخلافية، وعدم تكفير أحدهم لمخالفيه، لأنّ الاجتهاد يلتزم به فقط من ظهر له صحة دليله، ولا يُعد شرعاً يُلزم به غيره من الناس (المنار)، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ الْعَفْوَ﴾ العفو هو الزيادة عن الحاجة الذي لا يرهق المرء إذا تصدّق به، وفي الحديث: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وابدأ بمن تعول»

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة كما سيرد في الآية التالية.

﴿ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢٢٠).

٢٢٠- ﴿فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ أي لعلّكم تتفكّرون في أمور الدنيا والآخرة معاً ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ أوصى تعالى بالعمل على مصلحة اليتيم بتربيته وتنمية ماله، وذلك خير للطرفين، الوصي واليتيم ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ مخالطة اليتامى مع المحافظة على أموالهم، فلا يحل للوصي إن كان غنياً أن يأكل من مال اليتيم، وإن كان الوصي فقيراً فله أن يأكل من مال اليتيم بالمعروف ثم يعيد ما أخذ إن استطاع، وقد جاء تفصيل ذلك في آيات [النساء ٤/٢، ٦، ١٢٧]، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ في مال اليتيم، فيجازي كلاً بعمله ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ﴾ أي لكلّفكم ما يشق عليكم، بتضييق التعامل مع اليتامى ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ في عقابه للمفسدين بأموال اليتامى ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يكلّف إلاّ ما يطاق.

﴿وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٢٢١).

٢٢١- ﴿وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ ليس معنى الأمَة الرقيق بالضرورة، ولكن كما يقال أمَة الله وعبد الله، وقد حرّمت الآية زواج المسلم من المشركة، وفي سورة المائدة ورد تحليل زواج المسلم من الكتابيات المُحصَنات بقوله تعالى ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ

الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة ٥/٥] وفيه دليل أن الغرض من تحليل نكاح الكتابيات هو تألف قلوب أهل الكتاب ودعوتهم إلى الإسلام وتعريفهم بحقيقته عن طريق انتشاره بين أهل المرأة، انظر تفسير آية [المائدة ٥/٥] ، أما من يتزوج الكتابية وهو يرى نفسه دونها ويحرص على تقليد قومها من النصارى ويسمح لها بتنصير أولاده فيكون قد خالف الغرض الذي هدف إليه الشارع من تحليل نكاح الكتابيات ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ تحريم زواج المسلمة من المشرك من أي أصناف الشرك، بمن فيهم الكتابي، وفي قول عمر رضي الله عنه: «المسلم يتزوّج النصرانية، ولا يتزوّج النصراني المسلمة»، وقد كره عمر مع ذلك زواج المسلم من الكتابيّة وأمر طلحة وحذيفة أن يطلّقا زوجتيهما الكتابيتين ﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ المشركون والمشركات يدعونكم إلى العمل بما يدخلكم النار ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ أي بتوفيقه إلى العمل الذي يؤدّي بالإنسان إلى الجنّة والمغفرة، ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ الله تعالى يبيّن للناس الحكمة من الشريعة، لعلهم يتّعظون ويستقيمون عليها.

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (٢٢٢).

٢٢٢- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ تعبير عن حرمة الجماع وقت الحيض ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ وهو تحريم الشذوذ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ المراد منه التنزيه عن الذنوب، لأنّ الذنب نجاسة روحانية كما في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨/٩]، ففي ترك الذنوب طهارة روحانية.

﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢٢٣).

٢٢٣- ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ أي مزرع ومنبت الولد وذلك على سبيل التشبيه ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ فأتوا موضع الحرث من النساء كيفما شئتم ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾ لأن العلاقة الروحية بين الزوجين هي أساس العلاقة الجنسية ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ روى مسلم وغيره عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال: «اتقوا الله في النساء» ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ﴾ فيجازيكم بأعمالكم ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ العاملين بأحكام الشريعة، بسعادة الدنيا والآخرة.

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢٢٤).

٢٢٤- ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ﴾ نهى تعالى عن الجرأة عليه بكثرة الحلف وهذا هو المعنى الأول للخطاب ﴿أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وهو المعنى الثاني أنّ العرضة هي العارض أي المانع، فيكون المقصود لا تجعلوا أيمانكم مانعاً لعمل الخير كالبرّ والتقوى والإصلاح بين الناس، وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: «لا وفاء لنذر في معصية، ولا فيما لا يملك العبد»، والتمسّك باليمين، إن كان به ضرر، أكبرُ إثمًا على صاحبه من الخروج منه والتكفير عنه.

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (٢٢٥).

٢٢٥- ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ اللغو هو الكلام الذي لا يُعتدّ به كالحلف في أثناء الكلام دون قصد، وقد جاء النهي عنه في الآية السابقة، ولا يوجب الكفّارة ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ إذا تعمّدتم الحلف وأخلفتم، والمؤاخذة توجب الكفّارة لقوله تعالى في سورة المائدة:

﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ﴾ [المائدة ٨٩/٥]، روى البخاري عن عبد الرحمن بن سمرة أن النبي ﷺ قال له: «إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فكفّر عن يمينك وأتِ الذي هو خير»، فالحنث باليمين العمد يوجب الكفّارة، وأما اليمين الغموس التي يحلف بها صاحبها وهو يعلم أنه كاذب، قاصداً الخيانة أو الغش، فلا يكفّرها شيء، بل لا بد من أداء الحقوق والتوبة والاستقامة، وروى البخاري أن النبي ﷺ قال: «من حلف على يمين صبر وهو فيها فاجر، يقتطع بها مال غيره، لقي الله وهو عليه غضبان» ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ غفور بمعنى المبالغة في ستر الذنوب واسقاط عقوبتها، وحليم لأنّه تعالى لا يعاجل بالعقوبة بل يمهل، ويؤخّر، ويعطي الفرص لتوبة عبده.

﴿ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢٢٦).

٢٢٦- ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ الإيلاء في اللغة هو الحلف والقسم واليمين، كلّها بمعنى واحد، وفي عرف الشرع هو العزم على ترك الجماع، وهذه الآية استمرار للآيتين السابقتين ولكن بموضوع مخصّص وهو الحلف على ترك الجماع ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ من الواضح أن العلاقة الزوجية يجب أن تقوم على أساس من المودّة والانسجام، وفي بعض الحالات عندما تنشأ الخصومات ويحدث التوتر بين الزوجين، فإنّ الشرع يضع حدّاً للفترة التي يبقى فيها الزوجان متنافرين من دون معاشرة زوجية، والتربّص هو الانتظار، وقد حددته الآية بأربعة أشهر، إمّا أن يتفق خلالها الزوجان، أو يقع الطلاق بنهايتها وتصبح المرأة حرّة في الزواج من جديد، وعند المالكية أنّ الفترة القصوى لهجران الرجل زوجته عن عمد، وهي أربعة أشهر، تسري بغضّ النظر إن كان حلف على ذلك أم لم يحلف، ونُسب مثل هذا القول أيضاً إلى ابن حنبل ﴿فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الفيء هو الرجوع، والمعنى إذا تمّ الصلح خلال مدّة أربعة الأشهر، وعادت العلاقة الزوجية إلى طبيعتها، فإنّ الله غفور لما سبق، رحيم بعباده، وقيل تجب على الزوج كفّارة.

﴿ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢٢٧).

٢٢٧- ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ عند أبي حنيفة أنّ الطلاق يقع بمجرّد انقضاء الأشهر الأربعة، ويكون طلاقاً بائناً، فلا يحق للزوج إعادة زوجته خلال فترة العدّة، غير أنّه يحقّ لهما الزواج بعد ذلك بعقد جديد، إذا اتّفقا، وعند الشافعي أنّه بعد مضيّ أربعة الأشهر تطالب المرأة زوجها بالصلح أو الطلاق، فإن امتنع الزوج طلّقها القاضي، ولا عدّة عليها ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع بالطلاق عليم بالإحسان والإساءة.

﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢٢٨).

٢٢٨- ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ﴾ غير المشار إليهنّ بالآية السابقة ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ أمر تعالى المطلّقة المدخول بها أن تنتظر ثلاثة قروء، ثمّ تتزوّج إن شاءت، والعرب تسمّي الحيض قرءاً، والطهر قرءاً، وتسمّي الطهر والحيض معاً قرءاً، ولذا اختلف الأئمّة فقال مالك والشافعي: إنّه إذا طلّق الرجل إمرأته فدخلت في الدم من الحيضة الثالثة فقد برئت منه وبريء منها، وقال أبو حنيفة: لا تنقضي العدّة حتى تطهر من الحيضة الثالثة، وزاد آخرون: وتغتسل منها، وهو رأي عمر وعلي وابن مسعود رضي الله عنهم ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ لا يكتمن ما في أرحامهنّ من حيض أو حمل ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ لزوجها الحق أن يردّها إليه ما دامت في عدّتها ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ أي في فترة العدّة ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ إذا كان مراد الزوج الإصلاح والخير، وذلك في الطلقة الأولى والطلقة الثانية فقط، أمّا في الطلقة الثالثة فيمتنع على الزوج ردّها كما سيرد، ولمّا كانت إرادة

الإصلاح، بردّ الرجل امرأته في فترة العدة، لا تتحقق إلاّ بالمساواة بينهما بأن يقوم هو بحقوقها وتقوم هي بحقوقه، لذلك قال تعالى ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ﴾ وهو مساواة المرأة بالرجل، إلاّ بدرجة سيأتي بيانها ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي إنّ المساواة بين الرجل والمرأة تكون بما هو معروف من المساواة بين الناس حسب الآداب والعادات في كل مجتمع وكل زمن، على أن لا يحلّ العرف حراماً أو يحرّم حلالاً ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ وهي درجة القوامة المذكورة في آية [النساء ٤/٣٤]، وهي درجة الرعاية والحماية والقيام بمصالح العائلة ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ عزيز في عقابه حكيم في شرعه.

﴿ الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَنْ يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢٢٩).

٢٢٩- ﴿الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ إذا طلّقها الرجل مرّة أو اثنتين فله الخيار أن يردّها، ما دامت في العدّة، إن كان ينوي الإصلاح حسب الأسس المذكورة في الآية السابقة، أو أن يتركها حتّى تنقضي العدّة وتبين منه، فيتوجب عليه عندئذ أن يمتّعها ولا يظلمها من حقّها شيئاً، ولا يضارّ بها، فإذا بانت منه بعد طلقة أو طلقتين يحقّ لهما الزواج بعقد جديد إن اتّفقا، أمّا إن طلّقها الثالثة فلا تحلّ له حتّى تنكح زوجاً غيره، و في جميع الأحوال يلزم أن يكون الطلاق في فترة طهر لم يحصل بها جماع، وقد كره الشرع أن يطلّق الرجل ثلاث مرّات في فترة طهر واحدة ﴿وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ ويدخل في ذلك المهر والهدايا وكل ما يعطيه الرجل لزوجته على سبيل التمليك، بالإضافة للمتعة لأنّ الآية (٢٤١) أوجبت المتعة للمطلّقة ﴿إِلاَّ أَنْ يَخَافَا﴾ أو يخاف أحدهما ﴿أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ وهي الحدود التي فرضها الله على الزوجين، كحسن المعاشرة والمماثلة في الحقوق مع

ولاية الرجل والتعاون على القيام بأمر العائلة وعدم مضارة أحدهما للآخر ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ الخطاب لجماعة المسلمين، والمعنيّون هم أولو الأمر ﴿أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ وهو الفراق المبني على الإفتداء، ويسمّى في عرف الشرع بالخلع، وهو حقّ الزوجة في الطلاق مقابل تعويض تدفعه إلى الزوج، فعندئذ لا يُكلّف الرجل خسارة زوجته وماله معاً، والقاعدة أن لا يأخذ الزوج من المختلعة فوق ما أعطاها من المهر، وليس له أن يعيد المختلعة في عدّتها، بغير رضاها، لأنّها ملكت نفسها بما أعادت له من ماله، ولهما أن يتزوّجا بعد ذلك بعقد جديد، إن اتّفقا ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا﴾ لا تتجاوزوها إلى غيرها وتتبعوا الهوى ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الظالمون لأنفسهم ولغيرهم، فكل من الزوجين يضر بنفسه وبزوجه في حال التعدي.

﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٢٣٠).

٢٣٠- ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ أي الطلقة الثالثة ﴿فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ تحرم عليه حتّى تنكح زوجاً غيره، ويدخل بها ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ أي الزوج الثاني، والمغزى أن رغبة الطلاق من قبل الزوج الثاني يلزم أن تكون حقيقية، وبمبادرة منه، وبعد الدخول بها، لأن المقصود دوماً التقيد بروح النص، وليس بحرفيته ﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا﴾ المرأة والزوج الأول ﴿إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي يتعاشرا بالمعروف كما هو مذكور آنفاً ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ مقاصد الشريعة، فإذا كان قصد الثاني أن يحلّها للأوّل، فقد وردت الأحاديث بذمّه ولعنه، ونكاحه باطل.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ

هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢٣١).

٢٣١- ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ إذا قاربت عدّة المطلّقة الانتهاء ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ فإمّا أن يردّها إليه ناوياً عشرتها بالمعروف، أو يتركها حتّى تنقضي العدّة من غير شقاق ولا مخاصمة ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾ فلا يعيد الرجل امرأته وهو ينوي إيذاءها أو ينوي طلاقها من جديد ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ يعود وبال ظلمه عليه ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ بعدم الالتزام بها، أو بالالتزام بها شكلاً فقط دون الجوهر ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ ببعث محمد ﷺ وبيان أحكام الشريعة لكم ﴿وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ وهي الحكمة والأحكام المتضمنة في الكتاب ﴿يَعِظُكُم بِهِ﴾ لما فيه صالحكم وصالح المجتمع ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أن ترتكبوا المحرمات ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ عليم بالأفعال الظاهرة والنوايا الباطنة.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢٣٢).

٢٣٢- ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ لا تعضلوهنّ، أي لا تضيّقوا عليهنّ أن يتزوجن من جديد، والخطاب موجّه للأزواج أن لا يعرقل الزوج مطلّقته أن تتزوّج غيره بعد انقضاء العدّة، ويمكن حمل الخطاب أن يكون لأقرباء المطلّقة أن لا يعضلوها إذا أرادت العودة إلى زوجها بنكاح جديد ﴿إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي بما وافق الشرع من العقد الحلال والمهر ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ المترتب عليه تحقق العدالة ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ في ترويج

المطلّقات ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ مصالح عباده وما يستوجب دفع المفاسد ﴿وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ الخيرة فيما تفعلون أو تتركون.

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٢٣٣).

٢٣٣- ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ الإشارة إلى الوالدات بشكل عام، المطلّقات منهنّ وغير المطلّقات، وقد حددت الآية أقصى مدّة الإرضاع بسنتين كاملتين لقوله تعالى ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ أي هذا تمام مدّة الرضاعة، لمن شاء، وهي المدّة التي يُعتَدّ بها في التحريم، لما ورد في الحديث أن الرضاعة لا تحرّم إلا ما كان دون الحولين، وقوله: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»، ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي بما هو معروف ومعتاد في المجتمع، ويلاحظ دقة التعبير في عبارة ﴿المولود له﴾ مقابل كلمة ﴿الوالدات﴾ واختير للتنبيه على سبب وجوب النفقة على الزوج ﴿لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ الوسع ضد الضيق، وهو ما تتسع له القدرة، فلا يكون تجاوز لطاقة الأب ﴿لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا﴾ لا يسبّب الأب الضرر للأم فينزع منها الولد مع رغبتها فيه وشدّة محبّتها له ﴿وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾ وأيضاً لا تسبب المرأة الضرر للأب، كأن تلقي الولد إليه وتمتنع عن إرضاعه، والمعنيان يرجعان إلى شيء واحد، وهو أن لا يغيظ أحدهما الآخر عن طريق الولد ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ إذا توفّي أحد الأبوين فمن بقي منهما لا يضارّ بالولد، خاصة بعد أن يتزوّج الأب أو تتزوّج الأم من جديد ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ الفصال هو الفطام: فتدلّ الآية أنّ الفطام في أقلّ من حولين جائز برضا الوالدين، والفصال أيضاً الانفصال: ممّا

يدلّ أن الانفصال بين الأم والولد جائز برضا الطرفين، على أن لا يسبب ذلك ضرراً للولد ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ﴾ أي لأولادكم، بحذف حرف الجر، وهو شائع في التنزيل راجع إعراب القرآن للزجاج ﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ لا حرج أن تطلبوا المراضع لإرضاع أولادكم ﴿إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ إذا سلّمتم الأجور إلى المرضعات، وإذا اتفقت الوالدة والوالد على أن يستلم منها الولد لعذر من أحد الطرفين ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أن تعتدوا الحدود ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيحاسبكم بما تعملون.

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (٢٣٤).

٢٣٤- ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ الأزواج في الآية هنّ النساء، والعرب تسمّي الرجل زوجاً والمرأة زوجاً وربما ألحقوا بها الهاء، فالآية تحدّد أنّ المرأة التي يتوفّى عنها زوجها تنتظر أربعة أشهر وعشرة أيام قبل الزواج من آخر ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ وهي نهاية العدّة المشار إليها ﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهو النكاح الحلال ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وما جبلت عليه النفس البشرية من الرغبة.

﴿وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلاَّ أَنْ تَقُولُوا قَوْلاً مَعْرُوفًا وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (٢٣٥).

٢٣٥- ﴿وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ التعريض ضدّ التصريح والمقصود خطبة التي تكون في عدّة الوفاة فتحوز خطبتها تعريضاً لا

تصريحاً ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ﴾ أي أخفيتم في أنفسكم، والمراد الرغبة الداخلية في خطبتها بعد العدّة ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ أي تبوحون لهنّ بما في نفوسكم من الرغبة فيهن ﴿وَلَكِن لا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ نهي عن الارتباط بها سرّاً، كأن يأخذ منها عهداً أن تلتزم به ولا تتزوج غيره، لأن المرأة قد لا تكون في حالة نفسية تمكنها من اتخاذ القرار المناسب خلال فترة العدة ﴿إِلاَّ أَنْ تَقُولُوا قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ يجوز له أن يعدها في السرّ بالإحسان إليها والاهتمام بشأنها ﴿وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ لا تحققوا عقد الزواج إلاّ بعد انقضاء العدّة ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ مطّلع على الخبايا ﴿فَاحْذَرُوهُ﴾ فاحذروا عقابه ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ يستر ذنوب عباده ﴿حَلِيمٌ﴾ فلا يعاجلهم بالعقوبة.

﴿لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢٣٦).

٢٣٦- ﴿لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ أباح تعالى طلاق النساء بعد العقد عليهنّ وقبل الدخول بهنّ ﴿مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ اللواتي لم تمسّوهنّ، والمسّ هو الجماع ﴿أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ الفريضة هي الصداق أي المهر، والمعنى: أو تفرضوا لهنّ فريضة إذا أردتم الدخول بهنّ، والمقصود اللواتي لم يُذكر صداقهنّ في العقد، فقد أباح تعالى طلاق المرأة التي لم يُذكر صداقها و لم يتم الدخول بها، إذ المعلوم أنّ عقد النكاح يوجب الصداق للمرأة في كل الأحوال، غير أنّ الصداق قد يكون مذكوراً أو غير مذكور سلفاً، والمعنى أيضا أنه لا يجوز مسّ المرأة إلاّ بعد أن يفرض لها الصداق ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي أعطوا المطلّقات من أموالكم ما يتمتّعن به، وأن يكون العطاء حسب أقداركم ومنازلكم من الغنى والإقتار، والمعنى أيضاً أن المطلّقة غير الممسوسة تجب لها المتعة، كما هو واضح في آية

[الأحزاب ٤٩/٣٣]، أي يعطيها الرجل من ماله ما تتمتع به، حتّى لو لم يكن قد فرض لها المهر سلفاً ﴿حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ أوجب تعالى متعة المطلّقات على المحسنين، وعلى المتقين (الآية ٢٤١)، ولمّا كان تعالى قد أمر جميع خلقه أن يكونوا من المحسنين والمتّقين، فالمتعة واجبة على الجميع سواء كانوا من أهل الإحسان والتقى أو غيرهم، والقيام بالواجب يوصف بالإحسان وقد ورد ذلك في آيات كثيرة، والمتعة واجبة لكلّ مطلّقة دون تخصيص لقوله تعالى ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة ٢٤١/٢]، فلم يخصّص منهنّ بعضاً دون بعض، والعبرة بظاهر اللفظ، وهو عام، ولا يوجد دلالة أنّه ما دام فرض للمطلّقة المهر بعد الدخول، أو نصف المهر قبل الدخول، أنّه يبطل عنها المتعة، إذ إنّ وجوب المهر، أو نصف المهر، لا ينفي حقّ المطلّقة بالمتعة، فاجتماعهما ليس محالاً، والقرآن دلّ على وجوب ذلك [الأحزاب ٤٩/٣٣].

والنتيجة أن الآية أسقطت الحرج في تطليق النساء قبل الجماع، فلو قيل: هل من حرج لو طلّقها بعد الجماع؟ فالجواب بقوله ﷺ: «إنّ الله لا يحبّ الذوّاقين ولا الذوّاقات»، وذلك يقتضي منع النكاح بنيّة الطلاق.

ومن معنى الآية أيضاً إباحة تطليق المرأة قبل المسيس إطلاقاً، في أي وقت، سواء كانت في الحيض أو الطهر، ولا عدّة عليها [الأحزاب ٤٩/٣٣]، وليس الأمر كذلك بعد المسيس، إذ ليس لزوجها أن يطلّقها إلاّ في طهر لم يجامعها فيه، وعليها العدّة.

﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٢٣٧).

٢٣٧- ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ أي نصف ما فرضتم لهنّ يسقط، وهو حكم المطلّقة غير

الممسوسة، فلها نصف الصداق فقط، ولها المتعة، ولا عدّة عليها [الأحزاب ٤٩/٣٣]، ﴿إِلاَّ أَنْ يَعْفُونَ﴾ جعل تعالى العفو إليهنّ، إن شئن أخذن حقّهنّ، وإن شئن عفون ﴿أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ وهو الزوج، وعفوه أن يعطيها الصداق كاملاً ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ الخطاب للرجال والنساء معاً، غير أنّ الغلبة في الخطاب للذكور إذا اجتمعوا مع الأناث، والمعنى إن تعفوا أيها المفارقون أزواجكم أقرب لكم إلى تقوى الله ﴿وَلا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ للترغيب في العفو ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيحازيكم بإحسانكم أو إساءتكم.

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (٢٣٨).

٢٣٨- نلاحظ في أسلوب القرآن الكريم أنّ الآيات المطوّلة المتعلّقة بالتشريع الاجتماعي يتخلّلها غالباً آيات الحثّ على التقوى والعبادة، وهكذا ترد هنا آيات الصلاة بين آيات شرع الزواج والطلاق، والمغزى من ذلك أن العبادة ليست مجرد شكليات وطقوس بل يجب أن يرافقها العمل بما ينص عليه الشرع ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ استدلّ البعض أنّ هذه الآية تدل بشكل غير مباشر على عدد الصلوات اليومية الخمسة، لأنّ كلمة صلوات تدلّ على الثلاثة حيث إنّ أقلّ الجمع ثلاثة ﴿وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى﴾ تدلّ على زيادة عن الثلاثة، وإلاّ كان في الكلام تكرار، والأصل عدم التكرار، ثمّ بعد الزيادة لا يكون المجموع أربعة، وإلاّ فليس للمجموع وسط، فأقلّ ذلك أن يكون العدد خمسة، وهذا الاستدلال مبني على أنّ الوسطى في العدد، وليس في الفضيلة، أمّا الآيات التي تشير إلى أوقات الصلاة فهي [الروم: ١٧/٣٠]، [الإسراء: ٧٨/١٧]، [طه: ١٣٠/٢٠]، [هود: ١١٤/١١]، أما قوله تعالى ﴿حَافِظُوا﴾ ففي الحديث: «احفظ الله يحفظك» أي حافظ على طاعة الله يحفظك الله، وهو شبيه بقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ (١٥٢)، وقوله عزّ وجل: ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾ [المائدة ١٢/٥].

واختلفوا في الصلاة الوسطى فقيل إنّها الصبح، وقيل الظهر، وقيل العصر، وقيل المغرب، وقيل العشاء (الرازي)، وقيل المراد من الوسطى الصلاة النابعة من القلب بحضور الذهن، واستحضار المعاني في أثناء القراءة (المنار)، وعلى هذا يكون تقدير الآية: حافظوا على الصلوات، بأن تكون صلواتكم وسطى، ولذا أتبعها تعالى بقوله ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ أي بخشوع وسكينة.

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (٢٣٩).

٢٣٩- ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ سواء كان الخوف من عدوّ أو غيره ﴿فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا﴾ أي فصلّوا وأنتم راجلين مشاة أو راكبين في حالة الخوف، وقالوا إنّ الصلاة لا تتمّ إلاّ بثلاث: ١) النيّة بالقلب ، ٢) والقراءة ، ٣) وأعمال الجوارح وهي القيام والركوع والسجود باتجاه القبلة، ففي حال الخوف تبقى الأولى والثانية وتسقط الثالثة ويُكتفى بالإيماء في أي اتجاه، وأمّا الوضوء فيجزيء عنه التيمّم ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ﴾ بزوال الخوف عنكم ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ فأقيموا الصلاة على تمامها، واذكروا الله واشكروه على نعمته عليكم بما علّمكم.

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢٤٠).

٢٤٠- ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ الحول هو السنة، وتقدير الآية: أنّ الذين يتوفّون منكم، بعد أن أوصوا وصيّة لأزواجهم بنفقة، وسكنى لمدة سنة في بيت الزوج ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ فإن خرجن من بيوت أزواجهنّ قبل إتمام السنة، وبعد مضي أربعة أشهر وعشرة أيام، فلا حرج عليهنّ ﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ

مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ لأنه تعالى أباح لهنّ الخروج والزواج بعد إتمام العدّة وهي أربعة أشهر وعشرة أيام، فلا يلزمهنّ انتظار تمام السنة، ويحتمل المعنى أيضاً أن يكون تقدير الآية: وصية من الله لهنّ بإتمام السكنى لمدة سنة في بيوت أزواجهنّ، إن شئن، أي إنه تعالى جعل لهنّ الخيار والحق في ذلك، وأنّ على الرجال الوصية لأزواجهم بإتمام سكنى الحول في بيوتهم إن شئن.

﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (٢٤١).

٢٤١- ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ هذا الحكم عام لكلّ المطلّقات، بإيجاب المتعة لهنّ، ولم تحدد الآية مقدار المتعة لأنها تتوقف على مقدرة الزوج المالية لقوله تعالى ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾ (٢٣٦)، أي أعطوا المطلّقات من أموالكم ما يتمتّعن به، وقال بعضهم المتعة هي النفقة، وهي ليست مقتصرة على ما هو واجب، بل ما هو مستحبّ أيضاً لقوله تعالى ﴿وَلا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ (٢٣٧).

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٢٤٢).

٢٤٢- ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي بتشريع الحلال والحرام في الحياة الزوجية ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما هو صالح لكم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ (٢٤٣).

٢٤٣- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ بعد تشريعات الحياة الزوجية ينتقل القرآن الكريم إلى موضوع آخر وهو الجهاد، مشيراً إلى أقوام خرجوا من ديارهم للنجاة بحياتهم وهرباً من العدوان، ولم يشر القرآن الكريم، ولا السنّة الشريفة، مَن هم هؤلاء القوم؟ ولا يشترط أن تكون الآية لقصّة واقعة بعينها، وإنما هي مثل يتكرر في تاريخ الأمم ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا﴾ أي قضت سنة الله في خلقه أن يموتوا بما أتوه من أسباب الموت،

كالجبن والتخاذل والتفكك والتخلّي عن الديار، ممّا يؤدّي إلى تنكيل العدو بهم، واستيلائه على ديارهم، فيموتون كمجتمع وكأمّة، ويتفرّق شملهم، فهذه دعوة للمؤمنين في كلّ الأوقات كي يكونوا مستعدّين متكاتفين، وتحذير لهم بعدم التقصير ﴿ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ أي أحيا أمّتهم بعد أن غيّروا ما بأنفسهم، فوحّدوا كلمتهم وبذلوا أنفسهم ومالهم لتدارك ما فاتهم، فحياة الأمم متوقّفة على الإيمان والعمل ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ بما جعل في الحياة من هذه السنن، إذ جعل المصائب سبباً لإحياء عزائم الأمم من جديد ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ وهي حال أكثر الناس في غفلتهم وجهلهم بحكمة ربهم، فلا يستفيدون من سنة الله في خلقه.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٤٤).

٢٤٤- ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بعد أن حذّر تعالى المؤمنين في الآية السابقة من موتهم كأمة، أتبع تعالى ذلك بالحض على القتال في سبيل الله، دفاعاً عن مجتمع المسلمين وعقيدة الإسلام ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع لدعائكم عليم بعملكم.

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢٤٥).

٢٤٥- ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ استمرار للآية السابقة، لأنّ القتال في سبيل الله يحتاج لبذل المال للتجهيز للقتال، ولحثّ المؤمنين عليه فقد جعل تعالى بذل المال بمثابة الإقراض له، وهو الغني عن العالمين، وفي التفسير المأثور لهذه الآية قول عمر رضي الله عنه: القرض الحسن هو المجاهدة والإنفاق في سبيل الله ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ أي فيضاعف ثوابه، والمضاعفة أيضاً تنعكس على الأمة بعزتها وغناها وكثرة مرافقها وسعادتها ودوام النعمة على أفرادها ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ يحجب الرزق عن البعض لأنهم يجهلون سننه في

خلقه أو يتساهلون في اتّباعها، ويبسطه للبعض بما يوفقه من الهداية إلى معرفة تلك السنن واتّباعها، فيفتح لهم الأبواب ويسهّل الأسباب ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيحاسبكم على ما قدّمتم ويوفّيكم أعمالكم.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ (٢٤٦).

٢٤٦- بعد الآيات الثلاث السابقة، ضرب تعالى مثلاً بقصة طالوت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ الملأ هم أكابر القوم ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بعد وفاة موسى عليه السلام خلفه عدد من الأنبياء كان آخرهم صموئيل، وهو النبيّ المشار له في هذه الآية، وقد تعرّض اليهود خلال تلك الفترة للكثير من النكسات المادية والفكرية وانتشر فيهم الفساد، فطلبوا من نبيّهم أن يعيّن ملكاً عليهم يقودهم لقتال الأقوام المجاورة التي كانت تهددهم، العام ١٠٢٠ ق.م ظناً منهم أن وجود القيادة الحازمة كافٍ لإخراجهم من أوضاعهم المتردية، غافلين عن سنته تعالى أنه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا﴾ لعلمه بفساد نفوسهم ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ أي اضطروا للخروج من مصر مع ذريتهم هرباً من الاضطهاد ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ الذين يظلمون أنفسهم بترك الجهاد.

والخطاب ذو علاقة بالآيات السابقة في قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ (٢٤٣)، وقوله ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (٢٤٤)، فكأنّه تعالى أكّد وجوب الجهاد بأن ذكر قصة بني إسرائيل، وفي الخطاب حثّ للمسلمين على الجهاد ضد العدوان في كلّ زمان.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٤٧).

٢٤٧- ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ طالوت هو المسمّى شاؤول في كتب اليهود ﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ كان كبار بني إسرائيل مدفوعين بأطماعهم الشخصية، كلّ منهم يريد أن يكون الملك له، لذا زعموا أنّ طالوت ليس من أهل الملك، واحتجّوا بأنّه لم يؤت سعة من المال إذ كان فقيراً ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾ اصطفاه أي فضّله واختاره عليكم بما أودع فيه من الاستعداد الفطري للحكم ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ أي إن من طبيعة الأمور أن يكون ولي الأمر من العلماء الأقوياء، وقد بيّن تعالى أنّ طالوت كان أهلًا للملك لسببين: أحدهما العلم، والثاني المقدرة، فالعلم والمقدرة لا يمكن سلبهما من الإنسان، بينما يمكن سلب الجاه والمال منه، كما أن العالم القادر يمكن الانتفاع به للحفاظ على مصلحة الأمة أكثر من العالم الضعيف، أو الغني صاحب النسب، وقد قدّم تعالى البسطة في العلم على البسطة في الجسم، لأنّ الميّزات الفكرية أعلى مرتبة من القوّة ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي إنّ له سنّة في الأسباب المؤدية للملك ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ في إسباغ المُلك والنعم ﴿عَلِيمٌ﴾ يؤتي الملك من يشاء بحكمته.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٤٨).

٢٤٨- ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾ آية ملكه هي الإشارة أو العلامة الدالّة على أنه تعالى قد بعث طالوت ملكاً ﴿أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ قال البيضاوي إن التابوت هو القلب، أما السكينة فهي الأمن والثبات

والسكون، كما في قوله تعالى ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح ٤٨/٢٦]، أي أنّ علامة ملكه تكون في نزول السكينة على قلب كلّ منهم ﴿وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ بما أنّ الأنبياء لا يورّثون سوى الدين والشريعة، فتكون البقية هي الدين والشرائع التي ورثها أحدادهم عن موسى وهارون، تنزّل بها الملائكة عليهم، والمعنى أن تنتظم أمور دينهم وشرعهم بعدما ضلّوا عن شريعة موسى وهارون ودخلت فيهم العادات الوثنية، وانتشر فيهم الفساد ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ تلك هي المعجزة الباهرة، إن كنتم مؤمنين بدلالتها، أمّا أقوال بعض المفسّرين عن كون التابوت صندوقاً يحتوي على التوراة وعلى عصا موسى، فيرى محمد أسد أنها منبثقة من أساطير تلمودية لا تستند على أساس، والمعلوم أن الكثير من كتب اليهود التي بين أيدينا كتبت في وقت متأخر بعد وقوع الأحداث بزمن طويل، فالكثير منها كُتب خلال فترة الأسر البابلي أي بعد داوود وسليمان بحوالي ست مئة عام، ومنها ما كتب بعد ذلك، والتلمود كتب بعد بعثة المسيح عليه السلام.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٢٤٩).

٢٤٩- ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ بعدما أذعنوا لملكهم الجديد غادر البلدة بهم للقاء العدو فقال ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ مبتليكم أي مختبركم، وابتلاء الناس يكون بظهور الشيء فالله تعالى لايثيب ولا يعاقب الناس بعلمه المسبق عنهم، ولكن بظهور الأفعال منهم، وذلك لا يحصل إلاّ بالتكليف، ولذا سمّي التكليف ابتلاء ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ التكليف كان عدم الشرب من

النهر، رغم العطش والمشقة، والمغزى أن الإيمان والثقة بعدالة القضية لا قيمة لهما إذا لم يرافقهما الانضباط والالتزام بالشرع، وعدم الاكتراث بالمصالح المادية الشخصية ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ بعد أن جاوز النهر مع القليل من المؤمنين معه أبدى الباقون أنهم لايستطيعون مجابهة جالوت ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ لم يكن لدى الموقنين بالآخرة أي شك بالنتيجة النهائية ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ الصابرين على صعوبة التكليف.

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٥٠).

٢٥٠- ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ عند اللقاء توجهوا إلى الله تعالى بالدعاء قائلين: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ تعبيراً عن المبالغة في طلب الصبر تجاه أهوال الحرب ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ حتى لا نضطر إلى الفرار ﴿وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قال البيضاوي: في هذا الدعاء ترتيب بليغ إذ سألوا ربهم الصبر، ثم الثبات، ثم النصر الذي يترتب على الصبر والثبات.

﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٢٥١).

٢٥١- ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي بتوفيقه وتيسيره ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾ كان داوود في جيش طالوت واستطاع أن يقتل جالوت ﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ بعد موت طالوت، خلفه داوود في الملك ﴿وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ أي آتاه النبوة لقوله تعالى ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [النساء ١٦٣/٤]، ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾ وهو شرح للكيفية التي يسير بها العالم وفق الخطة الالهية، وهو مغزى القصة، فالله تعالى يعطي السلطة والقوة لبعض

الأمم ضمن حدود معينة، فإذا تجاوزت وفسدت جابهها بأمّة أخرى لتكبحها، ولو أنّه فسح المجال لأمة واحدة أن تسيطر وتطغى إلى الأبد لانتشر الفساد وعمّت الشرور ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ فمن فضله تعالى أنّه يضع حدّاً للفساد والطغيان.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢٥٢).

٢٥٢- ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ بما فيها من العبر البليغة ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ لأنّ النبي ﷺ عرف تاريخ الأقوام القديمة عن طريق الوحي، من غير تعلّم ولا دراسة، وفي ذلك إفحام لمن شكّك في نبوّته من أهل الكتاب، خاصة إذا عرفنا أن كتب اليهود والنصارى لم تكن مترجمة للعربية زمن البعثة النبوية، ولم تترجم للعربية حتى العام ١٠٦٠ م.

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (٢٥٣).

٢٥٣- ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ وهو موسى عليه السلام ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ وهو محمد ﷺ كونه بُعث للناس كافة، بخاتم الرسالات لكل العصور والأزمان ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ ورود عيسى عليه السلام في هذا السياق للتأكيد على كونه نبياً ولدحض ادعاءات من اعتبروه إلهاً، ولمعنى التأييد بالروح القدس راجع آية [المائدة ٥/١١٠]، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ فطر تعالى الناس على حرية الرأي والاختلاف، ولو شاء تعالى لجعل سنته في خلقه أن يعذر المتخالفون بعضهم بعضاً وأن يكون خلافهم في الرأي مقتصراً على النقاش فيدعم كل منهم رأيه بالحجة فقط، فلو

كانت تلك سنته تعالى في الخلق لما اقتتلوا، ولكن جعلهم درجات في الفهم والفكر، فكان اختلافهم في الرأي والمصالح، مع عدم عذر بعضهم بعضاً، مؤدياً إلى الاقتتال بين بعضهم البعض.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٥٤).

٢٥٤- ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ بعد قصّة داود وطالوت، يعود القرآن الكريم إلى موضوع الآية التي سبقت هذا الشرح ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ (٢٤٥)، ويلاحظ في قوله ﴿مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أنه لا يطلب من المؤمنين إلاّ بعض ما جعلهم مستخلفين فيه، والعبرة في الآية أنّ من اتّبعوا طريق الإيمان الصحيح يجب أن يكونوا مستعدّين للتضحية المالية في سبيل ذلك ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ﴾ حيث لا تقدرون يومئذ على ابتياع شيء بأموالكم ﴿وَلا خُلَّةٌ﴾ الخلّة من الخليل وهو الصديق، والمعنى أن خليل المرء، إن كان ينفعه في الدنيا، فلا يقدر على شيء في الآخرة ﴿وَلا شَفَاعَةٌ﴾ لا شافع يشفع لهم عند الله كما كان بعضهم يشفع لبعض في الدنيا ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الكافرون في هذا المجال هم الذين يعتبرون ممتلكاتهم الشخصية لديهم أعز من رضا الله، أو من يظنون أنهم رغم شحّهم وإحجامهم عن التضحية فسوف لن يحاسبوا على ذلك يوم القيامة فيغفر لهم بشفاعة غيرهم، والظلم والكفر يتواردان في القرآن على المعنى الواحد فيطلقان تارة على ما يتعلق بالعقيدة وتارة على ما يتعلق بالعمل.

﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (٢٥٥).

٢٥٥- بعد أن ذكّر تعالى في الآية السابقة بيوم القيامة، حيث لا ينفع المرء مال ولا خلة ولا شفاعة، أتبعها في هذه الآية بأن لا سلطة حقيقية في الوجود إلاّ لله وحده:

﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ﴾ أي ليس في الوجود صاحب سلطة حقيقية إلاّ الله، وبالتالي لا مستحقّ للعبادة سواه، والعبادة هي الطاعة، فالمعنى لا مستحق للطاعة المطلقة إلاّ الله تعالى ﴿الْحَيُّ﴾ له الحياة الدائمة وكل ما عداه فان والمخلوقات تحيا بإمداد منه ﴿الْقَيُّومُ﴾ القائم بذاته والقيّم على كلّ شيء من خلقه ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾ السِنة هي النعاس، والمعنى لا يغيّره ما يغيّر غيره، ولا يزيله عمّا لم يزل عليه، والدائم على حال واحد لا يتغيّر ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ الجميع عبيده، وكلهم مقهور لسنّته في الكون ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاّ بِإِذْنِهِ﴾ لأنهم ظنّوا أن لهم شفعاء عند الله انظر آية [يونس ١٠/١٨]، وآية [الزمر ٣٩/٣]، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي يعلم ما هو ضمن ادراكهم، وما هو خارج ادراكهم ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاّ بِمَا شَاءَ﴾ لا يعلمون من علم الغيب والمشاهدة إلاّ ما شاء أن يعلموه ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ كرسيّه كناية عن علمه، أي إن علمه وسع كلّ شيء كما أخبر تعالى عن نفسه في دعاء الملائكة ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر ٤٠/٧]، وأصل «الكرسي» العلم ومنه «الكرّاسة» وهي الصحيفة التي كتب بها علم، ومنه يقال للعلماء «كراسي» ﴿وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ لايشقّ عليه حفظ هذه العوالم، فهو العليّ عن النظير، وكل ما دونه صغير عن عظمته.

﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٥٦).

٢٥٦- في الآية السابقة أن الله تعالى هو القيوم على خلقه، لذا بعث إليهم الأنبياء والرسل، وختمهم بالنبي الأحمد ﷺ (الآية ٢٥٣) فتميّز الحق من الباطل:

﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ بعد أن تميّز الحق من الباطل، لا يصحّ أن يكون الإيمان مبنياً على الإجبار والقسر، وإنّما على الحرية والاختيار، لأنّ القهر والإكراه ينافيان التكليف فيبطل معنى الاختبار.

والخطاب استمرار للآية (٢٥٣) إن الاختلاف سببه حرية الخيار التي كرّم بها تعالى خلقه، ونظير ذلك قوله تعالى ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف ٢٩/١٨]، وقوله تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس ٩٩/١٠]، وقوله تعالى ﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء ٤/٢٦]،

﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ الطاغوت كلّ رأس في الضلال كائناً ما كان، سواءٌ كان معبوداً بقهر منه لعابديه، أو بطاعة ممّن عبدوه، والعبادة بمعنى الطاعة المطلقة، وقدّمت الآية الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله تعالى، في إشارة أنّه لا يجتمع الإيمان بالله مع طاعة رؤوس الضلال ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انفِصَامَ لَهَا﴾ العروة الوثقى أي التي لا تنقطع، وهي ما يتعلّق به المرء للنجاة، ضربها تعالى مثلاً لما يعتصم به المؤمن، وقيل هي الإسلام، ولا تنقطع لقوله تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال ٥٣/٨]، والاستمساك بالعروة الوثقى لا يتم إلا بالكفر بالطاغوت والإيمان الصحيح وما يترتب عليهما ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع للقول عليم بالنوايا.

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٥٧).

٢٥٧- ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي الذين اختاروا الإيمان، والمؤمن لا ولي له ولا سلطان لأحد عليه إلا الله تعالى ﴿يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾

يخرجهم بتوفيقه من ظلمات الجهل إلى نور الإيمان، وهذا بمثابة الدليل على منع الإكراه في الدين، لأن الولاية على العقول والقلوب هي لله وحده ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي الذين اختاروا الكفر وصمّموا عليه ﴿أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ لأنه لا سلطان على نفوسهم إلا الباطل ﴿يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ من النور الذي مُنحوه بالفطرة وبالرسالات السماوية إلى الكفر والجهل والانهماك في المادة ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ بما اكتسبوه لأنفسهم من الضلال.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢٥٨).

٢٥٨- الآية تضرب مثلاً لما قبلها بمعنى:

انظروا إلى إبراهيم كيف اهتدى إلى الحجج القيّمة بولاية الله له، وإلى الذي حاجّ إبراهيم كيف تعامى عن نور الحجّة باستسلامه للطاغوت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ قيل هو ملك كلدان في العراق وقت بعثة إبراهيم عليه السلام ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ أي أنّ إيتاء الله تعالى الملك له حمله على الغرور والمحاجّة، فقد كان نظام حكمه قائماً على التفرد والتسلط ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ حجّة إبراهيم شبيهة بقوله تعالى:﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة ٢/٢٨]، ومغزى قول إبراهيم: أنّ الحياة إنما تكون بإمداد من الله وحده، والموت يكون بسحب هذا المدد منه، وبالتالي ليس في الوجود صاحب سلطة حقيقية إلاّ الله، ولا مستحقّ للطاعة المطلقة إلاّ هو، وبذلك نفى كل ادّعاء للألوهية أو الربوبية عن الملك وغيره، وقد يكون قصد إبراهيم من الإحياء معنى الهداية: كقوله تعالى ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام ٦/١٢٢] فيكون الكفر

بمثابة الموت، والإيمان بمثابة الحياة، لأنّ إبراهيم كان بصدد دعوة الملك إلى الهدى،

﴿قَالَ﴾ الملك ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ لم يفهم الملك مغزى كلام إبراهيم إلاّ فهماً سطحياً، بمعنى أن باستطاعة الملك قتل من يريد وترك من يريد حيّاً، فلذلك انتقل إبراهيم من الإقناع المعنوي إلى الإقناع الحسّي فقال له: ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ بهت أي صار مغلوباً لا يجد حجة ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الظالم بهذا المعنى الإعراض عن النور الإلهي، وهو نور العقل الصحيح البريء من الأهواء الذي لم يستسلم للطواغيت، وينسب تعالى «الهداية» إلى مشيئته لأنّ سنن الطبيعة بأكملها من أسباب ونتائج تعود إليه، ومن ذلك أنّ الاهتداء نتيجة طبيعية لحرية الخيار الذي منحه تعالى لبني آدم، انظر شرح الآية (٦)، فالكافر لم يقرّ بالايمان رغم الدليل القاطع، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام ١١١/٦]، وقوله تعالى ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل ١٤/٢٧].

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢٥٩).

٢٥٩- من المهم ملاحظة أنّ هذه الآية تتوسط الآية السابقة التي يقول فيها إبراهيم عليه السلام للكافر: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ ثم الآية التالية التي

يطلب فيها إبراهيم من ربّه أن يريه إحياء الموتى، وفي هذه الآية يبيّن تعالى نسبيّة الزمن، ومعجزة الخلق الموجودة في كلّ شيء:

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ ليس في القرآن والسنة ما يدلّ على شخصية الذي مر على القرية أو مكانها، وليس من المهم معرفة من هو لأنّ العبرة بمغزى القصة ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ خالية من أهلها وقد انهارت سقوفها ﴿قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ قال ذلك تعجباً واستغراباً، أو استبعاداً ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ بعثه برهاناً لقدرته تعالى على إحياء الموتى ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ لم يتسنّه أي لم يؤثر عليه مرّ السنين، فبقي كما هو ﴿وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ﴾ معطوف على قوله ﴿فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ﴾ والمعنى أنّ الحمار أيضاً لم يتسنّه، ولا زال حياً برهاناً على قدرته تعالى على منح الحياة بلا أمد ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ لأنه عندما يخرج إلى الناس فسوف يجد أن الأحيال قد تغيرت وبقي هو على حاله، وهذه العبارة تتوسّط الكلام، بين المعجزات الخاصة بإحيائه وعدم تسنّه الطعام وإبقاء الحمار حيّاً، وبين المعجزة العامة التي غفل عنها هذا المتعجّب وهي نشوز العظام من العدم:

﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ أي تفكّر في معجزة الخلق المستمرّة، وكيف يتطور الجنين وتتكوّن عظامه في الرحم وهذا منتهى الإعجاز، وهو شبيه بقوله تعالى ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون ٢٣/١٤)، فمن ينظر في ذلك لا يستغرب إحياء القرية بعد موتها، فالمعجزات موجودة في الخلق وفي كلّ وقت، والزمن نسبي، وللإنسان أن يتدبّر ذلك ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أدرك حقيقة الإعجاز فيما اعتاد أن ينظر إليه كمسلّمات من الامور العاديّة.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٦٠).

٢٦٠- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى﴾ أرني بعيني كيفية إحيائك الموتى، وهو سؤال بصيغة الإقرار إذ بدأه إبراهيم بإقرار الربوبية، ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ وهو سؤال بصيغة بيان الواقع، أي سبق وقد آمنتَ يا إبراهيم، والمعنى أنّ الإيمان بهذا السر الإلهي والتسليم به كافٍ، فذلك منتهى ما يُطلب من البشر، ولا ينبغي لهم ولا يمكن لهم معرفة كنه القدرة الإلهية ممّا استأثر به تعالى في علمه، ﴿قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ طلباً للطمأنينة فيما تاقت إليه نفس إبراهيم من معرفة أسرار الربوبية، وقد يكون سؤال إبراهيم بمعنى: ربِّ أرني كيف تهدي الكفار، لقوله تعالى ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام ١٢٢/٦]، ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أي أملهنّ إليك، لأنّ صاره أو يصيره بمعنى أماله، والمقصود أن تألفه الطيور فتميل إليه، قال أبو مسلم الأصفهاني: هذا هو المشهور في اللغة، وأما التقطيع والذبح كما يقول البعض فليس في الآية ما يدلّ عليه، وثانياً: لو كان المقصود قطّعهنّ لما قال ﴿إِلَيْكَ﴾ وإنما يستقيم المعنى عندما يكون أملهنّ إليك، وثالثاً: أنّ الضمير في ﴿ادْعُهُنَّ﴾ عائد للطيور وكذلك الضمير في ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾، ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا﴾ جزء الأربعة هو الواحد أي اجعل على كل جبل منها واحداً ﴿الرازي﴾، ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ مهما كانت الجبال بعيدة تأتيه الطيور بمجرد دعوتها، والمغزى أنّه كما أطاعت الطيور إبراهيم فأتت إليه بمجرد دعوتها، فكذلك يحيي الله الموتى، ويهدي الكفار بقوله كن فيكون، وذلك غاية ما يطمح البشر لمعرفته من سر الإحياء والهداية ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ عزيز في عقابه حكيم في خلقه.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٦١).

٢٦١- بعد أن بيّن تعالى موضوع الإيمان في الآيتين السابقتين أتبع في هذه الآية بذكر الإنفاق، لأن الإيمان اليقيني والعمل الصالح لا ينفك أحدهما عن الآخر:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾ الإنفاق في سبيل الله يشقّ على الكثير من النفوس، فعلّمهم تعالى أنّ ما ينفقونه في المصالح العامة مفيد لهم في دنياهم وآخرتهم، وقد ذكر في الآية (٢٤٥) أنّ الإنفاق في سبيل الله بمنزلة إقراضه تعالى، ووعد بمضاعفته أضعافاً كثيرة، ثم ذكر هنا سبع مئة ضعف تعبيراً عن الكثرة وليس تحديداً لها، ولذلك قال ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فيزيده زيادة لا تقدّر ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ لا ينحصر فضله ولا حدود لعطائه ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق المضاعفة من المخلصين، ومن الواضح أنّ آثار النفقات تظهر آثارها مباشرة في قوة الدين وانتشاره، وسعادة المسلمين، وازدهار مؤسساتهم الدينية والإجتماعية والصحية.

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٦٢).

٢٦٢- ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى﴾ المنّ في الأصل هو النقص لأنّه ينقص النعمة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ [القلم ٦٨/٣] أي غير منقوص وغير مقطوع، ومنه سمّي الموت منوناً لأنّه ينقص الأعمار، ظاهرياً، أو يقطعها، والمعنى أنّ المنّ، وهو أن يذكر المحسن تفضّله على من أحسن إليهم، ينقص الأجر أو يبطله، وكذلك الأذى، وهو مباهاة المرء بإحسانه أمام الغير، لأنّ الإنفاق إن كان خالصا لوجه الله فلا معنى

لمنّ المنفق على من أنفق عليه، لأنّ المعطي حقّاً هو الله وليس العبد، فعليه أن يعتقد بأنّ الله قد أنعم عليه إذ وفّقه لهذا العمل ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لا خوف عليهم عند فراقهم الدنيا ولا من أهوال القيامة، ولا يحزنون على ما خلّفوا وراءهم في الدنيا.

﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ (٢٦٣)

٢٦٣- ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ قول جميل، ودعاء الرجل للسائل ولو لم يعطه شيئاً ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي ستر منه على السائل لما يعلمه من سوء حالته ﴿خَيْرٌ﴾ عند الله ﴿مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ بالتفاخر أمام الناس أو سوء القول أو سوء المقابلة ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عمّا يتصدّقون به ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعجّل بالعقوبة على من يمنّ بالإنفاق على غيره ويؤذيه.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٦٤).

٢٦٤- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ المراد إبطال أجرها وثوابها بالمنّ والأذى، لأنّ المرائي لا يؤمن بالله واليوم الآخر إلا إيماناً ظاهراً، وهو ينفق كي يظهر أمام الناس، فبطلان أجره وثوابه لا شك فيه، كبطلان أجر وثواب المؤمن الذي يتبع صدقاته بالمنّ والأذى ﴿فَمَثَلُهُ﴾ أي المرائي ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ الصفوان هو الصفا أي الصخرة الملساء ﴿فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾ من المطر الشديد ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ أي صلباً أملسَ، وقد شبّه تعالى نفقة المرائي والمانّ والمؤذي، بالمطر ينزل على صخر عليه تراب قليل، فيذهب التراب وتبقى الصخور لا تستفيد من المطر ولاتنبتُ شيئاً، والمعنى أنّ ثواب الإنفاق يَبطُل بسبب المن والأذى والرياء ﴿لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾ المرائي والمانّ

والمؤذي لا يكسبون ثواب ما أنفقوا ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ من يختار الكفر والنفاق لا يهتدي إلى الإخلاص بإنفاق المال على الوجه الصحيح.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٢٦٥).

٢٦٥- ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ﴾ يريدون رضا الله وهو غايتهم الأولى من الإنفاق ﴿وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ تثبيتاً من أنفسهم لهم على طاعة الله وهي الغاية الثانية، وقيل إنهم يتثبتون أين يضعون صدقاتهم، وقيل تثبيتاً من أنفسهم لأنفسهم في منازل الايمان ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ﴾ أي بستان ﴿بِرَبْوَةٍ﴾ الربوة هي المكان المرتفع عن السيل ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ أصابها المطر الغزير فضاعف ثمرها، فشبّه الإنفاق بالمطر الغزير ﴿فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ إن لم يصبها المطر يهبط عليها الندى أو الرذاذ أو المطر الخفيف وهو الإنفاق القليل بقدر المستطاع، ومعنى التشبيه أن المنفق ابتغاء مرضاة الله كالبستان الخصب إذا أصابه الخير الكثير، أي الإنفاق كالمطر المنهمر، وإن أصابه خير قليل أنفق منه بقدره كالندى، وفي الحالتين يناله ثواب عظيم وهو معنى قوله ﴿فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ بصير بالإنفاق وبالنوايا.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢٦٦).

٢٦٦- ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ الكلام لا يزال في الإنفاق، وقد ضرب تعالى مثلاً بمن حصل على نعم الدنيا ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ وكان له فيها من كل مباهجها ﴿وَأَصَابَهُ

﴿الْكِبَرُ﴾ وهو لا زال ممسكاً عن الإنفاق، مفرّطاً في طاعة الله، ولم يكن همّه إلاّ الدنيا ﴿وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ﴾ فنشأت ذريّته مثله، تعمل لدنياها ولا تعمل لآخرتها، وهذا منتهى الضعف ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ ترك دنياه خلفه بعد موته فلا تفيده شيئاً، كأنّما أصابها إعصار فاحترقت، والإعصار كناية عن الشحّ ومنع الإنفاق والتهالك على المادة، والمعنى أنّه بعد موته وجد نفسه صفر اليدين، بأشدّ الحاجة إلى عمل صالح لو كان فعله، روى مسلم وغيره عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلاّ من ثلاثة: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ لعلّكم تتفكّرون في زوال الدنيا وإقبال الآخرة فتعملون لها قبل فوات الأوان، لأن الامتناع عن الإنفاق، أو الإنفاق رئاء الناس، كمن احترقت ثروته فلم يبق منها شيء، انظر الآية (٢٥٤).

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (٢٦٧).

٢٦٧- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ طيبات ما كسبتم بمعنى أنّ الزكاة والصدقة يجب أن تكونا من المال الحلال، والمعنى أنّ الأصل في مال المؤمنين أن يكون حلالاً ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ﴾ من نتاج الزراعة والمعادن والوقود ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ لا تقصدوا كسب المال الحرام ثمّ تنفقوا منه ﴿وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ لأنّ المال الحرام الذي تحصّل من الرشوة، وأكل مال الغير بالباطل، قد حلّله المرء لنفسه باختلاق أعذار واهية، فكأنه أغمض عينيه عن إثمه ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ غنيّ عن صدقاتكم كلّها، فكيف بالحرام منها؟ وحميد بما أعطاكم من النعم.

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢٦٨).

٢٦٨- ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ وسوسة الشيطان للنفس الأمّارة بالسوء تخوّف المرء من الفقر إذا أراد الإنفاق ﴿وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ عن طريق الوسواس السيىء، والفحشاء البخل، لأن البخل عند العرب من أفحش الفواحش ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ﴾ بستر المعاصي وتكفير الذنوب ﴿وَفَضْلاً﴾ بأن يخلف على المنفق في الدنيا بتسهيل أسباب الرزق له، كما يرفع من شأنه في قلوب الناس، وهو الرزق المعنوي ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ واسع المغفرة والغنى ﴿عَلِيمٌ﴾ بالنفقات والغيب ومستقبل العباد.

﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ (٢٦٩).

٢٦٩- بعد أن ذكر تعالى في الآية السابقة أن الشيطان يعد الفقر، ويوسوس به، ويأمر بالفحشاء، وأنّ الرحمن يعد بالمغفرة والفضل، نبّه على أنّ الحكمة ترجّح وعد الرحمن، فقال تعالى ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ والحكيم هو المنفق ماله، بدليل أن الآية السابقة والآية التي تلي كلاهما في الإنفاق.

ومن تفسير الحكمة في القرآن الكريم أنّها العقل والعلم والعمل به كقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ [لقمان ١٢/٣١]، وهي أيضاً بمعنى الحكم القرآنية كقوله تعالى ﴿وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [البقرة ٢٣١/٢] ولذا قيل إن الحكمة هي القرآن والفقه به،

﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ﴾ بالإنفاق حسب الآيات (٢٦١-٢٦٧)، ﴿فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ لما يترتب عليها من المغفرة والفضل من الله، كما في الآية (٢٦٨)، ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ لأنّ أولي الألباب يعلمون الحكمة ويعملون بها،

قال الرازي في تفسير دعاء إبراهيم عليه السلام بآية [الشعراء ٢٦/٨٣]: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ أي الحكمة النظرية ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ أي العمل بها،

﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ (٢٧٠).

٢٧٠- ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾ سواء أخرجتم النفقة أو نذرتم انفاقها ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ يعلم ما أنفقتم ويعلم ما نذرتم فيجازيكم به بحسب نواياكم ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ الظالم بهذا المعنى مَن لا ينفق فهو بالنتيجة يظلم نفسه، انظر الآية ﴿٢٦٦﴾، وإذا أنفق فهو ينفق لغير المستحق، فيظلم المستحقين.

﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (٢٧١).

٢٧١- ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ أي نعم ما هي أو نعم الشيء هي.

والصدقة تطلق على الفرض وعلى النفل، أمّا الزكاة فلا تطلق إلاّ على الفرض، قال تعالى ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ [التوبة ٩/٦٠]، وقال ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة ٩/١٠٣]، فسمّى الزكاة صدقة

﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ﴾ اشترط في الإخفاء أن يحصل معه إيتاء الفقراء، والمقصود حثّ المتصدّق على تحرّي موضع الصدقة فيعطيها للمستحقين ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ قد يكون المعنى ترجيح الإخفاء على العلانية، وقد لا يكون ترجيحاً، بمعنى أن الإخفاء وإيتاء الفقراء هو خير من الخيرات، والقاعدة إظهار الفرض وإخفاء التطوع، روي أنّه ﷺ كان أكثر صلاته في البيت، إلاّ المكتوبة، فكذا في الصدقات ما لم يكن مصلحة في خلاف ذلك، وفي الحديث أنّ السر أفضل من العلانية، والعلانية أفضل لمن أراد الإقتداء به ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُمْ﴾ التكفير في اللغة التغطية والستر، فالكفارة ستر لما حصل من الذنب، وقوله تعالى ﴿مِنْ

سَيِّئَاتِكُمْ﴾ يعني بعضها لكي يكون العبد بين الخوف والرجاء ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ يعلم صدقاتكم في السر والعلن.

﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴾ (٢٧٢).

٢٧٢- ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ والمراد به هو وأمته، والمقصود ليس عليك أن تلجىء غير المسلمين إلى الاهتداء بأن تمنع الصدقة عنهم، فمثل هذا الإيمان لاينتفعون به ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ فيكون الاهتداء بالتطوّع والاختيار ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ تعود لكم منفعته في الدنيا، وثوابه في الآخرة، ولا يضرّكم كفرهم ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ إن كنتم مهتدين حقّاً ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ يوفّ إليكم جزاء الإنفاق في الآخرة ولا ينقص منه شيئاً، فمالكم تمنعون النفقة وتمنّون عليهم؟ إنّما النفقة لأنفسكم وابتغاء مرضاة الله، وقد أجمعوا أنّ صدقة التطوع تجوز للمسلم وغير المسلم، أما الزكاة فخاصة بالمسلمين فقط.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٢٧٣).

٢٧٣- بعد أن بيّن تعالى أنّ صرف الصدقة يكون للفقراء بقوله ﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ﴾ (٢٧١)، بيّن في هذه الآية الفقراء الأشدّ استحقاقاً، فقال جل ثناؤه:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ المعنى أنفقوا للفقراء الذين حصروا أنفسهم أي وقفوها على الجهاد في سبيل الله، سواء كان هذا الجهاد بالقتال أو بالدعوة أو العمل لصالح الدين والمجتمع، وأيضاً الذين تحمّلوا الأذى والضرر في

سبيل ذلك ﴿لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ﴾ لا يستطيعون السفر في البلاد طلباً للرزق لأنهم كرّسوا أنفسهم وأوقاتهم للجهاد ممّا يمنعهم من الاشتغال بالكسب والتجارة ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ الجاهل بحالهم يحسبهم أغنياء، لأنهم لا يسألون أحداً ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ السمة هي العلامة، والمعنى أنّ أثر الجهد والفقر والحاجة ظاهر عليهم، لا يخفى على فراسة المؤمن ﴿لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ السائل الملحف هو اللحوح الذي يستخرج المال من غيره بكثرة إلحاحه وتلطّفه، والمعنى أنهم لا يسألون الناس، وإذا سألوا عن ضرورة لم يلحّوا، لأنّ السؤال محرّم لغير ضرورة ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ فيثيبكم عليه.

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٧٤).

٢٧٤- ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ هذه الآية عامة في الذين ينفقون الصدقات في جميع الأوقات وجميع الحالات، كلّما ظهرت لهم حاجة محتاج أنفقوا عليها دون انتظار موسم أو وقت معيّن ﴿وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لا خوف عليهم من أهوال القيامة ولا يحزنون لفراق الدنيا وما خلّفوه وراءهم.

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٧٥).

٢٧٥- هنالك علاقة مباشرة بين موضوع الربا في هذه الآية، وموضوع الصدقات الذي سبق، لأنّ أحدهما نقيض الآخر، فالصدقة هي إنفاق المال دون توقّع أي مردود دنيوي، في حين أنّ الربا هدفه تحصيل المال دون بذل أي مجهود

من قبل المقرض، كما أن أكلة الربا، على العكس من المنفقين تماماً ، يمتصون أموال الآخرين دون وجه حق: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ ويتهالكون على المادة ﴿لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ لأنّ الشيطان يدعو إلى طلب الدنيا واللّذات والشهوات، فينشغل الإنسان عن الذكر، وآكل الربا يكون مفرطاً في حب الدنيا متهالكاً عليها، فيصبح سلوكه كما لو أنّ به مسّ من الشيطان، وهذا تشبيه، لأن العرب زعمت أنّ الإنسان يتخبّط من مسّ الشيطان، والمسّ عندهم هو الجنون، وزعموا أيضاً أن الجنّي يمسّ الرجل فيختلّ عقله، ولذا قالوا: جنّ الرجل، كما كانوا إذا أرادوا تقبيح شيء نسبوه إلى الشيطان، انظر الرازي، فخاطبهم القرآن على ما تعارفوا عليه، وقد يكون مسّ الشيطان أيضاً وساوسه السيئة، وقيل المقصود وصف حالة أكلة الربا يوم الجزاء ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ كلمة ﴿ذَلِكَ﴾ تشير إلى تخبطهم المذكور فيما تقدّم، أي إنّ حالتهم تلك سببها قولهم أنّ البيع مثل الربا ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ وذلك لعدّة وجوه منها:

أ- الربا عبارة عن الاستيلاء على مال الغير بلا مقابل رغم أنّ المال له حرمة عظيمة، وفي مسند أحمد أن النبي ﷺ قال: «حرمة مال الإنسان كحرمة دمه»، فلذا يكون أخذ مال الغير من غير مقابل محرّماً، فإن قيل: لم لا يكون هنالك مقابل لبقاء المال في يد المقترض، إذ لو بقي رأس المال في يد صاحبه لأمكنه أن يتّجر فيه ويستفيد ربحاً في حين أن الربح استفاد منه المقترض، والجواب أنّ ربح المقترض المشار إليه أمر ظنّي قد يتحقق وقد لا يتحقق، في حين أن الربا الذي يقتضّه صاحب المال أمر مؤكّد فلا يجوز اقتصاص شيء مؤكّد مقابل شيء ظنّي، ولهذا السبب لا يدخل في الربا من يُقرض آخر مالاً يستثمره ويشاركه في ربحه أو خسارته إن حصل.

ب- التعامل بين الناس يجب أن يكون بحيث يستفيد الواحد من الآخر مقابل عمل، وليس لأحد حقٌ على الآخر من دون عمل.

ج-الاشتغال بالربا غير منتج، ينتفع صاحبه به دون مشقة، وهو يصرف الناس عن الانشغال بالإنتاج المفيد كالصناعة والتجارة والحرف والعمار وذلك يؤدي إلى البطالة والركود والإضرار بالمجتمع.

د- لا معنى للاتّجار بالنقود مقابل النقود إلاّ اتّخاذها هدفاً لذاتها، كالاتجار بالأوراق النقدية، وهذا ظلم فالنقود وجدت لتكون ميزاناً لتقدير القيمة وتبادل السلع، فلو تبدّل ذلك وصارت النقود مقصودة لذاتها عن طريق الاتّجار بها لأدّى ذلك إلى انتزاع الثروة من أيدي أكثرية الناس لتنحصر في أيدي من يقتصر عملهم على من يربحون المال بالمال، وبالنتيجة يُبخس العاملون قيم أعمالهم لأنّ الربا يذهب بمعظم الربح فيهلك الفقراء.

هـ- غالباً ما يكون المُقرض غنياً والمقترض فقيراً فبواسطة الربا يأخذ الغني من الفقير مالاً زائداً مؤكّداً دون أن يتحمّل أي عبء أو مخاطرة مع الفقير، إذ يحتفظ بحقه في رأس المال كاملاً، وقد ينتهي الأمر بالحجز على أموال الفقير بكاملها.

و- الربا استغلال محض يؤدّي إلى انقطاع المعروف والإحسان بين الناس.

﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ له ما أكل من الربا قبل نزول الحكم وحسابه على الله، والمعنى عدم ملاحقة المرابين لاسترداد ما أخذوه في السابق لأنّ ذلك يؤدّي إلى نزاعات قضائية لا حدّ لها، فالتحريم لم يكن له مفعول رجعي كي لا يسبب اضطراباً في المعاملات الاقتصادية بين الناس، وليس معنى ذلك أن ما أخذه المرابون في السابق يعتبر حلالاً ولكن حسابهم على الله، وفي ذلك حثّ للمرابين كي يعيدوا طواعية ما أخذوه من ربا سابق إلى أصحابه ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ مَن عاد إلى استحلال الربا

والعمل به مدّعياً أن البيع مثل الربا صار كـافراً: ﴿فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ (٢٧٦).

٢٧٦- بعد أن شرح تعـالى في الآيـات المتقدّمـة مواضيـع الربـا والصدقـات بيّن في هذه الآية عاقبة كلٍّ منها وهي محق الربا وإرباء الصدقات، أما المحـق فهـو النقصان، والإرباء هو النموّ، ويتّضح معنى الآية بقوله ﷺ «الربـا وإن كثر فـإنّ عاقبته إلى قلّ» رواه أحمد في مسنده عن ابن مسـعود، فالبركـة تـزول عـن مـال المرابي لأنه يستغرق في حب الدنيا، ويتهالك عليهـا، ويصبـح جمـع المـال شـغله الشاغل، وهدفاً نهائياً بذاتـه، فيختـلّ تفكـيره ويفقـد توازنـه ولا يهنـأ بكسـبه، وتعمى بصيرته عن الحقيقة وعن الآخرة، وتـؤول عاقبتـه إلى العـداوة والكراهيـة بينه وبين الناس.

وتُلاحظ العواقـب الوخيمـة للربـا في الحيـاة الاقتصاديـة للأمّـة على نطـاق واسـع: فـالقروض الربويـة منهـا الاسـتهلاكية الـتي يضطـرّ لهـا الفقـراء للوفـاء باحتياجاتهم المعيشية اليومية، ومنها قروض الاستثمار الـتي قـد يحتاجهـا بعـض التجار والصناعيين والمزارعين لتأسيس أو تشغيل مشاريعهم.

أمّا القروض الاستهلاكية فمن الواضح أنّها تـؤدي إلى خـراب المجتمـع، لأنّ الفقير يقترض ما يحتاجه لسداد قوته اليومي، فيكون عبء الربا من الثقـل بحيـث لا يستطيع سداد الدين الأصلـي، بـل قـد يحتـاج للاقـتراض مـن جديـد لسـداد الفوائد، وهكذا قد يدفع أضعاف الدين الأصلي ويبقى أصل المبلغ دون سـداد، والنتيجة أن فئة قليلة من الناس تستغل الأكثريـة بامتصـاص مجهودهـا فينخفـض الإنتاج على المدى الطويل وتتدهور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية معاً وتنمو بذور الاضطرابات ويتفكك المجتمع.

أمّا قروض الاستثمار في المشاريع الإنتاجية فهي أيضاً تسبب الضرر بالتثبيت المسبق لنسبة ربح فاحشة، كما يلاحظ في الأمثلة التالية :

(١) المشاريع الضرورية للمجتمع التي قد يكون مردودها المادي أقل من معدلات الفائدة على الإقراض تبقى من دون تحقيق لأنها لا تجد من يمولها.

(٢) لا يمكن لأحد أن يضمن سلفاً أنّ مشروعه سوف يحقق ربحاً أعلى من نسبة الفائدة على الإقراض أو يضمن أن يكون مشروعه رابحاً أصلاً ففي هذه الحال تبقى الجهة المقرضة ضامنة للربا الذي تستوفيه في حين يكون احتمال المخاطرة والخسارة على صاحب المشروع قائماً.

(٣) تعتبر فوائد الإقراض عبئاً مالياً يضاف إلى كُلَف المشروع فينتج عنها انخفاض معدل الربح وقد تجعل المشروع غير مجدٍ اقتصادياً، بل قد تجعله خاسراً إذا كان هامش الربح متواضعاً، وفي جميع الأحوال تبقى عاملاً سلبياً تهدد المشروع بالخسارة والحجز.

(٤) بما أن اهتمام المؤسسات الربوية منصب فقط على تحصيل الربا بغضّ النظر عن نجاح المشاريع أو فشلها، فعند ظهور أقل مؤشر لركود الاقتصاد تبادر هذه المؤسسات لسحب أموالها من الأسواق ممّا يسبب تفاقم الركود وزيادة البطالة.

(٥) كثيراً ما تتصرف المؤسسات الربوية بأموال المودعين بأن تقرضها بربا فاحش إلى جهات يشكّ في نجاحها الاقتصادي، فهي بذلك تغامر بأموال الآخرين مقابل الربا الفاحش الذي تتقاضاه.

وعلى النقيض من كلّ ذلك فعندما تكون رؤوس الأموال شريكة في المشاريع، وليست مجرّد جهة خارجية مقرضة، فيتحمل أصحابها إمكانية الربح والخسارة، ويكون لهم مصلحة مشتركة في النجاح مع أصحاب المشاريع، وليس

مجرّد استغلال حاجة الآخرين للتمويل، فعندئذ تنخفض كُلَف المشاريع، ويزداد احتمال الربح وتكون النتائج لصالح الطرفين وازدهار الاقتصاد وانخفاض البطالة.

روي أنّ عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: «كان آخر ما نزل من القرآن آية الربا وإنّ نبيّ الله ﷺ قُبض قبل أن يفسرها فدعوا الربا والريبة»، وفي حين أنّ الربا محرّم بلا جدال، فإنّ مشكلة الاقتصاد الحديث تكمن في المؤسسات الربوية التي تأخذ أموال المودعين مقابل فوائد أقل من نسبة التضخم، ثمّ تُقرض هذه الأموال للآخرين مقابل الربا الفاحش.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٢٧٧).

٢٧٧- بعد أن وصف تعالى في الآية (٢٧٥) أكلة الربا الذين جعلوا الدنيا وجمع المال شغلهم الشاغل وهدفهم النهائي، فاستولى ذلك على عقولهم، واختلّ تفكيرُهم وفقدوا توازنهم، فاستهلكتهم رغبتهم العارمة في مشاهدة أموالهم تتضاعف، وعميت بصيرتهم عن الحقيقة، ونسوا الآخرة، ثمّ في هذه الآية يَذكر تعالى الصنف الآخر من الناس، الذين استوعبوا حقيقة الدنيا وزوالها، فقدّموا العمل الصالح لآخرتهم، فبشّرهم تعالى بأن لا خوف عليهم من أهوال القيامة، ولا هم يحزنون على فراق الدنيا، روى أحمد في مسنده عن عائشة أن النبي ﷺ قال: «الدنيا دارُ من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له».

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧٨)

٢٧٨- ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ إن كنتم مؤمنين بقلوبكم حقّاً، أو إن كان إيمانكم شاملاً لجميع ما جاءت به رسالة الاسلام.

﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ ﴾ (٢٧٩).

٢٧٩- ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ إن لم تتركوا الربا ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فلا يهنأ لكم عيش، ولا يطفىء ظمأكم للمادة شيء، وتجرون وراءها جري الوحوش، وفي زمن البعثة كانت مقاومة الرسول للمرابين بالحرب فعلاً، أمّا في حاضرنا فنحن نرى أثر هذه الحرب في تفاقم الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في المجتمعات الربوية، كازياد حجم العجز في ميزانيات الدول الكبيرة والصغيرة، وبشكل تصاعدي حاد لا يرجى منه شفاء، لأنّ الميزانيات لا تكاد تكفي لسداد الفوائد على القروض الحكومية، وقد ترتّب على ذلك تقلص الخدمات الاجتماعية والصحية لمستحقيها، ونقص الدخل وارتفاع الأسعار وزيادة البطالة وارتفاع نسبة الجريمة، واتساع الهوة بين دخل الأغنياء وعامة الناس بسبب تركز الثروة لدى شريحة قليلة من الناس ﴿وَإِنْ تُبْتُمْ﴾ أي إن تبتم من استحلال الربا ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ﴾ فلا تظلِمون الآخرين بطلب الزيادة على رأس المال، ولا تُظلمون بنقصان رأس مالكم.

﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٨٠)

٢٨٠- ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ العسرة من الإعسار، وهو تعذّر وجود المال، والنَظِرة من الإنظار وهو الإمهال، أما الميسرة واليسر فهي الغنى، والمعنى إذا كان المدين معسراً فعليكم إمهاله وتأجيل الدين حتّى يصيرَ في يسر ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إن تصدّقتم بالدين على المعسر فهو خيرٌ لكم من الإمهال، والصدقة تكون على الفقير، وأمّا على الموسر فلا، وهكذا فإنّ إمهال المعسر واجب، والأخذ منه بعد الإمهال حلال، ويستحبّ التصدّق عليه بالدين إن كان فقيراً، انظر الطبري.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (٢٨١).

٢٨١- ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ وهو يوم الحساب ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ وتفصيل ذلك قوله تعالى ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة ٩٩/٧-٨]، وقيل أنّ هذه الآية مع آيات الربا وآية الدين آخر ما نزل من القرآن.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُوا إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢٨٢).

٢٨٢- في الآيات المتقدمة ذكر تعالى أحكام الإنفاق، ثمّ الربا، وفي هذه الآية يوصي تعالى بحفظ الأموال الحلال عن التلف والفساد، وذلك بالتنظيم والاحتياط في أمور التعامل بها:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ أوجب تعالى كتابة الدين والمعاملات المؤجّلة إلى أجل مسمّى، روى الشيخان وغيرهما عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «من أسلف فليسلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم»، ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ الكتابة بالحق والإنصاف بحيث يضمن كل من الطرفين حقّه ﴿وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ لا يجوز للكاتب أن يمتنع عن الكتابة كما علّمه الله من الكتابة والأحكام

والفقه وأصول المعاملات ﴿فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ الإملال والإملاء في اللغة واحد، فالذي عليه الحقّ وهو المدين يملي على الكاتب ليكون إملاله حجّة عليه من جهة، ومن جهة ثانية لكي لا يكون هنالك مجال لغش المدين من قبل الدائن ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ لا ينقص شيئاً من الحق الذي عليه،

﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ والمعنى أنّ الذي عليه الدين إذا لم يكن إقراره معتبراً فالمعتبر هو إقرار وليّه، والسفيه هو ضعيف العقل والرأي أو جاهل بالإملاء والمعاملات، أمّا الضعيف فقد يكون صغيراً أو عجوزاً، وأمّا الذي لا يستطيع أن يملّ فقد يكون عاجزاً عن الكلام أو غائباً لا يستطيع الحضور ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ من الذين يعتدّ بشهادتهم، إذ لا يصلح للشهادة أيّ كان ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ أي إذا أخطأت الواحدة فتذكّرها الثانية، لأن المرأة قد تحار أو يشتبه عليها الحق أحياناً بسبب اضطراب بعض أجهزتها الحيوية أو انحراف في مزاجها،

وقيل إن هذا مختص بالشهادة في المداينات والمعاملات التجارية والصفقات، خاصةً أن موضوع الشهادة ورد في القرآن الكريم في خمسة مواضع وهي: [البقرة: ٢/٢٨٢]، [النساء: ٤/٦،١٥]، [المائدة: ٥/١٠٦-١٠٨]، [النور: ٢٤/٤-٩]، [الطلاق: ٦٥/٢]، و لم نجد فيها شهادة الامرأتين إلا في آية البقرة التي نحن بصددها،

﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ لا يمتنع الشهود عن تحمّل الشهادة وقت المداينة، وأيضاً لا يمتنعوا عن أداء الشهادة بعد ذلك إذا احتاجهم صاحب الحقّ ﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ﴾ لا تملّوا من كتابته سواء كان الدين صغيراً أو كبيراً ﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ الكتابة والإشهاد أعدل

عند الله ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ﴾ أي أثبت للشاهد إذا كتب بخطه ثم رآه تذكر به الشهادة، لاحتمال أن ينساه لو لم يكتبه ﴿وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُوا﴾ منعاً للريبة والشك في القيمة والأجل، فترجعون عند التنازع إلى الكتاب ﴿إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا﴾ عندما يكون الأجل قريباً والتجارة يومية فالكتابة ليست فرضاً، ولكن لامانع من الكتابة كما في المعاملات التجارية اليوم حيث يكتب إيصالاً ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ أوجب تعالى الشهود على كلّ مبايعة غير المشار إليها في التجارة الحاضرة ﴿وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ﴾ أصل الكلمة (يضارر) وأدغمت، فإذا قرأت بفتح الراء الأولى يكون المعنى أنّه لا يجب مضايقة الكاتب أو الشهود أو إكراههما أو الضغط عليهما أو تحميلهما مسؤولية ما تمّ كتابته، وإن قُرأت بكسر الراء الأولى يكون المعنى نهي الكاتب والشهود عن الانحياز إلى طرف والإضرار بالآخر ﴿وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ أي فإنّه فسوق كائن بكم، والمعنى يكون بكم إثم ومعصية ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما حذّر منه ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ كيفية التعامل وحفظ الأموال ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ بمصالح عباده وغيرها.

﴿ وَإِنْ كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ (٢٨٣).

٢٨٣- في هذه الآية والتي قبلها جعل تعالى المعاملات على ثلاثة أقسام: الأولى بكتاب وشهود، والثانية برهان مقبوضة، والثالثة بالأمانة:

﴿وَإِنْ كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾ أي في يد صاحب الحق، واتّفقوا على أنّ الرهن يجوز في السفر والحضر، وفي حال وجود الكاتب أو عدمه، وإنّما ذكرته الآية في السفر على سبيل غالب الأحوال، وذلك شبيه بقصر الصلاة وقت الخوف، وليس الخوف شرطاً لجواز القصر، ﴿فَإِنْ أَمِنَ

بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ في هذه الحالة تكون المعاملة الموحّلة بلا كتابة ولا شهود ولا رهن لأنّ صاحب الحقّ لا يخاف خيانة غريمه، وفي حين أنّ الآية المتقدّمة محمولة على الفرْض والوجوب في الحالة العامة، فإنّ هذه الآية محمولة على الرخصة في حالة خاصّة وهي الائتمان ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾ وهو المدين الذي اؤتمن، عليه أن يؤدي الأمانة ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ على المدين أن يتّقي الله ولا يجحد ما عليه ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ كتمان الشهادة هنا أن ينكر المدين علمه بما عليه، وأيضاً إن كان أحد من الناس عالماً بما حدث فعليه أن يتقدّم للشهادة ولا يكتم علمه لقوله ﷺ: «خير الشهود من أدّى شهادته قبل أن يُسألها» رواه أحمد وابن ماجه ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ من يكتم الشهادة فهو فاجر يتحمّل إثماً، وعن ابن عباس أن أكبر الكبائر: الشرك بالله، وشهادة الزور، وكتمان الشهادة ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ لأنّه تعالى عليم بالخفايا فيحاسب عليها فذلك تحذير من الكتمان.

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢٨٤).

٢٨٤- بعد أن جمع تعالى في هذه السورة من دلائل التوحيد والنبوة، ونسخ الشرائع السابقة بشرائع الإسلام خاتم الرسالات، وبيّن الشرائع والتكاليف في الحج والقصاص والوصية والصوم والجهاد والطلاق والخلع والحيض والعدّة والصداق والمتاع والرضاع والأرامل والصلاة وحرية العقيدة والزكاة والربا والمداينة والمبايعة، ختم تعالى السورة بهذه الآية الشاملة:

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تعبير عن كمال الملك وكمال القدرة الإلهية، ثمّ أتبع تعالى بالتعبير عن كمال العلم الإلهي المحيط بالكليّات والجزئيات: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ الإشارة إلى الخصال السيّئة التي ثبتت في بعض النفوس كالنفاق والحسد والبغضاء والحقد

وفساد النية وسوء القصد، وإبداء هذه الخصال يكون بإظهارها والعمل بها ﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ يغفر الذنوب لمن يشاء من عباده الذين قاموا بالأعمال الصالحة حتى غلب أثرها في نفوسهم، أو لمن لم تخرج أفكارهم السيئة إلى حيّز التنفيذ، وفي الحديث: «إنّ الله تعالى يتجاوز عن أمّتي ما حدّثوا به أنفسهم ما لم يعملوا به أو يتكلّموا به»، ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ من الكفار والمنافقين والعصاة والمجرمين عذاباً مترتباً على العدل ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ باطلاعه على الخفايا والظاهر.

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (٢٨٥).

٢٨٥- لمّا بيّن تعالى في الآية المتقدّمة كمال الملك وكمال العلم وكمال القدرة الإلهية، وفي ذلك كمال صفات الربوبية أتبع ذلك في هذه الآية بكون المؤمنين في منتهى الانقياد والطاعة والخضوع لله تعالى وذلك هو كمال العبودية:

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ أي لا يفرّقون بين أحد من الرسل فلا ينكرون نبوّة أيّ منهم، وقد أكمل بعضهم شرائع بعض، ونسخ بعضها الآخر ثمّ اكتملت الرسالات بشريعة محمد ﷺ خاتم الأنبياء والرسل ونسخت ما قبلها ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ لأنّ العبرة ليست بمعرفة الحقيقة فقط بل بالعمل بموجبها ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ يلتمس المؤمنون الغفران من الله فيما يخافون من تقصيرهم في عملهم ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ إقرار المؤمنين بالمعاد إليه تعالى:

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٨٦).

٢٨٦- ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ وهذه استجابة منه تعالى لدعاء المؤمنين في قولهم ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ بأنّه تعالى لا يكلّف نفسا إلاّ وسعها ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من الثواب على أعمال الخير ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ من العقاب على ارتكاب الشرور، وهو مبدأ المسؤولية الفردية بأن المرء لا تنفعه حسنات الآخرين، كما لا تضره أخطاؤهم، فلا ينتفع المرء أو يلحقه الضرر إلاّ بأعماله ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ لا تؤاخذنا: أي لا تأخذنا بالعقوبة إن نسينا أو أخطأنا، وتقدير ذلك أن يكون الإنسان قد أخذ جانب العناية والحيطة والتفكّر سلفاً، لا أن يكون الخطأ والنسيان ناتجين عن الإهمال والتساهل وعدم اتّخاذ الأسباب ﴿رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ الإصر في اللغة هو العبء الثقيل، ثمّ سمّي العهد إصراً لثقله، والمقصود من الدعاء أن لا يتعرض المؤمنون للمحن والابتلاء والمصائب التي تعرّض لها من قبلهم ﴿رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ لا تحمّلنا ما يشق علينا عمله، ووفّقنا لحمل ما فرضته علينا، كي لا نستحق بمقتضى سنّتك أن تحمّلنا ما لا نطيق من العقوبة ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا﴾ لأنّ العفو يُسقط العقاب، والمغفرة تستر الخطيئة صوناً للمؤمن من عذاب الخجل والفضيحة ﴿وَارْحَمْنَا﴾ بالتوفيق إلى العمل وفق هديك ﴿أَنْتَ مَوْلانَا﴾ دلالة على منتهى الخضوع والاستسلام ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ انصرنا عليهم في حربهم معنا، وفي مناظرتنا معهم بالحجج والحوار لكي يكون نصرنا على النفوس وليس على الأجساد فقط.

* * *

سورة آل عمران -٣-
مدنية

مقدمة

نزلت (آل عمران) في المدينة على مراحل ابتدأت بعد معركة بدر (رمضان عام ٢ للهجرة) واستمرت حتى معركة أُحد (شوال عام ٣ للهجرة) وما بعدها، وقد ورد اسم (آل عمران) الذي يرمز إلى سلالة النبوة لموسى وعيسى عليهما السلام في (الآية ٣٣) ولذا رمز لها بهذا الاسم.

الخلفية التاريخية

كان المسلمون وقت نزول السورة يتعرضون لمحن شديدة وابتلاء، وكانوا في حالة من القلق بعد أن أدّى انتصارهم في معركة بدر إلى تحفّز قريش وقبائل الجزيرة العربية ضدّهم، وقد تحمّلت المدينة المنوّرة بنتيجة معركة بدر عداوة الكثير من القبائل المجاورة والبعيدة حتى بدا للمسلمين في بعض الأوقات أنّ اجتياح المدينة من قبل أعدائهم أصبح وشيكاً، يضاف إلى ذلك المصاعب الاقتصادية التي تحمّلتها المدينة، ليس أقلّها التكيف مع استيعاب المهاجرين الجدد من مكة، ثم إنّ قبائل اليهود حول المدينة كانت تعمل جاهدة للكيد بالمسلمين فبعد معركة بدر كان اليهود يحثّون قريشاً علناً على الانتقام لهزيمتهم، ممّا اضطرّ النبيّ ﷺ لطرد أشدّهم عداوة وهم بنو قينقاع من ضواحي المدينة، ولكن الباقين منهم استمروا في الكيد للمسلمين بالتآمر مع منافقي المدينة ومشركي الحجاز، ولشدّة ألم قريش من هزيمتها في بدر كان تحريض اليهود لها بمثابة صب الزيت على النار، وما لبثت قريش أن حشدت قواها لمعركة أحد التي لعب المنافقون

دوراً كبيراً بها في محاولة شق صفوف المسلمين بعد أن خرجوا للقتال معهم ثم نكصوا على أعقابهم، وهكذا انكشف للمسلمين للمرة الأولى دور عدوهم الداخلي وبدت لهم نقاط ضعفهم، ومن المهم التمحيص في تحليل السورة لتلك المواقف، (الآيات ١٢١-١٧٥).

ارتباط السورة بما قبلها

هنالك نوع من الترابط والتكامل بين سورة آل عمران وسورة البقرة، ففي سورة البقرة المتقدمة دعوة اليهود للإيمان بخاتم الرسالات: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ [البقرة ٢/٤١]، وفي سورة آل عمران أن القرآن الكريم يصدّق فقط ما تبقى في كتبهم من الوحي الصحيح: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [آل عمران ٣/٣]، وأن أهل الكتاب أُوتوا فقط نصيباً من الكتاب أي ما تبقى بين أيديهم من الوحي، ثم تولّوا عن القرآن: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [آل عمران ٣/٢٣].

وفي سورة البقرة أن المصرّين على الكفر والمشركين كرهوا نزول الوحي على العرب من بني إسماعيل: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة ٢/١٠٥]، لأن رسالة الإسلام نسخت ما قبلها: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة ٢/١٠٦]، وفي سورة آل عمران بيان إبتاء الرسالة بني إسماعيل ونزعها من بني إسرائيل: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران ٣/٢٦]، وبيان ختم الرسالات بنزول الوحي على خاتم

الأنبياء والرسل: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران ٣/٧].

ومن جهة محاجّة أهل الكتاب من اليهود والنصارى: كان التركيز في سورة البقرة على بني إسرائيل [البقرة ٢/٤٠-١٠٥]، وفي آل عمران على اليهود والنصارى معاً، وفي كل من السورتين أحكام متمّم بعضُها بعضاً، كفريضة الدعوة إلى الإسلام: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٣/٦٤]، وفريضة الحج [آل عمران: ٣/٩٤-٩٧]، والنهي عن الربا [آل عمران: ٣/١٣٠]، والحض على الإنفاق [آل عمران: ٣/١٣٤].

محور سورة آل عمران

أن العقل البشري قاصر بالضرورة عن استيعاب الحقيقة المطلقة، أو حتى جوانب ضئيلة من الغيب، فلزم أن تكون بعض آيات القرآن الكريم ذات طابع رمزي تتضمن الكناية والمجاز، وهي الآيات المتشابهات: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ (٧)، لكنّ الناس ميّالون إلى متاع الدنيا ومادتها غافلون عن خيرات الآخرة: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (١٤).

وإن الحكمة الإلهية اقتضت نزع الرسالة من بني إسحاق بعد فساد اليهود المزمن وإبتاء الرسالة بني إسماعيل وختمها ببعثة النبي الأحمد: ﴿قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٦)، وأن الإسلام دين الأنبياء

من الأزل: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٦٧).

وأنّ غاية ما يمكن أن يتوصّل إليه المؤمن، بعد أن يقوم بجميع أركان الإسلام، هو الإنفاق ممّا يحب، فلا يكون بارًّا صادق الإيمان حتّى يتوصّل إلى هذه الخصلة: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٩٢)، وتفرض السورة على العلماء من المسلمين واجبَ الدعوة بالقدوة الحسنة: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٤).

وتبين العبر من وقعة أُحد، (الآيات ١٢١-١٧٥)، وتنهى عن أكل الربا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٣٠)، وتحض على الإنفاق: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٣٤)، كل ذلك ما يوجب التضحية فالله تعالى يختبر الناس بظهور أفعالهم إلى العلن، وليس بعلمه بالغيب منهم: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٤١).

وأن الكفار جاهدون في رد المسلمين عن دينهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (١٤٩)، وتبيّن وجوب الرفق واللين في الدعوة إلى الإسلام أسوة بالنبي ﷺ وتقرر مبدأ الشورى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (١٥٩)، وأن الله تعالى لم يكن ليترك من لديه استعداد للإيمان ضائعاً بين الكفار، ولكن يبعث الرسل كي يتبعهم من يختار الإيمان من الناس: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ

رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٩).

وتتنبأ السورة بمعاناة المؤمنين من أذى أهل الكتاب والكفار، وتحضهم على الصبر والتقوى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (١٨٦)، وأن العبرة من العبادة تكمن في العمل والتضحية وليس فقط أداء الفرائض: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ (١٩٥).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الم﴾ (١)

١- الله أعلم بمراده، انظر شرح الآية (١) في سورة البقرة.

﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ (٢).

٢- ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ تقرير لحقيقة التوحيد أي ليس في الوجود صاحب سلطة حقيقية إلاّ الله، ومن ثمّ لا مستحقّ للعبادة إلاّ هو، والعبادة هي الطاعة، فالمعنى لا مستحق للطاعة المطلقة إلاّ الله تعالى: ﴿الْحَيُّ﴾ مصدر الحياة والإحياء وذو الحياة الدائمة (الْقَيُّومُ) القائم بذاته والقيّم على كلّ المخلوقات.

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ﴾ (٣)

٣- ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ وهو القرآن الكريم نُزّل على النبي ﷺ، ولفظ التنزيل بمعنى التكثير لأنّه نُزّل بالتدريج نجوماً متفرقة في ثلاث وعشرين سنة، ولا ينافي ذلك قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف

[١/١٨]، لأنّ التنزيل والإنزال فيهما إشعار بعلو مرتبة الوحي على الموحى إليه (بِالْحَقِّ) أي متضمّناً الحقيقة ومبيّنًا لها، وأيضا فيه ما يحقّق أنّه من عند الله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ليس المعنى تصديق الكتب الموجودة لدى اليهود والنصارى بعينها، فقد تعرّضت على مرّ العصور لكثير من التحريف والتغيير، وإنّما هو تصديق لما بقي في تلك الكتب من الحقيقة وهو معنى قوله ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، ومثال ذلك أنّ تصديقنا للنبي ﷺ في كل ما قاله لا يستلزم تصديق كل ما نسب إليه في كتب الحديث، بل ما ثبت منها فقط ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ﴾ التوراة في عرف القرآن هي الوحي الذي نزل على موسى عليه السلام، انظر شرح آية [المائدة: ١٢/٥]، والإنجيل هو الوحي الذي نزل على عيسى المسيح عليه السلام، انظر شرح آيات [المائدة: ٤٧،١٤/٥]، أما كتبهم المقدّسة اليوم فليس بها من التوراة والإنجيل إلاّ القليل، لأنّ أصلها ضاع منذ القدم وأعيدت كتابتها من قبل المؤلّفين حتى صارت كتب اليهود، المسماة بالعهد القديم، تشتمل على تأريخ قومي للأحداث التي حصلت بعد موسى بزمن طويل، وهي إلى ذلك غاصة بمعتقدات وتشريعات باطلة ابتدعها أحبارهم.

أما الكتب المسيحية، المسماة بالعهد الجديد، فليست سوى كتابات نسبوها لبعض الحواريين، يفترض أنها تؤرخ سيرة حياة المسيح عليه السلام، وقد كتبت باللغة اليونانية بعد الأحداث بزمن، ولم تكن تعتبر كتابات مقدسة في وقتها، وقد تكررت تراجم العهدين القديم والجديد وتنقيحهما مراراً، وعلى سبيل المثال فإنّ الطبعة الإنكليزية المعتمدة جرى تنقيحها وإعادة كتابتها ثماني مرات على الأقل منذ أول ترجمة لها في العام ١٥٣٦ حتى ١٩٩٣، وقد ورد في مقدّمة الطبعة المنقحة المعتمدة التي صدرت عام ١٩٥٢ أن سابقتها وهي طبعة الملك جيمس المعتمدة «اشتملت على أخطاء جسيمة وأن الأخطاء كانت من الكثرة بحيث لزم تعديلها»، كما ورد في طبعة العلماء Scholar's Version التي صدرت في أمريكا عام ١٩٩٣م وشارك في إعدادها أكثر من مئتين من علماء

المسيحية، وهم من دكاترة اللاهوت أساتذة الجامعات المتخصصين في أمريكا، ذكروا أن " ما يزيد عن ٨٢٪ من الأقوال المنسوبة في الأسفار إلى عيسى المسيح غير صحيحة و لم يتكلّم بها، وأنّ مؤلّفي أسفار العهد الجديد وهم كثر كانوا ينسبون إلى عيسى المسيح من الأقوال ما يعتبرونه «مناسباً» كي يطابق أهواءهم ومعتقداتهم، وأنّ عيسى المسيح لم يكن مسيحياً بالمقارنة مع المسيحية الحالية، وأنّ المسيحية الحالية تُنسب إلى مبتدعها وهو القديس بولس (كتاب «الأناجيل الخمسة»، The Five Gospels شركة مكميلان للنشر ١٩٩٣).

﴿مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ (٤).

٤- استمرار الخطاب من الآية المتقدمة: ﴿مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ الفرقان هو الفارق بين الحق والباطل بما نزل من الوحي على جميع الأنبياء، وهو أيضا مقدرة المؤمن على التفريق بين الحق والباطل، قال تعالى: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال ٨/٢٩]، فتميّزون بواسطته الصواب من الخطأ، لأنّ الملاحدة تزعم أنه لا يوجد خطأ أو صواب ولا صحيح أو قبيح وإنما تفكيرنا يجعل الأمور كذلك، والحقيقة أن الشيطان يزيّن لهم سوء أعمالهم قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام ٦/٤٣].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لأنّهم كفروا بالكتب المنزلة والآيات البينات رغم إنزال الفرقان، ورغم أن الله تعالى وهبهم العقل للتفريق بين الحق والباطل ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ الانتقام من النقمة وهي عقوبة المجرم وليست هنا بمعنى التشفّي بالعقوبة ممّا هو محال على الله تعالى.

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾ (٥).

٥- ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾ من الجزئيات والكليّات في هذا العالم، أو في غيره من العوالم السماوية، أو من علوم الغيب.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٦).

٦- ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ دعوة للتفكّر في دلائل معجزات الخلق إذ يستحيل أن يكون تكوين الأجنّة في الأرحام وخلق الكون المحكم بمجرّد مصادفة فمن تدبّر ذلك آمن وأذعن واعتمد في حياته على هداية خالقه الذي أنشأه من العدم وهو أعلم بخلقه، انظر شرح آية [الأعراف ٧/١١].

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ (٧).

٧- ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ الكتاب هنا هو القرآن، والمُحكَم هو ما لا يتطرق إليه الخلل وبهذا المعنى وُصف القرآن بأنه مُحكَم إطلاقاً بقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ [هود ١/١١]، لأنّه في منتهى الإحكام والإتقان، ووُصف أيضا كلّه بالمتشابه بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾ [الزمر ٢٣/٣٩]، أي متجانساً في المحتوى وسالماً من التناقض والتفاوت والاختلاف، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء ٨٢/٤].

﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ هي الآيات الواضحات ذات الدلالة المحددة، ولا تحتاج في فهم معناها إلى التأويل ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ فهذه الآيات هي لبّ الكتاب وجوهره لأنّها الأصول والقواعد وهي آيات الأحكام والمواعظ وأسس الإيمان والعبادة والأخلاق والواجبات والمحرمات ودحض المعتقدات الباطلة ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ المتشابه ما يشتبه من الأمور أي يلتبس فيقال اشتبهت الأمور وتشابهت إذا التبست، وإذا احتملت من المعاني وجوهاً عديدة، ولا

يفهم معناها إلا بالتأويل، وهي تشمل المجاز والكناية كقوله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١/٤] والاستواء على العرش ﴿الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٢٠/٥] وقوله تعالى: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ [الحاقة: ٦٩/٤٥] وتشمل ما لا سبيل إلى العلم به كالغيبيات مثل كيفية صفات الله تعالى، وقصة خلق آدم والحوار مع الملائكة وعصيان إبليس، وحقيقة الجنة والنار، والجزاء على الأعمال، فمثلاً ليست نار الآخرة مثل نار الدنيا وإنما هي شيء آخر، وليس نعيم الجنة من الثمرات والأنهار واللبن والعسل المصفّى والحور ممّا نعهده في الدنيا، فكلّها تشبيهات وتصويرات للمعاني العقلية المجرّدة، عن طريق إبرازها في صور حسّية، ويتضح ذلك من قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧/٣٢].

أما الحكمة من وجود الآيات المتشابهات فهي ما تقتضيه الضرورة في مخاطبة البشر، لأنّ كثيراً منهم لا يستطيعون استيعاب المفاهيم والمعاني المجردة ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ الزيغ هو الميل عن الصواب والانحراف ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ يكون تركيزهم على المتشابهات بغية الدسّ والتنفير والشقاق والإنكار ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ يريدون إرجاع المعاني إلى أهوائهم وأغراضهم فيصرفونها عن الصحيح ليخرجوا الناس من دينهم ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ التأويل بمعنى ما سيكون عليه المآل أي العاقبة والنتيجة، والتأويل أيضاً بمعنى التفسير، ولذا اختلفوا في الوقف بعد لفظ الجلالة، ففي حال الوقف يكون المعنى أن علم تأويله عنده تعالى فقط، وتكون الواو في ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾ للاستئناف، وكلمة ﴿الرَّاسِخُونَ﴾ مبتدأ خبره ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ وهذا يصح إذا كان المراد بالتأويل العاقبة أو علم الغيب فذلك مختصّ بعلمه تعالى فقط، وفي هذه الحالة يكون سبب إيمان العلماء بالمتشابه هو رسوخهم في العلم وتواضعهم عن التطلع لمعرفة الغيب.

أمّا في حال عدم الوقف بعد لفظ الجلالة فتكون الواو للعطف، فالراسخون في هذه الحالة يعلمون تأويله وهذا يصح عندما يكون المراد من التأويل التفسير ومعرفة المعاني، لأنّه تعالى أمر بتدبّر القرآن كلّه المحكم منه والمتشابه و لم يستثن منه شيئاً، فوجب أن يكون القرآن كلّه مفهوماً، ولو اشتبه منه شيء على بعض الناس علمه غيرهم، ولا يمنع ذلك من التفسير على عدة وجوه، وقد نقل عن أبي الدرداء قوله : «إنك لا تفقه القرآن كلّ الفقه حتى ترى للقرآن وجوهاً»، فالمتشابه قد يحتمل عدّة معان وينطبق على عدة حالات ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ لا يعقل ذلك ويفقه حكمته إلاّ أصحاب العقول النيرّة، ويلاحظ أيضاً أن تعبير أولي الألباب ورد أيضا في آخر هذه السورة بالآية (١٩٠) بمعنى أن أولي الألباب المتفكّرين في خلق السماوات والأرض يتوصلون إلى الإيمان عن طريق العقل.

﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (٨).

٨- ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ أولوا الألباب يخشون أن تميل قلوبهم عن الحق، فيدعون ربهم قائلين: ربّنا لا تزغ قلوبنا عن نهج الحق بأن نتأوّل الآيات المتشابهات على غير ما ترضى كما يفعل المذكورون في الآية السابقة من الذين في قلوبهم زيغ، ولا تبلينا بالمصائب فتزيغ قلوبنا.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (٩).

٩- ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ هو يوم القيامة ونحن موقنون به لا نشك فيه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ (١٠).

١٠- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بكل ما سبق من الآيات البينات ﴿ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴾ الكفار

يعتزّون بأموالهم وأولادهم دون غيرهـا فبيّن لهـم تعـالى أنهـا مهمـا كـثرت لـن تفيدهم شيئاً وأنّ كفرهم سيكون سبباً لوجـود نـار الآخـرة لهـم، مثلمـا الوقـود سبب وجود النار في الدنيا، أو أنهم مما توقد به، ولا نبحث عن كيفية ذلك فهو من أمور الغيب التي تؤخذ بالتسليم.

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (١١).

١١- ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ دأب الكفار في اجتهادهم وعادتهم في كفرهم وتكذيب الأنبياء والكتب المنزلة كدأب آل فرعون مع موسى عليه السلام ولذا فإنّ عاقبتهم ستكون كعاقبة آل فرعون ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فقد مضت سنّته تعالى بأن يكون العقاب أثراً لازماً للكفر والذنوب.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (١٢).

١٢- ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، والكفار هم مشركو قريش، والمعنى أخبرهم أيها النبي أنهم سيُغلبون، فالآية إخبار بالغيب وقد غلبهم المؤمنون أوّلا يوم بدر، ثم كانت الغلبة النهائية عليهم يوم الفتح، وتنطبق الإشارة أيضاً على اليهود فقد غلبهم المسلمون في المدينة وخيبر وأجلوهم عنها، ثمّ بعد ذلك بسنين قليلة تمّت هزيمة فارس وبيزنطة على يد المسلمين ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ﴾ سوف يتمّ الله وعده بهم في الآخرة فيحشرهم إلى جهنم ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ بئس المهاد جهنم، وهي ما مهدوا لأنفسهم وأعدّوه بأعمالهم، والآية أيضاً إخبار عن الغيب بشكل مطلق لأن الباطل لا يدوم، والمصير النهائي للكفار إلى الاضمحلال في الحياة الدنيا وجهنم في الآخرة.

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ ﴾ (١٣).

١٣- بعد أن ذكر تعالى أن الكفار سوف يُغلبون في النتيجة، ضرب مثلاً بأحداث بدر فقال عزّ من قائل: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾ المعنى لا يغرّنكم كثرة المال والعدد ولا تحسبوا أنهما بذاتهما فقط سبباً للنصر فقد كان نصر المسلمين في بدر آية، أي معجزة لأولي الأبصار بما اشتملت عليه من العبر، إذ خرج الكفّار متأهّبين للحرب متفوّقين بكثرة سلاحهم وخيلهم وعددهم وهم متمرّسون في الحرب والقتال وكانوا في حالة من الغرور والاستعلاء والاعتداد بالنفس، ومن جهة ثانية اتجه المسلمون إلى بدر وهم قلّة في العدد والسلاح والخيل ولكن في حالة من الانضباط والتواضع والدعاء والتقوى والتضرّع والذكر، ثمّ أحرز المؤمنون نصراً ساحقاً على العدوّ المتفوّق، فكانت النتيجة معجزة بيّنة وصدمة مخزية وإذلالاً لقريش بعد أن أتت بجيروتها وخيلائها فأصابتها الهزيمة الماحقة على أيدي مجموعة صغيرة من فلاّحي المدينة وقلّة من المستضعفين الهاربين من الاضطهاد في مكة ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ كان المشركون في بدر ثلاثة أضعاف المسلمين ولكنهم رأوا المسلمين بضعف عددهم الحقيقي ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ تلك هي المعجزة الباهرة فالنصر يحصل بتأييد الله لعباده الموقنين وأنّ كثرة العدد والشوكة والسلاح بذاتها لا تكفي ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ﴾ الذين يتأملون في الأمور وأسبابها وعواقبها.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (١٤).

١٤- بعد أن وصف تعالى اغترار الكفار بأموالهم وأولادهم وأنها لن تغني عنهم شيئاً وأنهم سيُغلبون ويُحشرون، ذكر السبب الذي من أجله يكفر بعض

هؤلاء الناس لأنهم فُطروا على حب الشهوات: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ أنشأهم تعالى على هذه الفطرة من حب الشهوات فهي طبيعة في البشر لأنّها من أسباب المعيشة وبقاء النوع.

وهي أيضاً ابتلاء لقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٧/١٨]، واستنادا على هذه الفطرة يزيّن الشيطان للناس سوء أعمالهم، قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣/٦]، وقال عزّ من قائل: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨/٨]، وقال جلّ ثناؤه: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ٦٣/١٦]، فتكون هذه الزينة وحب الشهوات سبباً لكفر الكافرين منهم، وهو وجه اتصال الآية مع ما قبلها.

﴿مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ القناطير المقنطرة تعبير عن الكثرة، والقنطار وحدة وزن ﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ الخيل الحسان ذات العلامة ﴿وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ المواشي والزرع ونتاجه ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ كلّ ذلك يستمتع به الناس في الحياة الدنيا، والمعنى لا يجب أن يكون المتاع كلّ همّهم ومنتهى آمالهم في القريب العاجل من الدنيا، فيصير شاغلاً لهم عن الاستعداد للآخرة، لأنّ الله عنده أفضل من ذلك: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ المرجع الحسن عنده.

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (١٥).

١٥- ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ﴾ ما هو خير من الشهوات المذكورة، والمغزى أن تلك الشهوات ليست شرّاً بذاتها، وإنّما هي خير لأنها من نعم الله تعالى على عباده، ولكنّ طغيان البشر وغرورهم هو الذي يقلبها إلى شر ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾

يلاحظ أنّ الآية ميّزت بين الجنات وما فيها من نعيم وهو الثواب الحسّي، وبين رضوان الله: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ﴾ وهو الثواب الروحاني ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ بصير بمن اتّقى حقّاً.

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (١٦).

١٦- ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ وهم أهل التقوى المشار إليهم في الآية السابقة تفيض ألسنتهم بهذا الدعاء لشدة تأثرهم، وهم الموصوفون في الآية التالية بالصبر والصدق والطاعة والإنفاق والقيام:

﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾ (١٧).

١٧- ﴿الصَّابِرِينَ﴾ في أداء الواجبات وترك المحظورات، والصابرين في المحن والشدائد وهم راضون بقضاء الله ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ في أقوالهم وفي عملهم بأن تكون أعمالهم مصداقاً لأقوالهم ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾ المواظبين على الخشوع والدعاء أي على روح العبادة ﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾ في جميع الطرق المشروعة والواجبة والمستحبّة من الزكاة والصدقات والبر ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾ دلالة على أنّهم يصلّون ويستغفرون وقت السَحَر أي في قلب الليل، وقيل إن السَحر معناه الصدر أو القلب فيكون المقصود هو الاستغفار بالقلوب وليس باللسان فقط.

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٨).

١٨- ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ شهادته تعالى من قبيل المجاز لأنّ ما أوجده من الدلائل في الخلق وفي الأنفس وما أنزل من الوحي على الرسل مؤيّداً بالبراهين كل ذلك يدلّ على التوحيد ﴿وَالْمَلائِكَةُ﴾ أقرّوا بالوحدانية وشهدوا بها للأنبياء ﴿وَأُوْلُوا الْعِلْمِ﴾ أصحاب العلم أقرّوا وآمنوا إيماناً مقروناً بالدلائل والحجج ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ القسط هو العدل، وهو ظاهر في السنن الكونية

ودقّتها ونظامها، وفي البشر، وهذا من قبيل الدلائل الكونية على الوحدانية، لأنّ وحدة النظام تدلّ على وحدة واضعه، والقسط أيضاً دليل على ضرورة الآخرة، فالحياة وحدة متكاملة تبدأ بالحياة الدنيا وتصير إلى الآخرة، وبعد تقرير صدق الشهادة يقيناً لم يبقَ للإنسان إلاّ الإقرار بها قائلاً: ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ لتفرّده تعالى بالألوهية وكمال المقدرة والحكمة.

واتصال الآية بما قبلها أنه لم يبق للكفار حجة لكفرهم مع وجود كل هذه الدلائل و لم يعد لذي عقل منهم سوى الاستسلام والإذعان للهدي الإلهي الذي هو الإسلام كما سيرد في الآية التالية:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (١٩).

١٩- ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ الإسلام هو إسلام الأمر لله وحده، وهو أيضاً الاستسلام لأمره، وهو بهذا المعنى يشمل جميع الأديان التي جاء بها الأنبياء، لأنّ أصلها التوحيد والاستسلام لله تعالى والانقياد لهداية الوحي ولو اختلفت بعض التكاليف وأحكام التشريع التي نسخت بعضها بعضاً ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ خرجوا عن الإسلام الذي جاء به أنبياؤهم بسبب البغي وهو تهالكهم على الأغراض الدنيوية والزعامات والعصبية والحسد ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ التي تدلّ على وحدة الدين وحرمة الاختلاف والتفرق ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ قد يرى الإنسان عاقبة عمله في الدنيا، فإن لم يكن فالآخرة قريبة، لأنّ الحياة محدودة وقصيرة، والزمن الدنيوي نسبي فسرعان ما ينقضي الأجل ويحين وقت الحساب.

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٢٠).

٢٠- ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾ وهم الكفار المشار لهم بالآيات (١٠-١٢)، ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنْ اتَّبَعَنِ﴾ أي قد بالغنا في إيضاح الدلائل والبراهين لكم

فإن أبيتم إلاّ العصبية والتقليد والحسَد فلا فائدة من المجادلة لأنها صارت لمحض العناد والشغب ولا نضيع الوقت معكم سدى أمّا نحن فمنقادون للحق مستسلمون له وحسابكم على الله ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ كاليهود والنصارى ﴿وَالأُمِّيِّينَ﴾ الذين لا كتاب لهم كمشركي العرب ﴿أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ﴾ وظيفة الرسول، وبالتالي كلّ مسلم، محصورة في التبليغ وأنّه ليس مسيطراً على الناس ولا جبّاراً عليهم أو مُكرِهاً لهم على الإسلام ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ الله تعالى أعلم بالغيب، وبمن اهتدى، وبمن طُمس قلبه وحصل اليأس من اهتدائه، وحساب الجميع على الله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢١).

٢١- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي وهم على غير الحق، وهم اليهود وتشهد عليهم كتبهم بقتل الأنبياء قبل القرآن، إذ اعتادوا على الكفر بآيات الله وقتل الأنبياء منذ زمن موسى عليه السلام إلى زمن النبي ﷺ، وقد نسب إليهم قتل النبيين باعتبار تكافلهم كأمّة، وليس كأفراد، وجريان لاحقيهم على خطا سابقيهم، وقد تآمروا على قتل عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، واستخدام الفعل المضارع دليل على استمرار كفرهم وعنادهم وإصرارهم على جرائمهم، وقد سجّل بنو إسرائيل جرائمهم بالتفصيل في كتبهم التي يزعمون أنها مقدسة،

﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ الذين يأمرون بالقسط هم الحكماء الذين يدعون إلى العدالة في الأفكار والأخلاق والتطبيق ولذا قيل إنّ منزلة هؤلاء تلي منزلة الأنبياء، وأمّا الأنبياء فدعوتهم بأساليب ثلاثة ذكرها تعالى بقوله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٦/١٢٥] فأسلوب الحكمة في الدعوة وهو طريق العقل

والفكر يكون موجّهاً إلى الحكماء والعقلاء والمفكّرين، والموعظة هي أسلوب العوام السذّج، والمجادلة بالتي هي أحسن للمتوسّطين بينهم ممّن لم يرتقِ لطلب الحكمة ولا ينقاد للموعظة بسهولة، فلا بدّ من الحسنى في مخاطبتهم على قدر عقولهم، وهكذا فإنّ جميع أصناف الناس تنتفع بهدي الأنبياء كل صنف بمقدار استعداده، وأمّا الحكماء وهم الخاصّة من الناس المستعدّون لتلقّي الحكمة فالطريقة في دعوتهم واحدة لا ينتفع بها غيرهم، والآية تدلّ على أنّ قتل هؤلاء دليل على كبت الفكر والعقل وإزاحة العدالة جانباً، أمّا قوله تعالى: ﴿مِنْ النَّاسِ﴾ فهو إشعار بقلّة عددهم ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ لفظ التبشير مشتق من البشرة لأن الإنسان يتغير لون بشرته إذا وصله خبر سعيد أو أليم، وإن كان غلب استعمال اللفظ عند البعض على البشارة الحسنة.

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (٢٢).

٢٢- ﴿أُوْلَئِكَ﴾ اليهود ﴿الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ لأنّهم بذلوا طاقتهم ومساعيهم في أعمال تؤدي بهم إلى الكارثة في دنياهم وآخرتهم ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ ليس هنالك من سلطة تستطيع إنقاذهم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنْ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٢٣).

٢٣- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنْ الْكِتَابِ﴾ وهم اليهود والنصارى وغيرهم، والنصيب هو الجزء، وهو ما تبقّى عندهم من الوحي الذي نزل على أنبيائهم، انظر شرح الآية (٣)، وقد يكون الكتاب بمعنى مجمل الوحي الذي نزل على كل الأنبياء فيكون ما نزل على أنبيائهم هو النصيب أو الجزء المشار إليه ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ دُعوا إلى القرآن لأنه كتاب الله بلا منازع، كما دُعوا إلى الإقرار بدلائل نبوّة خاتم الأنبياء والرسل الموجودة

فيما تبقّى من كتبهم ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ أعرض زعماؤهم عن الإقرار بما عرفوه في كتبهم من الدلائل فأعرض أتباعهم عن الإسلام.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٢٤).

٢٤- ﴿ذَلِكَ﴾ أي تولّيهم وإعراضهم سببهما الغرور والافتراء ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ يظنّون أنّهم ناجون في الآخرة بشفاعة أنبيائهم لأنّ الدين عندهم عبارة عن جنسية ينجو صاحبها من العقاب لمجرّد الانتساب إليها بغض النظر عما يرتكبون من جرائم، والعقوبة محدودة بزعمهم ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ افتروا الأباطيل في كتبهم ثم اغترّوا بها إذ يقولون على الله ما لا يعلمون.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (٢٥).

٢٥- ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ يوم الجزاء لا ريب في مجيئه ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ فيكون الجزاء بقدر العمل.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٦).

٢٦- ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ وهذا القول إشارة إلى غرورهم المشار إليه بالآية (٢٤)، وتأكيد أن الرسالة نزعت منهم كونهم لم يعودوا جديرين بها، والملك إشارة إلى ملك النبوة والرسالة كما في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء ٤/٥٤]، فسلطان النبوة يمتد إلى الأرواح والأجساد معاً، واتصال الآية بما قبلها أنّ بني إسرائيل كانوا يعتقدون أنّ النبوة محصورة بهم دون غيرهم من الناس، فهنا أخبروا أنّ النبوة نزعت منهم، وأوكلت إلى العرب

من بني إسماعيل، وللآية أيضا مغزى عامّ فإنه تعالى يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممّن يشاء وفق السنن المطّردة التي وضعها في خلقه فالعدل والإصلاح وحسن السياسة كلها تؤدي إلى نشوء واستمرار الملك في حين أن الفساد والظلم يؤديان إلى زوال الملك وانهيار الدول ﴿وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأنّ كل أفعاله تعالى من نافع وضار صادر عن الحكمة والمصلحة فهو خير كله.

﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٢٧).

٢٧- ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ وذلك من دلائل قدرته تعالى في التصرّف بخلقه كيف يشاء، وتعبير إيلاج الليل في النهار وبالعكس من إعجاز القرآن، لأنه يستوجب كروية الأرض، فالليل والنهار يزحفان حول الأرض باستمرار يدخل أحدهما في الآخر، فمن جهة يكون النهار داخلاً في الليل ومن جهة أخرى يكون العكس ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ أي المؤمن من الكافر، والصالح من الطالح ﴿وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ الكافر من المؤمن، والشرّير من الصالح، وهو شبيه بقوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢/٦] أي كافراً فهديناه، فجعل تعالى الكفرَ موتاً والإيمانَ حياةً، فبمقتضى سننه الكونية أخرج تعالى العرب الأميين من الموت إلى الحياة، كما أخرج أشراراً مفسدين من اليهود من سلالة كبار الأنبياء والصدّيقين، ولا يمتنع أيضاً تفسير الآية على ظاهرها كخروج النبات من الأرض الميتة ثم موت النبات، أو كإحياء الانسان من العدم ثم موته ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ليس من يدري الحكمة والمصلحة في توزيع الرزق على الناس، والمغزى أن لو كان الرزق مقتصراً على المؤمنين لبطل الاختبار والتكليف في الدنيا ولصار الإيمان قسرياً وانتفت حرية الخيار لبني آدم، انظر آيات [البقرة ٢/٣٦،١٢٦].

﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (٢٨).

٢٨- بعد أن أخبر تعالى في الآيات السابقة أن النبوة نُزعت من بني إسرائيل وانتقلت إلى بني إسماعيل، بيّن للمؤمنين كيف يجب أن تكون العلاقة بينهما، فقال عزّ من قائل:

﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لا يتخذ المؤمنون الكافرين حلفاء لهم حيث تُقدّم مصلحة الكافرين على مصلحة المؤمنين ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ فيتخذ الكفار أولياءَ وأنصاراً حيث يجعل لمصالحهم الأولوية على مصالح المؤمنين ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ تنقطع صلة الايمان بينه وبين الله تعالى فيكون من الكافرين ﴿إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ أي في حال الخوف من الكفار في شيء يلحق الضرر بالمؤمنين، ففي هذه الحالة يجوز للمؤمنين موالاة الكفار ظاهرياً بالقدر الكافي لرفع الضرر عنهم، كما تجوز موالاة الكفار أيضاً لجلب المنفعة، لأنّه إذا جازت موالاتهم لرفع الضرر فالأولى أن تجوز أيضاً لجلب المنفعة على أن لا يسبب ذلك ضرراً للمسلمين في بلاد أخرى.

وقد استدلّ البعض من الآية على جواز التقية للمحافظة على النفس والعرض والمال، كما تجوز المداراة والكياسة واللياقة معهم فيما لا يهدم حقّاً ولا يبني باطلاً، كما يجوز برّهم والإحسان إليهم لقوله تعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة ٦٠/ ٨].

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ لكونه تعالى محيطاً بعلم كل شيء من الظاهر والباطن ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ فيجازي كل عامل بعمله، انظر أيضاً آيات المجادلة ١٤/٥٨-١٥).

﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٩).

٢٩- ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهو تحذير من كون الباطن موافقاً للظاهر وقت التقية، فإن كانت موالاة الكفار بميل إلى الكفر جازاكم عليه، وإن كانت القلوب مطمئنة بالإيمان غفر لكم ولم يؤاخذكم ما دام ذلك لم يسبب ذلك ضرراً ولا إيذاءً للمسلمين.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٣٠).

٣٠- ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ يوم تعرض أعمال المرء عليه فيغتبط بما عمل من خير ويصاب بالذعر لما عمل من شر ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ فمن رأفته بهم أن حذّرهم يوم الحساب، وأن جعل الفطرة سليمة بطبعها ميالة إلى الخير، ومن رأفته تعالى أن أمهل عباده للتوبة.

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣١).

٣١- ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قالوا إنّ الآية نزلت على النبي ﷺ ليخاطب بها وفد نصارى نجران، لأنّهم ادّعوا كما يدّعي جميع النصارى أنهم أبناء الله وأحبّاؤه، ومع ذلك فالخطاب عام، وهو حجّة على كل من يدّعي ذلك في كل الأزمنة، لأنّ الادّعاء يجب أن يصدّقه العمل باتّباع ما جاء به النبي ﷺ من الوحي والسنّة، ومحبة الله للناس من قبيل الاستعارة وتعني رضا الله وكشف الحجب عن القلوب لمن تحبّب إليه واتبع سنة نبيّه.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (٣٢).

٣٢- ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ باتباع كتابه ﴿وَالرَّسُولَ﴾ باتباع سنّته ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ بدعوى أنهم أبناء الله وأحبّاؤه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ الذين تصرفهم أهواؤهم عن النظر في آيات الله وما أنزل على رسوله.

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٣٣).

٣٣- ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ بعد أن ذكر تعالى أنّ محبته منوطة باتباع الرسول، أتبع ذلك بذكر من اصطفاهم من الرسل الذين بيّنوا للناس طريق محبّته، وتعبير اصطفاهم على العالمين بمعنى اختارهم وجعلهم صفوة البشر بأن جعل فيهم النبوة والرسالة ابتداء من بدء الخليقة ونوح وأنبياء كثيرون حتى ظهور إبراهيم عليه السلام وتتابع الأنبياء من آله وآل عمران إلى أن خُتمت النبوة بمحمد ﷺ من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهم السلام، وقد ابتدأت الآية بذكر آدم لأنه رمز الجنس البشري، وأما عمران فهو أبو موسى وهارون.

﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٣٤).

٣٤- ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ ليس فقط في السلالة وإنما في الدين والتوحيد والتناصر والموازرة في الإسلام ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع لدعاء امرأة عمران وعليم بنيّتها كما في الآية التالية:

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٣٥).

٣٥- ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ﴾ أي هي امرأة من آل عمران، وهي والدة مريم عليها السلام، والمقصود أنها من سلالة عمران أبي موسى وهارون، وقد يكون عمران المذكور في هذه الآية هو أبو مريم لقوله تعالى في سورة التحريم ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ﴾ [التحريم: ١٢/٦٦]، فبذلك تكون إمرأة عمران زوجته

﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ أي محرّراً من مشاغل الدنيا ومكرّساً للعبادة وخدمة المعبد ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (٣٦).

٣٦- ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ قالت ذلك على سبيل الحسرة والاعتذار، لأنّ الأنثى لن تقوى على الانقطاع لخدمة بيت الله، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ فهو أعلم بمنزلة هذه الأنثى وأنها خير من كثير من الذكور ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ﴾ الذي كانت ترجوه ﴿كَالْأُنْثَى﴾ التي أنجبتها لأنها أفضل بكثير من الذكر الذي كانت تتمناه، قالت: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ الرجيم هو المطرود من الخير والاستعاذة بالله من الشيطان من قبيل الدعاء والرجاء لنفي وساوس الشيطان عنها.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٣٧).

٣٧- ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ لكي تكون مكرّسة للعبادة وخدمة بيت الله وفاء لنذرها ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ كناية عن سموّ تربيتها الأخلاقية والروحية ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ جعل زكريّا كافلاً لها وكان من كهنة المعبد وهو أبو يحيى عليه السلام ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ من جملة ما ذكره الطبري أنّ تجّاراً تطوّع بأن يأتيها بالرزق خلال أزمة مرّت ببني إسرائيل، ومن جملة ما ذكره الرازي أيضاً أن الآية لا تنص بالضرورة على خوارق الأمور، ولكن المعنى أن الله تعالى رزقها على أيدي المؤمنين من عباده الذين كانوا يرغبون في الإنفاق على أمثالها من الزاهدات العابدات، وكان

زكريا عندما يرى ذلك الرزق يسألها عن مصدره ﴿قَالَ يَامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ المعنى أنّه تعالى يرزق الناس بتسخير بعضهم لبعض، وإسناد الأمر إليه تعالى واضح لأنه مسبّب الأسباب وذلك معروف بسنّة الله في خلقه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وبغير توقّع من المرزوق وليس من يعلم الحكمة النهائية في ذلك.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (٣٨).

٣٨- ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ لما رأى زكريا صلاح مريم وحسن حالها وكمال إيمانها واعتقادها بأنّ المسخّر لها هو من يرزق بغير حساب، وتأمّل ذلك، تمنّى لو كان عنده ولد صالح مثلها، فنطق بهذا الدعاء مستغرقاً ومستشعراً كمال وفضل الألوهية حتى أُذن له باستجابة ندائه:

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٣٩).

٣٩- ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي مصدّقاً بعيسى المسيح عليه السلام الذي ولد بكلمة من الله وهي: (كن فيكون) أي بغير السنّة العامة في توالد البشر، وقد ولد يحيى قبل عيسى بستة شهور وتزامنت بعثتاهما عليهما السلام إلى أن استشهد يحيى في السجن إذ قتله هيرود ملك اليهود في الجليل ﴿وَسَيِّدًا﴾ في الفقه والدين ﴿وَحَصُورًا﴾ معصوماً من الذنوب ومبالغاً في حبس نفسه عن الشهوات ﴿وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وهي البشارة الثانية بنبوة يحيى بعد البشارة الأولى بولادته.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (٤٠).

٤٠- ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ سأل زكريا ربه عن كيفية الاستجابة رغم كبر سنّه وعقر زوجته وعلى غير ما هي

سنن الكون ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ أي عليك تفويض الأمر إليه في هذه الكيفية ولا يحول دون مشيئته شيء.

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ (٤١).

٤١- ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أراد أن يطمئن قلبه إذ غلبت عليه الطبيعة البشرية فطلب علامة تدل على تحقق تلك المنحة الإلهية ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا﴾ تصير مأموراً بأن لا تتكلم مع الناس ثلاثة أيام بلياليها تنشغل خلالها بالذكر والتسبيح (الرازي عن أبي مسلم الأصفهاني)، وليس كما هو مذكور في العهد الجديد (لوقا١/٢٠-٢٢) أنه أصابه البكم، فالإشارة روحية محضة ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ أمره بالمداومة على الذكر والتسبيح.

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٢).

٤٢- ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ اختارك لخدمة المعبد وكان ذلك مختصاً بالرجال ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ من مسيس الرجال ومن قبائح العادات والأفعال ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ بإنجاب عيسى المسيح عليه السلام من غير أب.

﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (٤٣).

٤٣- ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾ اعبديه واخشعي له ﴿وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أي كوني منهم.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٤٤).

٤٤- ﴿ذَلِكَ﴾ الذي قصصناه عليك من أخبار مريم وزكريا ويحيى (مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ) لم تشهده و لم يشهده قومك و لم تطلع على شيء منه ﴿نُوحِيهِ

إِلَيْكَ﴾ لا تعلمه إلاّ عن طريق الوحي ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ اختصم الكهنة على كفالة مريم فلم يتفقوا على كفالة زكريا لها إلاّ بعد القرعة، ومن العبر في القصة أنّ أمّياً نشأ بين أميين يخبر اليهود والنصارى عن أخبار الغيب من قصة مريم وزكريا ويحيى مما لم يكن ممكناً له ولا لقومه أن يعلموه، وقد سمع كفار قريش بهذه القصة فلم يقل أحد منهم أنه على علم بها.

إنّ قصص الأنبياء تعتبر من دلائل النبوّة التي اشتمل عليها القرآن الكريم مع كون النبي أمياً لم يتعلم، فهذه القصص دليل على صحة نفسها، وأمّا ما جاء فيها مخالفاً لما في الكتب السابقة فيعتبر مصحِّحاً للأخطاء والتحريف والحذف مما دخل عليها، وهنالك عبرة أخرى موجهة للنصارى ممن يعتقدون بألوهية المسيح بسبب ولادته المعجزة، وهي أن الولادة المعجزة لم تقتصر على المسيح وإنما ولادة يحيى كانت أيضاً بمعجزة.

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (٤٥).

٤٥- ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ تقدير الخطاب: «يبشّرك بمولود يولد بكلمة منه» وهو تفسير قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ (٣٩)، والكلمة هي (كُنْ) كما في قوله ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢/٣٦]، ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ﴾ وهو لقب الملوك عند اليهود لأنّ الكهنة كانوا يمسحونهم بالزيت عند تكريسهم لمناصبهم ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ نَسَبه تعالى إلى مريم إعلاماً لها على ولادته من غير أب ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ وجاهته في الدنيا بسبب بعثته النبوية ومنزلته العظيمة في نفوس المؤمنين في كل العصور، وفي الآخرة ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ يوم القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠/٥٦-١١].

﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٤٦).

٤٦- ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً﴾ يكلمهم بوحي الله الذي يوحيه إليه في صغره، كما في كهولته ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٤٧).

٤٧- ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ أي كيف يولد هذا الولد مني وأنا لست بذات زوج ولست عازمة على الزواج ولست بغيّاً، فأجابها المَلَك عن الله عزّ وجل ﴿قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي يخلقه من العَدَم، ولم يقل «يفعل» كما في قصة زكريا بل نصَّ على أنه يخلق لإبطال أي شبهة ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ و«القول» لتقريب الفهم إلى أذهان السامعين إذ هو كناية عن مقدرته تعالى المطلقة بلا حدود.

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾ (٤٨).

٤٨- ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾ الكتاب هو مجمل الوحي الذي نزل على جميع الأنبياء، والحكمة هي العلم الصحيح الباعث على العمل النافع، والتوراة كتاب موسى، والإنجيل ما أوحي إلى عيسى خاصة.

﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٤٩).

٤٩- ﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ تتمة الخطاب إلى مريم، أي ويجعله رسولاً إلى بني إسرائيل خاصةً فيقول لهم ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ الآية المعجزة أو العلامة وهي: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ لأنّ الخلق والروح من الله، وتأكيد عيسى عليه إزالةً

للشبهة، وتنبيهاً على أنه إذا عمل الطين كهيئة الطير فإنّ بعث الحياة في الطين يكون من الله تعالى ولمجرّد إظهار المعجزات على أيدي الرسل ﴿وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الأكمه هو الذي يولد أعمى، وكرّر قوله بإذن الله لإزالة أوهام من قد يعتقد فيه الألوهية ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ وهو من قبيل اطلاع الأنبياء على بعض الغيب ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ويلاحظ من لفظ الآية أنّه تعالى جعل هذه المقدرة في عيسى عليه السلام ليتحدّى بها بني إسرائيل، لأنهم لطفولتهم العقلية، اعتادوا على طلب المعجزات الحسية من زمن موسى عليه السلام.

﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ (٥٠).

٥٠- ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ مؤكّداً ما بقي بين يديّ أو الصحيح الذي بقي منها، انظر شرح الآية (٣) أعلاه ﴿وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ وهو ما اشتملت عليه الخرافات التي أدخلها أحبارهم على الشريعة وتمسّك بها عوامّهم فنفاها عنهم، لأنّ المسيح عليه السلام لم يأت لليهود بشريعة جديدة، ولكن جاءهم بما يخلّصهم من الجمود والتعلق بالظواهر والشكليات والشوائب التي تراكمت على الشريعة، وليعود بهم إلى جوهر الدين وحقيقته، انظر شرح الآية (٩٣)، ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ دلالة على صدقي ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٥١).

٥١- ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ نفى عيسى الألوهية عن نفسه، وأفهمهم أن الله تعالى ربّ الجميع، إزالةً لأي التباس أو سوء فهم، وقد ورد مثل هذا القول حرفياً في كتب المسيحية على لسان عيسى (سفر يوحنا ١٧/٢٠)، ومع ذلك كذّبوه وأصروا على تأليهه ﴿فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ هذا هو الطريق الصحيح.

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٥٢).

٥٢- ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ﴾ أي من اليهود ﴿الْكُفْرَ﴾ يلاحظ روعة الإيجاز في الخطاب الذي انفرد به القرآن الكريم أن انتقل من البشارة بعيسى والآيات التي جاء بها إلى النتيجة التي وصل إليها مع قومه بعد طول الدعوة والمعاناة، وقد وجد عيسى في بني إسرائيل العناد والمكابرة ورفض تحكيم العقل والمقاومة ونية الإيذاء، فتوجّه باحثاً عن أهل النصرة من المؤمنين: ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي من ينصرني في الدعوة إلى دين الله ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ أي نحن أنصار الدعوة إلى دين الله.

والحواريون هم خاصّة عيسى من الأتباع والتلاميذ، وقيل إنهم كانوا ينتمون إلى طائفة من يهود فلسطين تُدعى Essene Brotherhood اتسمت بالاستقامة والتصوف وكانوا يرتدون الملابس البيضاء دلالة على مذهبهم، وقيل إن عيسى عليه السلام كان منهم فاشتق اسم الحور وهو البياض من لون ردائهم، فقالوا: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ مخلصون له منقادون لأمره ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ قد أسلمنا أمرنا إلى الله، فنحن مسلمون له، مستسلمين لإرادته، وهو دليل على أن الإسلام -بهذا المعنى- دين الأنبياء جميعاً وإن اختلفت بعض أحكامه.

﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٥٣).

٥٣- ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ﴾ آمن الحواريون بالوحي الذي نزل على عيسى ﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ وهو عيسى عليه السلام، ويلاحظ في الآية تتابع الإيمان ثم العمل بإتّباع، لأن الايمان بلا عمل يكون ناقصاً، فاتّباعهم الرسول يفيد أن إيمانهم لم يكن بلا أثر، إذ بلغ مرتبة اليقين المسيطر على النفس والموجّه لها ﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾ على الحق.

﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (٥٤).

٥٤- ﴿وَمَكَرُوا﴾ وهم اليهود الذين أحسّ عيسى منهم الكفر، قاموا بالتخطيط لقتله عن طريق اتهامه لدى الحاكم الروماني «بيلاطس» بالكفر والتحريض على الشغب ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ بالتدبير الخفي المؤدّي بهم إلى ما لا يحتسبون ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ بتدبيره الذي يخفى على عباده.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (٥٥).

٥٥- ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ أي مستوفي أجلك في هذه الدنيا، لأنّ أصل التوفي في اللغة هو أخذ الشيء وافياً، ثم استعمل بمعنى الموت، انظر آية [الزمر: ٣٩/٤٢]، ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ كانت فرصة بني إسرائيل الأخيرة أن بعث لهم تعالى نبيّين في وقت واحد، وهما عيسى ويحيى عليهما السلام، فقتلوا يحيى كما قتلوا غيره من الأنبياء من قبل، انظر شرح الآية (٢١)، ثم تآمروا على قتل عيسى المسيح عليه السلام فرفعه تعالى إليه، والرفع بمعنى الاستدعاء، كما تستدعي الدول سفراءها عندما تنتهي مهمتهم، أو عندما تصبح المهمة التي بعثوا من أجلها غير ذات جدوى، والمعنى أن فرصة بني إسرائيل في التوبة والإصلاح والتصديق بالمسيح فاتتهم بسبب عنادهم، فرفع تعالى المسيح إليه ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي من وجودهم، بعد أن لم يعد هنالك فائدة تُرجى من وجود المسيح فيهم ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وهم المسلمون لأنهم الأتباع الحقيقيون لعيسى ابن مريم، وهذه نبوءة بالغيب، أي إن عقيدة المسلمين ظاهرة فوق غيرها إلى يوم القيامة، بالحجة والإقناع، وليس بالقهر والسيطرة ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ وهو الاختلاف بين المسلمين وبين المسيحية الذين ابتدعوا ألوهية المسيح، وبين اليهود الذين كفروا ببعثة المسيح كليّةً ثم أنكروا بعثة خاتم الأنبياء والرسل محمد ﷺ، فيتبيّن للجميع يوم القيامة الحق من الباطل.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (٥٦).

٥٦- ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ وقد حصل ذلك في الدنيا بتشتيت اليهود وتسليط الأمم عليهم منذ طرَدهم الروم من فلسطين والقدس عام ٧٠ ميلادية، فكان ذلك بداية عصر الشتات لهم، انظر الآية (١١٢)، ثم عذاب الآخرة أخزى لهم من عذاب الدنيا.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (٥٧).

٥٧- ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ إما في الدنيا، وهذا الأمر مطّرد في الأمم وليس بالضرورة في الأفراد، وإما في الدنيا والآخرة، أو في الآخرة فقط ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أي الظالمين لأنفسهم بالخروج عن الفطرة وبالكفر بالأنبياء.

﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ (٥٨).

٥٨- ﴿ذَلِكَ﴾ أي ما تقدم من نبأ عيسى ويحيى وزكريا وغيرهم ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ﴾ آيات القرآن وهي العلامات المبرهنة على الرسالة ﴿وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ الحكيم لكون القرآن ينطق بالحكمة، وأيضاً بمعنى المُحكَم، لأنّ فعيل بمعنى مُفعَل وهو شائع في اللغة، أي في منتهى الإحكام والإتقان.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٥٩).

٥٩- ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ الآية جواب على ادعاء ألوهية عيسى عند المسيحية والمعنى أنّ خلق عيسى على غير المعهود من اتصال الذكر بالأنثى لا يستلزم كونه إلهاً لأنّ آدم، والمقصود به الجنس البشري خُلق من تراب، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ [المؤمنون: ٢٣/١٢-١٣].

﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ «القول» لتقريب الفهم إلى أذهان السامعين وهو كناية عن مقدرته تعالى بلا حدود، واستعمال الفعل المضارع في كلمة (يكون) إشارة إلى استمرار معجزة الخلق في الإنسان.

قال تعالى: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ [الكهف: ١٨/٣٧]، وقال عزّ من قائل ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ [غافر: ٤٠/٦٧]، لأنّ الإنسان مخلوق من مواد عضوية وغير عضوية موجودة في التراب، وهذه معجزة مستمرّة وقائمة بذاتها، وأنّ خالق القوانين والسنن يفعل ما يشاء.

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (٦٠).

٦٠- ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ هذا هو الحق من ربك فلا يكن عندك شك، والخطاب وإن كان ظاهره للنبي ﷺ إلاّ أنه -كما هي العادة في القرآن الكريم- موجّه للأمّة.

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (٦١).

٦١- ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ﴾ أي في حقيقة عيسى ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ وأصبحت على يقين من الحقيقة ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ وذلك قصارى ما في الأمر، أي لا نكرهكم على ما نحن عليه من العقيدة والإيمان، بل نترك لكم حرية الخيار، وتسمّى هذه الآية آية المباهَلة، والمباهلة هي الملاعنة، أمّا الابتهال فهو الاجتهاد في الدعاء، وقد ورد أن النبي ﷺ دعا وفد نصارى نجران حين قدومهم عليه في المدينة إلى المباهلة بشأن دعواهم في ألوهية عيسى وذلك بأنْ يجتمع المجادلون في عيسى من أهل الكتاب رجالاً ونساءً وأطفالاً، ويجتمع النبي مع المؤمنين رجالاً ونساءً وأطفالاً ثمّ يبتهل الطرفان إلى الله تعالى أن يلعن الكاذب منهما فيما يُقال عن عيسى المسيح عليه السلام، وهذا الطلب دالّ على قوة اليقين والثقة لدى صاحبه بما يقول ويعتقد، وقد امتنع نصارى نجران عن المباهلة بسبب عدم ثقتهم بما يقولون، ولكونهم على

غير بيّنة ولا يقين مستند على العقل في أمر المسيح، وإنّما كانت محاجّتهم عناداً وعصبيةً وتقليداً لما ورثوه عن آبائهم من المعتقدات، وحفاظاً على مراكزهم في الكنيسة، ويلاحظ أيضا أنّ عبارة (تَعَالَوْا) في الآية تتضمن معنى التعالي والمعنى: أدعوكم يا أهل الكتاب إلى التعالي عن السفاسف وعن الشكليات والالتزام بأصل العقيدة فقط.

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٦٢).

٦٢- ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ في شأن المسيح عليه السلام ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ﴾ المتفرّد بالألوهية ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هو وحده العزيز الغالب على أمره والحكيم العالم بالعواقب والنهايات، و لم يكن عيسى كذلك حتّى يدّعوا فيه الألوهية.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ (٦٣).

٦٣- ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ و لم يجيبوا دعوتك إلى المباهلة و لم يستجيبوا للحقيقة فيؤمنوا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ المعنى فوّض أمرهم إلى الله فهو أعلم بإفسادهم وحسابهم عليه تعالى، فتركهم النبي ﷺ وأعطاهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وضمن لهم حقوقهم وحرية ممارسة شعائرهم الدينية وفرض عليهم الجزية.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٦٤).

٦٤- ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ ظاهر اللفظ يدل على أن المخاطبين هم اليهود والنصارى عامةً، والخطاب وإن كان في الأصل للنبي ﷺ، فهو موجّه للمسلمين في كل الأمكنة والأزمنة بدليل تغيير الخطاب من المفرد إلى الجمع في تتمة الآية، والمطلوب دعوة أهل الكتاب والحوار معهم: ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا

وَبَيْنَكُمْ﴾ الكلمة تطلق على الجملة المفيدة، والسواء هو العدل، أي لنتفق على مبدأ عادل ﴿أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ المطلوب هو الإقرار بوحدانية الألوهية وأن السلطة الغيبية لله وحده لا شريك له ﴿وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الربّ من أسماء الله تعالى، ولا يقال في غيره إلاّ بالإضافة، وهو هنا بمعنى من له حق التشريع والتحليل والتحريم، فاليهود رغم أنهم موحّدون إلاّ أنهم يتّبعون أحبارهم فيما يبتكرون من أحكام وتشريعات من عندهم فيجعلونها بمنزلة الوحي،

والآية تشير أوّلاً: إلى ربوبية أحبارهم وكهنتهم من هذا المنطلق، وثانياً: فقد جرى النصارى أيضاً على هذا المنوال وزادوا عليه ما ابتكروه من تأليه المسيح والروح القدس والتثليث وتسمية المسيح ابن الله، وإطلاق لقب «والدة الإله» على السيدة مريم، وابتكار فكرة الخطيئة الأصلية، وغفران الخطايا، كل ذلك بموجب القرارات التي أصدرتها المجامع المسكونية، وجعلوا لهذه القرارات مرتبة الوحي المنزل.

وكان قد عُقد أول مجمع مسكوني عام ٣٢٥م في نيقية في آسية الصغرى برعاية امبراطور بيزنطة قسطنطين الأول حيث أُقرّ مبدأ التثليث والوهية المسيح بمرسوم أمبراطوري وبحضور ٣١٨ فقط من أصل ١٨٠٠ من رجال الدين في الأمبراطورية، والباقون ممّن لم يسمح لهم بالحضور كانوا من أتباع أريوس وهم المعارضون لهذه الأفكار والمصرّون على التوحيد وعلى الاعتقاد أن عيسى بحرّد بشر، وبعد هذا المؤتمر تعرّض الأريسيّون -نسبةً إلى أريوس- إلى اضطهادات مريرة على أيدي الجيوش الرومانية فأحرقت كتبهم وكنائسهم وقد استغرق استئصال شأفتهم من أنحاء الامبراطورية حوالي ثلاثة قرون، والجدير بالذكر أنّ أريوس وأتباعه هم المشار لهم في رسالة النبي ﷺ إلى هرقل امبراطور الروم حين دعاه إلى الإسلام فكتب له: «أسلم تسلم وإن أبيت فإنّما عليك إثم الأريسيين»،

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ فإن أصرّوا على ما هم عليه من عبادة بعضهم بعضاً أظهروا أنكم على عبادة الله مستسلمين له وحده فقط، ولستم ملزمين بحمل غيركم على ما أنتم عليه من العقيدة.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (٦٥).

٦٥- ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ فهو لم يكن على شيء من معتقداتكم ولا تقاليدكم ممّا ابتكرتم ووضعتم في كتبكم فكيف تدّعون أنكم على ديانته ﴿وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي إذا كان الدين الحق هو ما جاءت به التوراة فقط كما يقول اليهود، ولا يتجاوز ما جاء به الإنجيل كما يقول النصارى، فكيف كان إبراهيم على الحق؟ واستوجب ثناء اليهود والنصارى معاً؟ مع أنه سَبَقَ التوراة والإنجيل بعدة قرون؟ فإن قيل إنّ المسلمين يقولون مثل ذلك في إبراهيم مع أنّ الإسلام نزل بعد إبراهيم بوقت طويل، فالجواب أنّ القرآن أخبر أنّ إبراهيم كان حنيفاً مسلماً، وليس في التوراة والإنجيل أنّ إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً، كما أنه ليس المراد أن إبراهيم كان مسلماً على ما أوتي النبي ﷺ، وإنما كان مسلماً بالمعنى العام، وهو إسلام الأمر لله وحده، والاستسلام والإذعان والانقياد التام لإرادة الله وحده دون غيره، والإخلاص والإحسان، فالإسلام بذلك دين الأنبياء جميعاً، وهو معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران ٣/١٩].

والآيات (٦٥-٦٨) من إعجاز القرآن، لأنها تخبر بالغيب بما كان عليه إبراهيم عليه السلام، وزعم اليهود والنصارى أنهم على ملّته.

﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (٦٦).

٦٦- ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ بما تبقّى لديكم من التوراة والإنجيل ﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ بالادّعاء أنّ إبراهيم

كان على ملّتكم مع أنّ ذلك غير مذكور في كتبكم، وأنّ اليهودية والمسيحية بأشكالها الحالية لم تظهرا للوجود إلا بعد كل من عيسى وموسى عليهم السلام بوقت طويل ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٦٧).

٦٧- ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا﴾ بالمعنى الذي أنتم عليه ﴿وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا﴾ أي مائلاً الى الطريق الصحيح وتاركاً ما كان عليه الناس من الضلال والشرك ﴿مُسْلِمًا﴾ منقاداً إلى الله تعالى وحده مثل موسى وعيسى وجميع الأنبياء ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ إشارةٌ لشرك النصارى.

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦٨).

٦٨- ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ أحدر الناس به هم الذين ساروا على طريقه ومنهجه فكانوا حنفاء مسلمين ﴿وَهَذَا النَّبِيُّ﴾ محمد ﷺ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الذين صدّقوا برسالة النبي ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فهو ناصرهم على مخالفيهم.

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٦٩).

٦٩- ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ كانوا ولا زالوا شديدي الحرص على إضلال المؤمنين وردّهم عن الإسلام بإلقاء الشكوك في نفوسهم ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ لأنّهم بانشغالهم وانهماكهم في أحابيل إضلال غيرهم انصرفوا عن النظر والتفكّر والتأمّل برسالة محمد ﷺ فضلّت عقولهم عن الفطرة السليمة والتفكير السليم من حيث لا يشعرون.

﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ (٧٠).

٧٠- ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الكفر هو ستر الحقيقة وإنكارها فقد كانوا ينكرون الدلائل الواضحة على نبوّة محمد ﷺ وهي القرآن

وما جاء في كتبهم من البشارة بالنبي ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ قلوبُهم شهدت بصحة الآيات والقرآن ولكن غلبت عليهم العصبية والتكبّر وتقليد الآباء والأجداد، كقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل ١٤/٢٧].

﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٧١).

٧١- ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ أدخلتم النظريات والآراء والأحكام الباطلة في دينكم حتى صار ديناً آخر غير ما جاء به أنبياؤكم، ولا تزالون تفعلون ذلك بالقرارات الوضعية التي تتّخذها مجالسكم ومجمعاتكم المسكونية من وقت لآخر ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تكتمون الحقيقة وأنتم على علم ووعي بما تقومون به من ابتكار ديانة وضعية لا علاقة لها بما نزل على الأنبياء، وأيضاً أنتم أصحاب علم ومعرفة، لا أصحاب جهل وخرافات، فكيف تقبلون بهذه المعتقدات الزائفة؟

﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٧٢).

٧٢- ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وهم بعض أحبار اليهود قالوا لأتباعهم ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهم المسلمون ﴿وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾ وجه النهار أي أوّله، والمقصود أنّ الأحبار أمروا أتباعهم بالنفاق للمسلمين والتظاهر بتصديق بعض الوحي بدايةً ثم تكذيب بعضه الآخر والنكوص على أعقابهم، والهدف من ذلك إيقاع البلبلة في نفوس الضعفاء من المسلمين الذين لم تطمئن قلوبهم بالإيمان فيرتدّوا، أو على الأقل يتزعزع إيمانهم فيقولوا لأنفسهم: لولا أن ظهر لهؤلاء اليهود بطلان الإسلام لما رجعوا عنه بعد أن دخلوا فيه وعرفوه، وقد ذكر الشيخ رشيد رضا في المنار أن النبي ﷺ ما أمر بقتل المرتدّ عن الإسلام إلاّ لتخويف الذين كانوا يدبّرون المكائد عن طريق

الدخول في الإسلام ثم النكوص عنه، فبذلك لا يدخل في الإسلام إلاّ من كان مؤمناً حقّاً وبهذا يتفق الحديث الشريف مع آية منع الإكراه في الدين.

﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٧٣).

٧٣- ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ أي لا تأمنوا ولا تصدّقوا إلاّ اليهود أمثالكم، وهذا تتمة كلام أحبار اليهود لأتباعهم، وردّاً عليه أمرَ تعالى رسوله أن يقول لهم ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ من الوحي، فالهداية من الله للناس جميعاً وليست حكراً عليكم أو على شعب معين، فالله تعالى يؤتي من يشاء من الناس مثلما ما أُوتيتم من الهدى والوحي ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ بما نزل من الوحي على المسلمين ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ بجعل النبوة والوحي فيمن يشاء من عباده، وذلك هو الفضل المطلق، أنظر آية [النساء: ٥٤/٤]، ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ فكيف حصرتم بزعمكم هذا الفضل الواسع لبني إسرائيل وحدهم، مع أن الله أعلم بمصالح العباد.

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٧٤).

٧٤- ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ﴾ أي بالنبوة والوحي، انظر آيات [البقرة: ١٠٥/٢] و[هود: ٢٨،٦٣/١١] حيث وردت الرحمة بمعنى الوحي ﴿مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ لأن النبوة والوحي أعظم فضل من الله تعالى.

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥).

٧٥- ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ فيهم من هو في غاية الأمانة ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾

ومنهم من هو في غاية الخيانة فلا يؤدّي لك الأمانة إلاّ بعد الإلحاح والخصومة واللجوء إلى القاضي، والآية تحذير للمسلمين أن لا يأتمنوهم على أموالهم ولا يغترّوا بهم لأن الكثير منهم يستحل أموال الغير بدعوى أنهم على غير دينهم، واليهود يسمّون من هم على غير دينهم- الأغيار Gentiles - وتنص كتبهم المقدسة، التي غيّروا وبدّلوا فيها، على مقاييس مزدوجة في التعامل مع الناس بحسب إن كانوا يهوداً أم لا ، فبالنسبة للربا يقولون: «يحل لك أن تقرض الأغيار بالربا ولكن يحرم عليك إقراض اليهود بالربا» (سفر التثنية٢٣/٢٠)، وعندهم قاعدة شبيهة في التزام القروض تميّز بين اليهودي وغيره (سفر التثنية ١٥/٣)، وهذه الازدواجية في التعامل غير مقتصرة عندهم على الربا، وإنما تتعداها إلى القتل والسرقة والزنا، فهي محرمة فيما بينهم، في حين أنهم يأمرون بقتل وسرقة وغدر الأغيار، ويشجعون الفواحش بينهم، انظر شرح آية البقرة : ٧٥/٢، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ ذلك الاستحلال والخيانة ناتج عن زعمهم أن لا حرج عليهم ولا تبعة ولا ذنب في أموال الآخرين، وهذا من غرورهم وزعمهم أنهم شعب الله الخاص ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ أي إنّ ما نصّوا عليه في كتبهم من استحلال أموال الآخرين، ونسبوه إلى الله، ليس سوى كذباً، فهو دليل على التلاعب في كتبهم ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يعلمون أن الخيانة محرّمة، ويعلمون أن المذكور في كتبهم ليس سوى افتراء من الأحبار، ولكن عمليات التضليل وغسيل الدماغ استشرت عبر أجيالهم وذرياتهم.

﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (٧٦).

٧٦- ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ هذه الآية لإثبات ما نفوه، والمعنى: بلى عليكم سبيل فيما زعمتم من استحلال أموال الآخرين، لأنّ المفروض عليكم هو الوفاء بالعهد والتقوى، والآية دالّة على

تعظيم أمر الوفاء بالعهد، لأن الطاعات مشتملة على أمرين: تعظيم شعائر الله، وحسن المعاملة مع الناس، فالوفاء بالعهد مشتمل عليهما معاً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٧).

٧٧- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ عهد الله يشمل ما عهده تعالى إلى الناس في كتبه المنزلة أن يلتزموا الصدق والوفاء بما يتعاهدون ويتعاقدون عليه وأن يؤدوا الأمانات إلى أهلها، وأن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، ولما كان الناكث بالعهد لا ينكث إلاّ لمنفعة دنيوية فقد عبّر تعالى عن ذلك بالشراء، أي أنّ الناكث بالعهد يشتري المنفعة الدنيوية، وهي قليلة مهما عظمت، لأنّ كل متاع الدنيا قليل بالمقابلة مع عهد الله ﴿أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ لا نصيب لهم من خيراتها ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لأن الخيانة والنكث بالعهود يترتب عليهما فساد التعامل بين الناس وفساد مصالحهم وإفساد المجتمع، روى أحمد في مسنده عن أنس بن مالك أنّ النبي ﷺ قال: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»، والعلاقة واضحة بين هذه الآية وما قبلها من ادّعاء اليهود بأن لا حرج عليهم في غش الناس من غير اليهود.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٨).

٧٨- ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ﴾ الإشارة غير مقتصرة على اليهود وإنما تشير إلى النصارى أيضاً بدليل الآيتين التاليتين، واللَّيُّ عبارة عن جعل الاستقامة اعوجاجاً، وهو هنا بمعنى إعطاء الكلام معنى آخر غير المقصود به، فمثلاً استخدم العهد القديم تعبير أبناء الله وابن الله مجازاً فجاء النصارى في

وقت متأخر ليقولوا إنّ المسيح ابن الله حرفياً، وقد ابتدعوا أيضاً ألوهية المسيح والتثليث ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ لأنهم يفسرون الألفاظ على غير معناها، ومن ذلك أيضاً ما قامت به الكنيسة مؤخراً بإصدار طبعة من كتابها المقدس باللغة العربية حاولت أن تجعله على نسق القرآن الكريم شكلاً ورسماً لإيهام العوام وضعاف العقول في إفريقية أنه قرآن كريم ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ ينسبون آراءهم وأهواءهم إلى الله ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم تعمّدوا التزوير مع سوء النية بهدف حرف الدين عن مجراه الصحيح، وهو ما حدث بالنصرانية التي جاء بها عيسى المسيح عليه السلام فانحرفت إلى المسيحية التي ابتدعها بولس وأقرّها المجمع المسكوني الأول في نيقية عام ٣٢٥م بمرسوم أصدره الإمبراطور قسطنطين الأول، انظر شرح الآية (٦٤)، حتى أنّ الغربيين ينسبون المسيحية التي نعرفها اليوم إلى بولس فيقولون: «مسيحية بولس» Pauline Christianity.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (٧٩).

٧٩- ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ الكتاب هو الوحي، والحكم هو العلم والتفقّه بالوحي، انظر آية [مريم: ١٢/١٩]، ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ استمرار الكلام من الآية السابقة، والإشارة واضحة لعيسى عليه السلام، وهي تبرئة حاسمة له من قول الكنيسة، لأنهم زعموا أنّه ادّعى الألوهية، ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ ذكر الرازي عن سيبويه أن الربّاني منسوب إلى الربّ لأنّه عالم بالله ومواظب على طاعته ﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أي إنّ المرء يكون ربّانيّاً بنشر علم الكتاب ودراسته.

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٨٠).

٨٠- ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ بأن تنسبوا إليهم صفات الألوهية، فالمسيح لم يأمر أحداً بعبادته، ولا عبادة أوتقديس أو تأليه الملائكة والبشر، كما فعلت الكنيسة بعده بتأليه الروح القدس وإسباغ صفة القدسية على الكثير من البشر الذين تسميهم الكنيسة قدّيسين ﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ لأن اليهود الذين بُعث عيسى إليهم كانوا في الأصل موحّدين على شريعة موسى، كما أنهم مسلمون بمقتضى الفطرة لأنّ الإسلام دين الفطرة.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٨١).

٨١- ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ الأنبياء عليهم السلام كانوا يأخذون الميثاق من أممهم بأنّه إذا بعث محمد ﷺ فعليهم أن يؤمنوا به وأن ينصروه، فيكون تقدير الآية: وإذ أخذ الله ميثاق النبيين الذي أخذوه على أممهم، وقد أضاف تعالى أخذ الميثاق إلى ذاته العليّة وإن كان النبيون أخذوه على الأمم، ويمكن أن يكون تقدير الآية أيضاً: وإذ أخذ الله ميثاق أمم النبيين-بحذف المضاف- فيكون المعنى أن على هذه الأمم الإيمان ببعثة خاتم الأنبياء والرسل ﴿لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ أي لأجل ما آتيتكم أيها الأمم من الكتب، والحكمة التي هي سنّة أنبيائكم ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ أخذ الأنبياء على أممهم عهداً أن يؤمنوا بخاتم الأنبياء والرسل وينصروه وقت مجيئه، فيكون مجيء الرسول تصديقاً لما في كتبهم من البشارة بقدومه، ومن ذلك ما ورد في كتب اليهود أنه تعالى خاطب موسى قائلاً:

«سوف أبعث لهم-أي لقومك- نبيّاً من وسط إخوتهم -أي من بني إسماعيل-، مثلك، وأضع كلامي- أي كلام الوحي- في فمه وسوف يكلمهم بكل ما آمره، وسوف يكون أن من لا يستجيب لكلامي-أي القرآن- الذي سوف يقوله باسمي فسوف أُحمّله عاقبة عمله» (سفر التثنية١٨/١٨-١٩)، والنبواءات عن قدوم النبي الأحمد كثيرة في كتبهم، انظر كتاب البروفسور عبد الأحد داوود «محمد في الكتاب المقدس عند اليهود والنصارى».

﴿قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ﴾ أي قال كل نبي لأمّته أأقررتم، وقد أضاف تعالى طلب الإقرار إلى ذاته العلية-كما في أخذ الميثاق- وإن كان وقع من الأنبياء ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾ أي قبلتم عهدي ﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي فليشهد بعضكم على بعض، وأنا معكم شهيد.

﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٨٢).

٨٢- ﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ﴾ من أعرض عن الإيمان بهذا الرسول، بعد مجيئه، وبعدما تقدّم من الدلائل ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن الحق، ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (٨٣).

٨٣- ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾ بعد أن بيّن تعالى في الآية السابقة أن من واجب الأمم الإيمان بالنبيّ ﷺ، أتبع في هذه الآية استفهاماً على سبيل الإنكار، بمعنى أنّ كل من لم يتّبع النبي يكون على غير دين الله، ومغزى ذلك واضح لأن الوحي الإلهي بمجمله اكتمل وختم بالبعثة الإسلامية ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ انقاد لله مستسلماً مذعناً ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ لأنّ الجميع خاضع للسنن الكونية التي لا يمكن الانفلات منها، بمن فيهم الكفار ينقادون خاضعين للموت وللمرض وللقضاء والقدر مما لا يستطيعون دفعه ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ فيحاسبهم تعالى بأعمالهم.

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٨٤).

٨٤- ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ وهو القرآن الكريم بالدرجة الأولى، لأنّه المقياس الوحيد الذي على ضوئه يمكن تمحيص سائر الكتب المنزلة الأخرى التي سيرد ذكرها، ومعرفة الصحيح من الخطأ فيها بعدما بدّل فيها أصحابُها وأدخلوا عليها ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ نُقرّ أنهم كانوا على دين واحد تمّم بعضه بعضاً، وأن مصدر الدين واحد وهو الوحي الإلهي، انظر آيات [البقرة: ١٣٦/٢] و [المائدة: ١٥٠/٤] ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ مسلمون أمرنا لله، ومستسلمون لأمره الذي نزل وحياً على جميع أنبيائه، ومؤمنون بخاتم الرسالات التي اكتملت بها الأديان السابقة، انظر آية [المائدة: ٣/٥] في إكمال الدين.

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٨٥).

٨٥- ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ لأنّ الإسلام ليس مجرّد ملّة أو نحلة أو مذهب، وإنّما هو التوحيد والاستسلام لله والإيمان بكل الوحي الذي نزل على الأنبياء على النحو المذكور في الآيات السابقة، فالدين عند الله واحد ، والحقيقة التي جاء بها الأنبياء واحدة متكاملة، فلا يصح التسليم بقسم منها وإنكار بعضها الآخر، كما أنّ الأنبياء بهذا المعنى مسلمون جميعاً ﴿وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ لأنّه رفض استيعاب الحقيقة أو تعامى عنها.

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٦).

٨٦- ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ وهم اليهود والنصارى والمعنى أن الله تعالى لن يجبرهم على الإيمان قسراً، لأن كلمته سبقت بأن أعطى

بني آدم حرية الخيار، انظر آية [الشعراء: ٤/٢٦]، ﴿وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ بعد إيمانهم بالرسل أنكروا بعثة محمد ﷺ مكابرةً وعناداً، رغم أنهم شهداء على ما ورد في كتبهم من البشارات بقدومه، وبعد أن ظهرت لهم الدلائل البيّنة على بعثته، انظر أيضاً الآيات (٧٠ و ٨١) أعلاه ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ لا يجبرهم على الهداية، والظلم بمعنى العدول عن الطريق الصحيح، وقد مضت سنته تعالى بأنّ الظالم لنفسه لايهتدي إلى الحقيقة.

﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٧).

٨٧- ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ﴾ لعنة الله هي الإقصاء والبعد ﴿وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ لعنة الملائكة والناس هي دعاؤهم على الكافرين، والمقصود بالناس المؤمنون منهم في الحياة الدنيا، ثمّ في الآخرة يلعن الكفار بعضُهم بعضاً لقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف ٣٨/٧].

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ (٨٨).

٨٨- ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي في اللعنة ﴿لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ فما تكيّفت به نفوسهم الظالمة لا يفارقهم ﴿وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أي لا يُمهَلون، والإنظار والإمهال بالمعنى نفسه.

﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٨٩).

٨٩- ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أصلحوا أي قاموا بصالح الأعمال، أو أصلحوا نفوسهم بالأعمال الصالحة، وقد عطَف تعالى العمل الصالح على التوبة لأنّ التوبة لا قيمة لها إن لم يكن لها أثر في العمل.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ (٩٠).

٩٠- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ كفروا ببعثة محمد ﷺ بعد أن آمنوا بمن قبله من الرسل ﴿ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾ بمقاومة الحق، والإمعان في الكيد للمسلمين ومحاربتهم، والتشكيك بالإسلام، حتى تمكّن الكفر منهم لكثرة ما عملوا بمقتضاه ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ عند الموت أو في الآخرة، بدليل الآية التالية ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ راسخون في الضلال.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (٩١).

٩١- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ كفروا ببعثة خاتم الأنبياء والرسل، وماتوا على الكفر بلا توبة ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا﴾ المعنى لو كان قد تصدّق به في الدنيا فلن يقبل منه في الآخرة، لأنّ الكفر أحبط عمله ﴿وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾ لا وسيلة للافتداء في الآخرة، أي لن تقبل معاذيرهم ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ لأنهم تعمّدوا إنكار الحقّ.

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٩٢).

٩٢- ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ البرّ هو الإيمان الصادق، ويقال برّ الرجل يمينه أي صدق بها، أنظر آية [المطففين: ٢٢/٨٣]، والخطاب استمرار لما قبله، فبعد أن أخبر تعالى أنّ إنفاق الكفار على أعمال الخير مهما بلغ في الدنيا لن يجدبهم شيئاً في الآخرة، فبالمقابل تخبر هذه الآية أن إنفاق المؤمنين مما يحبون هو الكفيل بنيلهم البر، فالإنفاق يصدّق الإيمان.

والإنفاق لا يقتصر على المال إذ يمكن أن يشمل بذل الجهد والطاقة والمركز والسمعة والنفوذ والتعليم وتكريس النفس للعمل في سبيل الله، والمعنى أنّ غاية ما يمكن أن يتوصّل إليه المؤمن، بعد أن يقوم بجميع أركان الإسلام، هو الإنفاق مما يحب فلا يكون صادق الإيمان حتّى يتوصّل إلى هذه الخصلة، انظر آية [البقرة ١٧٧/٢].

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ فيجازيكم به.

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٩٣).

٩٣- وهنا تعود السورة للحديث عن بني إسرائيل موضوع الآيات (٢١-٢٧) والآيات (٦٤-٨٣)، وإذ لم يجد أحبار اليهود مبررات جوهرية للطعن في بعثة محمد ﷺ من حيث جدارتها وسموّها، فتوجّهوا للاعتراض على التفاصيل والشكليات، فقد زعموا أنّ النبي ﷺ قد حلّل أطعمة كانت محرّمة عندهم،

قال تعالى: ﴿قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥/٦]، أي كل شيء عدا هذه الأصناف الأربعة فهو حلال.

وقد أجابهم تعالى على دعواهم تحريم ما لم يحرّمه الله بقوله جلّ ثناؤه: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ إسرائيل هو يعقوب ابن اسحاق ابن إبراهيم عليهم السلام، وما حرّمه إسرائيل على نفسه من الطعام قد يكون من قبيل الاجتهاد أو الذوق الشخصي أو لسبب مَرَضي، ويحتمل أنّ مَن بعده ألزموا أنفسهم بذلك فتكون النتيجة هي ما حرّمه بنو إسرائيل على أنفسهم بحكم العادات والتقليد ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾ لأنّ التوراة نزلت على موسى بعد زمن يعقوب بحوالي سبع مئة عام ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي هاتوا التوراة الأصلية التي نزلت على موسى، فليست العبرة بالكتب المشتملة على البدع ممّا كتبه أحباركم.

وقد ورد هذا الموضوع أيضا بقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦/٦]، والذي يبدو من سياق هذه الآية أن التحريم المذكور في كتب اليهود

فرضه الأحبار لأنهم كانوا ذوي نفوذ كبير على العوام حتى اتّخذوا لأنفسهم حق التشريع والتحليل والتحريم، قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١/٩]، فاليهود كانوا يعتمدون أقوال الأحبار والرهبان من أحكام التحريم والتحليل ولو كان في أصل الكتاب ما يخالفها، حتى صارت عندهم بمنزلة الوحي، ولذا كانت عقوبته تعالى لهم، وهي معنى قوله ﴿جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾، والجزاء من سنن الله في خلقه، بأنه من يسلك طريق الضلال يقع في عاقبة عمله، وبما أنه تعالى قد سنّ قوانين الطبيعة بأكملها فهو ينسب التحريم وما يترتب عليه من معاناة إلى ذاته العليّة، أما قوله تعالى في سورة النساء ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠/٤]، فالدليل من سياق الآيات أن تحريم الطيبات لم يكن في أصل التوراة وإنما أحدثوه بعد محاولتهم قتل المسيح عليه السلام، وقد جاء المسيح ليحلّ لهم بعض ما حرّموه على أنفسهم، قال تعالى على لسان عيسى عليه السلام مخاطباً بني إسرائيل: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠/٣]، وقد ذكر محمد أسد أيضاً أن تحريم الطيبات عليهم ليس مقتصراً على الطعام وإنما هو كناية عن وقوعهم تحت قهر الأمم وتشريدهم في الأرض بعد أن صدّوا عن سبيل الله كثيراً وقتلوا يحيى وتآمروا على قتل عيسى المسيح عليهما السلام، ثم تآمروا أيضاً على قتل النبي ﷺ.

﴿فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٩٤).

٩٤- ﴿فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي بعد نزول التوراة ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ادّعى اليهود أنّ ما ابتكروه من تحريم بعض الأطعمة ليس إلاّ قانوناً سماوياً أزلياً، ولكنه في حقيقته لم يكن سوى افتراء الكذب على الله، والمفترون عادة ينهمكون في الجزئيات وصغائر الأمور والتفاصيل والتفاهات والشكليات، إما ليصرفوا الناس عن دينهم، وإما لغايات شخصية في نفوسهم،

وإما عن جهل وضيق أفق ومحدودية تفكير، فأولئك هم الظالمون، لأنهم نسوا أو تناسوا روح الدين وجوهره ومقاصده الحقيقية.

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٩٥).

٩٥- ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ أي صدق الله وحده فيما كتبه على البشر من المحرّمات وكذبتم ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ التي مال بها عن سبل الضلال وأقام على حقيقة الدين بلا شوائب ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فلم يتخذ أرباباً من دون الله يحلّلون ويحرّمون حسب أهوائهم.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (٩٦).

٩٦- زعم اليهود أيضاً بطلان انتقال القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، واتّخذوا ذلك حجّة لإنكار نبوة محمد ﷺ فقالوا ما باله قد حوّل القبلة إلى الكعبة؟ وهو يزعم أنّه جاء مصدّقاً لما قبله من الرسل، فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ والمعروف أنّ بناء الكعبة في مكة على يد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ثمّ قبل بناء المسجد الأقصى الذي بناه سليمان في بيت المقدس بأكثر من ألف عام، فلا جدال في أقدمية الكعبة على بيت المقدس، والنقطة الثانية أن توجّه المسلمين نحو قبلتهم في الكعبة لا يمكن اعتباره خرقاً لملّة ابراهيم عليه السلام، بل على العكس فهو استمرارية لها، وبما أن كتب اليهود والنصارى تقرّ ملّة إبراهيم فليس هنالك من معنى لاعتراضهم، انظر شرح آيات [البقرة ١٤٢/٢-١٤٤]، أمّا لفظي بكّة ومكّة فهما مترادفان، وكانت العرب تلفظ حرفي الباء والميم أحدهما مكان الآخر.

﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (٩٧).

٩٧- ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ ومنها الكعبة المشرفة التي ترمز إلى التوحيد، وإلى استمرارية الوحي الإلهي منذ بدء الخليقة باعتبارها أول بيت وضع للناس، كما

ترمز إلى الأخوّة بين المؤمنين باعتبارهم يتجهون إليها جميعاً في الصلاة أينما كانوا ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ ومن ضمنها أيضاً مقام إبراهيم أي مكان قيامه للصلاة والعبادة ، وقيل الحرم بكامله مقام إبراهيم ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ وهذا أيضا من جملة الدلائل، فالأمن فيه معنوي ومادّي، من يدخله يشعر بالطمأنينة والسكينة، كما أنّ منطقة الحرم وما حولها تمتعت بالأمن حتى في أيام الجاهلية وفي الوقت الذي كانت فيه باقي الجزيرة العربية تعاني من الفوضى والاضطراب والاقتتال بين القبائل، وكان الفرد في الجاهلية يرى خصمه اللدود في الحرم فيتركه بسلام، كما كانت الجزيرة العربية بأكملها تتمتع بالأمن سنوياً خلال أربعة شهور حُرُم لا يجرؤ أحد على خرقها، ومن الدلائل التي شهدها العرب أيضاً هزيمة أبرهة الأشرم عام الفيل حين جاء ليهدم الكعبة فانقلب مهزوماً دون قتال ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ وهذا دليل آخر في معرض تعظيم البيت وَرَد بصيغة الفرض، فالعرب ما زالوا يحجّون إليه من زمن إبراهيم عليه السلام فذلك دليل متواتر على نسبة البيت إليه، وهو ردّ على اليهود، وبرهان أن النبي على ملّة إبراهيم ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ﴾ مَن كفر بأن هذا البيت أول بيت وضعه إبراهيم للعبادة، رغم كل هذه الدلائل، و لم يذعن لما فرضه تعالى من الحج، فعاقبة الكفر تعود عليه، لأنّ الله تعالى غنيّ عن عباده.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٨).

٩٨- بعد أن أزال تعالى شبهات أهل الكتاب فيما ادّعوه من حرمة بعض الأطعمة، واتجاه القبلة، خاطبهم بقوله ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ مع علمكم بأنّها صحيحة ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ فكيف تجرؤون على ذلك؟

﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٩).

٩٩- ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ﴾ كانوا وما زالوا يحاولون صدّ ضعاف العقول عن الإسلام بشتى الافتراءات، والبعثات التنصيرية التي يبثونها اليوم في بلاد المسلمين في آسية وإفريقية خير شاهد على ذلك ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ يريدون ادخال الشبهات على الإسلام بمحاولة اظهاره معوجّاً عن الحق ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾ على صحة ما أوتيه النبي ﷺ وبشهادة كتبكم، انظر شرح الآية (٨١) ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ (١٠٠).

١٠٠- بعد أن عاب تعالى على أهل الكتاب كفرهم بآياته، بل سعيهم في حثّ الآخرين على الكفر بالصدّ عن الإسلام، انتقل تعالى إلى مخاطبة المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ المصرّون على الكفر والعدوان من اليهود والمسيحية يريدون بكم السوء، فإن استجبتم لهم وأطعتموهم باتباع أهوائهم وأهوائكم، أوقعوا بينكم الفتنة والعداوة والاقتتال، فتصبحوا بذلك كافرين.

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٠١).

١٠١- ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ بأن تطيعوهم ﴿وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ﴾ عندكم القرآن فيه هدايتكم ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ وعندكم سنّة رسول الله ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ﴾ بكتاب الله، والاعتصام بالشيء هو التمسّك به لمنع الوقوع في مصيبة، والمقصود حث المسلمين على الوحدة والتمسك بهدي القرآن بعد تحذيرهم في الآية السابقة من طاعة أهل الكتاب ﴿فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي إلى الطريق الصحيح، وقد استخدم الفعل الماضي في جواب الشرط لتأكيد تحقق الهدى لمن يعتصم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٠٢).

١٠٢- ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ بتنفيذ ما ورد في الآيتين (١٠٠-١٠١)، قال الزمخشري: إنّ المعنى بالغوا في التقوى حتى لا تتركوا من المستطاع منها شيئاً، ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦/٦٤]، غير أنّ بعضهم حملَ معنى الآية على التوحيد، لأنه الحد الفاصل بين الكفر والإيمان، فمَن لا يؤمن بوحدانية الله لا تُقبل أعماله، والتوحيد عمل يستطيع كل مكلف القيام به على تمامه ﴿وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أقيموا على الإسلام وأعماله على الدوام ولا تضلوا عنه حتى إذا أتاكم الموت بغتة كنتم عليه، فإذا عاش المرء على التقوى واليقين مات عليهما.

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٠٣).

١٠٣- ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ روى الدارمي عن النبي ﷺ أنه قال: «اعتصموا بحبل الله فإنّ حبل الله القرآن»، وهو تشبيه لحالة المسلمين إذا تعاضدوا وتكاتفوا على التمسك بهدي القرآن وحده دون غيره ﴿وَلا تَفَرَّقُوا﴾ لا تتفرقوا باتباع المذاهب والعقائد الوضعية، ولا تتفرقوا بإحداث الشيع والفرق الدينية ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ الإشارة إلى ما كان عليه العرب في الجاهلية من العداوة والحروب وسفك الدماء فيما بينهم فأصبحوا بنعمة الإسلام إخواناً، كما هي إشارة إلى عداوة الناس بعضهم لبعض بقوله ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦/٢]. ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ كناية عن العذاب الختمي الذي ينتج عن الجهل الروحاني ﴿فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ كنتم في جاهليتكم ووثنيتكم وشرككم بالله تعالى على حافة الهلاك من جحيم الاقتتال فيما بينكم، وبعد

ذلك تلقون عذاب الآخرة ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ المطلوب أن تفكّروا في المعجزة القرآنية كيف أنقذكم بها تعالى من العصبية الجاهلية والبغضاء والحروب الأهلية والموت على الجهالة وعذاب الدنيا والآخرة فلعلكم تتمسكون بنعمة الإسلام وتهتدون إلى طريق النجاة.

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٤).

١٠٤- ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أُمَّةٌ﴾ جماعة تكون أهلاً لذلك ﴿يَدْعُونَ إِلَى﴾ عمل ﴿الْخَيْرِ﴾ وهو كل ما فيه صلاح للناس دينياً ودنيوياً، والخير أيضاً بمعناه العام هو الإسلام، ودعوة الغير إلى الإسلام والتبشير به في كافة أنحاء الأرض مطلوبة من كل مسلم، ويرى البعض أن كلمة ﴿مِنْكُمْ﴾ تعني بعض المسلمين فقط وهم العلماء والمتفقهين في الدين، وبذلك تكون الدعوة فرض كفاية، غير أنه يُفترض أن يكون كل مسلم عالماً بأمور دينه وبالقرآن والسنة، ولا يُعتبر جهل المسلم عذراً، لأن عليه أن يتدارك جهله بالعلم، وإن لم يصل إلى درجة العلماء والمتفقهين في الدين، إلا أن يكون من العوام، وفي جميع الأحوال لا يصحّ أن يتصدى للدعوة إلا من كان أهلاً لها ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وذلك بحكم كون المسلمين أمةً وسطاً وشهداء على الناس [البقرة: ١٤٣/٢] فهم قدوة حسنة للآخرين، كما هم قدوة بعضهم لبعض في سلوكهم ومعاملاتهم، فالمطلوب من الأمة أن تكون قدوة حسنة للناس أجمعين في أعمالها وسلوكها فتحقق العقيدة الإسلامية قولاً وعملاً بممارسات حياتية فعلية تكون في ذاتها دعوة عملية للناس إلى الإسلام، وتكون حياة المسلمين شهادة فعلية لبيان الصواب من الخطأ، وليس بالمحابهة، ولا بالكلام فقط ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ لأنهم ينجحون في الدنيا والآخرة، وإذا تخلّوا عن ذلك كانت الأمة من الخاسرين في الدنيا قبل الآخرة.

أما قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥/٥]، فمعناه لا يكن قصارى همّكم تقصّي عيوب الآخرين، بل انظروا في إصلاح أنفسكم أوّلاً، وأيضاً لا يضرّكم ضلال الآخرين بعد أن قمتم بواجبكم بدعوتهم إلى الإسلام، لأن الحساب على الله.

﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٠٥).

١٠٥- ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ﴾ نور ﴿الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ الإشارة لليهود والنصارى لكونهم ابتعدوا عن أصل الوحي وابتكروا في الدين من المذاهب والعقائد الوضعية ما لم يكن فيه، وأيضاً الذين غاب عن تفكيرهم جوهر الدين وتفرقوا شيعاً وفرقاً دينية بسبب تعلقهم بالشكليات والأمور السطحية والمصالح الخاصة، والآية تحذير للمؤمنين ألاّ يكونوا مثلهم.

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (١٠٦).

١٠٦- ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ استمرار الخطاب من الآية السابقة، والمعنى: أولئك لهم عذاب عظيم يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه، وابيضاض الوجوه كناية عن السرور، واسوداد الوجوه كناية عن شدّة الحزن والغم ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ يُقال للذين اسودّت وجوههم: أكفرتم بعد إيمانكم؟ بعد أن فطركم الله على الإيمان، أو بعد أن جاءتكم الرسل بالآيات البيّنات وعرفتموها وآمنتم بها، فكيف كفرتم بعد ذلك بأن حرفتم الدين عن مقاصده الصحيحة؟ وارتددتم وتركتموه وراء ظهوركم، وذلك ينطبق على كفّار أهل الكتاب وغيرهم ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فكأنهم اختاروا العذاب لأنفسهم كونه نتيجة طبيعية لسوء اختيارهم في الحياة الدنيا.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١٠٧).

١٠٧- ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ بما قدّموه من الإيمان والعمل الصالح ﴿ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٨).

١٠٨- ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ المشتملة على المواعظ والعبر والدالّة على الصراط المستقيم ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ متضمنة الحق، لبيان حقيقة الحياة والخلق والعواقب ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ الله تعالى قد بيّن الحقيقة لعباده فمن ضلّ عن الطريق الصحيح يكون ظالماً لنفسه.

وذلك شبيه بقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١/٦] أي أنّ تعالى لا يهلك المجتمعات بظلم وضلال منها، ما لم تكن الرسالة السماوية قد وصلتها أوّلاً، فعرفت بها الصواب من الخطأ.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ (١٠٩).

١٠٩- ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ المعنى أنه تعالى قادر على منع الظلم والضلال في هذه الدنيا بالجبر والقهر ولكنه ترك لعباده أن يختاروا الهداية ويتركوا المعصية طواعيةً ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ فهو المحيط بالحكمة من كل شيء، والمتصرف بشؤون خلقه وتدبيرهم، وإليه يرجعون فيحاسبهم على ما عملوا.

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١١٠).

١١٠- ﴿كُنْتُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ أي خير أمة أُخرجت لأجل الناس ومنفعتهم، لأنّ الإرادة الإلهية اقتضت أن يكون الإسلام خاتمةً للأديان السابقة، وإكمالاً لها ديناً عالمياً غير عنصري، لكل البشر على اختلاف أجناسهم وألوانهم بلا تمييز، فلم يعد هنالك حاجة لبعث المزيد من

الأنبياء والرسل إلى البشر، ومن معجزات الوحي الإلهي أنه نزل عبر العرب رسالة صالحة لكافة الأمم الأخرى في كافة العصور، وعليه لا يكفي المسلم أن يتعلم ما فهمه أسلافنا المسلمون من القرآن والسنة في وقتهم، بل من الواجب تكييف هذا الفهم وتطويره بما يوافق متطلبات العصر الذي نعيشه حتى يمكن نقل الرسالة الإسلامية إلى الغير عبر سلوكنا الفعلي الظاهر وممارساتنا الحياتية العملية اليومية، ولكي يكون الإسلام تطبيقا ممكناً وليس نظرية في الكتب وكلاماً، وأي شيء أقل من ذلك يعد تجاهلاً بل إنكاراً لعالمية الإسلام وإمكانية تطبيقه في كل الأوقات ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ﴾ وهو سير الخيرية المذكورة آنفاً، ولا يكون ذلك بمجرد الأمر والنهي باللسان، وإنما يقتضي أن يكون المسلمون قدوة حسنة لغيرهم حتى يكون أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر نابعاً من ممارسة حياتية صحيحة وصادقة ومطابقاً لها، وخلافاً لذلك تكون النتيجة إنكاراً لعالمية الوحي القرآني وابتعاداً عنها ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ لا تشركون بعبادته أحداً ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ بمثل ما آمنتم به أي بدعوتكم لهم إلى المعروف ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ لأن الإسلام جاء لخير البشرية جمعاء ﴿مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ﴾ القلة منهم تُحكّم العقل والتفكير الموضوعي فتدخل الإسلام، قال تعالى: ﴿لَكِنْ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [النساء: ٤/١٦٢]، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ الْفَاسِقُونَ﴾ الأكثرية منهم فسقوا عن حقيقة دينهم و لم يبقَ عندهم من الدين سوى المراسم والتقليد، والتعصب للآباء والأجداد، وقد سيطر عليهم التحامل والهوى والغرور والاعتداد بالذات، وهيمنت عليهم المصالح الدنيوية والزعامات والمراكز.

﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمْ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ﴾ (١١١).

١١١- فالمصرّون على الفسق منهم لن يضرّوكم: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ﴾ أي بكفرهم وتكذيبهم ﴿إِلاَّ أَذًى﴾ أي أذى تسمعونه منهم كالطعن في الدين والذم

والقدح والافتراء والتهديد، وهو ما يسمعه المسلمون منهم حتى اليوم ﴿وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ﴾ وهذه بشارة بالغيب تحققت بهزيمة يهود قريظة والنضير وبني قينقاع وخيبر وغيرهم ﴿ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ﴾ وهي أيضاً بشارة مطلقة بالغيب ومرتبطة بالآية السابقة، أي ما دمتم خير أمة أخرجت للناس، بحرصكم أن تكونوا قدوة مثلى للبشر في طريقة حياتكم ومعيشتكم حسب تعاليم القرآن، فإن قاتلوكم لا يُنصرون ويكون النصر محققاً لكم، وهو شبيه بقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٤٧/٧].

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (١١٢).

١١٢- ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ استمرار الخطاب عن الفاسقين من أهل الكتاب، والإشارة خاصة إلى بني إسرائيل بدليل ما سيأتي من قتلهم الأنبياء ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوا﴾ أينما وُجدوا ﴿إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي بعهد من الله وهو أن يكونوا مؤمنين بالله رب العالمين مع التخلي عن عنصريتهم وتعصبهم واعتقادهم أنهم فوق البشر، وأنّهم ما زالوا الشعب المختار مع أن هذه الصفة الأخيرة زالت عنهم بعد أن كفروا بآخر أنبيائهم عيسى عليه السلام ﴿وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ يلاحظ أنه في كل العصور والبلدان التي عاش فيها اليهود بسلام وأمان، رغم عنصريتهم ، كان ذلك ناتجاً عن تسامح وحسن نية الشعوب التي استضافتهم وليس لقوة ذاتية فيهم، وقد عاشوا بأمان في كنف الدولة الإسلامية على مر العهود الأموية والعباسية والعثمانية وفي الأندلس وغيرها، وفي كنف غير المسلمين أحياناً، وإن كانت نشأت لهم دولة مستقلة مؤخراً فبقوّة غيرهم من الأمم التي تدعمهم وليس بقوتهم الذاتية ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ المسكنة هي السكون الناتج عن الضعف والحاجة، وهو ما

يتظاهر به اليهود دوماً استدراراً لعطف الأمم ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي ذلك الذي تقدم من ضرب الذلة والمسكنة عليهم سببه كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء انظر شرح الآية (٢١) من هذه السورة، والآية (٦١) من سورة البقرة ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ تجرّؤوا على الكفر وقتل الأنبياء بسبب إصرارهم على المعاصي وتعديهم على حدود الشرع، حتى صار ذلك خلقاً لهم وطبعاً يتوارثونه.

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ (١١٣).

١١٣- ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ ليس أهل الكتاب متساوين فيما ذكرته الآية عنهم من الأوصاف والأعمال القبيحة ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ منهم جماعة ثابتة على التمسك بحقيقة الدين، ولذلك دخلوا الإسلام ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ يدعون ربّهم ويقرّون بوحدانيته،

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١١٤).

١١٤- ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ وهم الجماعة المشار إليها بالآية السابقة ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي بالتوحيد ونبوّة محمد ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أي عن الشرك، وهم ذوو التفكير الموضوعي والعقول النيّرة، بعيدون عن التعصب الأعمى ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ يبادرون إلى أعمال الخير قبل فوات الأوان ﴿وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ (١١٥).

١١٥- ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ مما هو مذكور أعلاه ﴿فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ لن يحرموا ثوابه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ فيثيبهم بحسب أعمالهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١١٦).

١١٦- بعد أن ذكر تعالى الصالحين من أهل الكتاب وأنهم لن يُحرموا ثواب ما يعملون من خيرات أتبعه في هذه الآية بذكر عاقبة المصرّين منهم على الكفر فقال عزّ من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ لن تفيدهم شيئاً ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لأن طبيعة نفوسهم اقتضت أن يكونوا بهذه المنزلة.

﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١١٧).

١١٧- ﴿مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ الصرّ هو الصقيع، والحرث هو الزرع، وقد ضرب تعالى مثلاً بالريح ذات الصقيع التي تهلك الزرع-والمعروف أن هبوب الريح في الأوقات الباردة يسبب المزيد من الصقيع-، فالريح هي المال الذي ينذّره الكافرون على الدنيا وعلى الجاه والضلال، والصقيع بمثابة الكفر الذي يهلك العقل والفكر السليم، أي إن الغنى وتكاثر الأموال والأنفس أصاب عقولهم بالشمالة، فكما أن الريح مع الصقيع تهلك الزرع فكذلك الإنفاق مع الكفر يهلك العقل السليم والفكر الصحيح، لأنه يصرف العقول عن الحقيقة وعن التفكر في عواقب الأمور ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ لأن كثرة الأموال والنسل لم تفد الكفار شيئاً سوى الضلال وفساد العقل، وقد ظلموا أنفسهم باختيار الكفر.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١١٨).

١١٨- بعد أن ذكر تعالى في الآية السابقة أن بذخ الكفار ذهب بمقدرتهم على التفكير السليم، حذّر المؤمنين أن يتخّذوهم بطانة لهم ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً﴾ بطانة المرء هم الذين يخصّهم بمزيد من التقريب ويشاورهم في خصوصياته فيعرفون بواطن أموره ويدخلون فيها وشُبّهوا ببطانة الثوب لقربها من البدن ﴿مِنْ دُونِكُمْ﴾ أي من الذين عرفتم فيهم الكراهية والغش للإسلام والمسلمين مما هو ظاهر من أفعالهم وأقوالهم، بدليل تتمة الآية ﴿لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً﴾ الخبال هو الفساد، والمعنى لا يقصّرون ولا يدعون أي جهد في إفسادكم ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ العنت هو المشقة وشدة الضرر وهو ما يودّونه للمسلمين ﴿قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ يصرّحون ببغضكم علناً، أو يظهر ذلك في كلامهم ضمنياً ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ ما تخفي صدورهم من بغضكم أكبر مما يبدونه بأقوالهم (قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الآيَاتِ) بيّنا لكم العلامات، ومن يصحّ أن يُتخذ بطانة ومن لا يصح ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ إن كنتم مدركين لمصالحكم، وفي ذلك عودة لموضوع الآية (٢٨) والآية (١٠٠).

غير أن هذه الآية لا تقتضي منع مصاحبة الكفار إطلاقاً لقوله تعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٦٠/٨-٩]، ولو قيل كيف الجمع بينهما؟ فالجواب أن الخاص مقدّم على العام، أي إن الحالة الخاصة مقدّمة على المبدأ العام.

﴿هَاأَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمْ الأَنَامِلَ مِنْ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (١١٩).

١١٩- ﴿هَاأَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ﴾ وهو دليل على أثر الإسلام في نفوس المسلمين لأن الإسلام دين رحمة وتسامح وتساهل ﴿وَلا يُحِبُّونَكُمْ﴾ بل

يبغضونكم ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ الكتاب اسم جنس للوحي الإلهي بكامله، أي تؤمنون بكل الكتب وهم لا يؤمنون بالقرآن ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ بالله مثلما تؤمنون ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ هُم في غاية الغيظ بسبب إسلامكم ويتحسّبون من اجتماع كلمة المسلمين واشتداد شوكتهم ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ بمعنى الدعاء عليهم بحصول زيادة ما يغيظهم من عز الإسلام وقوة المسلمين ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ لا يخفى عليه ما تسرّونه في خلواتكم.

﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (١٢٠).

١٢٠- ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ مجرّد مسّ الحسنة لكم مهما كانت قليلة تسوهم، والحسنة هي المنفعة قد تكون مادية أو تكون معنوية كانتشار الإسلام ﴿وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ يفرحوا بتمام إصابتكم بالسيئة ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أمر تعالى المؤمنين الاستعانة على كيد العدوّ بالصبر والتقوى، ولم يأمرهم بمقابلة السيئة بمثلها، وذلك شبيه بقوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤/٤١] ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أحاطت قدرته بكيد الكافرين، وهو كافٍ عباده الصابرين على المصاعب في طاعته، والمتقين ما نهى عنه.

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٢١).

١٢١- هذه الآية وإن كانت بداية لخطاب جديد نزل بعد وقعة أُحُد فهنالك وجه اتصال بما قبلها، وهو أنه تعالى بعد أن نهى المؤمنين عن اتخاذ بطانة لهم من أعدائهم، وأنّ المؤمنين إن يصبروا ويتقوا لا يضرهم كيد عدوّهم شيئاً، ضرب تعالى مثلاً بأحداث وقعة أُحُد، والمعنى أن المؤمنين إن لم يصبروا ولم يتقوا يحلّ بهم ما حل بالمسلمين في أُحُد، إذ غدا النبي ﷺ يسوّىء المؤمنين مقاعد للقتال:

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾ أيها النبي ﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾ بالمدينة، وذلك بعد أن نزل المشركون في أُحُد يوم الأربعاء ١٢ شوال من السنة الثالثة للهجرة في ثلاثة آلاف رجل من مقاتليهم، من ضمنهم مائتي فارس، يريدون الانتقام لهزيمتهم في بدر بالعام الفائت، فكان رأي النبي ﷺ أن يتحصن وأصحابه في المدينة فيدافعوا عنها، اتباعاً منه ﷺ لقاعدة ارتكاب أخف الضررين، وأبعدهما عن العدوان، ورحمةً بالناس، وإيثاراً للسلام، خاصة لتفوق قوة المشركين في الفرسان والعدد، فقد كانت حروبه ﷺ كلها دفاعية، واستشار ﷺ أصحابه في ذلك فوافقه جمع من أكابر المهاجرين والأنصار وعبد الله بن أبيّ بن سلول، ولكن أكثر الناس ممن فاتتهم وقعة بدر وغيرهم رأوا الخروج إلى المشركين وقتالهم في أُحُد، وألحّوا على النبي ﷺ في ذلك حتى وافقهم على مضض فدخل منزله ولبس لأمته-وهي الدرع- بعد صلاة الجمعة، وكان قد أوصاهم في الخطبة، ووعدهم أن النصر لهم ما صبروا، ثم خرج عليهم فرآهم وقد ندم بعضهم، وقالوا: لعلّنا استكرهنا رسول الله ﷺ على الخروج، فقالوا له: إن شئت أن نمكث، فقال: ما كان لنبيٍّ إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل، أي لما في فسخ العزيمة بعد إحكامها من الضعف، وبداية الفشل، وسوء الأسوة، وكان النبي ﷺ قد عمل برأي الجمهور من أصحابه تثبيتاً لقاعدة الشورى المذكورة بقوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى ٣٨/٤٢]، ثم إنه خرج بهم بعد صلاة الجمعة، وأصبح في الوادي بأُحد يوم السبت منتصف شوال ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ التبوئة هي اتخاذ الموضع، والمعنى أنه ﷺ كان يحدد للمؤمنين أماكنهم للمعركة، ويهيىء صفوفهم، بحيث جعل ظهورهم لجبل أُحُد، ووضع الرماة خلفهم على المرتفع، وقال لهم: «لا تبرحوا مكانكم إن رأيتمونا قد هزمناهم، فإنّا لن نزل غالبين ما ثبتّم مكانكم»، وأمّر عليهم عبد الله بن جبير ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع لدعائكم وعليم بنيّاتكم.

﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١٢٢).

١٢٢- ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ والطائفتان كلاهما من الأنصار، وهم بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس، وقد خرج الرسول ﷺ من المدينة في ألف من أصحابه وقيل في تسع مئة وخمسين، فانخذل عنه في الطريق عبد الله بن أبيّ بثلث الجيش، فهمّت الطائفتان المذكورتان بالرجوع، وحدّثوا أنفسهم بذلك جبناً منهم، من غير شك في الإسلام ولا نفاق ولكن لِما أصابهم من الهلع بعد انصراف عبد الله ابن أبيّ بمن معه، فثبّتهم تعالى وعصمهم من الفشل فمضوا مع النبيّ ﷺ ﴿أَنْ تَفْشَلَا﴾ الفشل هنا بمعنى التخاذل والجبن من لقاء العدو ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ أي هو ناصرهما ومتولّي أمرهما، فما لهما تهمّان بالفشل ولا تتوكلان على الله؟ ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ مَن كان به ضعف من المؤمنين أو خوف فليتوكل على الله، وذلك بعد أن يتخذ كل أسباب النجاح في الاستعداد والتأهب والحيطة تطبيقاً لسنن الله في خلقه إذ جعل الأسباب مؤدية إلى النتائج، وروي أن النبي ﷺ كان يقول وقت بدء القتال: «اللهم بك أحول وبك أصول وفيك أقاتل، حسبي الله ونعم الوكيل»،

وقد رأى المهندس عدنان الرفاعي أن هنالك تفسيراً مطلقاً للآيات (١٢١-١٢٦) خارج إطار الزمان والمكان لمعركة أُحد، أنظر كتابه: (الحكمة المطلقة- نظرية قرآنية في إطلاق النص القرآني) صفحة ١٨٠.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٢٣).

١٢٣- ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ وهو تذكير للمؤمنين كيف نصرهم الله يوم بدر رغم حالهم يومئذ من قلة العدد والسلاح والمال والخيل إذ كان عددهم ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلاً ومعهم سبعون ناقة وفَرَسان، في حين كان المشركون حوالي ألف مقاتل يركبون سبع مئة ناقة ومئة فرس ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بطاعته والثبات مع رسوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فتكون تقواكم هي شكر ما أنعم عليكم بنصره.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾ (١٢٤).

١٢٤- ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾ عندما رأى المؤمنون أن عدد المشركين زهاء ثلاثة آلاف ومعهم مئتا فرس، وقد انخذل عنهم عبد الله بن أبيّ بثلث الناس فبقوا أقل من سبع مئة وفيهم خمسون فارساً فقط، فطمأنهم النبي ﷺ بهذا الوعد أن تنزل عليهم الملائكة بعدد جيش المشركين.

﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ (١٢٥) .

١٢٥- ﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ اشترط الصبر والتقوى كي يتم المدد الإلهي ﴿وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا﴾ أي إذا أتوكم المشركون على الفور ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ فإن تحققت هذه الشروط يأتيكم المدد الإلهي بخمسة آلاف من الملائكة مرسَلين، ويبدو أن عدد الملائكة وهو في وقعة بدر ألف، وفي أُحد الوعد بثلاثة آلاف، ثم خمسة آلاف كناية عن مقدرته تعالى على عون المؤمنين بلا حدود، فإن قيل كيف طمأنهم ثم لم يحصل المدد الإلهي بالملائكة؟ فالجواب أن النبي ﷺ قال ذلك مع اشتراط الصبر والتقوى، وتلك هي العبرة من القصة، وبالفعل فقد أمدّ تعالى المؤمنين بعونه حتى انهزم المشركون، وذلك واضح من الآية (١٥٣)، ثم عندما لم يصبروا ونزل الرماة من مراكزهم في الجبل واشتغلوا بالغنائم، ولم يتقوا، وخالفوا أمر الرسول ﷺ، ودبّت الفوضى في صفوفهم، انقلب النصر هزيمة، ولئلا يتكرر منهم مخالفة الرسول أراد تعالى أن يشاهدوا فعلياً أن نصرهم إنما يكون بطاعة الله ورسوله، وبتكاتفهم وانتظامهم وانضباطهم.

وقد اختلفوا في كيفية الإمداد بالملائكة، قال الرازي: هي بتثبيت قلوب المؤمنين والربط عليها، وفي تفسير المنار أن الملائكة أرواح تلابس النفوس فتمدّها بالإلهامات الصالحة التي تثبتها وتقوي عزيمتها.

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (١٢٦).

١٢٦- ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾ أي إن وعد الإمداد بالملائكة هو لتقوية قلوب المؤمنين كي يعزموا على الثبات (الزمخشري)، وضمير الغائب في ﴿جعله﴾ عائد لقول النبي ﷺ أي: ما جعل الله قول النبي (ألن يكفيكم) إلا بشرى لكم، لأن الآيتين السابقتين ليستا وعداً من الله تعالى وإنما هما إخبار عما قاله النبي ﷺ لأصحابه، وقد يكون ضمير الغائب عائداً لوعد الإمداد بالملائكة، فيكون المعنى: وما جعل الله وعد الإمداد بالملائكة إلا بشرى لكم ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ كل شيء بتقديره تعالى، فمن جهة لا يجب على المرء أن يكون متعجرفاً فيظن أن مصادره الدنيوية وحدها كافية بذاتها من دون توفيق من الله، ومن جهة ثانية عليه اتخاذ كافة الأسباب الدنيوية لتحقيق النجاح مع الإيمان والثقة بالعون والتوفيق الإلهي ﴿الْعَزِيزِ﴾ الغالب على أمره ﴿الْحَكِيمِ﴾ مصدر الحكمة بشكل مطلق، لأن التدبير الإلهي يفوق مقدرة الإنسان على الإحاطة به، فلا يدري المرء ما الحكمة في كثير من الأمور، ولا يعرف من الحكمة الإلهية إلا أقل القليل.

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ (١٢٧).

١٢٧- ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والكلام متعلق بما قبله أي الغرض من التوفيق الإلهي، وتثبيتكم بعون الملائكة، ليقطع طرفاً من الذين كفروا، ومعنى قطع الطرف إهلاك جماعة منهم، والإشارة إلى أنه تعالى لا يهلك جميع الكفار ولايستأصلهم، فهو يمهل الباقين منهم ويترك مجال التوبة مفتوحاً أمامهم

في الحياة الدنيا ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ يخزي جماعة أخرى منهم فلا يحققوا هدفهم، ويتوب على جماعة، ويعذب جماعة، كما سيرد في الآية التالية:

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١٢٨).

١٢٨- ﴿لَيْسَ لَكَ﴾ أيها النبي ﴿مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ بل الأمر كله لله ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ إن أسلموا ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ إن أصرّوا على الكفر ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ مستحقّون للعقاب، وجملة ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ معترضة بين الآية السابقة وتتمة هذه الآية، والمعنى: ليقطع طرفاً من الذين كفروا، أو يكبتهم فينقلبوا خائبين، أو يتوب عليهم، أو يعذبهم فإنهم ظالمون، ليس لك من الأمر شيء أيها النبي، إنما أنت عبد مبعوث لإنذارهم ومجاهدتهم، ولا يعرف العبد من أسرار الحكمة والخطة الإلهية إلا أقل القليل في أحسن الأحوال، فكل الأمور تسير وفق التدبير الإلهي المحكم، وقيل إن النبي ﷺ لما كُسرت سنّه وشُجّ رأسه وسال الدم على وجهه يوم أحد دعا على المشركين أو همّ بأن يدعو عليهم، فنزلت الآية.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٢٩).

١٢٩- ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ المعنى ليس لك أيها النبي من الأمر شيء، وإنما لله ما في السماوات وما في الأرض يحكم فيهما ما يشاء ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ غفور يستر ذنوب من أحب أن يستر عليه عيوبه، ورحيم في الإمهال وعدم تعجيل العقوبة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٣٠).

١٣٠- ورد في تفسير المنار شرح لترتيب الآيات كما يلي: بعد أن نهى تعالى المؤمنين عن اتخاذ بطانة لهم من اليهود وأمثالهم، وبيّن لهم كيف يتّقون شرور عدوّهم بالصبر وتقوى الله، وذكّرهم بما يدل على تحقق ذلك إيجاباً وسلباً

مما حدث في وقعتي بدر وأحد، نهاهم تعالى في هذه الآية عن شرّ آخر من شرور اليهود ومن اقتدى بهم من المشركين: وهو أكل الربا أضعافاً مضاعفة، فقال عزّ من قائل:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ وهذا أول ما نزل في تحريم الربا، ثمّ آيات [البقرة: ٢/٢٧٥-٢٨١] في الربا نزلت بعدها، بل كانت آخر آيات الأحكام نزولاً، والمراد من الربا أضعافاً مضاعفة: تضاعف أصل القرض مع مرور الزمن بسبب الربا الفاحش، وهو ما يحدث في عصرنا بتطبيق الربا المركّب على المدين، وكانوا يسمّونه في الجاهلية ربا النسيئة، وهو أنه إذا عجز المدين عن سداد دينه وقت حلول الأجل فلصاحب المال أن يوافق على تأخير السداد لعام أو أعوام قادمة مقابل تضعيف أصل القرض، وهكذا فقد يستهلك المقرض ما يفوق إمكانات المدين بكثير فيودي به إلى الدمار ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في المحتاجين، فلا تحمّلوهم ما يؤدي بهم إلى الخراب ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي تفلحون في دنياكم بالتراحم والتعاون والمحبة.

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (١٣١).

١٣١- ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ كونوا متّقين في أمر تحريم الربا فلا تأكلوه، ويلاحظ أن هذه الآية جعلت أكل الربا قريباً من الكفر.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١٣٢).

١٣٢- ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ تأكيد على وجوب الطاعة لله والرسول، بعدما حدث في وقعة أحد من مخالفة الرماة لأوامر الرسول ﷺ.

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٣٣).

١٣٣- ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي بادروا إلى أسباب المغفرة مثل التوبة عن الآثام كالربا، والإقبال على البر كالصدقات، والمسارعة إلى ذلك أي

قبل حضور الأجل حيث يفوت الأوان ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ كناية عن اتساعها بلا حدود ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الموصوفين في الآية التالية:

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٣٤).

١٣٤- ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ السرّاء من السرور والضرّاء من الضرر، والمعنى الذين ينفقون في حالة الرخاء واليسر، وفي حالة الضيق والشدة والعسر، وقد بدأ تعالى بذكر الإنفاق الذي هو نقيض الربا، وجعله أول صفة من صفات المتقين، لأن الإنفاق شاقّ على النفوس، وهو في نفس الوقت أنفع للبشر من سائر الصفات والأعمال، وإذا كان الإنفاق مطلوباً حتى من المعسرين لما فيه من تطهير النفوس من الخسة والرذائل، حتى جعله تعالى علامة التقوى المطلوبة لدخول الجنة، فكيف بحال الموسرين الذين يبخلون بأموالهم عن الخير ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ وهذه صفة ثانية من صفات المتقين وهي كظم الغيظ، أي كبحه حتى لا يظهر أثره على المرء لا بقول ولا بفعل، وذلك من مزايا الصبر والحلم، لأن من أجاب داعي الغيظ إلى الانتقام لا يقف عند حد الاعتدال ولا يكتفي بالحق بل يتجاوزه إلى البغي ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ وهي مرتبة في ضبط النفس وكرم المعاملة فوق مرتبة كظم الغيظ، فقد يكظم المرء غيظه ويبقى في قلبه الحقد والضغينة ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ وهي مرتبة أعلى أن يحسن المرء لغيره بعد أن يكظم غيظه ويعفو عنه.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٣٥).

١٣٥- ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ وهي العمل الشديد القبح الذي يخرج عن الحد ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ ظلم النفس يطلق على كل ذنب ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ أي ذكروا ما يترتب على الفحش والذنوب من مؤاخذة الله،

وهو شبيه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف ٧/٢٠١].

﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ والاستغفار يجب أن يصدّقه العمل، فيكون بمعنى التوبة والندم على الذنوب والعزم على تركها، أما الاستغفار باللسان فقط دون عزم فلا أثر له ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ فلا تطلب المغفرة إلا منه ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ لم يصرّوا على ذنوبهم وهم يعلمون قبحها.

﴿ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ (١٣٦).

١٣٦- ﴿أُولَئِكَ﴾ أي المتقون الموصوفون بما ذكر في الآيتين السابقتين ﴿جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ بستر معاصيهم وتكفير ذنوبهم ﴿وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ وهي مكافأة لهم فوق المغفرة ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ فهذا تمام ما يطمح الإنسان إليه ! فليعمل الناس بعمل هؤلاء العاملين.

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (١٣٧).

١٣٧- بعد ما ورد في الآيات السابقات من أخبار وقعة أُحد، والتذكير بوقعة بدر، وبعض العبر الحاصلة بهما، يذكر تعالى سننه في الخلق والعبر في ذلك ويعلّم المؤمنين من علم الاجتماع ما لا يعلمون: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ خلت أي مضت، والسنن مفردها سنّة وهي الطريق المستقيمة، وهي أيضا المثال المتّبع أو السيرة، ومنه سنّة النبي ﷺ: ﴿فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ انظروا في تاريخ من قبلكم من الأمم وكيف أن مشيئة الله في خلقه تسير وفق سنن حكيمة لا تتبدّل، والصراع بين الحق والباطل مستمر منذ الأزل، ويحصل بأسباب مطّردة وأنماط متكررة، والمؤمنون الصادقون أجدر من غيرهم بمعرفة سننه تعالى في خلقه واتباع ما يلزم لتحقيق أسباب النصر فلا يتواكلون ﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ لأنّ من سننه تعالى أنّ الباطل يزول وإن طال أمره.

﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١٣٨).

١٣٨- ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ لكلّ ذي عقل أن يتفكر ويعتبر بسنن الله في خلقه وفي الأمم التي مضت، وأن كل من يتبع تلك السنن يصل إلى غايتها إن خيراً فخير، أو شراً فشر ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ المتقين وحدهم من دون باقي الناس هم الذين يهتدون ويتعظون ويعملون على إحقاق الحق وإبطال الباطل.

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٣٩).

١٣٩- ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ الوهن هو الضعف، والمعنى لا تضعفوا في الجهاد ولا تحزنوا بسبب ما أصابكم في أُحد فقد كان تربية لكم على مخالفة قائدكم الرسول ﷺ، ومخالفة القيادة خروج عن سنّة الله في أسباب الظفر ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ إن كنتم مؤمنين وموقنين بوعد الله فأنتم الأعلون في العاقبة، كما في آية [محمد: ٧/٤٧]، وهذا الوعد منه تعالى بالنصر عام لكل المناسبات والعصور وليس مقتصراً على أحداث وقعة أُحد وهو مشروط بقوله ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم مؤمنين بهدي القرآن والسنّة، وعاملين بموجبها، وبموجب سننه تعالى في خلقه بالوصول إلى النتائج عن طريق الأسباب، فحينئذٍ يكون التوفيق الإلهي في جانبكم فلا تهنوا ولا تحزنوا.

﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٤٠).

١٤٠- ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ يمسسكم أي يصبكم، والقرح هو الألم الناتج عن الجرح، والمقصود ما أصيب به المسلمون يوم أحد، وأن المشركين أصيبوا يوم أُحد بمثل ما أصيب به المؤمنون، كما أُصيب المشركون يوم بدر ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ الأيام تنتقل من قوم إلى آخرين، فيقال الأيام دول أو الدنيا دول، ويقال أيضاً تداولته الأيدي أي

تناقلته، والمعنى أن أيام الدنيا تتبدل بين الناس فلا تدوم المسرّات ولا المضارّ، وقد يشدد تعالى المحنة على الكفار تارة وعلى المؤمنين تارة أخرى وفق سننه الكونية، ولو أنه تعالى شدد المحنة على الكفار في جميع الأحوال، وأزالها عن المؤمنين في جميع الأوقات، لَحَصَل العلم الاضطراري بأن الإيمان حق وما سواه باطل، فيحصل ما يشبه القسر ويبطل التكليف والثواب والعقاب، كما أن تشديد المحنة على المؤمنين في بعض الأوقات يكون تأديباً لهم وتعليماً، وأما تشديد المحنة على الكفار فيكون غضباً منه تعالى عليهم، ولذّات الدنيا فانية على أية حال، ولا يدري الإنسان الحكمة من الخطة الإلهية ولا يحيط إلا بجوانب طفيفة منها في أحسن الأحوال، ولا بدّ أنّ ظفر الكفار المؤقت يحمل في طيّاته بذور هلاكهم ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي لإظهار علمه تعالى واقعاً من عباده، لأن الثواب والعقاب هو على الواقع، وليس على المعلوم الذي لم يقع ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ يكرم بعضكم بالشهادة، أو يكون ذلك كقوله تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ٢/١٤٣]، فيكون المعنى أن يختار منكم من يكون قدوة للناس ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أي إن استشهاد بعضكم ليس معناه أن الله يحب الظالمين، ولكن لحب الله لكم.

﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ (١٤١).

١٤١- ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ المحص في اللغة هو التنقية، فالمقصود هو تطهير المؤمنين من ذنوبهم ﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ المحق هو النقصان والإبطال والمحو، ويقال مَحَقَه الله أي ذهب ببركته، قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢/٢٧٦]، فيكون المعنى أنّه تعالى يمحق سلطان الكافرين، وذلك أنهم إذا ظفروا وبغوا وأفسدوا واشتدّ اعتدادهم بأنفسهم كان في ذلك بذور هلاكهم، وهو معنى قوله تعالى في الآية السابقة أن الأيام دُوَل.

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١٤٢) .

١٤٢- ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ الإيمان يجب أن يصدّقه العمل، فلن تدخلوا الجنة بمجرّد تصديقكم الرسول بالكلام، وقبل أن يبتليكم تعالى بالمِحن وبالجهاد بالأموال والأنفس، وحيث إنّ علمه تعالى محيط بالغيب كما هو محيط بكل شيء، فالمعنى أنه تعالى لا يحاسب الناس بحسب علمه بالغيب منهم، وإنما بتحقق وظهور أفعالهم إلى حيز الوجود.

﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ (١٤٣)

١٤٣- ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾ كنتم تتمنّون القتال في سبيل الله كما تتمنّون الموت في القتال لتنالوا الشهادة ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ فقد شاهدتم الحرب ورأيتم استشهاد غيركم رأي العين، والمعنى أنّ التمنّي يجب أن يكون قابلاً للتحقّق بالعمل، ولا يُعتَدّ بالكلام فقط، والإشارة المباشرة إلى وقعة أُحد عندما ألحّ جماعة من الشبان ممّنْ لم يشهدوا وقعة بدر على الرسول ﷺ بالخروج من المدينة ومناجزة المشركين في معسكرهم بأُحد، انظر شرح الآية (١٢١) أعلاه.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٤٤) .

١٤٤- ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ خلَت أي مضت، والمعنى أن النبي بشر كما كان الأنبياء من قبله يخضعون جميعاً لسنن الله ونظامه في الخلق ﴿أَفَإِن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ أفإن مات كما مات إبراهيم وموسى وعيسى، أو قتل كما قتل يحيى وغيره، تنقلبون على أعقابكم، وقد حدث أنه لما فرّق خالد بن الوليد جمع المسلمين في أُحد بعد أن خالف الرماة أمر النبي ﷺ وتركوا مراكزهم في الجبل فأُشيع أن النبي ﷺ قُتل، وقال بعض المنافقين: لو كان نبياً ما قتل فارجعوا إلى أصحابكم ودين آبائكم،

وأراد البعض من ضعاف النفوس أن يبعثوا إلى عبد الله بن أبيّ فيأخذ لهم أماناً من أبي سفيان ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾ من ينكص عن دينه يضر نفسه فقط لأن الإسلام ليس بحاجة لأحد من الناس أو لطائفة منهم، ولكن العكس هو الصحيح فالبشرية هي التي بأمس الحاجة للإسلام، وقد تعهّد تعالى بحفظ دينه وإنجاز وعده فلا يحول دون ذلك ارتداد بعض الضعفاء والمنافقين ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ وهم الصابرون في المحن، وسمّاهم تعالى شاكرين لأنهم بفعلهم شكروا الله على نعمة الإسلام، وقد كان لهذه الآية أثرها في توطين نفوس المسلمين وإعدادها لما وقع بعد ذلك بعشر سنين، فقد ذكروا أن توبيخ المنقلبين على أعقابهم بهذه الآية قد ظهر أثره يوم وفاة النبي ﷺ إذ ارتد يومئذ البعض من الناس وثبت الصادقون على دينهم حتى كانت العاقبة لهم، كما كان لهذه الآية أثرها في تثبيت قلوب المسلمين عندما قال لهم أبو بكر: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم تلا الآية.

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ (١٤٥).

١٤٥- شاع يوم أُحد أن محمداً ﷺ قُتل، فالله تعالى يقول ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فلا تموت النفس إلا بإذن الله وبقضائه وقدره، فرغم الأهوال وأسباب الهلاك التي واجهت النبي ﷺ في المعركة كان الله تعالى حافظاً له وناصراً ولم تصل إليه أسباب الموت ﴿كِتَابًا مُؤَجَّلاً﴾ كتبَ تعالى آجال النفوس منذ الأزل فلا تموت نفس إلا بأجل محدود في علم الله، وهو توبيخ لضعاف المسلمين بأن الحذر لا يمنع المقدّر، ولا ينافي ذلك أن كل شيء يجري بأسباب وفق السنن الكونية، وأنّ الكتاب الموجّل كناية عن علم الله المسبق لكل شيء ﴿ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ أي

إن هنالك سنناً لنيل منافع الدنيا، وسنناً لنيل منافع الآخرة، من سار على كلّ منها وصل لما يريد، ومن أراد بأعماله المنافع الدنيوية فقط فالله تعالى لا يمنعه من ذلك، ولكن ليس هذا ما يدعو إليه الإسلام، فالمسلم يعمل للدنيا وهو ينظر للآخرة، ومن هدي الإسلام أن يطلب الإنسان خير الدنيا وخير الآخرة معاً، انظر آية [البقرة: ٢/٢٠١].

﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ وهم الشاكرون لنعمة الإسلام الذي جعل الحقيقة بيّنة للناس، وأن الحياة ليست مقتصرة على ما نشاهده ونعرفه في حياتنا الدنيا فقط فمن الغيب ما لا نحيط بعلمه، والمؤمن الشاكر يتمتع بسعة الأفق بحيث أن أعماله يريد بها الدنيا والآخرة معاً، أما الجاحد فهو من ضيق الأفق بحيث يسعى إلى المنافع الدنيوية فقط ويعتبرها هدفاً نهائياً بذاتها فتكون وبالاً عليه، والشكر ليس باللسان فقط وإنما بالقول والعمل معاً.

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (١٤٦).

١٤٦- ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ﴾ ضرب تعالى مثلاً بكثير من الأنبياء في الماضي، والمعنى كم من نبيّ قاتل معهم المؤمنون من أتباعهم، فصبروا على ما أصابهم في سبيل الله و لم يضعفوا و لم يستكينوا ﴿قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ ربيّون أي الذين يعبدون الرب بمعنى المؤمنين الأتقياء ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الوهن هو ضعف القلب فيكون المعنى: لم يغيّرهم ما أصابهم في سبيل الله، فلم تضعف عقيدتهم و لم يصبهم الهلع والجزع ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ لم تخذل قوتهم وعزيمتهم على القتال ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ لم يذلّوا لعدوّهم و لم يخشعوا له بالمداهنة رغم ضعف وسائلهم ومنزلتهم ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ الذين لا يصيبهم الهلع والجزع والضعف والاستكانة، ويصبرون على الشدائد في سبيل الله، فإن الله يحبهم.

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (١٤٧).

١٤٧- ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ دعوا ربهم أوّلاً أن يغفر ذنوبهم وغلوّهم في تجاوز الحدود، أي طلبوا غفران الذنوب الصغيرة والكبيرة، لكي تُرفع الشدّة عنهم، وأضافوا الذنوب والغلوّ إلى أنفسهم مع أنهم كانوا ربّانيين ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ طلبوا الثبات بأن تنزل السكينة على قلوبهم حتى يصبروا ولا يصابوا بالذعر فيُضطروا للهزيمة ﴿وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ بعد الاستغفار ورجاء الثبات دعوا الله أن ينصرهم بمقتضى سننه في الكون.

﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٤٨)

١٤٨- ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ وهو الظفر والسيادة في الأرض ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ﴾ أي ثواب الآخرة أحسن من ثواب الدنيا ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ وفي الآية التالية تحذير للمؤمنين من الاستكانة للكفار:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (١٤٩).

١٤٩- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ يحذّر تعالى عباده المؤمنين من طاعة الكافرين في أمور دنياهم ودينهم لأنه يترتب على ذلك أن يعمل المؤمنون بما يخالف دينهم، وقصارى ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة ٢/١٢٠]، ﴿فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ تنقلبوا من الفلاح إلى الخسران، فتكونوا خاسرين في الآخرة، كما تخسرون الدنيا بالوقوع تحت سيطرتهم، وفي ذلك عودة لموضوع الآيات (٢٨) و (١٠٠) و (١١٨)، وفي هذه الآية أيضاً مقابلة للمعنى المذكور

في الآيات السابقة (١٤٦-١٤٨) إذ تتضمن تحذيراً إلى ضعاف النفوس والمنافقين أن طاعة الكفار لن تجدي في تأمين الحماية لهم.

﴿ بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴾ (١٥٠).

١٥٠- ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ الله تعالى ناصر عباده المؤمنين الذين لا يضعفون ولا يهنون ولا يستكينون للعدو، فهم ليسوا بحاجة لطلب النصرة والتأييد من الكفار لأن اعتمادهم على الله وحده.

﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾ (١٥١).

١٥١- ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ بعد أن تحققت الغلبة للمشركين يوم أُحد، وتشتّتت قوة المسلمين فانهزم بعضهم إلى المدينة وتفرق بعضهم الآخر في بطن الوادي والجبل، انسحب المشركون إلى مكة من غير سبب وهم غالبون قاهرون وقوتهم تكاد لم تتأثر بنتيجة المعركة، ويعتبر ذلك لغزاً محيّراً، إذ لم يكن ما يمنعهم من الإجهاز على فلول المسلمين ثم دخول المدينة حيث كان سيستقبلهم المنافقون واليهود، ولكن بدلاً من ذلك فرّوا وتركوا المدينة إذ ألقى تعالى الرعب في قلوبهم، حتى رُوِيَ أن أبا سفيان صعد الجبل ونادى: أفيكم محمد؟ أين ابن أبي قحافة؟ أين ابن الخطاب؟ فأجابه عمر ودار بينهما حوار، فما تجاسر أبو سفيان ومن معه على الذهاب إليهم ومنازلتهم، وليس صحيحاً تبرير بعض المستشرقين بأن العرب اعتادت في غزواتها أن لا تجهز على الخصم بعد هزيمته كما لو كانت المعارك نوعاً من المباريات الرياضية، فالأمر هاهنا كان مختلفاً والحرب بين المسلمين والمشركين لم تكن من هذا النوع، إذ كانت قريش مصممة على استئصال المسلمين والقضاء على النبي ﷺ، والنبي ما خرج من مكة وهاجر إلى المدينة وأذن للمسلمين بالهجرة إلاّ بعد أن عزم المشركون على قتله واستئصال أصحابه، ولا أدلّ على

ذلك أن المشركين بعد أن صاروا في طريق عودتهم إلى مكة، أفاقوا من ذهولهم وندموا على انسحابهم فقال بعضهم لبعض: ما صنعنا شيئاً، تركناهم ونحن الغالبون، ارجعوا حتى نستأصلهم، فلما عزموا على ذلك ألقى الله الرعب في قلوبهم وصرفهم عن الرجوع، روى البخاري وأحمد عن النبي ﷺ أنه قال: «نُصرت بالرعب مسيرة شهر».

﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ السلطان بمعنى الحجّة والبرهان، أي إن سبب إلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا هو أنهم أشركوا بالله معبودات لا يقوم لها برهان من العقل ولا من الوحي ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ وهو مصيرهم في الآخرة.

وإلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا ليس مقتصراً على ما وقع في أُحُد، فهو عام لكل المناسبات والأوقات لأن العِبَر القرآنية منطبقة على كل الأزمان والأحوال، وهذه الآية استمرار لما قبلها بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ۞ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ فيكون إلقاء الرعب في قلوب ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مرتبطاً بتحقيق المعنى الفعلي للفظ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي الذين آمنوا إيماناً يقينياً ليس باللسان فقط، ولكن بما يترتب على ذلك من العمل وبذل الجهد والنفس والمال، ثم ضرب تعالى للمؤمنين مثلاً بأحداث وقعة أُحد فقال عزّ من قائل:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٥٢).

١٥٢- ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ بالنصر على عدوكم ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ تحسّونهم أي تقتلونهم قتلاً كثيراً وذلك في بداية المعركة، وحسّه أي ذهب بحسّه من القتل، وقد صدق تعالى المؤمنين وعده الذي جاء على لسان نبيّه

بالآية (١٢٥)، وذلك بعدما تعبّأ الرسول ﷺ للقتال في سبع مئة رجل، منهم خمسون فارساً، فجعل ظهورهم لأُحُد وقال لهم: «لا يقاتلنّ أحدٌ حتى نأمرَ بالقتال»، إحكاماً للخطة، وما كانت العرب تراعي ذلك دوماً، لا سيّما إذا حدث ما يثير حميّتها، وأعطى اللواءَ مصعب بن عمير، وأمّر على الخيل الزبير بن العوّام والمقداد بن الأسود الكِندي، وجعل الرماة خمسين رجلاً خلف العسكر على مرتفع في مواجهة خيل المشركين وأمّر عليهم عبد الله بن جبير، ومن جملة ما قاله لابن جبير: «انضح عنا الخيل بالنبل لا يأتونا من خلفنا واثبت مكانك لا نؤتَيَنّ من قبلك»، وتعبّأت قريش للقتال بقيادة أبي سفيان في ثلاثة آلاف رجل، منهم مئتا فارس، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد، وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل، ثم خرج طلحة بن عثمان حامل لواء المشركين يطلب المبارزة فقتله علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فأقبل أبو سفيان يحمل اللات والعزّى، فأرسل النبي ﷺ إلى الزبير أن يقاتل فحمل على خالد بن الوليد حتى هزمه ومن معه، واقتتل الجانبان، فأنزل تعالى نصره على المؤمنين وصَدَقهم وعده ما صبروا واتقوا، فحسّوا المشركين بالسيوف حتى كانت الهزيمة للمشركين لا شكّ فيها، إلى أن خالف أكثر الرماة أمر النبي ﷺ واشتغلوا بطلب الغنائم ولم تثبت سوى قلّة منهم ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ﴾ فشلتم بمعنى تخاذلتم، وتنازعتم في الأمر أي اختلفتم في أمر نبيّكم، إذ قال بعض الرماة: ما فائدة بقائنا هنا والمشركون قدْ انهزموا؟ وقال آخرون: لا نخالف أمر الرسول ﴿وَعَصَيْتُمْ﴾ عصى أكثر الرماة أمر النبي ﷺ، وقد أمرهم الثبات في مراكزكم لحماية مؤخرة المسلمين ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾ وهو النصر ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ وهم الذين طمعوا في الغنائم ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ وهم الرماة الذين ثبتوا في مراكزهم مع عبد الله بن جبير وكانوا أقل من عشرة، وآخرون ثبتوا مع النبي ﷺ ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ أسند تعالى صرف المؤمنين عن

المشركين إلى ذاته العليّة باعتبار أنهم خالفوا سننه الكونية في الوصول إلى النتائج عن طريق الأسباب، وباعتبار الغاية الحميدة من ذلك في تربيتهم وتمحيصهم وإعدادهم للنصر الشامل ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ ليجعل ذلك محنةً لكم واختباراً، وقد قتل يومئذ سبعون من أكابر المسلمين ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ بأنّه تعالى لم يهلككم في ذلك اليوم، وأنّه ألقى الرعب في قلوب المشركين فانصرفوا عنهم وعن المدينة وهم في حالة من الارتباك والحيرة بعد أن صارت الغلبة لهم، ولو أرادوا لصارت المدينة في قبضتهم ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فهو يعاقبهم في الدنيا ببعض ذنوبهم تربية لهم وتمحيصاً، ولا يستأصلهم رحمةً بهم ولما فيهم من الإيمان، والعبرة من هذه الآية عامة لكل الأزمان والأحوال، أي أنه تعالى يصدق المؤمنين وعده ما لم ينازعوا ويتخاذلوا ويتهالكوا على الدنيا.

﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١٥٣)

١٥٣- ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ تذهبون نحو أعلى الوادي، وهو من الإصعاد، وقيل تصعدون الجبل ﴿وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ﴾ لا يلتفت بعضكم لبعض من شدة الهرب، وأصله من لوى يلوي عنقه كي يلتفت ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾ عندما تعرّض المسلمون إلى هجوم المشركين من خلفهم، بالإضافة إلى مواجهتهم، لاذوا بالفرار فمنهم من توجّه إلى المدينة، ومنهم من اتّجه إلى الجبل أو أصعَد في الوادي، وبقي الرسول وحده ثابتاً مع قلّةٍ من صحابته قيل إنّ عددهم أربعة عشر فكان ينادي المنهزمين وهو في مؤخرتهم،

﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾ أي جازاكم الله غمّاً متّصلا بغمّ، فالغموم يومئذ كانت كثيرة فمنها غمّ المسلمين بسبب فوت النصر الذي أوشك أن يكون لهم، وغمّهم لمّا شاع مقتل النبي ﷺ، وغمّهم بمقتل العديد من أصحابهم، وغمّهم بما قد يحدث لعائلاتهم التي خلّفوها وراءهم في المدينة، فقد كان محتملا أن يدخل

المشركون المدينة بعد أن صارت بلا مدافعين، وقد يكون المعنى أيضاً حازاكم الله غمّا بسبب الغمّ الذي أصاب الرسول ﷺ من عصيانكم وهزيمتكم، والغمّ هو ضيق الصدر من أمر يسوء المرء، وإن لم يتبين حقيقة سببه، لأنّ الكلمة تتضمّن معنى الخفاء، فيقال غمّ الشيء إذا خفي، كما يقال: غمّ الهلال إذا لم يظهر، ويحتمل أيضاً أن الغم الذي أصابهم ناتج عن الشعور بالخجل من سلوكهم في الهزيمة مما كان أكثر إيلاماً لهم من فوات النصر ومن مقتل أصحابهم ﴿لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ لكيلا يكون حزنكم على فوت الغنيمة، إذ هنالك ما هو أهم منها ﴿وَلا مَا أَصَابَكُمْ﴾ من القتل والجراح والهزيمة ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فلا تعتذروا عن أنفسكم ولا تخادعوها لأنه تعالى محيط بنفوسكم لا يخفى عليه شيء منها.

﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَا هُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (١٥٤).

١٥٤- بعد أن هدأ القتال في أحُد وصعد أبو سفيان إلجبل وأشرف على المسلمين في شعب الوادي ودار حوار بينه وبين عمر، كان المسلمون في حالة من الإنهاك والجراح والقلق خائفين أن يجهز المشركون عليهم أو يدخلوا المدينة، فأنزل تعالى سكينته على طائفة منهم فأمِنوا:

﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً ﴾ الأمَنة من الأمن، أي نزلت السكينة على قلوبهم فأزالت عنهم الخوف، وانصرف المشركون عائدون إلى مكة ﴿يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾ وهم المؤمنون يقيناً والمستسلمون لما اقتضته الحكمة الإلهية من العاقبة، نزلت السكينة عليهم وغفلوا عن الخطر المحيط بهم وغلبهم

النعاس تثبيتاً منه تعالى لهم وليسترّدوا قوّتهم ونشاطهم (وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ) وهم ضعاف الإيمان زعزعتهم نتيجة المعركة، وكان همّهم مصالحهم القريبة فقط ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ نسوا أن الدنيا دار امتحان وابتلاء، وظنّوا بعد وقعة بدر أن الدين والنصر متلازمان دوماً فأذهلهم ما حدث، وفاتهم أنّ كمال الحكمة من الخطة الإلهية لا يعلمها إلاّ الله تعالى: ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ أي ظنّ أهل الجاهلية، وفي المعنى العام نرى أنّ العقلية الجاهلية ليست مقتصرة على الفترة الزمنية التي سبقت البعثة الإسلامية، وإنما هي عقلية المصلحة القريبة والمنفعة المباشرة التي يسير البعض على أساسها في كل زمان بلا أي اعتبار للقيم الدينية والأخلاقية ﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي هل لنا شيء ممّا كان يعدنا به النبي من النصر والقوة ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ كل الأمور تجري وفق سنته تعالى في خلقه،

﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ بعد أن ضعضعتهم الهزيمة يخفون شكوكهم في الإسلام وفي تحقيق وعد الله لعباده ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَا هُنَا﴾ فقد غفلوا عن كون الآجال محددة في علم الله المسبق ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ الحذر لا يمنع المقدّر فالذين كتب عليهم القتل في علم الله المسبق لا بُدّ أن يقتلوا على جميع التقديرات ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ يختبركم حتى يظهر لكم ما تنطوي عليه نفوسكم من الضعف أو قوة الإيمان فتظهر من الخفاء إلى العلن ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ يطهّرها من الوساوس والشكوك ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ الله تعالى غنيّ عن اختباركم فهو عليم بما تسرّون في صدوركم سلفاً، ولكن ليظهر لكم ما في أنفسكم.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (١٥٥).

١٥٥- ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ الذين تركوا مراكزهم في القتال يوم أحُد، وهم بعض الرماة، وآخرون انهزموا عندما فاجأهم المشركون من خلفهم، فمنهم من دخل المدينة ومنهم من أصعَد في شعب الوادي، والأكثرون منهم نزلوا عند الجبل ﴿ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾ بعض ما كسبوا هو الفرار عن القتال، فذلك الزلل الذي وقع منهم، والمعنى أن الزلل هو نتيجة ما كسب الإنسان من عمل، أي إنّ استزلال الشيطان للإنسان هو نتيجة للخيار الحرّ الذي يتّخذه المرء عندما يواجه أزمة أخلاقية معينة، فيختار ما يبدو له الأسهل أو الأنفع أو الأقرب وصولاً إلى اللذة، بدلاً من اختيار الأصلح ﴿ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ عفا تعالى عن عقوبتهم في الآخرة بعدما عاقبهم في الدنيا بالهزيمة تربيةً لهم وتمحيصاً ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ غفور للتائبين، وحليم لا يعجّل بالعقوبة.

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (١٥٦).

١٥٦- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ ضربوا في الأرض أي خرجوا لسفر بعيد، والغزّى هم الغزاة القاصدين قتال العدوّ، والمقصود بإخوانهم أي إخوانهم في النسب أو القربى أو الجنس، والمعنى أنّ البعض قالوا عن إخوانهم الذين خرجوا لسفر بعيد أو للغزو: لو كانوا مقيمين عندنا ما ماتوا وما قتلوا، مما يدلّ أنّ إخوانهم كانوا ميتين أو مقتولين وقت هذا القول، فقَرَن تعالى هذا القول بالكفر كونه لا يجب أن يصدر عن مؤمن، لأن الإيمان ليس مجرّد الإقرار باللسان، وقد أرشدت هذه السورة بالآية (١٤٥) أنّ الآجال محددة، ، كما أنّ قول (لَوْ) عبث لا طائل منه والحسرة على ما فات لا تفيد، ويحتمل المعنى أيضاً أنّ الكفار كانوا يقولون للمؤمنين، أو لبعضهم بعضاً،

عن إخوانهم الذين خرجوا لسفر بعيد أو للغزو لو كانوا مقيمين عندنا ما ماتوا وما قتلوا، فنهى تعالى المؤمنين أن يكونوا مثل الكفار في قولهم واعتقادهم ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ لأنّ الكافر يعتقد أنه لو بالغ في منع أخيه من الخروج للسفر أو للغزو لبقي حيّاً، وبالتالي يعتبر نفسه ملوماً على موته فتكون تلك حسرة في قلبه، في حين أن المسلم يعلم أن الحياة والموت بتقدير الله فلا يشعر بهذا النوع من الحسرة، ومن جهة ثانية فإنّ اطمئنان المؤمنين وتسليمهم بقضاء الله حسرة في قلوب الكفار ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ يحيي من يشاء بمقتضى سننه في بقاء أسباب الحياة، وإن سافر المرء أو قاتل، ويميت من يشاء بمقتضى سننه في الموت، وإن بقي المرء في بيته أو اتّخذ جانب الحيطة ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمال الكفار والمؤمنين ونواياهم.

﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (١٥٧).

١٥٧- ﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ﴾ وهذا سبب آخر لاطمئنان المؤمن إذا قُتل بعض إخوانه في سبيل الله أو ماتوا، لأن المقتولين والذين ماتوا فازوا بمغفرة الله ورحمته ﴿خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من أموال الدنيا، وخير من الحظوظ الدنيوية الفانية، فلا يليق بالمؤمن أن يتحسّر على من يُقتل أو يموت في سبيل الله لأنه يفوز بما هو أهم بكثير.

﴿ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (١٥٨).

١٥٨- ﴿وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ الآية السابقة قدّمت ذكر القتل على الموت لأنه يكون أكثر عند القتال في سبيل الله، وفي الحالتين هما خير وسيلة لنيل مغفرة الله ورحمته.

وهذه الآية قدّمت ذكر الموت لأنه أكثر من القتل في الحالة العامة، وأن من يموت أو يقتل مصيره إلى الحشر والحساب فيُجازى كلٌّ بحسب عمله.

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (١٥٩).

١٥٩- ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ المعنى فبرحمةٍ من الله لِنتَ لهم، أو فبأيّ رحمة من الله لِنتَ لهم، أو فبسبب رحمة من الله، أي كنت ليّناً مع قومك رغم كلّ ما بدر منهم في وقعة أُحد، والخطاب للرسول ﷺ ونظيره قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤/٦٨]، ومن ذلك أنه لمّا انهزم الناس عن النبي ﷺ في أُحُد وأصيب في المعركة، ثم بعد أن عادوا إليه لم يخاطبهم بالتعنيف والتغليظ وإنما عاملهم بالرفق، وكانت تلك سياسته مع الناس رحيماً كريماً يتجاوز عن الذنب ويعفو عن الإساءة ويبرّ الضعفاء ويشفق عليهم:

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ الفظاظة قسوة الخلق، أما غليظ القلب فمن لا يتأثر قلبه بشيء، فلو كان النبي ﷺ فظّاً غليظ القلب لانفضّ الناس من حوله وفات المقصود من البعثة والرسالة، وهذه الآية قاعدة أساسية للذين يدعون إلى الإسلام في كل الأزمان أن يكون لهم في أخلاق رسول الله ﷺ أسوة حسنة في تعاملهم مع الناس ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ العفو فيما يتعلق بحقوق النبي ﷺ ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فيما يتعلق بحقوق الله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ) ضمير الغائب في ﴿شَاوِرْهُمْ﴾ عائد لجماعة المسلمين، والأمر هو أمر المسلمين العام في السلم والحرب كما هو مذكور بقوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨/٤٢]، والمقصود شوونهم الدنيوية بما فيها شوون الحكم، ولا يدخل في ذلك أمور الدين المحض كالعبادات والعقائد والحلال والحرام لأنها لو خضعت للمشاورة لصار الدين من وضع البشر،

والخطاب وإن كان موجّهاً للنبي ﷺ إلاّ أنّ اللفظ عام وينطبق على جماعة المسلمين وأولياء أمورهم في كل الأزمان، وقد كانت الشورى من سنة الرسول

ﷺ، فمن ذلك أنه استشار الناس يوم بدر لما علم بخروج قريش لحربه، و لم يبرم الأمر حتى صرّح المهاجرون ثم الأنصار بالموافقة، ثم شاورهم في مكان نزول العسكر في بدر، كما استشارهم يوم أُحُد ونزل على رأي الأكثرية في الخروج من المدينة، وشاورهم يوم الحديبية، ومن سننه أيضاً أن جعل قرار الأكثرية ملزماً للحاكم، إذ ألزم نفسه ﷺ برغبة الأكثرية في الخروج إلى أُحُد رغم أن رأيه الشخصي كان التحصن في المدينة والدفاع عنها.

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ إذا عزمت بعد المشاورة على تنفيذ القرار فتوكل على الله راجياً معونته وتوفيقه بعد أن تكون أعددت لكل شيء عدته، والآية صريحة في وجوب المضيّ بتنفيذ العزيمة بعد الشورى لِما في فسخ العزيمة من مظاهر الضعف والتردّد ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ الذين يتوكلون على حول الله وقوته بعد أن يعدّوا للأمور عدّتها، ولا يصيبهم الغرور والإعجاب بالنفس لما اتخذوه من أسباب.

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١٦٠).

١٦٠- ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ﴾ كما نصركم في بدر ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ استئناف الكلام من الآية السابقة، والمعنى إن ينصركم الله بعملكم الجاد وفق سننه الكونية، واتخاذكم الأسباب بالاستعداد والتأهب والمشاورة وعملكم للآخرة، وتوكّلكم على معونته وتوفيقه، فلا غالب لكم،

﴿وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ إن يخذلكم كما في وقعة أحد بما كسبته أيديكم من التفرق والتخاذل والعصيان والتهالك على الغنائم، والاعتداد بالذات، فمن يستطيع نصركم؟ ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي توكلوا على الله وحده دون غيره من مخلوقاته، والواضح أن التوكل يكون مع الأخذ بالأسباب الدنيوية، لأنّ ترك الأسباب بدعوى التوكل لا يكون إلاّ عن

جهل بالشرع أو فساد في العقل، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٨/٦٠].

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (١٦١).

١٦١- أرجف ضعافُ النفوس في أُحد بإشاعة مقتل النبي ﷺ وداخلَتهم الشكوك في نبوّته، وقالوا: لو كان نبيّاً ما قتل، فقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ ﴾ أي على النقيض ممّا يقوله المنافقون والكفار يستحيل على نبيّ أن يغلّ، والغلول هو الخيانة على سبيل الخفية، وتغلغل الشيء في الشيء إذا انتشر في باطنه خفيةً، والمعنى أنّ الأنبياء مُنَزّهون عن الغلول ومعصومون عنه، فلا ينبغي لأحد أن يرتاب بهم ولا يظن بهم شيئاً من الخيانة، لأنهم لا يكتمون من وحي الله شيئاً، كما أنهم لا ينسبون كلامهم الشخصي إلى الله تعالى فيزعمون أنه وحي، وهذا الادعاء على سقمِه شائع بين الكفار في كل الأزمنة، ومن الغلول أيضا أخذ الشيء خفية كالسرقة، والغلّ الحقد الكامن في الصدر ﴿ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي من يغلل من الناس يأتِ بوزر غلّه يوم القيامة ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ تُجازى كل نفس جزاء ما كسبت من الغلّ.

﴿ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (١٦٢).

١٦٢- ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ وهم ذوو الإيمان اليقيني والمتّبعون للنبي ﷺ وسنّته ﴿كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ﴾ هُم المنافقون والكفار احتملوا سخط الله ورجعوا به ﴿وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ بسبب سوء ظنّهم بالنبي والأنبياء، أي ليسوا سواء، والكلام استمرار لما سبقه في الآية المتقدمة.

ويحتمل المعنى أيضاً أنّ من اتبعوا رضوان الله هم الأنبياء لأنهم منزّهون عن الغلول وقد أدّوا الرسالات السماوية على تمامها، وأما غيرهم ممّن شوّهوا

الرسالات السماوية وحرّفوها وابتدعوا فيها فقد باؤوا بسخط من الله، وبذلك يستقيم المعنى أيضاً مع الآية المتقدمة.

﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٦٣).

١٦٣- ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ لأنّ درجات أهل الثواب ممن اتبعوا رضوان الله متفاوتة، ودرجات أهل العقاب ممن باؤوا بسخطه متفاوتة أيضاً على حسب تفاوت أعمال كل منهم، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة ٩٩/٧-٨]، ومعنى عند الله أي في علمه وحكمه ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ فهو تعالى بصير بالدقائق والتفاصيل من أعمالهم فيترتب على ذلك لكل منهم درجات حسبما عملوا.

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (١٦٤).

١٦٤- وعلى النقيض ممّا يفكر به ويقوله المرجفون من اتهام النبي ﷺ بالغلول الذي نزّهه تعالى ونزّه الأنبياء عنه، فإن الله تعالى قد منّ على المؤمنين ببعث الرسول فيهم: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً﴾ والمنّ بهذا المعنى هو كل ما ينعم به تعالى على عباده ممّا لا تعب فيه ولا نصَب، ثم بيّن تعالى أسباب ذلك وهي أوّلاً: أنّ الرسول من أنفسهم ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي لم يكن غريباً عنهم فقد عرفوا حقيقته ومعدنه منذ نشأته، عرفوه حسن الخلق، راجح العقل، صادقاً عفيفاً غير متهالك على الدنيا، أميناً حتى صار ذلك لقبه فلقّبوه الأمين، فكيف يعقل بعد كل ذلك وصفُه بالغلول، وهو أيضاً من أنفسهم أي من بين ظهرانيهم بما في ذلك من الشرف وعلو القدر لهم أن نزلت خاتم الرسالات على نبي منهم فكانوا أول المهتدين بالقرآن، وهو أيضا من أنفسهم أي بشر مثلهم.

﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ يتلو عليهم الوحي القرآني ويرشدهم إلى الآيات الكونية كي يتفكروا في معجزة الخلق ووحدانية الخالق ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يطهّرهم من العقائد الفاسدة، لأنهم كانوا يعبدون الأوثان ويئدون البنات ويقتلون ويستغلون بعضهم بعضاً، ويرتكبون المنكرات كما لو كان في عقولهم لوثة، فطهرهم من كل ذلك ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهو القرآن وعن طريقه تعلموا الكتابة، لأنه أمرهم بذلك ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ التفقه في الأحكام القرآنية والعمل بها، وهي السنة كما بيّنها الرسول ﷺ قولاً وعملاً ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ يتخبطون وفق أهوائهم في جاهلية عمياء.

﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١٦٥).

١٦٥- حمل الرسالة السماوية يتطلّب التضحية والإعداد من قبل المؤمنين: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ يوم أحد حيث قُتل سبعون من أكابر المسلمين ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا﴾ يوم بدر حيث قُتل سبعون مشركاً وأُسرَ سبعون آخرون ﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾ أي كيف حصل هذا ؟ فقد كانوا يظنون أن مجرد كونهم مؤمنين خرجوا في سبيل الله، أو مجرد وجودهم مع النبي ﷺ، كافٍ لإحراز النصر ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي إنكم لم تتّبعوا أسباب النصر، فقد تخاذل الرماة وتنازعوا أمرهم وعصوا أمر قائدهم النبي ﷺ وتركوا مراكزهم، ثم لمّا باغت العدو جيش المسلمين من الخلف لم يثبت مع الرسول ﷺ إلاّ قلّة منهم، وانهزم الباقون لا يلوون على أحَد والرسول يدعوهم في أخراهم، والعبرة من ذلك باقية لجميع المسلمين في جميع العصور أن الإيمان يجب أن يكون مقروناً باتخاذ الأسباب والسنن الدنيوية في الاستعداد والتخطيط والعمل والصبر واتقاء المعصية، لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران ٣/١٢٠]، وقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ

قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٨/٦٠]، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو قدير على نصركم لو ثبتّم وأطعتم أمر الرسول ﷺ، وقدير على التخلية وتركككم لنتيجة أعمالكم لأن العقوبات آثار طبيعية للأعمال.

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٦٦).

١٦٦- ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ﴾ من القتل ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ يوم أُحد ﴿فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وهو إرادته الأزلية وقضاؤه السابق بأن تكون السنن العامة في الأسباب والنتائج مطّردة، فكل عسكر لا يتخذ الأسباب الدنيوية ويخطيء الرأي ويعصي القيادة ويخلي بين العدو وظهره يصيبه ما أصابكم أو أشد ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ليظهر علمه تعالى بذلك، ولكي يتم فرزهم أمام أنفسهم وأمام الناس فيعلموا قوة إيمانهم من ضعفه ويمتازوا عن المنافقين، وليستفيدوا من نتيجة المصيبة.

فالآية تشرح سبب المصيبة بقوله تعالى: ﴿فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وتبيّن الحكمة منها بقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ (١٦٧).

١٦٧- ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ تتمة الخطاب من الآية السابقة، أي ليظهر علمه تعالى بنفاقهم ويتم فرزهم أمام الناس، ويلاحظ أنه تعالى لم يقل: المنافقين، بل قال الذين نافقوا، أي بَدَرَ منهم النفاق، ويحتمل أن النفاق لم يكن راسخاً فيهم أو في كامل المجموعة منهم، فمنهم من تاب بعد ذلك وصدق في إيمانه ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي قاتلوا دفاعاً عن الدين والحق والمسلمين وابتغاء مرضاة الله ﴿أَوِ ادْفَعُوا﴾ ادفعوا الضرر عن أنفسكم وأهليكم وأموالكم ومدينتكم، يعني كونوا إما أهل دين، أو أهل دنيا.

﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَتَّبَعْنَاكُمْ﴾ أي لو كان ما سَيَقَعُ قتالاً متوازناً لاتبعناكم ولكنها معركة خاسرة وأنتم تلقون أنفسكم في التهلكة، وفي كل الأحوال لا نظن أنه سيكون قتال، والإشارة إلى عبد الله بن أبيّ وبمجموعته من أهل النفاق والشك، إذ لمّا انخذلوا عن جيش النبي ﷺ وهو في طريقه للقاء المشركين في أُحد أتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري يقول لهم: «أذكّركم الله أن تخذلوا نبيّكم وقومكم عند حضور العدوّ»، وهذا هو المقصود من قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا﴾ فقال بعضُهم: لو نعلم أنه سيكون قتال ما تركناكم، ولكنا نرى أن الأمر سينتهي بلا قتال، قالوا ذلك تلبيساً أو استهزاءً، وهم يعلمون أن المشركين جاؤوا من مكة متحرقين لقتال المسلمين والقضاء عليهم، فلما استعصوا وأبوا إلاّ الانصراف قال لهم عبد الله بن عمرو: «أبعدَكم اللهُ أعداءَ الله، فسيغني اللهُ عنكم»، ومضى رسولُ الله ﷺ.

﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ﴾ رغم علمه تعالى بهم أنهم كانوا يبطنون الكفر، لأن نكوصهم عن الجهاد عمل من أعمال الكفر، فإنه لم يقل أنهم كفار لكونهم يظهرون القول بالشهادتين، فكانت إشارته تعالى لسلوكهم نوعاً من التأديب لهم، ومنعا للناس من الجرأة على تكفير الغير وللنظر في احتمال العذر والتأويل ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي لا يتجاوز إيمانُهم ما ينطقون بأفواههم ولا تعي قلوبهم منه شيئاً، وهذا تصوير لنفاقهم بأن الإيمان موجود في الأفواه فقط ومعدوم في القلوب ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ من النفاق والكيد والبغض للمسلمين.

﴿ الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١٦٨) .

١٦٨- ﴿الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ هُم المنافقون قعدوا عن القتال وقالوا عن إخوانهم، بعد انتهاء القتال في أُحد، لو أطاعونا في

القعود عن القتال كما قعدنا نحن لما قُتلوا، ويحتمل المعنى أيضاً أن المنافقين قالوا هذا القول لبعضهم البعض، أو قالوه لمن عاد من المسلمين من أُحد، أو لغيرهم من المسلمين تثبيطاً لهم، فقالوا لهم أنه لو أطاعَ شهداءُ أُحد المنافقين في القعود كما قعدوا هم عن الجهاد لما قُتلوا، وقد لاحظ الشيخ محمد رشيد رضا في تفسير المنار أنه تعالى ذكر قول المنافقين قبل أن يذكر قعودهم، مع أن القعود سبق القول، والسبب أنّ قولهم كان أقبح من قعودهم لما فيه من الخبث وتثبيط همم باقي المسلمين عن القتال في المستقبل، في حين أنّ القعود عن القتال وإن كان إثماً فهو محصور بمن قعد لا يتعدّاه إلى غيره ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي إن كنتم صادقين في قولكم ادفعوا الموت عن أنفسكم، والمعنى أنّ القعود عن القتال لا يضمن لكم النجاة من الموت، وقد يموت القاعد عن القتال كما قد ينجو المقاتل، إذ هنالك أسباب كثيرة للموت والنجاة منه ليست مقتصرة على القتال أو القعود عنه.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩).

١٦٩- ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ الخطاب متصل بما قبله وموجّه للمسلمين بعد وقعة أُحد وفي كل زمن، فبعد أن بيّنَ تعالى بطلان ادّعاء المنافقين أن المجاهدين لو قعدوا لما قُتلوا، فهو تعالى يقول أنهم حتى لو قُتلوا في الجهاد فهذا شيء مستحب لأنهم أحياء عند ربهم يرزقون: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ تقديرها بل هُم أحياءٌ ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ وهذا شبيه بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة ١٥٤/٢] أي لا نشعر بطبيعة حياتهم الغيبية.

﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١٧٠).

١٧٠- ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ بأن وفّقهم للشهادة وما يترتّب عليها من الكرامة والتفضيل والدرجات ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ يستبشرون بأن حال من خلفهم من المؤمنين ستكون حيدة بعد الموت بعدما رأوه من نعيم الآخرة، بدليل الآية (١٧١) ﴿مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الذين بقوا بعدهم ﴿أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ لا خوف عليهم من أهوال القيامة ﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتهم في الدنيا، والمشار لهم هم الذين لم يلحقوا بهم ممّن قاتل و لم يُقتل.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٧١).

١٧١- ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ لمن لم يلحق بهم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي الشهداء منهم وغير الشهداء.

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٢).

١٧٢- ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ بعدما أصابتهم الجراح، وهم إخوان أولئك الشهداء الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، إذ دعاهم الرسول ﷺ للخروج من المدينة لمطاردة المشركين بعد وقعة أُحد، ذلك أن أبا سفيان لمّا انصرف من أُحد مع المشركين وقطعوا أشواطاً في طريقهم إلى مكة، ندموا وقال بعضهم لبعض لم نفعل شيئاً إذ لم نستأصل محمداً وأصحابه فعزموا على الرجوع، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فاستنفر أصحابه للخروج لملاقاتهم، وقال لهم لا يخرجنّ معي إلاّ من شارك في قتال أُحد، فخرج معه جمعٌ منهم مَن يتحامل على جراحه، حتى بلغوا موقعاً يقال له حمراء الأسد على مسيرة ثمانية أميال من المدينة، فلما علم المشركون بذلك ألقى الله الرعب في قلوبهم فانهزموا ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ هُم المؤمنون الذين خرجوا مع النبي ﷺ إلى حمراء الأسد متحاملين على أنفسهم وعلى جراحهم، وأحسنوا لأن الإحسان أن يقوم الإنسان بعمله على أحسن وجه، واتقوا التقصير ومعصية النبي ﷺ.

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١٧٣).

١٧٣- ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ منافقو المدينة قالوا، تخويفاً وترهيباً، للذين استجابوا لله والرسول وخرجوا مع النبي ﷺ إلى حمراء الأسد، قالوا لهم: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ أي أبو سفيان وصحبه من المشركين جمعوا لكم جموعَهم، لأنهم بعد أن كانوا في طريقهم إلى مكة ندموا على انصرافهم وعزموا على الرجوع يريدون استئصال المسلمين.

وفي رواية أن الآية نزلت في غزوة بدر الصغرى إذ رُوي أن أبا سفيان، قبل انصرافه من أُحد إلى مكة، نادى: يا محمد موعدنا موسم بدر فنقتتل بها إن شئت، فقال النبي ﷺ لعمر: «قل له بيننا وبينك ذلك الأجل إن شاء الله تعالى»، فلمّا كان الأجل في العام القابل، وهو شعبان سنة أربع للهجرة موسم تجارة بدر في الجاهلية، خرج أبو سفيان من مكة في نحو ألفين من المشركين حتى بلغ عسفان على مسافة يومين من مكة، فألقى الله الرعب في قلبه فبدا له الرجوع، ولكن كي ينقذ ماء وجهه بعث إلى المدينة أعواناً له يثبّطون همم المسلمين عن الخروج إليه في الموعد ويخوّفونهم من قوة المشركين، فقالوا للمسلمين: إن المشركين جمعوا جموعهم لقتالكم ﴿فَاخْشَوْهُمْ﴾ أي خافوا منهم وارهبوهم ولا تخرجوا إلى موعدكم معهم في بدر فسيكون في ذلك القضاء عليكم ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ أي إن المسلمين لمّا سمعوا كلام الذين دسّهم أبو سفيان لم يعيروه اهتماماً ولم يقيموا له وزناً بل زادهم ذلك الكلام إيماناً وتصميماً على محاربة الكفار ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ أي يكفينا الله ونعم الكافي والوكيل، ثم خرج النبي ﷺ في ألف وخمس مئة من أصحابه إلى بدر الثانية أو الصغرى، وقيل كانوا أقل من ذلك، فأقاموا بها ينتظرون ثمانية أيام فلم يلقوا أحداً، لأن أبا سفيان رجع بجيشه إلى مكة.

﴿ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ (١٧٤).

١٧٤- ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ خرجوا إلى لقاء المشركين ثم عادوا بنعمة من الله وهي السلامة والعافية وخوف العدو منهم ﴿وَفَضْلٍ﴾ وهو فضل معنوي إذ علمت العرب أن قريشاً جبنت عن لقاء النبيّ ﷺ فازدادت مهابة المسلمين عند العرب، وهو أيضاً الربح الذي أصابوه بتجارتهم في موسم بدر في أثناء انتظارهم أبي سفيان ﴿لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ لم يمسسهم ما يسوءهم من كيد العدو ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ بعزمهم على لقاء عدوّهم ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ بأن تفضّل عليهم بالتوفيق وصرفَ عنهم كيد المشركين إذ ألقى الرعب في قلوبهم.

﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٧٥).

١٧٥- ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ وهو من شياطين الإنس، لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢/٦]، واختلفوا في تعيينه فقالوا هو أبو سفيان، وقيل غيره من أعوانه الذين حاولوا تثبيط المسلمين عن الجهاد، وسمّي شيطانا لعتوّه وتمرّده، وقيل بل المقصود إبليس يخوّف الناس بالوسوسة ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ يخوّفكم أيها المسلمون بأوليائه، أي بأنصاره من المشركين فيوهمكم أنهم جمعٌ عظيم لا طاقة لكم بهم، أو أنه يخوّف أولياءه أي الذين يصدقونه ويطيعونه، أما أولياء الله فلا سلطان للشيطان عليهم إذ لا يخافونه ولا ينقادون لأمره ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ أي لا تخافوا أولياء الشيطان من المشركين ﴿وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ المعنى أن من يَرجّح خوفُه من أولياء الشيطان على خوفه من الله يكون مشكوكاً في إيمانه.

والواضح أنّ مغزى الآية عام بما فيها من العبر للمسلمين في كل الأزمنة وليس مقتصراً على أحداث بعينها.

﴿وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٦).

١٧٦- ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ الخطاب وإن كان في الأصل للنبي ﷺ فهو أيضا موجّه لكل مسلم في كل عصر ألاّ يستسلم للحزن من كيد الكافرين للإسلام، وهو استمرار الخطاب من الآية السابقة بعدم الخوف من أولياء الشيطان، ومنهم الذين يسارعون في الكفر ويبشرون به، وويتنشطون في الكيد للمسلمين وبث الشكوك عنهم وفيما بينهم، والمعنيّون بذلك زمن البعثة النبوية هم عتاة قريش ممّن قاوموا الإسلام والمسلمين، ثم بعد ذلك هم الصليبيون واليهود والمنافقون ودعاة المادية الذين حاربوا ويحاربون الإسلام على مرّ الأزمان حتى عصرنا هذا سواء بالسلاح أو بترويج الدعايات المغرضة عن المسلمين ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ لأنهم لن يتمكنوا من إبطال الإسلام وإزالة شريعته بل مصيرهم إلى الاضمحلال ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾ بسبب فساد فطرتهم ممّا اقتضى ألاّ يكون لهم نصيب من خيرات الآخرة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ بسبب إصرارهم على إنكار الحقيقة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٧٧).

١٧٧- بعد أن نهى تعالى عن الاستسلام للحزن بسبب كيد الكافرين ، يبين تعالى في هذه الآية سبب مسارعة الكفار في الكفر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ معنى الشراء يقتضي أنّ الكفار المذكورين متهالكون على الدنيا فتكون معارضتهم للإسلام لا علاقة لها بالقناعات الفكرية وإنما لمجرد الخوف على مصالحهم الدنيوية ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ لأن الإسلام ليس بحاجة لهم، وإنّما البشرية هي التي بحاجة لنور الإسلام وحقيقته ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ باختيارهم المصالح الدنيوية على الآخرة.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (١٧٨).

١٧٨- ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ﴾ استمرار الخطاب من الآية السابقة، ونملي لهم أي نمهلهم ونؤخرهم، فبعد أن بيّن الله تعالى الحقيقة للناس من خلال الأنبياء والوحي وأعطاهم حرية الخيار كي يعمل كلّ إنسان ما يشاء بحسب استعداده، أمهلهم كي تكون لهم فرصة التوبة، فلا يحسب من أصرّ على الكفر أن الإمهال خير له وتأييد لضلاله، إلاّ إذا اغتنم فرصة التوبة: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ أي تكون نتيجة إمهال المصرّين على الكفر أنهم يرتكبون المزيد من الآثام، فلا يتوبون ولا يبصرون الحقيقة ولا يذعنون لها ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ لإصرارهم على الكفر.

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٩).

١٧٩- ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ المعنى لم يكن الله ليدع المؤمنين -أو مَن لديه استعداد للإيمان- على ما هُم عليه من الضلالة والشرك ﴿حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ حتى يبعث الله الرسل فيظهر مَن عنده استعداد للإيمان منكم فينقذه من الضلال ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ فلا ينزّل الوحي على كلّ فرد منكم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يختار من يشاء من رسله فيطلعهم على بعض الغيب ويوحي إلى الناس عن طريقهم ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ فالمطلوب منكم أن تؤمنوا بالله ورسله لأن الوحي يأتي عن طريقهم ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا﴾ إن تؤمنوا بالوحي الذي نزل على الرسل (وَتَتَّقُوا) وتتقوا المعصية ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وهو غاية ما يطمح إليه العاقل باعتبار هذه الحياة الفانية.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (١٨٠).

١٨٠- ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ لا يحسبنّ الذين يبخلون البخلَ خيراً لهم، أو لا يحسبنّ أحدٌ بخلَ الذين يبخلون خيراً لهم، وارتباط الآية المباشر بسابقتها لأن البخل سمة الكفار المخاطبين بها من حيث أن المادة في الدنيا هي معبودهم وهدفهم الوحيد، وهذه الآية أيضاً متسلسلة مع آيات الحث على الجهاد وبذل النفس فهي الآن تحث المؤمنين على عدم البخل بالمال وبالعلم ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ سيلزمون إثم بخلهم في الآخرة كما يحيط الطوق بالعنق، والتطويق من باب الاستعارة كقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣/١٧]، ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ له ما يتوارثه الناس من الأموال، لأنهم يمتلكون المال مرحلياً، وفي النهاية يفنى أهل السماوات والأرض ويبطل ملك المالكين ولا يبقى مالك إلا الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيكون الجزاء بمقدار العمل.

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (١٨١).

١٨١- بعد أن حثّت الآية السابقة على إنفاق المال في سبيل الله، تذكر هذه الآية كلام اليهود بالطعن في ذلك ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ كان يهود المدينة يقولون ذلك تهكّماً واستهزاءً بالقرآن ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ما قالوا من التهكّم والاستهزاء، يُجازيهم الله عليه وعلى قتلهم الأنبياء، ونَسَب قتل الأنبياء إليهم لأن اليهود راضون بما فعله أحدادهم، وباعتبار تكافلهم كأمّة إذ قتلوا يحيى وغيره من

الأنبياء، وهمّوا بقتل المسيح والنبيّ عليهما السلام، انظر شرح الآية (٢١)، ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ في الآخرة.

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (١٨٢).

١٨٢- ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ ذلك العذاب سببه ما كان منكم، أيها اليهود، من الكفر والفسوق والمعصية ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ لأن ما يصيبهم من العذاب هو نتيجة طبيعية لأعمالهم.

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٨٣).

١٨٣- ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ وهو قول اليهود ﴿إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ أي ما لم يكن متبعاً للشريعة الموسوية، فيقبل بحرق القرابين كجزء من الطقوس الدينية عندهم، انظر (سفر اللاويين ١/٧-٩)، ومع أن اليهود عطّلوا هذه الطقوس بعد الخراب الثاني لمعبد سليمان على يد الرومان عام ٧٠م ، فقد بقي يهود ما بعد التلمود على قناعة بأن المسيح، أو خاتم الأنبياء المنتظر، سوف يعيد إقامة شريعة موسى على تمامها، وعلى هذا رفضوا الاقتناع بنبوة من لا يقيم شعائرهم بكلّ تفاصيلها ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ أي إن رسلكم ممن جاؤوكم بالبينات قبلي كانوا يقبلون بحرق القرابين كما قلتم ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ قبل الخراب الثاني لمعبد سليمان كانت شعيرة حرق القرابين شائعة لديهم يقومون بها يومياً، وقت بعثة يحيى وعيسى عليهما السلام، ومع ذلك فقد قتلوا يحيى وغيره، وحاولوا قتل عيسى المسيح عليهم السلام، ولا زالت شعيرة حرق القرابين شائعة حتى اليوم في مدينة نابلس عند طائفة السامريين من اليهود Samaritans .

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾(١٨٤)

١٨٤- ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ أيها النبي (فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ) كُذّب نوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم ولوط وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام (جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ) جاؤوا بالدلائل البينة على الحقيقة وبالكتب السماوية والوحي المنير بوضوحه، والمعنى أن الناس درجوا على تكذيب الأنبياء منذ القدم واليهود أغرقوا في ذلك، فلا تأس عليهم أيها النبي، ولا تحزن لكفرهم، ولا تعجب من فسادهم، فتلك سنة الله في البشر من حيث إنه تعالى أعطاهم ملَكة العقل والفكر وحرية الخيار فمنهم من يستخدم هذه الملَكة على الوجه الصحيح، ومنهم الجاهل، ومنهم المعنن في ضلاله، ثم مصيرهم إلى الموت والحساب كما سيَرد.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (١٨٥).

١٨٥- استمرار للخطاب من الآية (١٧٦) التي تنهى عن الحزن على المسارعين في الكفر، وما بعدها من الآيات التي تصف جحود الكفار واليهود وإنكارهم الرسل ومعاندتهم للمؤمنين، والمغزى لا يضجر ولا يتزعزع المؤمن من كلّ ذلك لأن الموت ملاقٍ الجميعَ، وعندها لا يجد الكفار نصيباً لهم في الآخرة بل لهم عذاب عظيم:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ كلّ حيّ مصيره إلى الموت ثمّ يُحاسَب بعمله ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ تكون توفية الأجور على تمامها في الآخرة، لأنّ بعضها قد يوفّى في الدنيا من ثواب وعقاب ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ وهو المؤمن، والزحزحة بمعنى الإبعاد ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ المتاع هو ما يتمتع به المرء، ويقال للآنية متاع، والغُرور بضم

الغين ما يُغترّ به من متاع الدنيا أي يُخدع به، فتكون الحياة الدنيا كالآنية التي يُخدع المرء بالتمتع بها، ووُصفت الحياة بالدنيا بمعنى السفلى، أو القريبة أي حياتنا هذه، فهي متاع المُغرق بالانشغال بها، لأنّ المزيد من المتاع يغريه بالمزيد من الإسراف في الطلب بلا نهاية، ولا غاية، حتى تكون المادة هي الغاية النهائية، تغريه وتصرفه عن تحصيل المعارف الحقيقية السامية التي يرقى بها الفكر، كما تصرفه عن العمل الصالح الذي ينفعه وينفع غيره من الناس، ومنهم من تكون غايته مجرد اللهو فيفنى عمره في التسلية واللعب وقتل الوقت بما يضر ولا ينفع.

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (١٨٦).

١٨٦- ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ أي لتختبرنّ بالمصائب في أموالكم، وبموت من تحبّونهم، وليس ذلك مقتصراً على ما وقع لكم في أُحُد، والمعنى أنّ المسلمين معرّضين لسنن الله في خلقه مثل غيرهم من الناس، فعليهم الأخذ بالأسباب، والاستعداد والتضحية وبذل الأموال والأنفس، ولا يظنّوا أن مجرّد كونهم على دين الإسلام يضمن لهم السلامة والنصر، ما لم يرافقه العمل والتنظيم والتضحيات ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ وهم اليهود والمسيحية ﴿أَذًى كَثِيرًا﴾ أي كثيراً من الهجاء والتجريح والافتراء والطعن في الإسلام، كما هو حاصل إلى يومنا هذا، وفي ذلك إخبار بالغيب ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ إن تصبروا على المصائب في الأموال والأنفس وعلى ما تسمعونه من أذى اليهود والنصارى، وتتقوا كل ذلك بالتخطيط والاستعداد والصبر، واتقاء المعاصي ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ هي من الأمور التي أوجبها الله عليكم.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ (١٨٧).

١٨٧ - ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ الخطاب متعلق بما ورد في الآيتين (١٨٣-١٨٤) حيث اختلق اليهود الأعذار لتكذيب اليهود للنبي ﷺ، والمقصود أنه تعالى أخذ الميثاق الذي أخذه أنبياؤهم عليهم أن يبيّنوا الكتاب للناس، بما فيه النبوءات عن قدوم النبي الأحمد خاتم الأنبياء والرسل، ولكنهم لم يكتفوا بعدم بيانه للناس بل كتموه عنهم ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ لم يعيروه انتباهاً و لم يلتفتوا إليه بل أضاعوا قسماً كبيراً منه وأضافوا عليه وحرفوه ﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الثمن القليل هو ظنّ اليهود أنهم شعب الله المختار دائماً وأبداً، وهو أيضاً زعم المسيحية أن عيسى المسيح عليه السلام قد افتدى خطاياهم بالنيابة عنهم سلفاً، وقد يكون الثمن القليل أيضاً تهالكهم على الزعامات والمصالح الدنيوية المؤقتة التي قد تفوتهم لو اتبعوا الرسالة الإسلامية ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ لأنّ ما يتمسكون من هذه الظنون والمزاعم والمصالح المادية ستكون وبالاً عليهم في الآخرة.

وفي تفسير المنار أن هذه الآية عامة في جميع من أوتوا الكتاب بمن فيهم المسلمين، لأن الكتاب اسم جنس لكل الوحي الذي نزل على الأنبياء، وأن المسلمين وإن لم يكتموا شيئاً من القرآن فإنهم مقصّرون في بيانه للناس، وأنهم فقدوا هدايته حتى شاع الفساد، وشاعت الخيانة بينهم، وتمسكوا بالفروع وغابت عنهم الأصول، وأن الكثير من المفسرين الذين تصدوا لتبيين القرآن في الكتب غلب عليهم عدم الاستقلال التام في الفهم، لأنهم افتتنوا بالروايات الكثيرة-وخاصة الإسرائيليات- وقيدوا أنفسهم بالاصطلاحات الفنية في الكلام، وأن تبيين القرآن يجب أن يكون على نوعين أحدهما لغير المؤمنين بغرض دعوتهم للإسلام، والثاني للمؤمنين لإرشادهم بشرح ما فيه.

﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٨٨).

١٨٨- ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا﴾ يفرحون بما فعلوا من أنواع الخبث والغش والنفاق والدجل والجري وراء المادة ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ ويحبون أن يُحمدوا بأنهم أهل الدين والبر والتقوى والصدق، وهم المنافقون في كل الأيام والعصور، وينطبق هذا الوصف أيضاً على اليهود والنصارى الذين حرفوا كتبهم ويفسرونها على وجوه باطلة ويروجونها على الناس من ضعاف العقول والجهلة-ويعتبرون أنفسهم مبشّرين- ، والفرح المشار إليه هو فرح الغرور المبني على الخداع، وليس فرح السعادة الحقيقية للنفس الصادقة (فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ) لا تحسبنّ أيها المؤمن أنهم بمنجاة من العذاب الدنيوي الذي يصيب الأفراد والأمم إذا ابتلوا بالنفاق والخداع والفساد فيحلّ بهم التدهور الاجتماعي والأخلاقي والمادي (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) في الآخرة.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٨٩).

١٨٩- ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تتمة للخطاب من الآية (١٨٦) والآيات التي تلتها، والمغزى أن المؤمنين لا يجب أن يصابوا باليأس أو الحزن، لأن الأمور بيد الله، والباطل لا يدوم ، فسرعان ما تتغير الأمور من حال إلى حال.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ (١٩٠).

١٩٠- ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ هذه الآية، ومثيلاتها في القرآن الكريم كثيرة، دعوة لأولي الألباب من الناس للتفكر في معجزة الخلق والظواهر الطبيعية التي تدل على وجود الخالق ووحدانيته، ونلاحظ أن تعبير أولي الألباب ورد أيضاً في أول هذه

السورة بالآية (٧)، بأنهم يؤمنون بمحكم القرآن ومتشابهه، واللب هو قلب الشيء وجوهره، وهو في الإنسان بمعنى العقل والفكر والفهم والمحاكمة العقلية.

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (١٩١).

١٩١- ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ يواظبون على ذكر الله في كل الحالات بلا فتور ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ فيكون الذكر ليس باللسان فقط ولكن بالقلب والفكر معاً، وبالمقابل فإنّ الفكر وحده لا يكتمل ولا يكون نافعاً إلاّ مع ذكر الله لأنّ هذا هو الغرض منه، أي إن التفكر في الخلق والمخلوقات يوصل إلى معرفة الحقيقة وإلى الإيمان، فيقول المؤمنون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً﴾ المعنى أن الخلق والمخلوقات لم توجد عبثاً أو مصادفة فهنالك حكمة بالغة من خلقها وإن عجزت العقول عن معرفتها ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تنزيهاً له تعالى عن العبث، وإقراراً بعجز العقول عن الإحاطة بالحكمة الإلهية من الخلق ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أي لا تجعلنا من الكافرين أو الغافلين أو الضالين عن الحقيقة فيكون عقابنا نتيجة طبيعية لذلك.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (١٩٢).

١٩٢- ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ استمرار دعاء المؤمنين والمعنى أنّ من لم يرشده عقله وتفكيره إلى الحقيقة والإيمان فقد استحق الخزي بضلال فكره ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ لأنّه لا حكم إلاّ لله، والظالم إطلاقاً هو الكافر، لقوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٤]، لأنهم ظلموا أنفسهم بإنكار الحقيقة.

﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ﴾ (١٩٣).

١٩٣- ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ وهو الرسول ﷺ فمن عاصره ولقيه فقد سمعه، والباقون قرؤوا القرآن فكأنهم سمعوه يناديهم إلى الإيمان ﴿فَآمَنَّا﴾ أي إنهم استجابوا للأنبياء وللهدي الإلهي، بعد أن تفكّروا في خلق السماوات والأرض، وأرشدتهم عقولهم إلى الحقيقة، فطلبوا المغفرة بقولهم: ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ لا تعاقبنا بسبب خطيئاتنا وتقصيرنا في العبادات ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ حطّها عنّا ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ﴾ أمتنا على مثل ما ماتوا عليه من اليقين والأعمال الصالحات.

﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (١٩٤).

١٩٤- ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ ما وعدتنا على لسان رسلك، أو ما وعدتنا منزّلاً على رسلك، أو ما وعدتنا ثواباً لنا على تصديقنا رسلك، والمعنى ثبّتنا على الإيمان ووفّقنا للقيام بصالح الأعمال حتى نستحق الثواب الذي وعدتنا على لسان رسلك، أو عجّل لنا نصرك الذي وعدتنا على لسان رسلك ﴿وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ اجنبنا الضلال كي لا نستحق به الخزي يوم القيامة ﴿إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ وهو ثناء على الله تعالى ختم به الدعاء، لأنّ الوعد متحقق لا محالة إذا قام المؤمنون بما يجب عليهم.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ (١٩٥).

١٩٥- ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ استجاب تعالى لدعاء المؤمنين الذين وصفهم في الآيات السابقة بأنهم مواظبون على الذكر والتفكّر في الخلق والعبادة بعد أن أرشدتهم عقولهم السليمة إلى الحقيقة والإيمان ﴿أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ﴾ أخبرهم تعالى أنه لا يضيع ثواب العمل، وأن استجابته تعالى

لدعائهم مرتبطة بعملهم، والمغزى أن العبرة من العبادة هي بالعمل، وليس فقط أداء الفرائض، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة ٧/٩٩]، أي النتيجة على قدر العمل.

﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ هم متساوون عند الله في ثواب أعمالهم ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ كلّهم عباد الله ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ اختاروا الهجرة من أوطانهم ﴿وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ اضطرّهم الكفار قسراً للخروج من ديارهم ﴿وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي﴾ لحقهم الأذى بسبب إيمانهم وعملهم لأجله ﴿وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾ في سبيل الله ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ يمحو تعالى سيئاتهم، وفوق ذلك يدخلهم الجنة ﴿ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ الثواب من ثابَ أي رجعَ، فيكون الثواب ما يرجع إلى المرء نتيجةً لعمله ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ حسن الثواب الذي يلازم العمل الصالح.

﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ﴾ (١٩٦).

١٩٦- ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ﴾ كان الكلام في الآيات السابقة عن أولي الألباب من المؤمنين المواظبين على ذكر الله، وعلى التفكر في مخلوقاته، واستغفارهم لذنوبهم، وطلبهم الهداية واستعجالهم نصر الله، وقد أخبرهم تعالى أن العبرة بالعمل، وأنه يستجيب لأعمالهم فلا يضيع عمل عامل منهم، وفي هذه الآية يحذرهم تعالى من الانخداع بالنعم التي يتمتع بها الكفار-

﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (١٩٧).

١٩٧- ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ متاع الكفار قليل من حيث إنهم يتمتعون بنعيم زائل غير قائم على أسس سليمة، وهو في عمر التاريخ والأمم غير ذي بال، كما أن نعمهم مادية ظاهرية، ولا تنطوي على أي قدر من السعادة، ومترافقة بكثير من المنغصات في حقيقتها، وتحمل في ذاتها بذور زوالها وخراب أصحابها ﴿ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ وفوق ذلك كله فإن ما هم عليه من النعيم المبني على الباطل

سيؤدي بهم إلى الهاوية في آخرتهم ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ بئس ما يمهدون لأنفسهم ولآخرتهم.

﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلأَبْرَارِ﴾ (١٩٨).

١٩٨- ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ عرفوه فاتقوا معصيته ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلأَبْرَارِ﴾ وهو النعيم الحقيقي الدائم.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (١٩٩).

١٩٩- ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ بعد أن ذكر تعالى تقلب الذين كفروا في البلاد، وأن مصيرهم إلى العقاب، بيّن في هذه الآية أن من أهل الكتاب مَن يؤمن بما أُنزل على النبي ﷺ، ويؤمن بما أنزل على الأنبياء من قبله، وهم الخاشعون منهم لأنّ خشوعهم يمنعهم من المعاندة والمكابرة كما لا يمنّون أنفسهم بالتوهّم أنّ هنالك من تَحَمّل عنهم خطاياهم سلفاً بالنيابة عنهم، انظر شرح الآية (١٨٧)، ولذلك فإنهم لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً، فلا تقف في طريقهم المصالح والزعامات الدنيوية، ولا يهيمن على فكرهم الشعور بالعصبية والتقليد، وهم أيضاً من أولي الألباب الذين تقدم ذكرهم في الآية (١٩٠) فتراهم من خيار أهل الكتاب علماً وبصيرة، ولعل ذلك سبب قلّتهم، وقد دخل الكثير منهم الإسلام بعد الفتوحات الإسلامية في بلاد الشام وغيرها، ولا يزالون في كل زمان ومكان وهذا من قبيل إخبار الآية بالغيب ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لأن الموت أسرع وأقرب بعيد، وليس بين المرء والحساب إلا أن يموت، فإذا مات لم يجد أمامه إلا عمله فيحاسب به.

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٢٠٠).

٢٠٠- ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ذكر الرازي أن هذه الآية مشتملة على جميع الآداب، منها ما يتعلق بالإنسان وحده مما يحتاج إلى الصبر، ومنها ما يكون مشتركاً بينه وبين غيره مما يحتاج إلى المصابرة، فمن الأمور المتعلقة بالإنسان وحده، الصبر على شدائد الدنيا ومصائبها، والصبر على أداء الطاعات، والصبر في العلم وتحصيله.

ومن الأمور المشتركة مع الآخرين، تحمل المكاره منهم، أي تحمل ما يصدر عن الناس من سوء المعاملة، والعفو وترك الانتقام، ومن ثمّ يحتاج الإنسان للتغلب على الغضب وعلى الشهوة وعلى الحرص، فما لم يكن مشتغلاً بمجاهدة هذه الخصال الذميمة لا يستطيع الصبر والمصابرة وهو معنى قوله ﴿وَرَابِطُوا﴾ والغرض من كل ذلك هو التقوى لنيل الفلاح.

وقيل أيضاً إن المصابرة والمرابطة هي منافسة الأعداء في الصبر، والاستعداد والتعلم والدفاع عن دار الإسلام، وأن لا يكون العدوّ أصبر من المسلمين.

محور سورتيْ (البقرة-آل عمران)

سورتيْ البقرة وآل عمران متكاملتان تتمّم إحداهما الأخرى، فبعدما تبدأ سورة البقرة بوصف أصناف ثلاثة من الناس: المؤمنين، والمصرين على الكفر، والمنافقين، آيات [البقرة ٢/١-٢٠]، وتصف خلافة بني آدم في الأرض، وتفضيلهم بالعلم، وأنّ الإنسان في صراع ضد عناصر الشر، آيات [البقرة: ٢/٣٠-٣٩]، وبعد أن تدعو بني إسرائيل إلى الإسلام وتسرد تاريخهم وارتكاسهم المتكرر إلى الوثنية، آيات [البقرة: ٢/٤٠-١٠٥]، تُكمِل سورة آل عمران بتعداد جرائم اليهود وعنادهم وقتلهم الأنبياء وغرورهم، ثم تذكر انتقال النبوة من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل، آيات [آل عمران:: ٣/٢١-٢٧].

وتنسخ سورة البقرة الشرائع السابقة بشريعة الإسلام، وتدحض عقائد اليهود والنصارى، آيات [البقرة: ٢/١٠٦-١٤١]، وتقرر عودة القبلة إلى مكة، علامةً من علامات انتقال النبوة من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل بعد أن رفض بنو إسرائيل آخر أنبيائهم عيسى المسيح عليه السلام، آيات [البقرة: ٢/١٤٢-١٥٢]، وتشرح شعائر الحج، آيات [البقرة: ٢/١٩٦-٢٠٣]، ثم توضح سورة آل عمران أن أول بيت وضع للناس هو الكعبة المشرّفة، وتفرض الحج إليه، آيات [آل عمران:: ٣/ ٩٤-٩٧].

وتوضح سورة آل عمران أن الحكمة الإلهية اقتضت نزع الرسالة من بني إسحاق بعد فساد اليهود المزمن وإيتاء الرسالة بني إسماعيل وختمها ببعثة النبي الأحمد: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:: ٢٦/٣]، وأن الإسلام دين الأنبياء من الأزل: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران:: ٦٧/٣].

وتحذّر سورة البقرة المسلمين بأنّ اليهود والنصارى لا يقبلون منهم بأقل من اتّباع ملّتهم، آية [البقرة: ٢/١٢٠]، ثم توضح سورة آل عمران أنّ أهل الكتاب لا يكتفون بالكفر، بل يحاولون أيضاً صدّ المؤمنين عن سبيل الله، ومن ثمّ فإنّ طاعة أهل الكتاب من اليهود والنصارى تؤدي إلى وقوع الفتنة بين المسلمين فيصبحون بذلك كافرين، آيات [آل عمران:: ٣/ ٩٨-١٠١]، لذا تحرّم سورة آل عمران على المؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياء، آيات [آل عمران:: ٣/ ٢٨-٣٢]، كما تنهاهم عن اتخاذ الكافرين بطانة، وتكشف لهم ما في صدور أهل الكتاب من البغضاء والكيد، آيات [آل عمران:: ٣/ ١١٨-١٢٠].

وتحدد سورة البقرة ثواب الإنفاق في سبيل الله، وتحدد أحكامه ووجوهه، آيات [البقرة: ٢/٢٦١-٢٧٤]، ثم تخص سورة آل عمران على الإنفاق: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:: ٣/١٣٤]، وتبين أنّ غاية ما يمكن أن يتوصّل إليه المؤمن، بعد أن يقوم بجميع أركان الإسلام، هو الإنفاق ممّا يحب، فلا يكون باراً صادق الإيمان حتّى يتوصّل إلى هذه الخصلة: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:: ٣/٩٢].

وفي حين تحرّم سورة البقرة الربا، آيات [البقرة ٢/٢٧٥-٢٨١]، تنهى آل عمران عن أكل الربا أضعافاً مضاعفة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:: ٣/١٣٠].

كما تنص سورة البقرة أن لا إكراه في الدين، آية [البقرة : ٢/٢٥٦]، وتقرر مشروعية القتال للدفاع عن دار الإسلام ولتأمين حرية الدين ومنع الاضطهاد الديني، آيات [البقرة: ٢/١٩٠-١٩٥]، ثم تفرض سورة آل عمران على المسلمين واجب الدعوة بالقدوة الحسنة: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران::

٣/١٠٤]،وتنصّ أن الرسول، وكل مسلم، مكلّف بالبلاغ فقط، وحساب الناس على الله، آية [آل عمران: ٣/٢٠]، وتبيّن وجوب الرفق واللين في الدعوة إلى الإسلام، أسوة بالنبي ﷺ، آية [آل عمران: ٣/ ١٥٩]، وتنهى عن تكفير الآخر استناداً إلى العلامات والقرائن، آية [آل عمران: ٣/١٦٧]، ثم تدعو سورة آل عمران أهل الكتاب إلى الإسلام وتبدي لهم الحجج الباهرة، وتذكر الميثاق الذي أخذه الأنبياء على أقوامهم بتصديق خاتم النبيين، آيات [آل عمران: ٣/ ٦٤- ٨٣].

* * *

سورة النساء -٤-

مدنية

مقدمة

أطلق على هذه السورة اسم سورة النساء، لأنها اشتملت في العديد من آياتها على تشريع حقوق النساء، كما اشتملت، من ضمن أمور عديدة أخرى، على تشريعات لها علاقة بالأسرة والحياة العائلية والزواج والصداق والإرث واليتامى وصلة الأرحام.

والسورة مدنية بكاملها، نزلت منذ أواخر السنة الثالثة من الهجرة وحتى نهاية السنة الرابعة من الهجرة، وإن كان بعض آياتها قد نزل قبل ذلك، وبعضها الآخر نزل بعدها، كالآية ١٧٦ في الكلالة، والتي قيل إنها كانت من آخر ما نزل من الوحي.

الخلفية التاريخية

كانت مهمة النبي ﷺ بعد هجرته إلى المدينة ذات ثلاثة أبعاد، **أولاً**: تنظيم المجتمع الإسلامي الجديد والحكومة الإسلامية وفق تعاليم الإسلام والتخلص من بقايا الجاهلية وعاداتها وتقاليدها، **ثانياً**: الوقوف في وجه تحالف اليهود والمشركين والمنافقين في حملتهم الشرسة ضد الإسلام والمسلمين، **ثالثاً**: نشر الرسالة الإسلامية في كامل جزيرة العرب في وجه العداء الذي كان يواجهه المسلمون من اليهود والمشركين والمنافقين، فكانت هذه السورة، مع ما سبقها من سورتي البقرة وآل عمران، تفي بهذه الأغراض جميعاً.

ارتباط السورة بما قبلها

في أواخر سورة آل عمران قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥/٣]، ثم تفتتح سورة النساء بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١/٤]،

وفي سورة آل عمران أن طاعة أهل الكتاب تؤدي بالمسلمين إلى الردة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠/٣]، وكذا طاعة الكفار: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٩/٣]، ثم في سورة النساء أن أهل الكتاب جاهدون في إضلال غيرهم من المسلمين: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ [النساء: ٤٤/٤]، أنظر أيضاً آيات [المائدة: ٥/ ٥١ و ٥٧].

وفي سورة آل عمران أن اليهود والنصارى أوتوا نصيباً من الكتاب فقط: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣/٣]، وأنهم بعد تشويه التوراة والإنجيل يزعمون أنهما من عند الله: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨/٣]، ثم في سورة النساء أن اليهود شوّهوا ويشوّهون التوراة: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦/٤].

وفي سورة آل عمران أن الإسلام دين الأنبياء جميعاً: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران: ١٩/٣]، وأنه لا يُقبل مَن يبتغ غير الإسلام ديناً: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥/٣]، لذا تأمر سورة النساء أهل

الكتاب أن يؤمنوا بالإسلام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ [النساء: ٤٧/٤]، وكذا آية [النساء: ١٣٦/٤]، إذ ليس شيء أحسن من إسلام الوجه لله، مع إحسان العمل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥/٤].

وفي سورة آل عمران أن ليس من صفات المؤمنين اتخاذ الكفار أولياء لهم: ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨/٣]، ونهي عن اتخاذهم بطانة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً﴾ [آل عمران: ١١٨/٣]، ثم في سورة النساء نهي صريح عن موالاتهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤/٤].

وفي سورة آل عمران أن اليهود حرّموا على أنفسهم بحكم العادات والتقاليد: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣/٣]، ثم في سورة النساء أن التحريم المذكور في كتب اليهود فرضه الأحبار إذ اتّخذوا لأنفسهم حق التشريع والتحليل والتحريم، فالمغزى أنهم شدّدوا على أنفسهم فكانت عقوبته تعالى لهم: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠/٤]، انظر أيضاً آية [الأنعام: ١٤٦/٦].

وتحض سورة آل عمران على الإيمان بالقرآن وبالرسل وعدم التفريق بينهم: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ

أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤/٣]، ثم تبين سورة النساء تسلسل النبوات: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣/٤].

محور سورة النساء

تبدأ السورة ببيان أحكام تنظيم الأسرة الإسلامية والعلاقات العائلية، ومنها أحكام الإرث، ثم تنتقل إلى مواضيع الحكومة الإسلامية، وعلاقات المؤمنين بالكفار، وأمور السلامة العامة، وتبحث وحدة الرسالات السماوية إلى البشرية جمعاء، وتختم بإتمام أحكام الإرث.

ومن نظم السورة نلاحظ تداخل آيات الأحكام والتشريع الإسلامي والتطبيق الحياتي مع آيات التوحيد والإيمان والأخلاق، في إشارة لأن حياة الإنسان وحدة متكاملة مما يستلزم ارتباط الحياة الروحية للمسلم مع حياته العملية المعاشية بلا فصل بينهما.

ومن لطائف السورة أنّ ما يصيب الإنسان من حسنات أو سيئات يتم بحسب سننه تعالى في الخلق وفق نظام الأسباب والمسببات وبنتيجة حرية الخيار التي كرّم بها تعالى بني آدم، فما بالهم لا يفقهون سننه تعالى في خلقه؟ ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (٧٨)، فمن يتّبع سبل الخير يصل إليها، لأن الإنسان مخيّر في اتباع الطرق التي تودي به إلى الصواب أو الخطأ، والخير أو الشر، فيكون ما أصابه من السيئة لعدم فهمه الوحي، وعدم اتباعه السنن التي أوجدها تعالى في الخلق: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (٧٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (١).

١ - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ خلق تعالى الناسَ كلَّهم فذلك مدعاة لتقواه من قبل المخلوقين ومدعاة لتجنب عصيانه في التشريعات التي سوف يرد ذكرها في هذه السورة وغيرها ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ البشر كلهم مخلوقون من أنفس متماثلة فهي بالتالي نفس واحدة وهي المشار إليها بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ الزوج في اللغة يطلق على الجنسين فالمرأة زوج الرجل، والرجل زوج المرأة، والمعنى أنه تعالى خلق زوجها من جنسها، وهو قول أبي مسلم الأصفهاني ذكره الرازي، وذلك شبيه بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النحل: ٧٢/١٦]، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤/٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠/٣٠]، فالجميع مخلوقون من التراب الذي تتحلل إليه كافة المواد العضوية.

﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ نشر تعالى الخلق من الذكر والأنثى، واختصّ تعالى الرجال والنساء والزوج أو الزوجة بالذكر لأن محور السورة يدور حول التشريع العائلي ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ لأن العرب كانوا يسأل بعضهم بعضاً باسم الله، كقول أحدهم لغيره: أسألك بالله أن تعطيني حقّي ﴿وَالأَرْحَامَ﴾ أي واتقوا حقوق الأرحام فأعطوها ولا تقطعوها، وذلك بأن يكون المرء باراً مع أرحامه محسناً إليهم، وفي الحديث: «أسرع الخير ثواباً البر وصلة الرحم، وأسرع الشر عقوبة البغي وقطيعة الرحم»، أخرجه ابن ماجه عن

أم المؤمنين عائشة، وفي مسند أحمد عن أم المؤمنين عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «صلة الرحم وحسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الأعمار»، ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ أي كان منذ الأزل وما زال مشرفاً على أعمالكم على الدوام وعالماً بها.

ونلاحظ أن السورة افتتحت بتذكير الناس بالقرابات، وأنّ الله تعالى خلقهم من ذكر وأنثى من نفس واحدة، وأمرهم ببرّ الأرحام، تمهيداً لما سيرد في السورة من تنظيم العلاقات العائلية في تشريع الزواج والإرث وعلاقات ذوي القربى واليتامى.

﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ (٢):

٢- ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾ اليتامى الذين بكفالتكم، والمقصود تسليم أموالهم لهم بعد وصولهم سنّ البلوغ والرشد، كما سيرد في الآية (٦)، والمقصود أيضاً الإنفاق عليهم من أموالهم قبل ذلك ﴿وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ المعنى لا تختاروا العمل الخبيث وهو أكل أموال اليتامى، بدلاً من العمل الطيب وهو المحافظة عليها، والمعنى أيضاً لا تبادروا بأكل أموال اليتامى على أمل تسديدها فيما بعد، أي لا تأخذوا عاجلاً بآجلٍ، وأيضاً لا تأخذوا الجيد من أملاكهم وتضعوا مكانه الأقل جودة كأخذ العقار الجيد ووضع العقار الأقل قيمة مكانه ﴿وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ لا تأكلوا أموالهم فتضمّوها إلى أموالكم لدرجة عدم التفريق بينهما في الإنفاق ﴿ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ إنّ أكلكم أموال اليتامى إثم كبير.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا ﴾ (٣).

٣- ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي﴾ نكاح ﴿الْيَتَامَى﴾ لأن الخطاب ينصرف إلى اليتيمات، والإقساط: العدل كما في قوله تعالى: ﴿وأقسطوا إن الله يحبّ المقسطين﴾ [الحجرات: ٤٩/٩]، فيقال أقسط الرجل إذا عدل، أمّا قَسَطَ فمعناها جارَ إذ يقال: قَسَط الرجل إذا ظلم صاحبه في قسطه أو نصيبه الذي يستحقه، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ٧٢/١٥].

﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ الكلام لا يزال في اليتامى، فقد كان من عادة البعض في الجاهلية أن يتزوج من النساء اليتيمات اللواتي بكفالته إمّا طمعاً بمالهنّ، وإما لكي يقرر لهنّ من الصداق ما هو أقل ممّا يجب لأمثالهنّ، أو يتجاوز على حقوقهنّ في المعاملة لأن اليتيمة لا تجد من يحميها، فنهاهم تعالى عن ذلك وأمرهم في هذه الحالة أن يتزوجوا من النساء الغرائب، أي من غير اليتيمات اللواتي بكفالتهم، إن خافوا عدم العدل في حقوقهنّ، وفي هذه الحالة ينصرف تعبير اليتامى في الآية إلى «أماثلهنّ» أي اليتيمات، وينصرف تعبير «النساء» إلى النساء الغرائب من غير اليتيمات، فكأنه تعالى قال دع هؤلاء اليتيمات وتزوج ما أحلّ لك من غيرهنّ من الحرائر أو من ملك اليمين، فيكون تقدير الخطاب كما يلي: ﴿وإن خفتم ألاّ تقسطوا -في نكاح يتامى النساء اللواتي بكفالتكم- فانكحوا ما طاب لكم من النساء-من غيرهنّ-﴾ بدليل قوله تعالى في الآية (١٢٧): ﴿وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللاتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ﴾.

وقالوا أيضاً في معاني الآية: إن خفتم ألاّ تعدلوا في أموال اليتامى التي ورد النص فيها بالآية السابقة وكنتم متحرّجين في هذه الأموال حريصين على العدل فيها والمحافظة عليها، فكذلك يجب أن تتحرّجوا في النساء وأن تخافوا الظلم في حقوقهنّ التي أوجبها الله عليكم، ولكم أن تتزوّجوا منهنّ ثنتين أو ثلاثاً أو أربعاً

فقط، ولا تزيدوا على ذلك، فإن خفتم الظلم فيهنّ فواحدة تكفي ﴿أَوْ﴾ انكحوا من ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ والنكاح بمعنى العقد الشرعي بين الرجل والمرأة الذي يسبق الدخول، بدليل آية [الأحزاب: ٤٩/٣٣]، فملك اليمين لا يعني ملك الوطء دون عقد نكاح، فيكون تقدير الآية ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ - فانكحوا مثنى وثلاث ورباع من- مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ وفق الشروط المذكورة في الآية (٢٥).

﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا﴾ أي إن خفتم ألاّ تعدلوا في مثنى أو ثلاث أو رباع فتزوجتم واحدة، أو تزوجتم ملك أيمانكم، فذلك أدنى أي أقرب ألاّ تعولوا، أي أن لا تجوروا ولا تميلوا عن الحق.

وقيل أيضاً من معاني الآية أنه إذا خاف المرء عدم الإقساط في اليتامى الذين واللواتي بكفالته فله أن ينكح أمّهات هؤلاء اليتامى اثنتين أو ثلاثاً أو أربعاً شريطة تحقيق العدالة.

لكن عدنان الرفاعي قرأ النص القرآني على إطلاقه بحيث يكون المعنى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ أي في النساء المنفردات الفائضات اللاتي لا يجدن أزواجاً ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ لأنّ من مقتضيات عدم الجور فيهنّ هو الزواج منهنّ ﴿مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾ أي وإن كانت إحداهنّ الزوجة الثانية أو الثالثة أو الرابعة لكي لا يكون هنالك نساء فائضات منفردات في المجتمع، فهنّ يتيمات بهذا المعنى.

والواضح أن أمر النكاح في الآية يدور حول العدل، ويرتبط به ارتباطاً وثيقاً مع تقليل عدد الزوجات إلى ما لا يتجاوز الأربع، والواضح أيضاً أنه لا يمكن قبول تعدد الزوجات بمعزل عن العدل سواء كان عدد الزوجات أربعاً أو أقل، وقد يحاول البعض ممّن انضبع فكره بالتقاليد الغربية والعادات السائدة، أن يبرهن أن القرآن قد هدف إلى إلغاء تعدد الزوجات، رغم أن الآية صريحة في السماح

به، وقد كان التعدد شائعاً في صدر الإسلام وباقي العصور الإسلامية ضمن حدود العدالة المفروضة عليه، وقد يزعم البعض أنّ تعدد الزوجات سيىء بحد ذاته وفي هذا الزعم خلط بين الشرع وبين التطبيق السيىء، والتعدد في بعض الحالات يكون ضرورياً ومرغوباً به من وجهتي النظر الأخلاقية والاجتماعية، ولا يحق لمعارضي التعدد أن ينسبوا رأيهم الشخصي إلى القرآن الكريم لمجرّد وقوع سوء في التطبيق، إذ لو تربّى النساء والرجال تربية دينية صحيحة بحيث يكون الدين هو الموجّه الحقيقي للنفوس لما كان هنالك ضرر على الأمة من تعدد الزوجات، بل لتحققت منه الفوائد التي هدف إليها الشرع.

وفي جميع الأحوال فإن الزواج لا يتم بالإكراه وتستطيع أي كارهة للتعدد أن ترفضه، كما تستطيع المرأة التي تخشى من زوجها التعدد أن تشترط في عقد النكاح أن لا يكون لها ضرّة، وعلى الزوج أن يفي بالشرط وإلاّ طُلّقت.

﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ (٤).

٤- ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ بعد أن أباح تعالى الزواج حتى الأربعة أوجب لهنّ الصداق، وصدقاتهنّ هي مهورهنّ وهي جمع «صداق» أي ما يصدُق به النكاح، ونحلةً معناها فريضةً لأن النحلة في اللغة هي الديانة والملّة والشرعة والمذهب، فيكون المعنى إنّ إعطاء النساء مهورهنّ يعتبر شريعة مفروضة، ومعنى النحلة أيضاً هي العطيّة عن طيب خاطر من غير مطالبة ولا مخاصمة من الطرف الآخر ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ أي إن وهبنَ لكم شيئاً من المهر عن طيبة نفس من غير أن يكون سبب ذلك سوء العشرة أو المشاكسة من الزوج فكلوه وأنفقوه، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنّ للمرأة أن تعود عن هبتها وتأخذها من الزوج إن رغبت ولو بعد حين (ذكره الزمخشري).

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (٥).

٥- ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ بعد أن أمر تعالى إيتاء اليتامى أموالهم، اشترط في هذه الآية أن يكونوا غير سفهاء أي غير ضعاف العقول ذوي الاضطراب في الرأي والفكر أو الأخلاق، والآية ذات مغزى عام من حيث إن الثروة هي قوام الفرد والمجتمع فلا يجب أن تترك بتصرف السفهاء لأن إساءة استخدامها قد يؤدي إلى خراب الحياة الاجتماعية والاقتصادية وخراب الأسس الأخلاقية للمجتمع، والمعنى أنّ الحق بالتملك ليس مطلقاً إذا كان الشخص غير قادر على ممارسة حقه بالشكل المناسب أو إذا كان تصرفه بالمال يسبب أذى للمجتمع نتيجة استهتاره وتبذيره ونزواته ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾ في هذه الحالة يتم تزويد السفهاء بحاجياتهم المعيشية الكافية دون إطلاق يدهم في التصرف بالمال، والخطاب في الآية ليس مقتصراً على أوصياء اليتامى بل عام للجميع بأن من يريد أن يهب بعض ماله أو بضعه بتصرف غيره يلزم أن يكون متأكدا من حكمة وعقلانية واتّزان الآخرين أوّلاً،

﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ وهو النصح والإرشاد والتعليم والتأديب حتى تتحسن حالهم، لأن السفه قد لا يكون فطرياً وإنما أمراً عارضاً يزول بالتعليم.

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (٦).

٦- ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ في هذه الآية تفصيل شروط إيتاء اليتامى أموالهم وتحديد أوان الإيتاء وكيفيته، فالشروط أن يبلغ اليتيم الحلم وأن يكون راشداً، والابتلاء هو الاختبار، فيكون ابتلاء اليتامى اختبارهم، والمعنى اختبروهم إلى ابتداء الوقت

الذي يبلغون فيه سن النكاح فإن وجدتم منهم رشداً بعد البلـوغ فـادفعوا إليهـم أموالهم، وإلاّ فاستمرّوا في اختبارهم إلى أن تجدوا منهم رشـداً، ويلاحـظ تنكير كلمة الرشد في الآية، وقيل المقصود من ذلك إيناس شيء من الرشد ينـافي هـدر المال، والمعنى إن آنستم منهم رشداً ما، وفيه تحقيق لما ورد بالآيـة السـابقة ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾ لا تأكلوهـا مسـرفين إسـرافاً، ولا تبـادروا بداراً لأكلها قبل أن يكبروا، قائلين لأنفسكم ننفـق منهـا كمـا نشـتهي قبـل أن يكبروا فينتزعوها من أيدينا ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ لأن الغني غـير محتـاج لمال اليتيم فعليـه أن يعـف ويـترفع عـن الأكـل منـه ﴿وَمَـنْ كَـانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ للفقير المحتاج أن يأكل بالمعروف أي بما يسد الضرورة مـن حاجتـه ويكون ذلك بمثابة القرض إذا أيسر قضاه وإن مات و لم يقدر علـى السـداد فـلا شيء عليه ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾ الإشهاد تحقيقـاً لوقـوع الدفع ومنعاً لاحتمال الخصومة والمقاضاة ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي إنّ الإشهاد وإن حصل بحيث يسقط الدعوى عند القاضي فهو لا يسـقط الحـق عنـد الله إن كان ولي اليتيم خائناً.

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ (٧).

٧- ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّـا تَـرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًـا مَفْرُوضًـا﴾ تبيّـن هـذه الآيـة عـدة مباديء أولاً: أن النساء ترث كمـا يـرث الرجـال، وثانيـاً: أنّ الإرث وإن كـان قليلاً فيجب توزيعه على الورثة من ذكور وإناث، وثالثاً: أن الإرث يشمل جميع ما تركه الوالدان والأقربون من مال وعقار وزراعة وصناعة وغيرها، ورابعـاً: أنّ حقوق الميراث تجب بمجرد وفـاة المـورّث بـلا انتظـار، وخامسـاً: أن لكـلّ مـن الورثة نصيب مفروض أي حق معيّن لا جدال فيه، كما سيرد تفصيله، والكـلام

في هذه الآية لا يزال متصلاً بما قبله من حيث حقوق اليتامى والنساء وتحريم الظلم الذي قد يلحق بهم.

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفًا﴾ (٨).

٨- ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ أي قسمة التركة ﴿أُولُوا الْقُرْبَى﴾ ممن لا يرث ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ أي ارزقوهم، أيها الورثة، مما ترك الوالدان والأقربون كما ذُكر في الآية السابقة، والمقصود أن هذا المال قد وصل إلى الورثة من غير جهد ولا مشقة فلا ينبغي أن يبخلوا بشيء منه على المحتاجين ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفًا﴾ لتكن أُعْطِيتكم لهم بلا تكبّر أو تبرّم بل يرافقها القول الحسن كي تطيب نفوس المحتاجين، ولا يكون العطاء ثقيلاً عليهم.

ويحتمل أيضا أن يكون المراد من الآية ما يلي: إذا أراد صاحب المال أن يقسم تركته بوصية وكان هنالك من أولي قرابته من المحتاجين ممن لا يرث فليوصي لهم ولليتامى والمساكين بشيء، وهو شبيه بقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢/١٨٠].

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا﴾ (٩).

٩- ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا﴾ الكلام من البداية هو في إيتاء اليتامى أموالهم ووجوب المحافظة عليها وعدم الإسراف في إنفاقها ولا المبادرة إلى أكلها قبل أن يكبر أصحابُها، فعلى هذا يكون الخطاب موجّهاً إلى أولياء اليتامى لِحثّهم على الحرص في أموال الذين بوصايتهم وأن يخافوا يوماً قد يتركون خلفهم ذرية

ضعفاء يكونون فيه تحت وصاية غيرهم من الناس، فأمرهم تعالى بالتقوى وأن يقولوا لليتامى السديد من القول أي العدل والصواب، هذا في الإجمال العام للمعنى.

ويحتمل المعنى أيضاً من جهة ترابط الآية المباشر مع سابقتها أنه عند قسمة التركة فعلياً من قبل الورثة أن يعطوا شيئا لليتامى والمساكين وأن يخشوا يوماً قد يتركون خلفهم ذرية ضعافاً قد لا يكون لهم سند، ويحتمل أيضاً إذا كان المقصود قسمة المال وقت الوصية أن لا يوصي صاحب المال للغير بأكثر من الثلث لقوله ﷺ «الثلث والثلث كثير».

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (١٠).

١٠- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ وهم غير الذين يأكلون بالمعروف بسبب حاجتهم كما ورد في الآية ٦ سابقاً ﴿ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾ أي كمن يأكل النار في بطنه بسبب العاقبة التي يؤولون إليها ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ وهو عذاب الآخرة.

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١١).

١١- بعد أن بيّنت الآيات (٢-١٠) الحكم في أموال اليتامى وواجب الأوصياء فيها، وبعد أن أوجبت الإرث للرجال والنساء معاً بشكل مجمل (الآية ٧)، تفصّل الآيات التالية كيفية وصول الموراث للورثة ولليتامى:

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ﴾ أي في ميراث أولادكم، واتفقوا أن أولاد الذكور يقومون مقام آبائهم عند فقد الآباء ولا يرثون مع وجودهم ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾ الذكر ملزم بالإنفاق على نفسه وعلى زوجه فله سهمان، والأنثى تنفق على نفسها فقط وبعد الزواج تصير نفقتها على زوجها فلها سهم واحد ﴿فَإِنْ كُنَّ﴾ أي الوارثات ﴿نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ إن كان الورثة نساء فقط يزيد عددهن عن الاثنتين فلهن جميعاً ثلثا ما ترك الوالد أو تركت الوالدة، وأما حكم الثنتين من النساء فهو كحكم الجمع ثلاث الأناث أو أكثر، لعدة أسباب ذكروها، منها قول أبي مسلم أن الذكر مع الأنثى الواحدة يرث الثلثين فيلزم أن يكون حظ الأنثيين معاً يساوي الثلثين أي مساوياً لنصيب الذكر الواحد، وأيضاً نصيب البنت هو الثلث إذا اجتمعت مع الولد الذكر فمن باب أولى أن يكون نصيبها الثلث إذا اجتمعت مع الأنثى ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ لها النصف مما ترك الوالد أو الوالدة، والباقي لسائر الورثة حسب النص.

﴿وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ إن كان للمتوفى أو المتوفاة ولد أو أكثر فيأخذ كل من أبويه السدس ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ﴾ مما في ذلك أولاد الابن ﴿وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ﴾ فقط ﴿فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ مما ترك، والباقي لأبيه، وفي حال وجود زوج للمتوفى فيأخذ الزوج نصيبه، ثم تأخذ الأم ثلث ما بقي، ويأخذ الأب الباقي ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾ إن كان للميت إخوة اثنان فأكثر، ذكوراً أم أناثاً ﴿فَلأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ هؤلاء الإخوة أو الأخوات يحجبون حصة الأم من الثلث إلى السدس، والجمهور على أن الأخوة والأخوات لا يرثون شيئاً، ويأخذ الأب خمسة أسداس.

﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا﴾ أي يكون قد أوصى بها الميت ولا تكون في أكثر من ثلث المال ﴿أَوْ دَيْنٍ﴾ أول ما يخرج من التركة ديون المتوفى ولو

استهلكتها بالكامل فلم يبقَ للورثة شيء، فإن فضل بعد الدين شيء أُخرجت الوصية من ثلث ما بقي إن كان للميت وصية، وما بقي بعد ذلك يوزع على الورثة حسب النص، وقد وردت الوصية في الآية قبل الدين، لأنه ليس كل ميت يكون مديوناً بالضرورة، وبالمقابل يستحب لكل مسلم أن يوصي قبل موته وفي الحديث «ما حق امرىء مسلم له مال أن يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة» ، والوصية تنصرف إلى ما لا يزيد عن ثلث المال وتكون لصالح من لا يرثون الشخص من أقاربه أولاً ثم لأعمال الخير ثانياً ﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً﴾ لأن العقول البشرية عاجزة عن الإحاطة بالمصلحة والحكمة من تقدير المواريث، وقد يستحسن المرء ما هو في غير صالحه، والعكس ﴿فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ﴾ أي إن ما تقدم من أحكام الميراث قد فرض عليكم فريضة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ﴾ كان منذ الأزل و لم يزل، فهو تعالى منزّه عن الزمان ﴿عَلِيماً حَكِيماً﴾ عليماً محيطاً بمصالح عباده حكيماً فيما يفرضه عليهم.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ (١٢).

١٢- بعد بيان إرث القرابة، ينتقل الخطاب لبيان إرث المصاهرة:

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ أي زوجاتكم اللواتي دخلتم بهنّ ﴿إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ لا ذكر ولا أنثى ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ ذكر أو أنثى منكم أو من غيركم، واتفقوا أنه لا فرق بين الابن وابن الابن، ولا بين البنت وبنت الابن ﴿فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ للزوج في هذه الحالة ربع تركة زوجته بعد قضاء دينها أولاً، ثم إنفاذ وصيتها في ما لا

يزيد عن ثلث المال الباقي إن كان لها وصية ﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ﴾ لا ذكر ولا أنثى ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ﴾ ذكر أو أنثى، واحداً أو أكثر ﴿فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ﴾ سواء كانت زوجة واحدة أو أكثر، يشتركن جميعاً بالتساوي في الربع أو الثمن ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ بعد قضاء دين الرجل ثم إنفاذ وصيته كما ذكر في شرح الآية (١١)، وليس لوارث شيء إلا مما يفضل عنهما، والجمهور على أن حقوق الزوجية مقدمة على غيرها، أي إن الزوج أو الزوجة يأخذ أحدهما نصيبه والباقي يوزع على الأولاد والوالدين.

ثم بيان إرث الكلالة:

﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ﴾ إن كان الميت ذا كلالة أو كانت المتوفاة ذات كلالة أي ليس له أو لها ولد ولا والد، والكلالة تطلق على ذوي القربى المحيطين بالميت من غير الأصول والفروع، لأن الإخوة والأخوات لا يرثون في حال وجود الأولاد أو الوالد، وتُطلق الكلالة أيضاً على المورّث نفسه إن لم يكن له ولد ولا والد ﴿وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ﴾ المقصود هو الأخ أو الأخت من الأم فقط، لأنهم استحقوا السدس أو الثلث فقط وهو حصة الأم فيما لو كانت موجودة، وأما الأخ أو الأخت من أب، أو أب وأم معاً، فقد ورد حكمهما بالآية (١٧٦) في آخر السورة ﴿فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ لا فرق بين الأخوة والأخوات ذكورهم وأناثهم لأنهم جميعاً حلوا محل الأم فاستحقوا الثلث بالتساوي، وهو نصيب الأم لو كانت موجودة، وقيل إنهم لا يرثون شيئاً مع وجود الأم أو الجدّة أو البنت أو بنت الإبن.

﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ﴾ أي يوصي بها وهو غير مضار لورثته، وقد ورد الإضرار في وصية إرث الكلالة دون ما قبله لكونه أكثر

احتمالاً إذ قلما يعمد المرء إلى مضارة الوالدين أو الأولاد أو الأزواج ﴿وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ﴾ أي يوصيكم الله تعالى بذلك وصيةً، ووصيته تعالى فرض ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ عليم بمصالح عباده محيط بها مما لا يحيط به العقل البشري، وعليم بمن ظلم في الوصية أو عدل بها ﴿حَلِيمٌ﴾ حليم على الظالم لا يعاجله بالعقوبة بل يترك له فرصة التوبة.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١٣).

١٣- ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ في أحكام المواريث خاصةً، وفي جميع الأحكام المذكورة من بداية السورة ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (١٤).

١٤- ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ﴾ في الحدود المذكورة سابقاً أو بشكل عام ﴿يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

﴿وَاللاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً﴾ (١٥).

١٥- ذكر الرازي في وجه اتصال هذه الآية بما قبلها أنه بعد أن أمر تعالى بالإحسان إلى النساء، وبيّن حقوقهنّ، أضاف تعالى إلى ذلك بيان ما عليهن من العقاب إذا أتين الفاحشة فقال عزّ من قائل:

﴿وَاللاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ اللاتي واللواتي جمع التي، ونسائكم أي زوجاتكم، وأجمعوا أن المقصود بالفاحشة هنا الزنا ﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾ لأنه إذا اتهمت المرأة بالزنا فلا تثبت عليها التهمة ولا يُقام عليها الحد إلا بأن يشهد على الفعل أربعة من المسلمين ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾ تحبس المرأة في البيت إذا شهدوا عليها بالزنا، وقالوا إن هذا دليل على

تحريم إمساكهن في البيوت ومنعهن من الخروج لغير هذا السبب إطلاقاً، أي لمجرد الغيرة مثلاً، أو لمجرد التحكم بهن كما يفعل البعض ﴿حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ﴾ كي لا يتكرر ذلك منهن إذا خرجن من البيوت ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً﴾ أن يجعل الله لها نصيباً في الزواج بعد التوبة.

وقيل بالجلد كما ورد في سورة النور [النور: ٢/٢٤]، لقوله تعالى بالآية (٢٥) في عقاب المحصنات: ﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ﴾ بالزواج ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ﴾ وهي الزنا ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ﴾ المسلمات ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾ أي عقاب الكتابيات المتزوجات نصف عقاب المسلمات المتزوجات، فعذاب المحصنات المسلمات مائة جلدة، وهو السبيل الذي جعله لهنّ الله في هذه الحالة.

﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (١٦).

١٦- بعد أن ذكرت الآية المتقدمة حالة اللواتي يرتكبن الفاحشة من الثيّبات والمحصنات بالأزواج ، تنتقل هذه الآية إلى حالة الرجل والمرأة اللذيْن يرتكبانها:

﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ﴾ الرجل والمرأة اللذان يأتيان الفاحشة، وقيل هما البكران اللذان لم يُحصنا، وقد ذكر الطبري أن العرب إذا أرادت الوعيد للاثنين لا تقول: اللذان يفعلان كذا فَعليهما كذا إلا أن يكون فعلاً لا يحدث سوى من جنسين مختلفين أي الذكر والأنثى، أما الوعيد للإثنين من الجنس الواحد فيدخل في الجمع كقولهم: الذين يفعلون كذا فَعليهم كذا ﴿فَآذُوهُمَا﴾ أي بالجلد، كما ورد في آية [النور: ٢/٢٤]، ﴿فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ لا يجوز التعرض لهما بعد ذلك إن تابا وأصلحا أعمالهما ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ لأن الله تعالى رحيم يقبل التوبة من عباده.

وأما ما ذكره البعض من أن الآية تشير لحالة الشذوذ بين الذكور فينقضه كلام الطبري من جهة، ومن جهة ثانية لأنّ عقوبة اللواط أشد من ذلك بكثير.

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (١٧).

١٧- ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾ المعنى أنّ الهداية إلى التوبة والإرشاد إليها والإعانة عليها كل ذلك على الله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ في حق من يرتكب الذنب على سبيل الجهالة، وقد وردت كلمة السوء بصيغة المفرد، والمغزى أن عمل السوء ليس متكرراً من صاحبه، وقالوا أيضاً أن كل من عصى الله سُمّي جاهلا وسُمّي فعله جهالة كما في قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣/١٢].

﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ ورد في تفسير المنار أن هذه الآية بيّنت الوقت الذي تقبل فيه توبة المذنب، والآية التالية بيّنت وقت فوات التوبة، أما بين الوقتين فقد سكت القرآن عنه فهو بين الرجاء والخوف، فكلما قرب وقت التوبة من وقت ارتكاب الذنب كان الرجاء أقوى، وكلما بعد الوقت بالاصرار وعدم المبالاة والتسويف كان الخوف من عدم القبول هو الأرجح، ولا ينافي ذلك ما ورد في الحديث «أن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» فإن المقصود من ذلك أنه لا يجوز لأحد أن يقنط من رحمة الله وييأس من التوبة ما دام حياً، وليس المقصود أنه لا خوف على العبد من التمادي في الذنوب حتى ما قبل الموت ولو بساعة فذلك مخالف لهدي القرآن ﴿فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ الذين يتوبون من قريب ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ لأنه تعالى عليم بشؤون عباده حكيم في قبول التوبة منهم.

﴿وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٨).

١٨- ﴿وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾ لاحظ صاحب المنار أن «السوء» في الآية السابقة

ورد بصيغة المفرد وفي هذه الآية وردت «السيئات» بصيغة الجمع، والمعنى أنّ من كانت حياته كلها سيئات لا تقبل توبته إذا حضره الموت ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ الذين يعملون السيئات ويسوّفون توبتهم إلى حضور الموت هم مثل الكفار الذين يموتون على الكفر لأن كل واحد منهما يكون قد تجاوز أوان التكليف وفاته الاختبار وقت حضور الموت ﴿أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ كنتيجة طبيعية لما كانوا عليه في دنياهم.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (١٩).

١٩- استمرار الخطاب في حقوق النساء: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ حرّم تعالى وراثة نكاح النساء، وهو ما كان عليه الناس في الجاهلية، فكان الرجل منهم إذا مات وترك امرأة ورثها بعض أقاربه كما يُورث المتاع يتصرّفون بهن كيف يشاؤون يتزوجها الوارث أو يزوّجها غيره، ولفظ كرهاً، بمعنى الإكراه أو الكره، ليس قيداً أو شرطاً وإنما هو بيان للواقع الذي كانوا عليه، والمعنى أيضاً لا يحل لكم أن ترثوا أموال النساء بأن تمسكوهنّ ضراراً على كره منهنّ حتى يمتن فترثوهنّ ﴿وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ العضل هو التضييق والمنع والشدة، ومنه الداء العضال، فيكون العضْل في هذه الحالة أن يلجأ الزوج إلى الإضرار بزوجته إذا كرهها فيحبسها ويشدد عليها حتى تفتدي نفسها منه بأن تدفع له من مهرها أو ممّا قد يكون أعطاها ﴿إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ الفاحشة في هذا المعنى هي الزنا، وقيل أيضاً النشوز وسوء العشرة، كأن تستعصي المرأة على زوجها وتبغضه وتفحش له القول فيحق للرجل عندئذ أن يطلب منها الخُلع حتى يأخذ منها ما أعطاها من المهر (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ) الإحسان في عشرة النساء ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ لعيب أو سبب ما ممّا لا يعتبر ذنباً لهنّ فاصبروا ولا تعجلوا

بمفارقتهنّ ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ لأن الإنسان لا يعرف على وجه اليقين أين يكون الخير.

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ (٢٠).

٢٠- ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ﴾ وهي لم تأتِ بفاحشة مبينة ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا﴾ أي مالاً كثيراً ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ بل يجب أن يبقى المال بكامله لصاحبته لأن ترك الزوجة كان بناء على رغبة الرجل دون ذنب منها، والاستبدال مبني على غالب الأحوال وهو لذلك ليس شرطاً لعدم أخذ شيء من المال من الزوجة، إذ حتى لو طلقها الرجل دون أن يتزوج غيرها فلا يحل له أخذ شيء منها ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ البهتان هو الباطل أو الكذب الذي لشدّته يدهش المرء ويسكت متحيراً منه، فيكون البهتان هو أخذ المال منها دون وجه حق أو اتهامها بالفاحشة كذباً كي يأخذ المال منها.

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (٢١).

٢١- ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ لأي سبب وأي مبرر تأخذون منها المال؟ وقد حصل منتهى الاتصال بينكم بالجماع وحصلت الألفة بينكم ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ لأن المرأة عندما تترك أهلها وتقدم على الزواج تكون على قناعة بأن عشرتها الجديدة وصلتها بالرجل سوف تكون أقوى من أي رابطة أخرى ومعيشتها معه سوف تكون أفضل من أي معيشة، فذلك هو الميثاق الفطري الذي يعتبر من أشد المواثيق بين مخلوقين (المنار).

﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (٢٢).

٢٢- ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ لأنّ الرجل منهم في الجاهلية كان إذا توفي عن امرأته صار ابنه أحق بها فينكحها إذا شاء إن لم تكن أمه ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ ما قد سلف منكم في الجاهلية لا تؤاخذون عليه إن تركتموه في الإسلام ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ شديد القبح ﴿وَمَقْتًا﴾ أي ممقوتاً مقتاً شديداً وهو أشد البغض عند ذوي الطباع والفطرة السليمة ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أي ساء طريقاً ذلك النكاح الذي اعتادوه في الجاهلية.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٢٣).

٢٣- ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ أن تنكحوهنّ ،ممن في ذلك الجدّات من جهة الأب أو الأم، وهو تحريم نكاح الأصول ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ وتشمل بنات الأولاد وبنات البنات، وهو تحريم نكاح الفروع ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ سواء كنّ شقيقات لكم أو كنّ من جهة الأب وحده أو الأم وحدها ﴿وَعَمَّاتُكُمْ﴾ أخوات الآباء والأجداد ﴿وَخَالَاتُكُمْ﴾ أخوات الأمهات والجدّات ﴿وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾ من جهة أحد الأبوين أو كليهما، ،ممن فيهنّ بناتهما ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ﴾ سمّى تعالى المرضعة أمّاً للرضيع وبنتها أختاً له، واتفقوا أيضاً أن زوج المرضعة يعتبر أباً للرضيع فتحرم عليه أصول وفروع الرضيع-ولو من غير المرضعة- ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ تشمل أم الزوجة وجدّاتها ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ الربائب جمع ربيبة وهنّ بنات زوجاتكم من زوج سابق ﴿فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ في نكاح بناتهنّ إن فسختم عقد الزواج قبل الدخول ﴿وَحَلَائِلُ﴾ زوجات ﴿أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ بخلاف أبنائكم

بالتبني ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ﴾ نكاح الأختين معاً وإن كانتا أختين من الرضاعة، واتفقوا أيضاً على حرمة الجمع بين البنت وخالتها أو عمتها ﴿إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ منكم في الجاهلية قبل النهي ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ فلا تؤاخذون عليه إن تركتموه في الإسلام.

ويلاحظ في الآية أنه تعالى ذكر من كل صنف من المحرمات بعضه، فدخل في الأمهات الجدّات، وفي البنات بناتهنّ وبنات الأولاد إلخ... .

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٢٤).

٢٤- ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ تتمة الخطاب، أي وحرّم عليكم نكاح المحصنات من النساء أي ذوات الأزواج، ويقال أُحصنت المرأة إذا تزوجت، والمعنى تكون في حصن الرجل وحمايته، وقوله تعالى: ﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾ أي إطلاقاً، لأن عقد الزوجية محرّم مطلقاً لا فرق فيه بين المؤمنات والكافرات، والحرائر والإماء، فيحرم نكاحهنّ إن كنّ متزوجات ﴿إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ بعقد نكاح شرعي ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ كتب الله عليكم تحريم الأنواع المذكورة من النساء كتاباً مؤكداً ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ﴾ سوى المحرّمات المذكورات ﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ﴾ بأن تدفعوا مهر الزوجة ﴿مُحْصِنِينَ﴾ أي متزوجين متعففين عن الزنا ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ غير زانين ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ أي بالزواج منهنّ ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ المهر فريضة ﴿وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ لا حرج عليكم في زيادة أو نقصان المهر بعد ذلك إذا تم بالتراضي بين الطرفين ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بمصالح عباده ﴿حَكِيمًا﴾ في تدبيرها.

﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٥).

٢٥- ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً﴾ في حال تعذّر الإمكانية ﴿أَنْ يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ ذكر المودودي أن إحصان المرأة على درجتين فالمرأة تكون محصنة أوّلاً من قبل عائلتها، ثم بعد أن تتزوج تصبح محصنة أيضاً من قبل زوجها، وذكر عدنان الرفاعي أن الإحصان بالنسبة لغير المسلمة أن تدخل الإسلام وتعمل بأحكامه، وفي هذه الحالة ينصرف المعنى إلى المحصنات بالإسلام ﴿فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي إن تعذّر نكاح المسلمة فلينكح من الفتيات المؤمنات من أهل الكتاب الواقعات تحت ولايته، لأن نكاح المشركات غير جائز، انظر آية (البقرة: ٢/٢٢١)، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾ المسألة متعلقة بالعقيدة، والله تعالى أعلم بالسرائر ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ لأن الجميع خلق الله ويَفضُل بعضهم على بعض بالتقوى ﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ بعقد نكاح شرعي ﴿وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهي مهورهنّ تعطى لهنّ بالمعروف أي بغير إضرار ولا مماطلة ولا نقصان ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ﴾ أي محصنات لكم ولأنفسهنّ، غير مستأجرات للبغاء جهراً ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ لا تكونوا لهنّ أخلاّء سرّاً، وكل ذلك تأكيد أن الوطء لا يجوز إلا بعقد نكاح شرعي مهما كانت منزلة المرأة، مسلمة أو غير مسلمة، حرّة أو أَمَة،

﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ﴾ بالزواج ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ﴾ وهي الزنا ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ﴾ المسلمات ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾ عقاب الكتابيات المتزوجات نصف عقاب المسلمات المتزوجات، أي نصف الحدّ المذكور في الآية (٢) من

سورة النور ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾ أي ذلك الترخيص بنكاح الكتابيات هو لمن خشي المشقة والشدّة والوقوع في الإثم في حال تعذّر نكاح المسلمة ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ المعنى عدم التشجيع على نكاح الكتابيات ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ للضرورات التي سبق بيانها، هي من باب المغفرة والرحمة منه تعالى.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٦).

٢٦- ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أي يريد الله ذلك التحليل والتحريم لأجل أن يبين لكم ما فيه مصلحتكم وسلامة فطرتكم ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ لأن الشرع الذي نزل على جميع الأنبياء يتضمن التوازن بين الحاجات الجسدية والروحية للإنسان ولا مجال فيه للتطرف كالرهبنة والزهد عن النساء، ولا للغلو في إشباع الغرائز الجسدية فقط ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ فيما سلف منكم في الجاهلية خلاف ذلك ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ علمه محيط بمصالح عباده وأحكامه مطابقة لها.

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً﴾ (٢٧).

٢٧- ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ يقبل توبتكم إذا تخليتم عن المعاصي ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً﴾ يودّ أعداء الدين إفسادكم بأن تميلوا وتنحرفوا عن الفطرة السليمة وتتبعوا الشهوة الحيوانية بلا مبالاة ولا قيود ويكون غرضكم من الحياة التمتع بالشهوات الحيوانية والمادية فقط، انظر آية [آل عمران: ١٤٩/٣] .

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ (٢٨).

٢٨- ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ إذ لم يجعل لكم في الدين من حرج، وشرع لكم من الأحكام بحيث يكون هنالك توافق وانسجام بين متطلبات

الجسد والغريزة وبين متطلبات النفس والروح، بلا تناقض ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً﴾ من حيث ميله إلى الشهوات الدنيوية فلا يحتمل التضييق عليه في الاستمتاع بها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (٢٩).

٢٩- بعد أن بيّنت السورة كيفية التصرف بأموال اليتامى، ونهت عن إيتاء المال للسفهاء لوجوب استخدامه على الوجه السليم وبما لا يضر المجتمع، وحدّدت تداول المال بالإرث، وأوضحت أن الإنسان خُلق ضعيفاً يميل إلى الشهوات وإلى متاع الدنيا، تنتقل هذه الآية إلى النهي عن تداول المال بالباطل:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ لا تستولوا على أموال الغير بلا وجه حق سواء بالقوة أو بوسائل أخرى كالغش أو التدليس أو الخيانة أو الميسر أو السرقة أو الربا، وقد أضاف تعالى الأموال إلى الجميع فلم يقل لا يأكل بعضُكم أموال بعض بل قال أموالكم وذلك تنبيها على تكافل الأمة في الحقوق والمصالح، وبمعنى أنه إذا استباح أحدكم أكل مال الآخرين بالباطل فكأنه أباح للغير أكل ماله بالباطل أيضاً، فكما يدين يدان ﴿إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ فعندئذ يكون أكل المال بالحلال، وقيل أيضاً إنّ (إلاّ) بمعنى (ولا) فيكون المعنى لا يحل لكم أن تأكلوا أموال الغير بالباطل حتى لو كان ذلك بموافقة الغير وهو الطرف الضعيف، وسوف يرد بالآية (٣٢) النهي عن تمنّي أموال الآخرين بما قد يؤدي للقتل: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أي لا يقتل بعضكم بعضاً وهو تحريم القتل والاقتتال بين المسلمين، وإضافة الأنفس إلى الجميع من قبيل التعبير عن تكافل مجموع الأمة ووحدتها قال تعالى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢/٥]، كما أنّ قتل الإنسان لغيره يؤدي إلى قتله قصاصاً أو ثاراً فكأنما قتل نفسه ﴿إِنَّ

اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ فمن رحمته تعالى أن جعل إتلاف الأموال والأنفس بالباطل محرماً.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (٣٠).

٣٠- ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا﴾ لا خطأً ولا اقتصاصاً ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ فلا ينجو من عقاب الله في الآخرة، وإن لم يعاجله بعقوبة الدنيا.

﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ (٣١).

٣١- ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ بعد أن نهى تعالى عن أكل الأموال بالباطل وعن قتل الأنفس، وهما أكبر الذنوب المتعلقة بحقوق العباد، نهى أيضاً عن سائر الكبائر وهي المعاصي الكبيرة، والأحاديث الصحيحة في عددها متنوعة، ومنها الشرك بالله، وقتل النفس، والسحر، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي من الزحف، وقذف المحصنات، وشهادة وقول الزور، واليمين الغموس، وكان النبي ﷺ يذكر في كل مقام ما تدعو إليه الحاجة منها، فلم يكن قوله للحصر ﴿نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ وهي الذنوب الصغيرة لا نؤاخذكم عليها ما اجتنبتم الكبائر، وفي تقسيم الذنوب إلى صغائر وكبائر نقرأ قوله تعالى: ﴿مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩/١٨].

﴿وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ بضم الميم، أي تدخلون عالَم البرزخ أو الدار الآخرة مكرَّمين.

﴿وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (٣٢).

٣٢- ﴿وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي بالأرزاق الدنيوية، والآية متصلة بقوله تعالى: ﴿إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾

لأن النهي عن أكل أموال الناس بالباطل يتطلب عدم تمني أموال الآخرين والطمع فيها وحسد أصحابها، وتفضيل بعض الناس على بعضهم الآخر بالكسب الدنيوي على سبيل الابتلاء ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا﴾ أي مما اكتسبوا من الفضل بجهودهم أو بالميراث، ولأن الفضل ينال بالجهد وليس بالتمني ﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ بجهودهن أو بالميراث، والتمييز بين الرجال والنساء عائد لخصوصية ووظائف كل منهما الفطرية ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ لأنه مهما كانت براعة الإنسان في طلب الرزق الكسبي فهو يحتاج للتوفيق الإلهي بما هو خارج عن الإرادة البشرية ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ هو العالم بتوزيع الأرزاق على عباده، والحكمة منها.

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ (٣٣).

٣٣- تتمة الخطاب في المواريث: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ الموالي هم الورثة أي الذين لهم الولاية على الإرث ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ هم الزوج والزوجة لأن النكاح يسمّى عقداً قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢/٢٣٥]، وهنا ذكر تعالى الوالدين والأقربين والزوج والزوجة جميعاً، والمعنى لكلّ مالٍ جعلنا موالي، أي ورثة يلون الوالدين والأقربين والزوج والزوجة في حيازة المال، ويحتمل المعنى أيضاً أن يكون الوالدان والأقربون والأزواج هم الورثة فيكون تقدير الآية: ولكلّ امريء جعلنا ورثة يرثون ماله، والورثة هم الوالدان والأقربون والزوج أو الزوجة، وعندها يلزم الوقف بعد كلمة ﴿تَرَكَ﴾، ﴿فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ من الإرث حسبما نصّ عليه الشرع ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ فيحاسبكم على عملكم.

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ

فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ (٣٤).

٣٤- تتمة الخطاب من الآية (٣٢)، وقد ذكر الزمخشري أن قوامة الرجل على المرأة إنما تُستحق بالفضل، وهو مفهوم الآية، وليس بالتغلب والقهر والاستطالة: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ تقدير الخطاب: الرجال قوّامون على رعاية النساء-بحذف المضاف- وحذف المضاف شائع في التنزيل كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤/٣] أي على لسان رسلك، وقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ [الأنبياء: ٦١/٢١] أي على مرأى أعين الناس، والمعنى أن الرجال يقومون على النساء بالرعاية والإنفاق والحماية والولاية، وهذه القوامة هي المشار إليها بقوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨/٢].

﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي سبب هذه القوامة أنه تعالى فضّل الرجال على النساء ببعض الأمور الفطرية وبالميراث، وفي تفسير المنار أنّ قوله تعالى: ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ ذو مغزى إذ لم يقل بما فضّلهم عليهنّ ومعنى ذلك أن الرجل والمرأة أحدهما من الآخر أي هما بمنزلة الأعضاء من جسد الشخص الواحد وبحيث يكون الرجل بمنزلة الرأس والمرأة بمنزلة باقي الجسد، وهذه القوامة هي للرجل في بيته وداخل أسرته فقط، وأيضا فإنّ التفضيل عام أي لجنس الرجال على جنس النساء وليس تفضيلاً لكل رجل على كل امرأة، إذ هنالك الكثير من النساء اللواتي يتفوّقن على الرجال في العلم والعمل والكسب ﴿وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ لمهر الزوجة وبما يجب عليهم من النفقة على الزوجة والأولاد ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ﴾ أي إنّ الصالحات منهنّ مطيعات لله ولأزواجهنّ بالمعروف ﴿حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ﴾ يحفظن حرمة وأسرار الزوجية ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ لأن الله أمر بحفظها.

﴿وَاللاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ﴾ بعد أن ذكر تعالى الصالحات منهنّ ذكر الآن غير الصالحات، والنشوز في الأصل هو الارتفاع فتكون الناشز هي التي تسيء السلوك مع زوجها وتسيء معاملته مترفّعةً عليه، فعلى الزوج أن يبدأ معها بالموعظة الحسنة ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ وأجمعوا أنّ الضرب يكون رمزيّاً فهو بالسواك أو بمنديل، ويراعى فيه التخفيف على أبلغ الوجوه، ولا يكون على الوجه، وكلّما حصل الغرض بالطريق الأخف وجب الاكتفاء به (الرازي)، وفي كل الأحوال فإن الضرب لا يكون إلا لسبب جوهري، وليس ناتجاً عن نزوة الزوج ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾ أي إن أطعنكم بإحدى هذه الأساليب فلا تبغوا بالتجاوز إلى غيرها، والمفهوم أن جميع هذه الأساليب خاصة بالناشز فقط، وأما الصالحات القانتات فلا سبيل عليهن حتى في الوعظ والنصح، فضلاً عن الهجر والضرب (المنار)، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ فسلطانه عليكم أعلى من سلطانكم على نسائكم، والمقصود زجر الرجال عن ظلم النساء.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ (٣٥).

٣٥- ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ فيما يتعلق بالناشز أو بالقوامة، وتقدير الخطاب: إن خفتم شقاقاً بينهما أي بين الزوجين ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ والخطاب عام يدخل فيه الزوجان وذوو القربى والجيران والمعارف ممن يريد السعي للإصلاح، وكون الحكمين من أهله وأهلها على سبيل التفضيل لأنهما قد يكونا أدرى بظروف الزوجين الشخصية، ولا يشترط أن يكونا من الأهل ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ إن كانت النيات حسنة وصحّت إرادة الإصلاح لدى الحكمين أو الزوجين فالتوفيق كائن بإذن الله ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ أي عليم بمصالح الزوجين وخبير بالنوايا.

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ (٣٦).

٣٦- استمرار الخطاب في تنظيم المجتمع، وبيان صلة الأرحام والإحسان: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ﴾ والعبادة تكون بالطاعات، كما أن إخلاص النية يجعل من الأعمال العادية عبادات فالعامل والزارع وغيره إذا أتقنوا أعمالهم بأمانة وبقصد إعالة من يعتمد عليهم من الأهل ولمساعدة المحتاجين ولإفادة الصالح العام فيكون عملهم من أفضل العبادات ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ النهي عن الخضوع لسلطة غيبية وراء الأسباب والسنن الكونية المعروفة، وأيضاً عدم الخضوع الأعمى لسلطة بشرية مما فيه معصية الخالق ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أحسنوا بالوالدين إحساناً، وهو أن يكون المرء في غاية الأدب مع الوالدين قولاً وعملاً وأن يكفيهما ما يحتاجان وفق استطاعته، دون أن يؤثر ذلك على حريته واستقلاله الشخصي عنهما ﴿وَبِذِي الْقُرْبَى﴾ وأحسنوا إلى ذوي القربى، وفي الحديث: «أمك وأباك وأختك وأخاك ثمّ أدناك أدناك»، ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ الجار ذي القربى هو الجار القريب أي من نفس القوم أو الجماعة، وليس المعنى أنه قريب بالنسب لأن ذوو القربى سبق ذكرهم، أما الجار الجنب فهو الجار الغريب بمن فيه من هو على غير الاسلام لأنه ﷺ عاد جارَه اليهودي، وفي الحديث «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننتُ أنه سيورثه» ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ﴾ وهو الصاحب الملازم له في السفر أو في العمل، وقيل أيضاً هو الزوج أو الزوجة ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ المسافر الذي انقطع في السفر واللاجيء واللقيط ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ بالزواج، وقيل هم العبيد والإماء، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ حين حضره الموت أوصى قائلاً: «الصلاة وما ملكت أيمانكم»، والإحسان إلى العبيد يكون بتحريرهم ﴿إِنَّ اللَّهَ

لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا﴾ وهو المتكبر المتطاول على أقاربه وجيرانه وأصحابه.

﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (٣٧).

٣٧- ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ استمرار الكلام من الآية السابقة والمعنى أن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً، ولا يحب الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يضنّوا به على الناس ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ لأنهم كفروا النعمة، أي كتموها، لأنّ الكفران في الأصل هو التغطية.

﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَنْ يَكُنْ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ (٣٨).

٣٨- ﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ لأن قصد المرائي من الإنفاق هو مجرد التطاول والكبرياء على الآخرين، والآية معطوفة على ما قبلها أي إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً ولا البخلاء الآمرين بالبخل ولا الذين ينفقون أموالهم رياءً ﴿وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ المرائي ينفق لأغراض ومطامع دنيوية فهو لا يؤمن بالله واليوم الآخر ﴿وَمَنْ يَكُنْ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ لأن وسوسة الشيطان تؤدي بصاحبها إلى البخل والرياء، لقوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: ٢/٢٦٨].

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ (٣٩).

٣٩- ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ أي إن إنفاقهم بلا إيمان ولمجرد المراءاة هو مثار لتعجب الناس من سلوكهم لأن المرائين غالباً ما يخسرون الدنيا، وقطعاً الآخرة ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ علمه تعالى بإنفاق عبيده يغني عن معرفة الغير بذلك.

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُنْ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٤٠).

٤٠- ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ فلا يفوت المحسن من ثوابه شيء، وجزاء السيئة بمثلها ﴿وَإِنْ تَكُنْ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ تزيد أضعافاً ﴿وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ مما يغني عن مطامع الدنيا.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا﴾ (٤١).

٤١- فبعد كل ما تقدّم لا عذر لأحد بادّعاء الجهل: ﴿فَكَيْفَ﴾ أي كيف يكون حال الخاطئين العصاة يوم الحساب حيث لا يفوت من حسابهم مثقال ذرة ﴿إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ وهم الأنبياء السابقون الذين بُعثوا إلى أممهم يشهدون أن الرسالة وصلت إلى تلك الأمم فتُحاسب عليها، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥/١٧]، وقال عزّ من قائل ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤/٣٥]، وقوله ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٨/٢٦].

﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا﴾ أي جئنا بك يا محمد لتشهد على أمّة الإسلام، لأن الرسول ﷺ بسنته المعتدلة وبسيرته الحميدة العالية يكون حجة على المفرطين.

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ (٤٢).

٤٢- ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ﴾ في تجاهل واضح للوحي ﴿لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ﴾ وهم الكفار المشار إليهم سابقاً يودّون لو كانوا تراباً تُسوّى بهم الأرض، والرسول قد يكون اسم جنس لكافة الرسل فتنطبق الآية على جميع من عصوا الرسل ﴿وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ ينكشف ضلالهم ويفتضح أمرهم ويحملون أوزارهم فلا يُكتم من أمورهم شيء.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلا جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ (٤٣).

٤٣- الإشارة إلى الصلاة في هذه الآية تنشأ من ذكر يوم الحساب في الآيات السابقة، لأنّه وقتئذ يواجه المرء خالقه فلا يفوت من حسابه مثقال ذرة، وقالوا: أوّل ما يُسأل عنه الصلاة، وفي الحياة الدنيا يواجه المرء خالقَه في الصلاة، فكان تذكيره ببعض شروطها:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ أي لا تصلّوا، ولا تقربوا مواضع الصلاة وهي المساجد، وأنتم في حالة السكر، والمراد النهي عن الشرب المؤدي إلى السكر عند قرب وقت الصلاة، وتخصيص الشيء بالذكر وهو وقت القرب من الصلاة لا يدل على نفي الحكم في باقي الأوقات، وقد ينتج السكر أيضاً عن تعاطي أي شيء يخل بالعقل، غير مقتصرٍ على الخمر، وقد يشمل سكر النعاس أي غلبة النوم على المرء، والسكر الناتج عن تعاطي بعض العقاقير، وكلّ ما يخل بالاتزان الفكري ﴿وَلا جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ للجنب عابر السبيل المسافر، أن يصلّي دون الاغتسال، مكتفياً بالتيمم كما سيرد ﴿حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ وهو حكم الجُنُب المقيم أن يغتسل قبل الصلاة ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ الغائط هو المنخفض من الأرض، والمجيء منه كناية عن الحدث الأصغر، لأنهم كانوا في البادية يتسترون بالمكان المنخفض لقضاء الحاجة ﴿أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ كناية عن الجماع، وقيل هو على معناه الظاهر أي حقيقة اللمس المشترك بين الرجل والمرأة ولو باليد ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾ ويجوز للمريض أن يتيمّم سواء وُجد الماء أم فُقد، لأن فقدان الماء يبيح التيمم للجميع فلا معنى لضمّه إلى المرض، وإنما يعود قوله ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ إلى المسافر والمذكورين بعده، أي إن حكم المسافر

إذا أراد الصلاة مماثل لحكم المتغوّط الموجب للوضوء، أو المُجامع الموجب للغسل، فبإمكان كل هؤلاء التيمّم عند فقدان الماء، والجمهور على أنه يجوز التيمم لهؤلاء إن كان وجود الماء مع تعذر استعماله، بسبب حرج كالمرض أو المشقة أو الضرر أو ندرة وجود الماء، مما يجعله كالمفقود ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ الصعيد هو وجه الأرض تراباً كان أو غيره والطيب هو النظيف الطاهر ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ تفصيل لكيفية التيمم وهو أمر تعبّدي محض الحكمة منه إبداء إذعان المرء وخضوعه لأمره تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ فمن عفوه تعالى أن أسقط وجوب الوضوء والغسل عن المريض وعن المسافر وعن المقيم في حال المشقة، وأباح لهم التيمّم تيسيراً.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ (٤٤).

٤٤- بعد كل ما تقدم من توجيهات تنظيم الإسرة والمجتمع، تعود الآيات إلى الموضوع الرئيسي في القرآن الكريم وهو مسؤولية الإنسان عن أعماله، وبالذات مسؤوليته في التجاوب تجاه الهدي الإلهي الذي نزل على الأنبياء، لأن من سبق من الأمم، كاليهود، اكتفوا من الدين بالظواهر والمراسم، وتركوا الجوهر والهدف:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ومن ثمّ لأمّته جمعاء، والذين أوتوا نصيباً من الكتاب هم في هذه الآية اليهود بدليل ما سيرد، والنصيب من الكتاب معناه أنهم لم يحفظوه بل أضاعوا ونسوا قسماً منه، ثم إنهم لم يعملوا بالنصيب الذي بقي لديهم، انظر شرح الآية (٣) من سورة آل عمران ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ﴾ يشترون الزعامة الدنيوية ودنيا المادة ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ يخطّطون ويعملون لإضلال الآخرين، والسبب مذكور في آيات [البقرة: ١٠٥/٢، ١٠٩]، كان المسلمون شديدي الحرص على تألّف اليهود لكونهم

من أصحاب الوحي الأول، فكانوا لذلك يتوقعون من اليهود الانضمام إليهم في الصراع الذي وقع بين الإسلام والوثنية، غير أن اليهود كانوا عند أسوأ الظن، فحابهوا الإسلام بكل ما استطاعوا من إساءة.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ (٤٥).

٤٥- ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ الله تعالى أعلم منكم بما في نفوس أعدائكم من النفاق والكيد والخديعة في الخفاء والعلن، مع إظهارهم الرغبة في نصيحتكم وموالاتكم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾ فهو يتولى أموركم وإرشادكم إلى ما فيه خيركم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ فيوفقكم للعمل بما فيه أسباب النصر، فلا تغترّوا بغيره ولا تطلبوا النصر من سواه، وعليكم اتباع سننه في الأسباب وهدايته في القرآن.

﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٤٦).

٤٦- ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ الذين هادوا هم اليهود يتلاعبون بالألفاظ والمعاني، وهو دأبهم قديماً وحديثاً، ومنهم من تعمّد الحذف والزيادة في كتبهم، وهم الأحبار ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ كان اليهود يحدّثون أنفسهم قائلين سمعنا الرسالات السماوية وعصيناها، وعصيانهم ينطبق على كل الوحي الذي نزل على موسى ومَن بعده مِن الأنبياء ولا يقتصر على معصية النبي ﷺ، ومن الأعذار الواهية التي يبررون بها معصيتهم زعمهم أنهم شعب الله المختار أبد الدهر رغم ذنوبهم وجرائمهم ﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ أي يقول بعضهم لبعض: اسمع شيئاً لا يستحق السمع، تهكماً على كلام النبي ﷺ ﴿وَرَاعِنَا﴾ خطابهم للنبي ﷺ بمعنى أعرنا سمعك، أو أصغ إلينا، والمغزى أنهم ليسوا بحاجة لتعلم شيء من النبي، بل العكس عليه أن يتعلم منهم بزعمهم، وذلك شبيه بقولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: ٨٨/٢]، يزعمون أن

قلوبهم مكتفية بما لديها من الدين والعلم ولا يحتاجون للتعلم من غيرهم ﴿ لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ﴾ لا يقصدون بالكلام معناه الظاهر، بل كلمات عبرية مشابهة مبطنة بالشتيمة والتشكيك بالوحي ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا﴾ أي اسمع رأينا، وأمهلنا أيها النبي حتى نفقه حديثك ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ من الإصرار على ضلالهم وتعنتهم ﴿وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ لأن الكفر يحجب الحقيقة عن صاحبه إذ يمنعه من التفكير الموضوعي ويعمي بصيرته فتكون النتيجة أن يُحرم صاحبُه من رحمة الله، انظر آية [البقرة: ٢/٨٨]، ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قليلاً ما يؤمنون بالصواب، لأن معتقداتهم محورت حول ذاتهم وظنّهم أنهم يمتازون عند الله على غيرهم من البشر، ويحتمل المعنى أيضاً أنه لا يؤمن بخاتم الأنبياء والرسل ﷺ المذكور في كتبهم إلا القليل منهم.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ (٤٧) .

٤٧- ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ المخاطبون هم اليهود، وفي الآية (٤٥) وُصفوا بأنهم أُوتوا نصيباً من الكتاب فقط والمعنى أنهم بعد أن أُوتوا الكتاب بأكمله وأصبحوا ملزمين به، أضاعوا منه الكثير، فكان خطابهم بأنهم أُوتوا نصيباً منه تعبيراً عن عدم تحملهم المسؤولية ﴿آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ أي مصدّقاً لما تبقى معكم من الصحيح من مبادئ الدين وأركانه ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا﴾ الطمس هو المحو، والوجوه هو التوجه، بمعنى ما يتوجه إليه المرء من المقاصد، فيكون المعنى آمنوا بما نزّلنا مصدّقاً لما معكم من قبل أن نمحو توجهاتكم في الكيد للإسلام، ونردّها عليكم بنصر الإسلام وخذلانكم، أو قبل أن نخلّي بينكم وبين نفوسكم فتتخبطون في الضلال ﴿ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ﴾ بموجب الشريعة الموسوية كان المفروض أن يكرّس اليهود يوم السبت للعبادة والراحة والامتناع عن الأعمال

الدنيوية، وكانت الشريعة مشددة عليهم كنوع من التربية الدينية، غير أنهم كانوا ينتهكون الشريعة تهالكاً على المصالح الدنيوية، ومع أن الشريعة الموسوية قد نُسخت فإن القرآن يشير إليها لبيان العصيان المتكرر لبني إسرائيل مما صار سمة لازمة لهم، انظر آيات [الأعراف: ١٦٣/٧] و [البقرة: ٦٥/٢]، فيكون معنى الآية دعوة اليهود إلى الإيمان قبل أن يصابوا بالخذلان في الدنيا، أو باللعنة التي أصيب بها أصحاب السبت، وهي حرمانهم من السمو الروحي الذي يتمتع به البشر، وانزلاقهم إلى عبادة المادة فيصيرون بمثابة الحيوانات والقردة، وقد تحقق فيهم العقاب الإلهي وطُردوا من الحجاز ومحا الله وجودهم فيه ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾ لا رادّ لمشيئته، ولا لسنّته في خلقه.

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (٤٨).

٤٨- ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ تركيز القرآن الكريم على التوحيد غايته تحرير النفس الإنسانية من العبودية ومن التذلل والطاعة لأي نفوذ أو سلطة بشرية أو مادية أو غيبية غير الله تعالى، فتكون سعادة الإنسان بأن يسمو روحانياً، ويكون طليقاً عزيزاً حراً من عبادة الطواغيت ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ أي أوجد ذنباً عظيماً يعود وباله عليه وحده بأن يشقى في الدنيا بعبوديته وخضوعه للوهم، وفي الآخرة باستحقاقه تبعات عمله.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ (٤٩).

٤٩- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ﴾ الذين يزكون أنفسهم هم اليهود والنصارى، لأن اليهود يعتقدون أنهم شعب الله المختار إلى الأبد، مهما ارتكبوا من جرائم، ومهما أمعنوا في الضلال، والنصارى يعتقدون أنهم مطهّرون سلفاً من الخطايا مهما بلغت، بزعمهم، لأن المسيح عليه السلام قد افتدى خطاياهم سلفاً على الصليب بالنيابة عنهم وإلى أبد الزمن، والعلاقة واضحة بين هذه الآية

والإشارة إلى الشرك في الآية السابقة، لأن المسيحية جعلت المسيح إلهاً متجسداً، وأسبغت من صفات الألوهية على قديسيها، ولأن اليهود من جهة ثانية اعترفوا لأحبارهم بسلطة التشريع لدرجة أن أحكامهم صارت تهيمن على الشريعة، انظر آية [التوبة: ٣١/٩]، ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ بأن يبعث الرسل إلى البشر فيهدي من يشاء الهداية بأن يوفقه إلى الإيمان والعمل الصالح ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ فيُحاسب كل إنسان بعمله فقط، ولا يُسأل عن عمل غيره، ولا يشفع له غير ذلك.

﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا﴾ (٥٠).

٥٠- ﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ وبالتالي لأمته والناس أجمعين، أي تفكروا كيف يختلق هؤلاء لأنفسهم أفكاراً وأعذاراً ومفاهيم مخالفة لسنة الله الطبيعية في الخلق ﴿وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا﴾ وهو إثم الغرور والتبجّح والمكابرة والتعصب بالدين والجنس، إذ حوّلوا الدين إلى جنسية بحتة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾ (٥١).

٥١- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾ اليهود والنصارى، انظر شرح الآيات [٤٤-٤٥]، ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ الجبت هو الدجل والأوهام والخرافات مما لا أساس له، كأوهام اليهود أنهم أحبّاء الله وشعبه المختار، وأوهام النصارى أن عيسى المسيح افتدى خطاياهم مسبقاً بالنيابة عنهم، والطاغوت من المبالغة في الطغيان، وهو كلّ رأس في الضلال سواء كان كاهناً أو زعيماً، وسواء كان معبوداً بقهرٍ منه لعابديه أو بطاعة ممّن عبدوه، والعبادة بمعنى الطاعة المطلقة للطواغيت مما يكون سبباً للطغيان والخروج عن الحق ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾ يقولون عن

المشركين عبدة الأوثان: إنهم أهدى من المسلمين، كيداً للإسلام ومكابرةً وعناداً وتعصباً.

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴾ (٥٢).

٥٢- ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ اقتضت سنته تعالى في خلقه أن يكون المذكورون في الآية السابقة ملعونين، أي بعيدين عن موجبات رحمته ﴿وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ لأنه لا سبيل لتغيير سنته تعالى في الخلق، أنظر آية [الأحزاب: ٦٢/٣٣]، فيكون الخذلان نصيب الذين آمنوا بالطغيان والباطل والخرافات.

﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴾ (٥٣).

٥٣- ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ المعنى أن اليهود ليس لهم نصيب من الملك، ولو كان لهم فإنهم في منتهى الشح ويرفضون أقل قدر من المنفعة المادية أو الدينية أو الروحية لغيرهم، ولو كان لهم نصيب في الملك لبخلوا على غيرهم بأقل القليل، فهم يستأثرون لأنفسهم بالمال لبخلهم، ويستأثرون بالدين لاعتقادهم بأنهم شعب الله المختار، كما أن الدين بنظرهم دين عنصري حوّلوه إلى مجرد جنسية قومية خاصة بهم، والمُلك أيضاً قد يكون ما يسعون إليه لإعادة ما يظنون أنه ملكهم في فلسطين وبيت المقدس فحينئذ يستأثرون بكل شيء ويضيقون الخناق على غيرهم من أصحاب البلاد.

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴾ (٥٤).

٥٤- ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ الفضل هنا بمعنى الوحي، والناس هنا هم العرب، وهو من قبيل إطلاق العام على الخاص، أي كيف يحسدون العرب من ذرية اسماعيل على انتقال النبوة إليهم؟ ونظيره قوله تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ

مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥/٢]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [آل عمران: ٧٣/٣-٧٤]،

وفي الآية اشارة واضحة إلى حسد اليهودية والمسيحية للمسلمين بسبب نزول الوحي على النبي ﷺ، ولاعتقادهم باقتصار الوحي على أنبيائهم فقط ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ أي قد سبق أن آتينا النبوة لإبراهيم وذريته من بني إسرائيل، فكيف يستغربون أن تصير النبوة لذريته من سلالة اسماعيل، انظر شرح آية [البقرة: ١٢٢/٢].

وفي تفسير المنار أنه بعد انتقال النبوة لذرية إبراهيم من إسماعيل، والعرب منهم، فتكون الآية مبشّرة لهم بالمُلك الذي تبع نبوة النبي ﷺ.

﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾ (٥٥).

٥٥- ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ من اليهود من آمن برسالة إبراهيم ورسالات ذريته من إسحاق وإسماعيل ومنهم مَن عصى ﴿وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ للعصاة منهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (٥٦).

٥٦- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ بعد أن بلغتهم وصارت واضحة لهم ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ كناية عن العذاب المقيم لمن أدرك الآيات وكفر بها ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ فمن حكمته تعالى أن جعل الكفر والمعاصي سبباً للعذاب، وجعل سنته في ربط الأسباب بالمسببات مطردة فهو عزيز غالب على أمره.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ (٥٧).

٥٧- ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ فمن حكمته تعالى أن جعل العمل الصالح لازماً للإيمان وسبباً في تزكية النفس وإعدادها للنعيم المقيم ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ كلمة أزواج في اللغة تنطبق على الزوجين الذكر والأنثى، فهي تعني الزوج أو الزوجة، فالرجل هو زوج المرأة كما أن المرأة هي زوج الرجل، وأزواج مطهّرة أي طاهرة النفس والسريرة، انظر آية [البقرة: ٢/٢٥]، ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ لأن الظل عند العرب كان من أعظم أسباب الراحة فصار كناية عنها، والظليل كناية عن المبالغة العظيمة بها، والسعادة الغامرة.

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (٥٨).

٥٨- ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ اتصال الآية بما قبلها أن اليهود الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ويؤمنون بالجبت والطاغوت، الآية (٥١)، يزعمون في كتبهم أن غش غير اليهود جائز، وقد قال تعالى عنهم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٣/٧٥]، والأمانة قد تكون مادية حسية وقد تكون معنوية، والأمانات هنا تتضمن معنى الرسالات السماوية والتي ينبغي على من نزلت إليهم أن يؤدوها إلى أهلها أي يبلغوها للناس في كل العصور والأمكنة.

إذ بعد أن شرح تعالى عن أهل الكتاب أنهم يشترون الضلالة ويريدون إضلال المؤمنين، وأنهم يفترون على الله الكذب، وأنهم قالوا عن الكفار إنهم أهدى من الذين آمنوا سبيلاً، قال تعالى إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، أي الواجب أن تبلغوا حقائق الوحي إلى الناس ولا تكتموها، ومن باب أولى فإن هذا الأمر ينطبق على المسلمين بعد أن نزل القرآن عليهم فمن واجبهم نشر الرسالة الإسلامية، ولا يمنع انطباق المعنى أيضاً على الأمانات المادية وعلى

الوعود والعهود والمسؤوليات المعنوية الشخصية والعامة بما فيها مسؤولية أولي الأمر من المسلمين كونهم مؤتمنين على أمور رعيتهم كما سيرد في تتمة الآية:

﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ والحكم ليس بمعنى الحكومة الإسلامية فقط أو بالمعنى القضائي المجرد، بل هو أيضاً بمضمونه العام شاملاً حكم الفرد على الآخرين وتقييمه لأعمالهم ودوافعهم وسلوكهم ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ أي نعم الشيء الذي يعظكم به وهو ما تقدم ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ فلا يخفى عليه شيء من أقوالكم وأفعالكم ونياتكم.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (٥٩).

٥٩- بعد أن ذكرت الآيات المتقدمة سلوك الكفار من اليهود وسوء مآلهم، تبين هذه الآية للمؤمنين ما يجب عليهم اتباعه لتجنب ذلك المآل، وقد قال الرازي أن هذه الآية مشتملة على أكثر أصول الفقه لأنهم قالوا إن أصول الشريعة أربع: الكتاب والسنة والإجماع والقياس، والآية قررت هذه الأصول الأربعة بالترتيب:

فالكتاب يشير إليه قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ أي الكتاب ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أي السنة.

والإجماع يشير إليه قوله: ﴿وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ أي أهل الحل والعقد من الأمة بإجماعهم على أمر من الأمور مما ليس في الكتاب والسنة، وهؤلاء غير الأمراء والحكّام لأن أمر المؤمنين بالطاعة جاء في الآية غير مشروط، مما يدل أن الطاعة العمياء للأمراء والسلاطين محرّمة، لأنهم قد يأمرون بالظلم، فتكون طاعتهم واجبة فقط إذا اتبعوا الكتاب والسنة، ويحتمل أيضاً أن يكون المقصود بأولي الأمر الذين تم اختيارهم بالشورى لقوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾

[الشورى ٤٢/٣٨]، وقيل إن أولي الأمر هم الأمراء والعلماء معاً أي مجتمعين، والأمر أمانة في أعناقهم، وهو تعلق الآية بما قبلها.

أما القياس فيشير إليه قوله: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أي إن اختلفتم في شيء لا نصّ فيه، أي حكمُه غير مذكور في الكتاب والسنة، فردّوه إلى ما يشبهه في الكتاب والسنة، وهذا القياس هو ما يتعلق فقط بأحكام المعاملات القضائية والسياسية والإدارية، ولا علاقة له بأمور العبادات والحلال والحرام، إذ لا يجوز إضافة عبادة بالقياس أو تحريم شيء لا يدل النص على تحريمه ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ إيماناً حقيقياً ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ التأويل هو المآل أي ما تؤول إليه الأمور، فيكون المعنى أن اتباع هذا الأمر هو خير للمؤمنين وأحسن عاقبة لهم.

وقد رأى الزمخشري أن الخطاب في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ﴾ موجه إلى الحكام والمحكومين بأن يرجعوا إلى الكتاب والسنة فيما يختلفون فيه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا﴾ (٦٠).

٦٠- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ السؤال تعجبي موجّه للنبي ﷺ ومن ثمّ إلى أمّته من بعده، والمشار إليهم هم المنافقون بدليل المذكور في الآية التالية ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ الطاغوت ما يودي إلى الطغيان، والمعنى أنهم يريدون الخضوع لأهوائهم أو أهواء زعمائهم لأغراض دنيوية بحتة، على النقيض مما تأمر به الآية المتقدمة ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا﴾ باتباع الأحكام الوضعية.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ (٦١).

٦١- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ أي احتكموا في أسلوب حياتكم إلى الكتاب والسنة ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ يصدّون عن الطريقة الإسلامية لأن المنافقين يكتفون من الإسلام بالاسم فقط دون العمل به، والأمر ليس مقتصراً على منافقي المدينة المنورة زمن البعثة النبوية، وإنما يشمل المنافقين في كل العصور، لأنّ من لا يملك القناعة التامة والإيمان الكامل بالوحي وبعالم الغيب، أي بوجود حقيقة تخرج عن نطاق الإدراك المادي فإنه يحاول تبرير مواقفه الدنيوية - الطاغوتية- بإلصاق قيمة أخلاقية أو مبرر أخلاقي أو «موضوعي» لكل ما يميل إليه الهوى.

﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ (٦٢).

٦٢- ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ كيف يكون حالهم إذا نزلت فيهم المصائب؟ وهي النتيجة الطبيعية لمن يفضّل حكم الطاغوت على حكم القرآن والسنّة، فيكون نزول المصائب بهم بنتيجة كسب أيديهم بحسب سنته تعالى في الأسباب والمسببات ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ يدّعون أن هدفهم التوفيق بين القرآن وبين نظرتهم الدنيوية المادية للحياة.

ونظيرُه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٢/١١].

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾ (٦٣).

٦٣- ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ الله وحده مطّلع على ما في قلوبهم من الكيد للإسلام أو الإعراض عنه ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ إن كانوا مصرّين

على الكفر، لأن ما على الرسول إلا البلاغ، انظر الآية (٨٠)، ﴿وَعِظْهُمْ﴾ إن كانت الموعظة تفيدهم ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً﴾ قولاً لعله يبلغ نفوسهم ويؤثر بها.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (٦٤).

٦٤- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ المعنى أن الغرض من إرسال الرسل هو أن يلتزم البشر بالشرائع التي نزلت عليهم وليس بمجرد الاتباع الظاهري للدين، ثم ابتداع واتباع القوانين الوضعية ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ﴾ أيها النبي تائبين ﴿فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ الرسول إشارة لجميع الرسل كما في قوله ﴿مِنْ رَسُولٍ﴾، ﴿لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ أي يقبل توبتهم ويرحمهم.

﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٦٥).

٦٥- ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ الكلام عن جملة المكذبين والمنافقين ﴿حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ فيما بينهم من الخلاف ﴿ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ﴾ أي لا تضيق صدورهم بقضاء الرسول، بل يحصل عندهم القبول والرضا التامّين ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ وينقادوا مستسلمين مذعنين لحكمه بلا نزاع، والمغزى أن اتباع السنة النبوية - الثابتة التي لا يتطرق إليها الشك- واجب على كل مسلم وعلى مر العصور بلا جدال، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦/٣٣] أي استسلموا لحكم النبي وسنّته الصحيحة مذعنين بلا جدال.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ (٦٦).

٦٦- ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أي كونوا على استعداد للتضحية بأنفسكم في سبيل الله، ولا يقتصر ذلك على القتال وإنما يتجاوزه إلى تكريس النفس لخدمة الدين بالدعوة وبشتى الوسائل، وقد يكون معنى قتل النفس قتل النوازع الشريرة بها ﴿أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم﴾ هاجروا من دياركم في سبيل الله ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ وهو دليل على ضعف جملة المكلّفين من الناس، لأنّ القلّة منهم فقط على استعداد للتضحية بالنفس والديار، ويُحتمَل أن الكلام في المنافقين فقط، أو المترددين الذين يكتفون من الإسلام بالاسم، ويجبنون ويبخلون عن تقديم التضحيات ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في مصالحهم الدنيوية ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ لهم في إيمانهم ودينهم.

﴿ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُمْ مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٦٧).

٦٧- ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُمْ مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ كما في الحديث: «ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر».

﴿ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ (٦٨).

٦٨- ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ بإنقاذهم من قلق التردد والخوف على الدنيا وانشغال الذهن بالتوافه.

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ (٦٩).

٦٩- ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ أي الكتاب والسنة كما هو مذكور بالآيات (٥٩) و(٦٥) ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ الصدّيقين الذين يغلب عليهم الصدق وسلامة الفطرة والسريرة والتمييز بين الحق والباطل، والشهداء بهذا المعنى هم غير المقتولين في سبيل الله، بل الذين يشهدون على صحة الدين بالحجة

والبرهان، وبالقدوة الحسنة بالعدل والإنصاف والقول والعمل والسيرة والأخلاق، كقوله تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣/٢].

﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ أي إن رفقة هذه الأصناف من الناس هي مما يطمح إليه العاقل.

﴿ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾ (٧٠) .

٧٠- ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾ ذلك الجزاء المذكور للأبرار هو الفضل الأسمى الذي لا يقارن معه فضل آخر ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ بالنوايا والسرائر فيجازي بها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ (٧١).

٧١- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ بأن تكونوا دوماً على استعداد للدفاع عن دار الإسلام وبالتحضير لذلك سلفاً، وهذه النقطة تتبع بالضرورة من نشوء الدولة الإسلامية المشار لها بالآية (٥٩)، لأنه عندما ينظّم المسلمون أنفسهم في كيان سياسي اجتماعي وفق الأسس القرآنية فيلزم بالضرورة أن يتوقعوا عداوة الأمم والجماعات المعادية للنظرة الإسلامية كسلوك حياتي ونظام اجتماعي عالمي وهذه بالتالي سوف تحاول تدمير الكيان الإسلامي أو إجهاضه، وهكذا فإن مفهوم الجهاد في الإسلام-وهو تعبير عن الحرب الدفاعية المحضة- يلعب دوراً أساسياً في المخطط الإسلامي الاجتماعي السياسي ﴿فَانفِرُوا ثُبَاتٍ﴾ ثُبات مفردها ثُبَة وهي الجماعة فيكون المعنى انفروا جماعات وسرايا على قدر الحاجة ﴿أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ أي نفيراً عاماً إذا دخل العدو أرضكم.

﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ (٧٢).

٧٢- ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾ وهم المنافقون وضعاف النفوس والجبناء يبطئون أو يتخلفون عن الجهاد ﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ

لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ يكون شكره لله على عدم شهوده الحرب دليلاً على ضعف إيمانه.

﴿ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (٧٣).

٧٣- ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ﴾ وهو النصر والغنيمة ﴿لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ لأن المنافقين يفرحون وقت نكبة المسلمين، ويحزنون عند فوزهم، فليس بينهم وبين المؤمنين مودة ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي بالغنيمة، فهم يندمون على فوات الغنيمة التي يعتبرونها فوزاً عظيماً، غير فرحين بالنصر الذي أحرزه إخوانهم.

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٧٤).

٧٤- ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دفاعاً عن الإسلام ﴿ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ ﴾ أي الذين يبيعون الحياة الدنيا مقابل الآخرة، لأن شرى يشري بمعنى باع يبيع، كما في قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ [يوسف: ٢٠/١٢] أي باعوه، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧/٢] أي يبيعها، وأما اشترى يشتري فهي بمعنى ابتاع يبتاع، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١/٩]، وقوله عزّ من قائل ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [لقمان: ٦/٣١].

﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لأن قتاله كان في سبيل الله، وليس لأجل الحظوظ الدنيوية أوالحميّة العصبية.

﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ (٧٥).

٧٥- ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ أي لأي سبب أو عذر-غير دنيوي- تتركون القتال في سبيل الله وقد بلغ حال المستضعفين من إخوانكم، الواقعين تحت ظلم الكفار، ما بلغ من الضعف وتحمل الاضطهاد، والمعنى لا عذر لكم، والمغزى أيضاً أن الهدف من قتالكم هو لضمان حرية العقيدة الدينية للمستضعفين من الناس ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ التي يظلمنا أهلُها ﴿وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ اجعل لنا من لدنك ولايةً ونصرةً، أي كن أنت لنا وليّاً ونصيراً، ويحتمل الدعاء أيضاً أن يجعل تعالى عليهم رجلاً من المؤمنين يواليهم وينصرهم ويحفظ عليهم دينهم.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (٧٦).

٧٦- ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهو تعالى مصدر قوتهم بعد أن يتخذوا أهبتهم حسب السنن الدنيوية التي سخرها لهم فيوفقهم للنصر كونهم أصحاب حق ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾ الطاغوت من المبالغة في الطغيان، فهُم يمنعون حرية الدين ويقاتلون أصحاب الحق، وذلك مصدر ضعفهم مهما كانت قوتهم المادية، ولا يمنع ذلك أن تكون أحياناً بعض الأمم التي لا تدين بالقرآن أقرب إلى أحكامه ممن يدّعون اتّباعه، فتكون الغلبة لمن يكون أقرب إلى هداية القرآن بالفعل، على من يكون أبعد من الهداية القرآنية وإن انتسب إليها بالاسم ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ بمعنى أن الشرور والمعصية نابعة من كسب الإنسان واختياره الحر، فكيد الشيطان ليس له من وجود حقيقي سوى أن الإنسان قد يقع ضحية لسوء اختياره.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ (٧٧).

٧٧- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ عن الاعتداء على الآخرين، وبعضكم عن بعض، كما كانوا يفعلون في الجاهلية، وكما يفعلون في كل زمن ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ وتحلّوا بالأخلاق الإسلامية من الرحمة والعطف ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾ لسبب مشروع وهو القتال الدفاعي في سبيل الله كما هو مذكور في الآية السابقة ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ وهم المنافقون وضعاف النفوس ممن غلب عليهم حبّ الدنيا يخافون قتال العدو أكثر من خوفهم من الله ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ يقولون ذلك على سبيل التمني وبغرض التسويف والتهرب من القتال ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ لأنه مهما كان كثيراً فسرعان ما يحين الأجل ويترك المرء متاع الدنيا خلفه ﴿وَالآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ من متاع الدنيا ﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾ وفي الحديث الشريف «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» ﴿وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ فلا ينقص من آجالكم أدنى مقدار، ولا ينقص من أجوركم شيئاً مهما قلّ.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (٧٨).

٧٨- ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ الخطاب للمتثاقلين عن القتال المذكورين في الآية السابقة، والمغزى لا مفر من الموت وأسباب الموت في أي مكان ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ يقولون: إنه تعالى أكرمهم بها لجدارتهم بها، ظنّاً منهم أنهم يستحقونها ﴿وَإِنْ

تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ يلقون اللوم على غيرهم لما يصيبهم من السيئات والشرور، ولا يلومون أنفسهم، مع أنهم مخيّرون في اتخاذ القرارات التي تؤدي بهم إلى الخير أو الشر ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ لأن حدوث الحسنات والسيئات يتم وفق سننه تعالى في الخلق وفق نظام الأسباب والمسببات، والحرية الخيار التي كرّم بها تعالى بني آدم، كما هو موضح في الآية التالية ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ فكيف أنهم لا يفهمون سننه تعالى في خلقه؟

﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (٧٩).

٧٩- ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ﴾ أيها الإنسان ﴿فَمِنَ اللَّهِ﴾ لأن الخير كله بيده تعالى فينعم به، وفق سننه الكونية، على من يشاء من عباده، المؤمن منهم والكافر، والمستحق ومن لا يستحق، ومن يتّبع سبلَ الخير يصل إليها ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ لأن الإنسان مخيّر في اتباع الطرق التي تؤدي به إلى الخير أو الشر فيكون ما أصابه من السيئة لعدم فهمه، وعدم اتباعه السنن التي أوجدها تعالى في الخلق ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً﴾ أي أرسلناك أيها النبي محمّد إلى الناس كافةً، وليس للعرب فقط، لتبين للجميع طريق الخير والحسنات، وليختاروا ما هو في صالحهم إن شاؤوا، وما على الرسول إلا البلاغ ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على ذلك.

﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ (٨٠).

٨٠- ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ أي من يطع الرسول فيما يبلّغه من الوحي عن ربّه، وما يبيّنه في ذلك، فقد أطاع الله، لقوله تعالى مخاطباً رسوله: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نُزّل إليهم﴾ [النحل: ١٦/٤٤]، وفي ذلك عودة لموضوع الآيات (٥٩ و ٦٤ و ٦٥ و ٦٩) ﴿وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا

﴿أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي ليس من شأن الرسالة الإسلامية إكراه الناس عليها، وإنما يؤمن الإنسان باختياره بعد أن تبلغه الرسالة.

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (٨١).

٨١- ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ وهم المنافقون أو ضعاف النفوس وضعاف الإيمان كانوا يقولون للنبي ﷺ: أمرُك طاعةٌ، وذلك غير مقتصر على معاصري النبي فقط، بل يشمل جميع المنافقين وضعاف النفوس في كل العصور من المسلمين بالاسم فقط، ممّن يدّعون طاعة القرآن والسنّة ثم يبطنون غير ما يظهرون ﴿فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ أي خرجوا من عندك أيها النبيّ ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ أي بيّتوا في نفوسهم أموراً غير ما ادّعوه من طاعتك-وحُذفت تاء التأنيث من «بيّت» لتخفيف التقاء التائين مع الطاء- ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ في صحائف أعمالهم فحسابهم على الله، ويبيّن لك أيها الرسول سوء نواياهم بمثل هذه الآيات ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أيها النبي، فلا يجوز قتالهم لأنهم يظهرون الإسلام، وإن كانوا يبطنون الكفر ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ فوّض أمرك إليه تعالى فهو محيط بظاهر أعمالهم وباطنها، وهو ناصرك عليهم.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (٨٢).

٨٢- ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ أي كيف لا ينظرون في القرآن ويتفكروا فيه ويفهموه، والخطاب يشير إلى المنافقين وضعاف الإيمان المذكورين في الآيات السابقة، ومع ذلك فالآية ذات مغزى عام لكل العصور كما هي جميع آيات القرآن الكريم، وهي تدلّ أن تدبّر القرآن فرض على جميع المسلمين كلٌّ بحسب طاقته، وبالتالي فإن إتقان لغة القرآن واجب على كل مسلم، ويترتّب على ذلك بطلان التقليد الأعمى ووجوب النظر والاستدلال، ولا يمنع ذلك أن يختص أولو الأمر من المسلمين باستنباط الأحكام العامة في السياسة والقضاء والإدارة كما

سيرد في الآية التالية ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ لأن القرآن نزل منجّماً خلال ثلاث وعشرين سنة، وهي فترة النبوة التي حفلت بالأحداث الجسيمة والمتغيرات الاجتماعية والتنظيمية والحروب، والمعروف أن ترتيب النزول الزمني هو غير ترتيب القرآن فقد كان النبي ﷺ، بوحي من جبريل عليه السلام، يأمر عند نزول كل آية بوضعها في مكانها المحدد من كل سورة، وهو لا يقرأ ما سبق أن كُتب في الصحف وإنما يحفظه حفظاً، ومن المحال على أي بشر مهما بلغ، إذا كان يأتي بالكلام من عند نفسه، أن يتذكّر تفاصيل ما قاله منذ سنوات ويرتب الكلام في أماكنه الصحيحة، كما أن الصحابة كانوا يحفظون الآيات في صدورهم والكتبة يكتبونها في الصحف فلم يكن هنالك مجال للتنقيح والتغيير والتحرير لو افتُرض، ومع ذلك نرى القرآن خالياً من التناقض بل في غاية الإعجاز والتماسك والترابط ممّا هو كافٍ لإقناع المشكّكين، في كل الأزمنة، بأن القرآن لم يكن من تأليف النبي كما يدّعون أو يميلون إلى الاعتقاد، فلا بد إذن أنه كان من مصدر فوق طاقة البشر، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢/٢٥] أي ورتّبناه ترتيبا محكماً.

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمْ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (٨٣).

٨٣- الخطاب متعلق بالآية (٥٩) لوجوب طاعة القرآن والسنة وأولي الأمر، وبالآية (٧١) وما تلاها من الآيات بخصوص الجهاد:

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ أي إذا وصل إلى علمهم شيء من خطط المسلمين السرّية تجاه عدوّهم أذاعوه فيبلغ الخبر العدو فيعود

ضرره عليهم، أو إذا سمعوا إشاعات من العدو أو من المنافقين نشروها فيعود الضرر على المسلمين أيضاً، والكلام عن المنافقين وجمهرة من المسلمين قليلي الخبرة يذيعون ما يسمعون ويجهلون عواقب عملهم ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ يستنبطونه أي يستخرجونه، والمعنى أنهم لو كتموا ما يسمعون من أخبار وإشاعات وأخبروا بها الرسول أو المسؤولين عنهم لكان الأحرى أن يستنبط الرسول أو المسؤولون طريقة التعامل الصحيحة مع هذه الأخبار.

ويحتمل المعنى أيضاً أن يعود الضمير في ﴿يَسْتَنْبِطُونَهُ﴾ إلى الأعداء ويعود الضمير في ﴿مِنْهُمْ﴾ إلى الرسول وأولي الأمر، فيكون المعنى أنه إذا حصل الكتمان من قبل الجمهور ورُدّت الأخبار إلى الرسول وأولي الأمر فقط، فإنّ الذين يتسقّطون الأخبار ويتجسّسون على المسلمين لن يكون في وسعهم استنباط شيء من المعلومات إلا ما يريد الرسول والمسؤولون إبداءه لمصلحة المسلمين ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بإرسال الرسول، وإنزال الكتاب، وهديكم إلى طريق الصواب ﴿لاتَّبَعْتُمْ الشَّيْطَانَ﴾ بالبقاء على الضلال والكفر ﴿إِلاَّ قَلِيلاً﴾ منكم يهتدون بالفطرة.

وقد يكون المعنى أنه لولا إنعام الله عليكم بالنصر المتتابع لحصل الشك عندكم واتبعتم الشيطان، إلا قليلاً منكم من ذوي البصيرة النافذة والإيمان القوي الذين يعلمون أن حصول الدولة والسلطة في الدنيا ليس دليلاً أن أصحابها على الحق، كما أن تواتر الهزيمة والانكسار ليس دليلاً أنّ أصحابها على الباطل (ذكره الرازي عن أبي مسلم الأصفهاني).

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً﴾ (٨٤).

٨٤- ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ﴾ الخطاب في الأصل للنبي ﷺ، ومن ثمّ لكل مسلم في كل وقت، والإشارة إلى حرب قائمة أو دفاعية،

وليست تحريضاً على المبادرة بالحرب أو العدوان، وقد امتثل النبي ﷺ لأمره تعالى بالثبات وحده في وقعة أُحُد حين انهزم عنه الناس، وصمد وحده في وقعة حنين حين أعجبت المسلمين كثرتهم ثم انهزموا عنه، والمعنى أيضاً دع المنافقين وشأنهم إن لم يقاتلوا معك وحرض المؤمنين فقط ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ما عليك سوى تحريضهم فحسب، لا تعنيفهم، كي يخرجوا للقتال بدافع الإيمان ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وذلك بأن تستعدوا وتتهيؤوا لقتالهم ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً﴾ لأن سنّته تعالى سبقت بأن تكون العاقبة لأهل الحق، إذا اتقوا أسباب الخذلان، واتخذوا أسباب الدفاع مع الصبر والثبات، لا أن ينصرهم تعالى وهم قاعدون ومقصّرون.

﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا﴾ (٨٥).

٨٥- ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا﴾ الشفاعة من الشفع- وهي عكس الوتر أي الفرد- ومعناها أن ينضم المرء لصاحب الحاجة يريد مساعدته فيصير شفيعاً له، وفي الآية السابقة حثّ تعالى نبيّه على القتال بمفرده إذا لزم، وفي هذه الآية أنّ من يشفع النبي أو غيره من المؤمنين بالقتال في سبيل الله يكن له نصيب من الأجر والثواب (وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا) والشفاعة السيئة هي أن يشفع المرء للكفار بإعانتهم على قتال أهل الحق فيكتسب بذلك نصيبه من الوزر والإثم-وهو الكفل-، ويحتمل المعنى أيضاً الحالة العامة أي الشفاعة مع الآخرين على عمل الخير، وعكسها وهو إعانة الآخرين على الشر ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا﴾ أي حافظاً أو شاهداً أو مقتدراً، و﴿كَانَ﴾ معناها أنه تعالى كان على ذلك منذ الأزل، ولم يزل، ولا يزال.

﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ (٨٦).

٨٦- ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ لأن المقصود هو الحفاظ على الألفة وحسن الأدب بين المسلمين بعضهم البعض، وبين المسلمين وغيرهم.

كما أنّ تحية المسلمين هي السلام، فيكون المعنى أيضاً أن إلقاء السلام من طرف على آخر هو بمثابة أمان للطرفين، ولذلك أمر تعالى باحترام هذا الأمان وتوعّد بالمحاسبة عليه فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ ونظير ذلك في الآية (٩٤)، والآية استمرار لما قبلها من جهة بيان آداب القتال والمسالمة والأمان وعدم التعرض للمسالمين غير المقاتلين من العدو.

﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ (٨٧).

٨٧- ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ تأكيد لحقيقة التوحيد أي لا مستحق للعبادة إلاّ الله تعالى، والعبادة هي الطاعة المطلقة فتكون عبادته تعالى تحريراً للإنسان من العبودية ومن الخضوع والتذلل لبشر، فلا يخشى الإنسان ولا يخاف غير الله، وتكون علاقة الآية بما قبلها التأكيد على وجوب طاعته تعالى فيما سبق من أحكام ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ لإحقاق العدالة فيما سبق منكم في الحياة الدنيا ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ المعنى لاريب في جمع الناس إلى يوم القيامة إذ لا شيء أصدق من القرآن بدليل إعجازه.

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ (٨٨).

٨٨- ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ أي بعد كل ما بيّناه لكم عنهم، لأن الآيات من (٦٠ إلى ٨٧) أكثرها في المنافقين، ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ أي كيف تتفرقون أو كيف تترددون في شأن المنافقين في حين أنهم ارتدّوا عن الصواب بما كسبوا من السيئات، فهم يتباطؤون عن القتال، ويحتكمون إلى

الطاغوت، ويظهرون الطاعة ويبيّتون غير ذلك، ويذيعون أخبار المسلمين وينشرون الشائعات، وقد نسب تعالى فعل الإركاس إلى ذاته العليّة لأنه نتيجة سنّته تعالى في حرية اختيار الناس لأعمالهم ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ المعنى ليس بإمكانكم تغيير سنة الله في خلقه، ولا تستطيعون إكراه الآخرين على الهدى، فقد أعطى تعالى حرية الخيار للناس بحيث يهتدي منهم من يختار الهداية ويضل منهم من يختار الضلال ﴿وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ أي لا سبيل إلى هداية من جحد نعمة العقل، ولم يستفد منها، خاصة أنّ القرآن خاطب العقول، ودلّ على البراهين التي تشير إلى وحدانية الخالق، ومن يترك الله تعالى لحرية خياره في اتباع الضلال والتعامي عن الدلائل العقلية لا سبيل لردّه إلى الصواب.

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾ (٨٩).

٨٩- ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا﴾ كاد المنافقون أن يكونوا كفاراً، أو هم كفروا فعلاً ﴿فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ بلغ من تعصبهم في الكفر درجةً يتمنون معها أن تصيروا كفاراً مثلهم ﴿فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي حلفاءً أو أعواناً ﴿حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ حتى يهاجروا لنصرة الإسلام تصديقاً لما يزعمون من إيمان ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا عن الإيمان وعن الهجرة ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾ وذلك إذا ظهر منهم الغدر، وجاهروكم بالعداوة السافرة، لأن هذا هو المقصود، إذ لم يُعرف عن النبي ﷺ أنه قتل أحداً من المنافقين ما لم يبادر بالغدر والعدوان، وذلك واضح أيضاً من الآية التالية التي تنهى عن قتل من كان معاهداً، أو تاركاً القتال.

﴿إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾ (٩٠).

٩٠- ﴿إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ يَصِلون إليهم ويدخلون في العهد الذي بينكم وبين هؤلاء القوم ويرضون بحكمهم ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ أي جاؤوكم وقد ضاقت صدورهم عن القتال فلا يريدون قتال المسلمين ولا يريدون قتال الكفار لأنهم أقاربهم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾ المغزى أنّ ضعفهم هو المانع لهم من قتال المسلمين، وليس نتيجة حسن نية من جانبهم ﴿فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾ يمتنع قتالهم إن لم يبدؤوكم بالقتال، وأيضاً وفقاً لما هو مذكور في الآية (٨٦)، وفي قوله تعالى أيضاً: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا﴾ [البقرة: ٢/١٩٠].

﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ (٩١).

٩١- ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾ يريدون السلامة من الطرفين ﴿كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾ هم مذبذبون يظهرون الإسلام ليأمنوا جانب المسلمين، ثم يغريهم كفار قومهم بالتحالف معهم ضدكم فيغدرون بكم ﴿فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ﴾ لم يقفوا على الحياد، ولم يسالموكم ويعرضوا عليكم الصلح ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ إنْ لم يبق مناص من قتالهم فخذوهم واقتلوهم حيثما تمكنتم منهم ﴿وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ السلطان بمعنى الحجّة، أي في هذه الحالة جعلنا لكم حجّة واضحة في السماح لكم بالقتال دفاعاً لا عدواناً، والمعنى أنهم إذا اعتزلوا القتال وعرضوا الصلح فلا يجوز قتلهم ولا قتالهم.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٩٢).

٩٢- بعد أن بيّنت السورة أحكام قتال وقتل المنافقين، تنتقل لبيان أحكام من يحرُم قتله من المؤمنين والمعاهدين وأهل الذمة:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَأً﴾ لأن قتل المؤمن منافٍ للإيمان، وقبل في تقدير الآية: ما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً متعمّداً فيبقى مؤمناً، إلاّ أن يقتله خطأً فيبقى في تلك الحالة مؤمناً، والآية (٩٣) تعزز هذا المعنى، وفي الحديث «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل امرىء مسلم».

﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ عليه كفارة عتق رقبة من أهل الإيمان، وهي حق الله ﴿وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ﴾ وهي حق ورثة القتيل ﴿إِلاَّ أَنْ يَصَّدَّقُوا﴾ بأن يعفوا عنها ويسقطوها باختيارهم.

﴿فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ ولا تجب الدية بهذه الحالة لأن أهل القتيل أعداء محاربون فلا يُعانون بأموال المسلمين.

﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ المشركون والكفار في حالة سلم معكم، ويدخل فيهم أهل الذمة، فإن كان القتيل منهم، أي غير مؤمن، وجبت ديته بالإضافة لعتق رقبة مؤمنة ﴿فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ كما هي الحال في قتل المؤمن، ويلاحظ أنه تم ذكر الدية قبل عتق الرقبة، وعكس ذلك في حق المؤمن، إشعاراً بأن حق الله تعالى في معاملة المؤمنين مقدّم على حقوق الناس، كما أنه استثنى هنالك في أمر الدية بقوله ﴿إِلاَّ أَنْ يَصَّدَّقُوا﴾ ترغيبا لهم بالعفو والسماح، وليس ذلك من شأن المعاهدين.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ أي من لم يجد الرقبة التي يعتقها كأن انقطع الرقيق كما هو مقصد الإسلام -وهذه العبارة تشعر بهذا المقصد- أو لم يجد مالاً يشتري به رقيقاً يحرره، وحذف المفعول به يدل على الأمرين معاً ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ عليه صيام شهرين قمريين متتابعين بلا انقطاع ﴿تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي شرع لكم تعالى ما ذكر كي تتوبوا ويقبل توبتكم، وهو عليم بأحوالكم وحكيم فيما يشرع لكم.

﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (٩٣).

٩٣- ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ نقل الزمخشري عن ابن عباس أن قاتل العمد لا توبة له.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (٩٤).

٩٤- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ استمرار الخطاب من الآية السابقة، أي إذا سرتم جهاداً في سبيل الله كونوا على بيّنة من الذين تقاتلونهم وتجنّبوا قتل الخطأ المشار إليه في الآية السابقة، ولا تعجلوا فتقتلوا مَن كان مسالماً أو التبس عليكم أمرُه، إلا من علمتموه يقيناً حرباً لكم ولله ولرسوله.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ نهى تعالى عن إنكار إسلام من يدّعي الإسلام أو من ينطق بالشهادتين، فكل من أظهر الإسلام يُقبل منه ويعتبر مسلماً، ولا يُبحث عن الباعث له على ذلك، ولا يُتّهم في صدقه وإخلاصه، ولا يُحمَل إسلامُه على أنه مخادعة حتى يتبين خلاف ذلك.

ويُفهم من معاني الآية أيضاً أن إلقاء السلام قد يكون إلقاءً للسلم وإيذاناً بعدم الحرب وقد تبين من الآيات (٨٦ ، ٩٠ ، ٩١) النهي عن قتل الذين يعتزلون القتال ويكفّون أيديهم ويلقون السلم إلى المسلمين، أي إن كفرهم وحده ليس موجباً لقتلهم وقتالهم إذا سالموا، وفي السنة النبوية نلاحظ أنّ حروب النبي ﷺ كانت كلها دفاعية في أهدافها ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لا ينبغي أن يكون قتالكم لأطماع دنيوية، ولا يصح استخدام الدين ذريعة لنهب غير المسلمين ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ وهو ما يجب أن يكون هدفكم من ثواب الله ورزقه وفضله ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي قبل الإسلام كنتم كفاراً مثلهم، أو كنتم طلاب دنيا تطمعون بها فقط (فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ) بالهداية إلى الإسلام ﴿فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ كونوا على بيّنة من الأمر، ولا تبنوا على الظن، فالله تعالى خبير بنياتكم وأعمالكم.

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٩٥).

٩٥- بعد أن حثّت الآية (٨٤) على القتال دفاعاً عن حرية الدين، وبيّنت الآيات التي تلتها آدابَ القتال وأحكامه، تنتقل هذه الآية لبيان مَن يُعذر عن الجهاد: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم ذوو المواقف السلبية، القاعدون عن الجهاد بمعناه العام ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ غير العجزة عن الجهاد كالمريض والأعمى والمُقعد ﴿وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ القاعدون عن الجهاد بلا عذر ليسوا متساوين بالفضل عند الله مع المجاهدين بأموالهم وأنفسهم ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ فضّلهم بدرجة العمل لأن الإيمان يجب أن يرافقه العمل ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ الله تعالى وعَدَ الحسنى للمجاهدين في سبيل الله بأموالهم

وأنفسهم، وأيضاً للقاعدين عن الجهاد بسبب العجز المالي أو الجسمي، لأنهم يتمنّون لو كانوا قادرين على الجهاد لقاموا به، ويحتمل المعنى أيضاً أنه وعدٌ بالحسنى لعموم القاعدين من المؤمنين بحسب نيّاتهم، لأنّ الجهاد فرض كفاية ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ﴾ بلا عذر ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهو ما سيلي بيانه.

﴿دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٩٦).

٩٦- ﴿دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ وهي درجات تفضيل المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين بلا عذر.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ (٩٧).

٩٧- ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ أي الذين يدركهم الموت وهم لا يزالون يظلمون أنفسهم بالمعاصي، أو الذين لم يزالوا يتركون الجهاد-بمعناه الواسع- في سبيل الله بلا عذر، أو الذين لم يهجروا الشر ويتوجهوا إلى الله، لأن الهجرة ليست مكانية فقط بالضرورة، أو الذين لم يهاجروا من أماكن الاضطهاد الديني إلى أماكن الحرية الدينية لكي يتمكنوا من إقامة شعائر دينهم بحرية ﴿قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ﴾ سألتهم ملائكة الموت: ما كان خطبكم في الحياة الدنيا؟ وذلك توبيخاً لهم على سابق حالهم ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أجابوهم معتذرين بأنهم كانوا معرضين للاضطهاد فلم يستطيعوا القيام بشيء من أمر دينهم ﴿قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ أي كان عليكم أن تهاجروا لكي تحرروا أنفسكم من ذل العبودية والاضطهاد بدلاً من انصرافكم وانصراف ذريتكم عن الإسلام وذوبانكم وذوبان الذرية في مجتمع الكفر، فهنالك الكثير من البلدان-إسلامية و غير

إسلامية- مما يتوفر فيها حرية الدين، فكان عليكم الهجرة إليها ﴿فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ المعنى أن الهجرة فرض عين إن كانت ضرورية لتمتع المسلم بحريته الدينية، أو إذا ترتب على المقيم زوال المرء وذريته عن دينه بسبب الاضطهاد الديني الذي يتعرض له، أو إذا تعرض مجتمع إسلامي أو دولة إسلامية إلى العدوان فصار يخشى عليها من الفناء عندئذ يصبح من واجب المسلمين الهجرة إليها للدفاع عنها وشدّ أزرها، كما أنه على المسلم أن يهاجر إلى حيث يتلقى العلم والدين إذا اقتضى الأمر ذلك، أما المقيم في دار الكفر مع استطاعته وذريته التمسك بدينه والتمتع بحريته الدينية فلا تلزمه الهجرة، بل ربما كانت إقامته فيها سبباً لإظهار محاسن الإسلام وانتشاره والدعوة إليه بالعمل وبالقدوة الحسنة.

﴿إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً﴾ (٩٨).

٩٨- ﴿إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ استثنى تعالى الضعفاء من الرجال والنساء والولدان ممّن لا يطيقون الهجرة المكانية ولا يملكون وسائلها ﴿وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً﴾ بسبب حيرتهم واختلاط الأمور عليهم، أو لأنهم لم يستوعبوا رسالة الإسلام.

﴿فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ (٩٩).

٩٩- ﴿فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ وعدهم تعالى بالعفو والمغفرة، وقيل إنّ ﴿عَسَى﴾ دلالة على التشديد في موضوع الهجرة بالنسبة إلى المستطيعين.

﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١٠٠).

١٠٠- ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ مراغماً مشتقة من الرّغام وهو التراب، أي إن المسلم بهجرته يرغم أنوف أعدائه الذين كانوا يضطهدونه، لأنه يحصل على مأوى يمارس فيه حريته الدينية، ويجد فيه متسعاً من العيش والرزق، ويدعو فيه إلى الإسلام في أرض الله الواسعة ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أي قد وجب أجره على الله ولو لم يتحقق له مراده، لأنه يكفي حصول نية الهجرة مع الإخلاص فيها ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي كان تعالى جلّ شأنه منذ الأزل، وما زال، غفوراً لأمثال هؤلاء المهاجرين يغفر ما كان من ذنوبهم وقعودهم إلى أن هاجروا، ويرحمهم بإكمال أجرهم.

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ (١٠١).

١٠١- انتقال الخطاب لبيان أحكام الصلاة خلال السفر، سواء كان الغرض من السفر الهجرة أو القتال أوغيره: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي إذا كنتم على سفر، مهما كان الغرض منه، وليس بالضرورة للجهاد في سبيل الله، إذ لم يقل تعالى: «إذا ضربتم في سبيل الله» كما في الآية (٩٤)، ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ أباح تعالى قصر الصلاة في السفر ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي بالهجوم المفاجىء عليكم، وقد بينت السنة الشريفة قصر الصلاة الرباعية إلى ركعتين لمجرد السفر دون الخوف، أما شرط الخوف فليس مقتصراً بالضرورة على زمن الحرب بل تُقصر الصلاة أيضاً إذا كان الخوف من قطاع الطرق وأمثالهم ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ لا تفوتهم فرصة للإيقاع بكم، فإذا اجتمع الخوف والسفر معاً أباح تعالى قصر أركان الصلاة، فيكتفى بالإيماء عن الركوع والسجود، انظر آية [البقرة: ٢/٢٣٩]، وقد أباح تعالى قصر عدد الركعات كما سيرد في الآية التالية.

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ (١٠٢).

١٠٢- قال أبو حنيفة: إذا اشتد الخوف جعل الإمام الناسَ طائفتين: طائفة في وجه العدو، وطائفة خلف الإمام فصلى بهذه الطائفة ركعة وسجدتين، فإذا رفع رأسه من السجدة الثانية مضت الطائفة التي معه إلى وجه العدو، وجاءت الطائفة الثانية فصلّى الإمام بهم ركعة وسجدتين وتشهّد وسلّم، ولم يسلّم القوم وذهبوا إلى وجه العدو، وجاءت الطائفة الاولى فأتمّوا فرادى ركعة وسجدتين بلا قراءة ولا تشهّد ومضوا إلى وجه العدو، ثم جاءت الطائفة الثانية فأتمّوا ركعة وسجدتين بقراءة وتشهّد وسلّموا، وتفصيل ذلك في الآية كما يلي: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾ أيها النبي، أو الإمام ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ﴾ في حال الخوف، والقتال لم يبدأ ﴿فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ بركعة واحدة ﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ وهم الطائفة الثانية الذين انصرفوا إلى مواجهة العدو ولم يصلّوا معك، لأن الضمير عائد إليهم وليس للطائفة المأمورة بالصلاة ﴿فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ﴾ يعني الطائفة التي صلّت ركعة واحدة تقوم تجاه العدو بعد فراغها من ركعة وسجدتين، لأن الفاء في قوله ﴿فَلْيَكُونُوا﴾ للتعقيب، ومعنى فليكونوا من ورائكم أي يقوموا بحمايتكم وليس بالضرورة أن يكونوا وراءهم مكانياً، وبالتعبير العسكري يقوموا بتغطيتكم ﴿وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ أي الركعة الثانية تصلّيها الطائفة الثانية التي كانت إزاء العدو ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ تقدير الخطاب: وليأخذ الباقون حذرهم وأسلحتهم وهم الطائفة القائمة تجاه العدو غير المأمورة بالصلاة مع الإمام ﴿الزجّاج﴾، ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ

عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ أي يقومون بهجوم مفاجيء ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ﴾ بحيث يلحق الضرر بالسلاح، أو إن كان يشق على المصلين حمل السلاح بهذه الحالة، وقد يكون المطر كناية عن الصعوبة ﴿أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾ ترخيص للمرضى وللجرحى من المقاتلين بوضع أسلحتهم ﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ أي أن وضع السلاح للمرخّص لهم يجب أن يكون بطريقة تضمن الحذر من العدو ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ الله تعالى يعذبهم بما هداكم إليه من أسباب النصر، كالاستعداد والحذر والصبر.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ (١٠٣).

١٠٣- ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ اذكروا الله في جميع أحوالكم ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ إذا اطمأنت أنفسكم بالأمن، وزوال الخوف، فأقيموا الصلاة على تمامها وبأركانها ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ كتاباً بمعنى مكتوباً أي كانت فرضاً مكتوباً عليكم، وكتاباً موقوتاً بمعنى محدد الأوقات، حتى أنه يلزم إقامتها في وقتها مع القصر، وفي حال الخوف رجالاً أو ركباناً، باستقبال القبلة أو عدم استقبالها مع الإيماء بالركوع والسجود، انظر آية [البقرة: ٢/٢٣٩]، وذلك خير من تأخيرها وأدائها كاملة فيما بعد.

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١٠٤).

١٠٤- ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ بعد الفراغ من الصلاة ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ أنتم وهم سواء في مشاق الحرب وآلامها، غير أنهم طلاب دنيا ومدافعون عن الباطل، في حين أنكم تدافعون عن الحق وترجون ثواب الله ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

كان علمه المحيط منذ الأزل، وحكمته تعالى أن يكون النصر للمؤمنين على الكفار، إذا اتخذوا الأسباب، وأعدّوا للأمر عدته وفق السنن الكونية الثابتة.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ (١٠٥).

١٠٥- عودة الخطاب لموضوع الآية (٨٨) لبيان أحوال الخائنين والمنافقين: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي متضمّنا الحق ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ بما في القرآن الكريم من الحكمة ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ لا تتهاون بتحري الحق ولا تغتر بافتراءات الخائنين، ولا تكن لهم خصيماً أي تخاصم عنهم وتتورط بالدفاع عنهم بغير وجه حق، والخطاب ليس موجهاً للنبي ﷺ خاصةً، وإنما هو عام لكل من يحكم بين الناس كما هو واضح من الآية (١٠٩) حيث الخطاب بلهجة الجمع.

﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١٠٦).

١٠٦- ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ لأن الإنسان قد يميل باعتقاده الشخصي أو بسبب صلة القربى أو الدين وغيرها لأحد الطرفين، فهذه الآيات تأمر بالمساواة بين الخصمين في القضاء، فلو مال الحاكم إلى أحد الخصمين بسبب حسن الظن به سلفاً فقد يكون خصيماً ومدافعاً عن المذنب، وهو ما نهت الآية عنه فوجب الاستغفار منه.

﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ (١٠٧).

١٠٧- ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ وهم المنافقون والمترددون بين الكفر والإيمان، لا تجد الأعذار لهم فهم غير صادقين مع أنفسهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ فقد ظلموا أنفسهم باعتيادهم الخيانة والإثم.

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ (١٠٨).

١٠٨- ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ يخافون الناس ولا يخافون العقاب الإلهي (وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ) الله تعالى شاهد على ما يبيّتون في الليل من الأفكار والمعتقدات الباطلة (وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا) كان وما زال محيطاً بأفكارهم وأعمالهم.

﴿هَاأَنْتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ (١٠٩)

١٠٩- ﴿هَاأَنْتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الخطاب للمؤمنين، والكلام عن المنافقين ﴿فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ أي من يكون وكيلاً بالخصومة عنهم في الآخرة كما كنتم عنهم في الدنيا.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١١٠).

١١٠- ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا﴾ بارتكاب الذنوب ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ بالشرك والنفاق ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ ليس بالكلام فقط، وإنما بالتوبة الصحيحة والإيمان الصحيح والعمل الصالح ﴿يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١١١).

١١١- ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ أي إن نفعه، إن كان منه نفع مؤقت، يعود وباله عليه ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ (١١٢).

١١٢- ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا﴾ قيل أن الخطيئة هي الذنب الذي يرتكبه صاحبه خطأً، والإثم هو الذنب المتعمد، أو الذي يصدر عن صاحبه وهو على علم أنه مخطىء، وقد يكون ارتكاب الذنوب متأصّلاً في طبعه دون أن

يتأمل فيها إن كانت خطأً أو صواباً ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ المعنى أن من يرتكب الخطيئة أو الإثم فيبرىء نفسه من أي منهما، ويتهم بهما بريئاً، كما هي حال المنافقين، فهو يحتمل وزر هذا البهتان، كما يحتمل وزر الإثم الذي ارتكبه، والبهتان هو الكذب الذي يندهش منه المكذوب عليه ويتحير منه.

﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (١١٣).

١١٣- ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ﴾ أيها النبي بأن نزّل عليك الوحي، وهو الفضل المطلق، أنظر آيات [البقرة: ١٠٥/٢] و [النساء: ٥٤/٤]، وأيها المسلم المتفقّه العامل بالقرآن ﴿وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ﴾ وهم الذين اعتادوا الخيانة المشار إليهم في الآيات السابقة يكذبون على الآخرين وعلى أنفسهم ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ لأن الخائنين غير صادقين مع أنفسهم فيقتصر ضرر عملهم عليهم فقط، خاصة أنه تعالى أنزل عليك أيها النبي القرآن، وعلّمك ما لم تكن تعلم من الوحي والحكمة وعلوم القرآن، وأيها المسلم بأن علّمك القرآن ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ أيها النبي بأن اصطفاك خاتماً للأنبياء والرسل، وأرسلك بشيرا ونذيرا للناس كافة، وأيها المسلم بأن هداك إلى القرآن ودين الإسلام.

﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١١٤).

١١٤- ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ﴾ وهم المذبذبين أنصاف المؤمنين، والنجوى: حديث السرّ بين الناس، فلا خير في الكثير من نجواهم لأن الغالب أن

تكون أحاديث السر بينهم لا تستهدف الخير ﴿إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ استثنى تعالى نجوى المؤمنين، ما كان منها لأعمال الخير، وهي المتعلقة بالصدقات، لأن الجهر بها قد يؤذي مشاعر المستفيدين منها، والمتعلق منها بالمعروف وهو عام في كل جميل، والمتعلق منها بالإصلاح بين الناس كمفاوضات الصلح السرية ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ﴾ وليس للرياء والسمعة والتفاخر ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لأن الأجر مرتبط بسلامة النية، وفي الحديث «إنما الأعمال بالنيات».

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (١١٥).

١١٥- ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ﴾ أي من ينشقّ عنه وعن سنّته ﷺ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى﴾ بعدما تبين له صحة دين الإسلام، والواضح أن الكلام عن المنافقين وضعاف الإيمان ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ غير سبيل الإسلام ﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾ أي إنه تعالى حلّ شأنه يتركه لحرية خياره، وهو تأكيد على حرية اختيار الإنسان لأعماله، فالإيمان لا يكون قسراً ﴿وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ فيكون هو الجاني على نفسه إذا اختار الضلال بعد أن تبين له الهدى، لأن سنة الله اقتضت أن يتحمل الإنسان عاقبة خياره الحر،

وأمثال هؤلاء يكونون من المغضوب عليهم، المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧/١] لكون الهدى قد تبيّن لهم، بخلاف الضالّين ممّن لم تبلغهم الرسالة، المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿وَلا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧/١].

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا﴾ (١١٦).

١١٦- بعد أن أوضحت الآيات (١٠٥-١١٥) أحوال الخائنين والمنافقين، تنتقل السورة لبيان أحوال المشركين:

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا﴾ أي من يشرك بالله أحداً فيدعوه معه، ويستغيث به، ويذكر اسم الله مع إسمه-كدعاء البعض للأنبياء والأولياء والأئمّة وغيرهم- فذلك من أقوى أنواع الشرك، وفي الحديث الشريف: «الدعاء هو العبادة» أي هو الركن الهام في العبادة، فيكون دعاء الشركاء المزعومين والتوسل بهم أو إليهم بمثابة عبادتهم.

﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ (١١٧).

١١٧- ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا﴾ كاللات والعزّى ومناة، آلهتهم في الجاهلية، أطلقوا عليها أسماء مؤنثة ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ أي شيطاناً تمرد عن الطاعة واستكبر، واعتاد الإغواء والإضلال إذ يوسوس في صدر الإنسان ويعده ويمنّيه، وقد يكون من شياطين الإنس المدّعين للزعامات ما يقارب ادّعاء الألوهية.

﴿لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ (١١٨).

١١٨- ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ وهو الشيطان الذي يدعونه، أبعده تعالى من رحمته لقوله: ﴿وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ النصيب المفروض هو الاستعداد للشر الموجود في نفس الإنسان، سواء قلّ أو كثر لقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ٩٠/١٠]، وقوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٩١/٨]، فكل إنسان يشعر بوسوسة الشيطان غير أنه ليس للشيطان سلطان على عباد الله المخلصين، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ١٥/٤٢].

﴿وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾ (١١٩).

١١٩- ﴿وَلأُضِلَّنَّهُمْ﴾ عن الحق، أي الغاوين منهم ﴿وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ بإلقاء الأماني الخادعة في قلوبهم، كطول الأعمار وبلوغ الآمال، فينهمكون باللذات

الدنيوية والمطالب الشهوانية والمادية، ويسوّفون التوبة والأعمال الصالحة، ويستمرون في غيّهم، ويرجون رحمة الله بلا توبة ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ لأنهم كانوا في الجاهلية يقطعون أذن الناقة إذا ولدت خمسة أبطن وجاء الخامس ذكراً ثمّ يطلقونها محرّمين على أنفسهم الانتفاع بها بعد ذلك، والآية تعبير عن العادات والميول الوثنية عموماً ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ وهو أي شيء من شأنه تشويه أو تعطيل ما خلقت الأشياء لأجلها، كتلاعب بعض العلماء بالجينات وبالأجنة لأغراض غير سليمة، أو تعطيل وتبديل ما خُلقت الطبائع لأجلها، ومثل ذلك الشذوذ الجنسي واتباع أساليب حياتية شاذة غير طبيعية ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾ أي من يتّبع وساوس الشيطان ويعمل بمقتضاها، ويترك أوامر الرحمن، صار بمثابة من اتّخذ الشيطان سيداً له، فنتيجته الخسران المبين إن لم يكن في الدنيا ففي الآخرة.

﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ (١٢٠).

١٢٠- ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾ بوساوس السوء ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ أي ما يعدهم إلاّ ضلالاً في أذهانهم وباطلاً يغرّون به، والنتيجة أنهم يستغرقون في الملذات الدنيوية، ولولا وعود الشيطان لما تهالكوا على الزعامات والجاه والمال، وقد يعتقدون أن لا حدود لأهداف الإنسان وما يستطيع أن يحققه من إنجازات في دنياه.

﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ (١٢١).

١٢١- ﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أي لا يجدون عنها مفرّاً، لأنهم انجذبوا إليها بطبعهم حتى يتهافتون فيها بأنفسهم كما يتهافت الفراش في النار (المنار).

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾ (١٢٢).

١٢٢- ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ مقابلة مصير المؤمنين الذين يعملون الصالحات مع مصير الذين اتّبعوا وساوس الشيطان ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ في حين أن ما يعدهم الشيطان هو الباطل ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ أي لا أصدق من قوله تعالى.

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (١٢٣).

١٢٣- بعد الكلام عن المشركين بالآيات (١١٦-١٢١) ينتقل الخطاب إلى أحوال أهل الكتاب، لأنهم مشركون أيضاً:

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ أيها المشركون عموماً ﴿وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وهذ الأماني من جملة ما يعدهم الشيطان كما ورد في الآيات السابقة، فالغرور يسري في أهل الأديان، وليس مقتصراً على الكفار: اليهود يدّعون أنهم أبناء الله وأحباؤه ويزعمون أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودات، والنصارى يزعمون أن المسيح افتدى خطاياهم سلفاً نيابة عنهم، لأنهم آمنوا أن المسيح هو ابن الله، لذا أخبرهم تعالى أن الإنسان يحاسب بعمله، وأن الدين ليس جنسية يُكتفى منه بالاسم فقط ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ لأن الجزاء نتيجة طبيعية للعمل لا يتخلف عنه، وتلك سنّته تعالى في خلقه ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ فلا تنفعه الشفاعات والأوهام والتفاخر بالدين.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ (١٢٤).

١٢٤- بعد الخطاب في المنافقين، والمشركين، وأهل الكتاب، بالآيات (١٠٥-١٢٣)، ينتقل خطاب السورة إلى بيان السبيل القويم والدين الصحيح:

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ أي ما يستطيع عمله من الصالحات ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ بعد أن

أوضح تعالى بطلانَ الأماني، بيّن في هذه الآية أن الأمر كله معقود بالعمل فلا يفوز إلا من أقبل على العمل الصالح وهو مؤمن.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ (١٢٥).

١٢٥- ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي لا يوجد أحسن من هذا الدين فهو مبني على أمرين: العقيدة والعمل، أما العقيدة فالإشارة لها بقوله تعالى: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ فالوجه يمثل جوارح الإنسان بكاملها، والإسلام هو الإنقياد الكامل والخضوع لله وحده دون غيره، وأما العمل فالإشارة إليه بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي يفعل الحسنات ويترك السيئات، والمعنى أيضاً إحسان العمل ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ حنيفاً أي مائلاً عن الباطل لأن كل ما سوى الإسلام باطل، والمعنى أحسن الأديان: الميل عن كل ما هو باطل ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ كناية عن المحبة التي اختصه الله بها بعد أن ابتلاه بالمحن فاجتازها، انظر آية [البقرة: ١٢٤/٢].

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾ (١٢٦).

١٢٦- ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾ فهذا هو السبب كي يسلم الإنسان وجهه بالكامل لله وحده، دون غيره من المخلوقات التي لا تملك شيئاً ولا تحيط إلا بالجزئيات.

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ (١٢٧).

١٢٧- جرياً على عادة القرآن الكريم من تداخل آيات الرسالة والأخلاق مع آيات التشريع إظهاراً للعلاقة الأكيدة بين حياة الإنسان الروحية وبين سلوكه الاجتماعي، ينتقل الخطاب إلى بيان بعض أحكام اليتامى والزواج، وفيه عودة لمواضيع الآيات (٣-٣٥):

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ﴾ أيها النبي ﴿فِي النِّسَاءِ﴾ أي في شؤون النساء كأحكام الزواج والميراث ويتامى النساء وغير ذلك من أحوالهنّ ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ فهو تعالى مصدر التشريع ﴿وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ أي إن الفتوى هي ما يُتلى عليكم في القرآن، كما ورد في أول هذه السورة عن أحكام اليتامى وتعدد الزوجات ومواريث النساء، وكما سيرد في هذه الآية والآيات التي تليها عن يتامى النساء والولدان، والنشوز، والعدل بين الزوجات، وشروط الفرقة بين الزوجين: ﴿فِي يَتَامَى النِّسَاءِ﴾ المستضعفات ﴿اللَّاتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ أي لا تعطونهنّ استحقاقهنّ من الميراث أوالصداق لأنهنّ تحت كفالتكم وسيطرتكم وليس من مُدافع عنهنّ ﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ﴾ تحتمل معنيين: ترغبون في نكاحهنّ كونهنّ جميلات، فتستولون على حقوقهنّ وتغبنونهنّ في المهر، أو: ترغبون عن نكاحهنّ كونهنّ دميمات، وفي نفس الوقت تطمعون في أموالهنّ.

﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾ أي ويفتيكم تعالى أيضاً في أحوال المستضعفين من الولدان الذين بكفالتكم أو تحت إشرافكم ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾ ويفتيكم أن تكونوا عادلين في تعاملكم مع النساء والولدان المستضعفين فلا تطمعوا بأموالهم ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ ما تفعلوا من خير في تعاملكم مع المستضعفين من النساء والولدان، فالله تعالى يعلمه ويثيبكم عليه، ولا يضيع من أجوركم عنده شيء.

﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (١٢٨).

١٢٨- هذه الآية وحتى الآية (١٣٠) من جملة ما أخبر تعالى أنه يفتيهم فيه من أحوال النساء:

﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾ أي إذا ظهرت لها من زوجها علائم الكراهة وسوء العشرة، وأصل النشوز الارتفاع لأن النشز هو المرتفع من الأرض، فكأنما الزوج يرتفع ويتكبر عليها ميلاً إلى غيرها ﴿أَوْ إِعْرَاضًا﴾ بالإهمال والترك ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ بحلول وسط تكون مقبولة للطرفين بحيث يتنازل كل طرف عن بعض حقوقه ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ من الفراق ومن النشوز والإعراض ﴿وَأُحْضِرَتْ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ الأنفس مطبوعة على الأنانية فهي تشحّ بحقوقها ولا تود التنازل عن شيء منها كي تصل إلى حل وسط ﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا﴾ بإمساك نسائكم، وإن كرهتموهنّ وأحببتم غيرهنّ ﴿وَتَتَّقُوا﴾ النشوز والإعراض ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيثيبكم عليه.

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١٢٩).

١٢٩- ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ بعد أن أخبر تعالى عن نشوز الرجل بسبب ميله إلى زوجة أخرى، أو رغبته بالزواج من أخرى، وبعد أن حثّ على الصلح والحلول الوسط، ولّما كان تعدد الزوجات مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالعدل بينهن، الآية (٣)، وحيث إن الرجل التقي قد يشعر بالإثم إذا أحب إحدى زوجاته أكثر من غيرها، فهذه الآية تبين أن مشاعر الرجل خارج نطاق سيطرته فيبقى أن يكون العدل بين الزوجات في المعاملة والإنفاق والسلوك الخارجي تجاههنّ ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾ بعواطفكم نحو الزوجة المفضّلة ﴿فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ وهي الزوجة الأقل محبة عند الزوج، فتتركوها كما لو كانت غير متزوجة، وهي في نفس الوقت ليست مطلّقة ﴿وَإِنْ تُصْلِحُوا﴾ في معاملة النساء ﴿وَتَتَّقُوا﴾ ظلمهنّ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ (١٣٠).

١٣٠- ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا﴾ أي الزوجان إذا رغبا في الفراق، ورجّحا الطلاق، بعد أن أخفقا في استرضاء أحدهما الآخر ﴿يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ﴾ يغني تعالى كلاً منهما عن صاحبه بعد الطلاق، أو يغني كلاً منهما بزوج خير من زوجه السابق ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ أي كان منذ الأزل ولا يزال واسع الرزق، واسع الفضل، واسع الرحمة، واسع القدرة، واسع العلم بمصالح مخلوقاته وبكل شيء.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ (١٣١).

١٣١- ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ بعد أن أمر تعالى بالإحسان إلى يتامى النساء، والمستضعفين من الولدان، بيّن أنه ما أمر بذلك لاحتياجه لأعمال العباد فهو مالك السماوات والأرض، وإنما أمر بذلك رعاية لمصالح عباده ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ فهذه الأوامر في جميع الشرائع والأديان من قبل لم يلحقها نسخ ولا تبديل ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ الله تعالى غني عن الجميع، منزّه عن طاعات المطيعين وذنوب المذنبين، فلا يزداد جلاله بالطاعات، ولا ينقص بالمعاصي والسيئات.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ (١٣٢).

١٣٢- ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ على عباده كما سيرد في الآية التالية.

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ (١٣٣).

١٣٣- ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ تنبيهاً للناس إلى التأمل في سننه تعالى بحياة الأمم، ونهوضها وانهيارها، وتعلق الأسباب بالمسببات، وكون هذه السنن متعلقة بمشيئته فلا تبديل لها.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (١٣٤).

١٣٤- ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ أي من يكدح ويتعب في هذه الدنيا لأجل المال والجاه والرياسة، فليعلم أن الله عنده ثواب الدارين الدنيا والآخرة معاً: ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ مَن كان عاقلاً متفكراً في مغزى الخلق يطلب الدنيا واضعاً نصب عينيه الآخرة، ولا يقتصر على طلب الدنيا فقط ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ سميعاً لأقوال عباده بصيراً بأهدافهم ومبتغاهم.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (١٣٥).

١٣٥- بعد أن شدّدت الآيات (١٢٧) والتي تلتها على موضوع العدل بين الزوجات، تنهى هذه الآية عن محاباة الأقرباء بغير الحق:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ أي عليكم أن تقوموا بالقسط وهو العدل، وقوّامين بالقسط معناها المبالغة في أمر القيام بالعدل ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ أي اشهدوا بالحق لوجه الله ولا تشهدوا بالباطل ابتغاء منفعة دنيوية ﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ حتى لو كانت الشهادة مخالفة لما تظنون أنه مصلحة لكم أو لوالديكم أو أقربائكم ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾ أي المشهود له ﴿فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾ لستم أرحم بالفقير من ربه، فلا تميلوا بالشهادة عن الحق رحمة بالفقير بزعمكم ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى﴾ في شهاداتكم ﴿أَنْ تَعْدِلُوا﴾ كراهة أن تعدلوا ﴿وَإِنْ تَلْوُوا﴾ ألسنتكم بالشهادة فتشهدوا بغير الحق ﴿أَوْ تُعْرِضُوا﴾

عن الشهادة هرباً منها ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيجازيكم بأعمالكم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (١٣٦).

١٣٦- هذه الآية دعوة للإيمان بالشرائع السماوية ككل وعدم التفريق بينها، لأن اليهود والنصارى لا يؤمنون ببعثة خاتم الأنبياء والرسل، وفي ذلك عودة لموضوع الآيات (١٢٣-١٢٦):

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قيل الخطاب لليهود والنصارى لأنهم آمنوا بالكتب السابقة فقط، فأمَرَتهم الآية أن يؤمنوا بخاتم الأنبياء والرسل،

ويحتمل المعنى أن يكون الخطاب للمسلمين مطلقاً، أمرهم تعالى أن يجمعوا بين الإيمان به، وبخاتم الأنبياء والرسل، وبالقرآن الذي نُزّل عليه، وبين الإيمان بجنس الكتب التي أنزلها تعالى على رسله من قبل، وأنه تعالى لم يترك عباده محرومين من الهداية في الأزمان الماضية:

﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾ وهو القرآن الكريم نُزّل نجوما مفرّقاً خلال ثلاث وعشرين سنة ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ الكتاب إسم جنس للكتب المنزلة من قبل، والمقصود الإيمان بحقيقة نزول الوحي على الأنبياء من قبل، وليس الإيمان بكتب اليهود والنصارى بوضعها الراهن لأنه قد دخل عليها التبديل والتحريف ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ لما أمر تعالى بالإيمان بكل ما ذُكر، توعّد على الكفر بأي جزء منه.

فالإيمان بالله هو الركن الأول، والإيمان بجنس الملائكة الذين يحملون الوحي إلى الرسل هو الركن الثاني، والإيمان بجنس الكتب التي نزل بها الملائكة على

الرسل هو الركن الثالث، والإيمان بالرسل أنفسهم هو الركن الرابع، والإيمان باليوم الآخر الذي يُوفّى فيه الناسُ أعمالهم هو الركن الخامس.

وأما من يفرق بين كتب الله ورسله فيؤمن ببعض ويكفر ببعض، كاليهود والنصارى، فلا يُعتدّ بإيمانه لأنه متّبع للهوى والتقليد، وقد وصفه تعالى بأنه قد ضلّ ضلالاً بعيداً لا تُرجى هدايته، أما من يضل عن الشيء وهو يبحث عن حقيقته حتى يصل إليه ويؤمن به فيكون ضلاله قريباً (المنار).

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ (١٣٧).

١٣٧- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾ قيل هم المنافقون، بدليل الآية التالية، يظهرون الإيمان ثم يكفرون، مذبذبون بين الإيمان والكفر حسبما تقتضي مصالحهم الدنيوية ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ لأنهم بلغوا حد الاستهزاء والسخرية بالإسلام ليس بقولهم فقط، بل بأعمالهم، وذلك من أعظم درجات الكفر ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ يتركهم تعالى وما اختاروا لأنفسهم فيحرمهم من توفيقه وهدايته، وفي هذ الآية عودة لموضوع المنافقين بالآيات (١٠٥-١٢٣).

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٣٨).

١٣٨- ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ جزاءً لهم على تذبذبهم بين الإيمان والكفر، واستهزائهم بالدين حرصاً على مصالحهم الدنيوية.

﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (١٣٩).

١٣٩- ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يتحالفون مع الكفار ضد المؤمنين، ويتخذون منهم أنصاراً لاعتقادهم أن السيطرة والمستقبل سيكونان لهم، واتخاذهم الكفار أنصاراً وحلفاء لا يقتصر على التحالف

السياسي أو العسكري معهم فقط، بل يتجاوز ذلك إلى التحالف المعنوي معهم عن طريق اتباع أساليب حياتهم وعاداتهم الاجتماعية والمعيشية على أمل أن يصيروا مقبولين لديهم ومساوين لهم في نظرهم، وهذا مما يؤدي إلى التخلي تدريجياً عن القيم والمبادىء الإسلامية ﴿أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ﴾ يتوهمون أنهم يدركون العزة والشرف باتباع الكفار في حين أن الكفار لا يقيمون لأمثالهم وزناً ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ يؤتيها المسلمين إذا اتبعوا هدايته وساروا بحسب سننه في خلقه.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ (١٤٠).

١٤٠- ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ في القرآن الكريم ﴿ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ إذا سمعتم الكفار أو المنافقين أو المشككين يتكلمون بالسخرية والإستهزاء عن آيات الله ﴿ فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ يحرم الجلوس إليهم والاستماع لهم ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾ مَن يرضى بالاستماع للكفر يكون كافراً مثلهم، فإن كان الجالس راضياً بذلك الجلوس فإقرار الكفر بالاختيار يعتبر كفراً، أما إن كان الجالس ساخطاً لقولهم، وإنما جلس بسبب التقية والخوف فلا يكون مثلهم (الرازي)، ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ يجمعهم في جهنم كما اجتمعوا على الاستهزاء بآيات الله، وقدّم تعالى ذكر المنافقين على الكفار لكونهم أخسّ منهم.

﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ (١٤١).

١٤١- ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ وهم المنافقون الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين يترقبون ما يحدث لكم من خير أو شر ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ أي نحن نستحق المشاركة في نعمتكم ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ أي نصيب من الظفر لأن الحرب سجال ﴿قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قالوا للكفار ألم نحميكم من المسلمين بعد أن كادوا يسيطرون عليكم ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بين المؤمنين والمنافقين ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ المعنى أن الكافرين من حيث هم كفار، لا يكون لهم سبيل على المؤمنين من حيث هم مؤمنون يقومون بحقوق الإيمان قولاً وفعلاً، فالنصر مضمون للمؤمنين بشرط القيام بحقوق الإيمان واتباع سننه في خلقه، أما غلبة الكافرين على المسلمين في بعض العصور فليست من حيث إنهم كفار، ولكن من حيث إنهم صاروا أعلم من المسلمين بسنن الله في خلقه وأحكم عملاً بها، والمسلمون قد تركوا ذلك أو جهلوه (المنار).

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (١٤٢).

١٤٢- ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ بخداع أنفسهم إذ يتحايلون على الشرع فيبررون لأنفسهم نفاقهم وكذبهم وغشهم، ويتعامون عن الحق، ويقنعون أنفسهم بأنهم على الصواب حريصاً وراء مصالحهم الدنيوية، وقد يتظاهرون بالتدين عمداً لخداع الناس ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ بتخليتهم لأنفسهم وبتوفيق المؤمنين، فعاقبة الخداع لا تعود إلاّ عليهم، ما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون، وإن نالوا مبتغاهم في الدنيا لا يفوتهم عقاب الآخرة ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ يقصدون من الصلاة المراءاة أي أن يراهم الناس يصلّون حتى يشهد لهم بالتقوى الغفلة من الناس ممن يغترون بظواهر

الامور ﴿وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ لأنهم يراؤون الناس بالصلاة فليس لهم منها إلا المراسم الظاهرية دون المضمون من الخشوع والعمل بما تقتضيه حقيقة الصلاة.

﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَى هَؤُلاءِ وَلا إِلَى هَـؤُلاءِ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ (١٤٣).

١٤٣- ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ بين الكفر والإيمان (لا إِلَى هَـؤُلاءِ وَلا إِلَى هَـؤُلاءِ) لا يخلصون في الانتساب لأحد الفريقين: المؤمنين والكفار، وإنما إخلاصهم لأنفسهم ومصالحهم فقط (وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً) يتركهم تعالى لما اختاروا لأنفسهم من الضلال.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ (١٤٤)

١٤٤- ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ حذّر تعالى المؤمنين أن يكونوا كالمنافقين، الذين سبق وصفهم، بأن لا يتّخذوا الكافرين أولياء وأنصاراً، يرجون منهم المنفعة ويبتغون بهم العزة، ولو ظنوا أنه لا ضرر في ذلك لإخوانهم المؤمنين (أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا) السلطان بمعنى الحجّة والبرهان، أي أتريدون أن يكون لله عليكم حجة بيّنة يوم القيامة؟ لأن هذا عمل سافر من أعمال النفاق، انظر بهذا المعنى أيضاً آيات: [آل عمران: ٢٨/٣، ١١٨] و [النساء: ١٣٨/٤-١٣٩] و [المائدة: ٥١/٥، ٥٧]، و [المجادلة: ١٤/٥٨] و [الحشر: ١١/٥٩] و [الممتحنة: ١/٦٠، ١٣].

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ (١٤٥).

١٤٥- ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَـنْ تَجِدَ لَهُـمْ نَصِيرًا﴾ لأنهم أسوأ من الكفار، فقد جمعوا بين الكفر والنفاق ومخادعة الله والمؤمنين والاستهزاء بالإسلام، فهم أخس وأسفل النفوس.

﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١٤٦).

١٤٦- ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا﴾ عن النفاق والغيبة والنميمة والكذب والافتراء والخيانة والمراءاة وتولي الكفار من دون المؤمنين، وفي الحديث: «ثلاث من كنّ فيه فهو منافق، وإن صام وصلّى وزعم أنه مسلم: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»، ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ سرائرهم، وقاموا بصالح الأعمال ﴿وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ﴾ أي تمسّكوا بهدي كتاب الله ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ فتكون أعمالهم خالصة لله وحده طلباً لمرضاته لا لمرضاة العباد ﴿فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي إذا قاموا بالشروط الأربعة المذكورة فيُلحقهم تعالى بالمؤمنين ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ (١٤٧).

١٤٧- ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ فليس هذا هو المقصود من خلق الإنسان ﴿إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾ وهو الشكر بمعناه العام الذي يتبعه الإيمان، لأن من يشعر بوجوب الشكر على نعمة الوجود والحياة والروح لا بد أن يتوصل إلى نتيجة لازمة، وهي أن نعمة الحياة ليست مصادفة، وبالتالي أن الخلق ليس عبثاً ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا﴾ موفياً أجوركم مثيبكم عليها ﴿عَلِيمًا﴾ بحق شكركم وإيمانكم.

﴿لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ (١٤٨).

١٤٨- بعد أن ذكر تعالى مثالب المنافقين، أتبعه بإيضاح الجهر بالسوء في أمثالهم:

﴿لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَنْ ظُلِمَ﴾ أي إنه تعالى لا يحب إظهار فضائح وقبائح الناس، فلا يجوز إظهار الأحوال المستورة المكتومة، منعاً لانتشار الرذائل والغيبة، ووقوع البعض في الريبة، إلا في حق من وضح ضررُه واشتدّ كيده ومكره، فعندئذ يجوز إظهار فضائحه، لأن المظلوم في هذه الحالة لا

يكون فرداً واحداً أو أفراداً بعينهم بل المجتمع بأسره إذا استمر في التستر عليه، وفي الحديث: «اذكروا الفاسق بما فيه كي تحذره الناس».

ويحتمل المعنى: إلا جهر من وقع عليه الظلم لكي يدافع عن نفسه، والمعروف أن الجهر بالسوء يساعد على انتشاره بين الناس يقتدي بعضهم ببعض، والعوام تقلد الخواص، ويتجرأ الناس على ارتكاب الفواحش والمنكرات إن علموا أنّ لهم قدوة سابقة فيها، فيقل استبشاعها واستغرابها في النفوس ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ فلا يجوز المبالغة في الجهر المسموح به (الرازي).

﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ (١٤٩).

١٤٩- ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ بعد أن بيّن تعالى أنه لا يحب الجهر بالسوء من القول بغير عذر الظلم، بيّن حكم إبداء الخير وإخفائه، وحكم العفو عن السوء، وهو أن فاعلي الخيرات قولاً وعملاً، جهراً أو سرّاً، والعافين عن المسيئين إليهم، يجزيهم تعالى من جنس أعمالهم فيتجاوز عن سيئاتهم ويثيبهم على عمل الخير فهو تعالى عفوّ قدير.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ (١٥٠).

١٥٠- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ لأن إنكار الوحي الذي نزل على الأنبياء هو كفر بالله ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ يدّعون الإيمان بالله تعالى ويكفرون برسله وينكرون الوحي ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ كالمشار لهم بالآية (١٣٦)، فاليهود يكفرون بالمسيح ومحمد عليهما السلام، والمسيحية تكفر بمحمد ﷺ ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ أي يتخذون طريقاً بين الإيمان بالله، والإيمان برسله، بفصل أحدهما عن الآخر، أو الإيمان ببعض الرسل دون غيرهم، فهم ينكرون أن النبوات قد نزلت على البشرية وتسلسلت بشكل منطقي حتى انتهت بخاتم الأنبياء والرسل محمد ﷺ، وفي ذلك عودة إلى موضوع المنافقين والكافرين المشار لهما آنفاً.

﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ (١٥١).

١٥١- ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ وهم المفرّقون بين الله ورسله، اكتمل كفرهم بذلك إذ لا فرق بين من لا يؤمن بالله، أو يؤمن بالله ويكفر برسله، أو يؤمن بالله وبعض الرسل ويكفر بالرسل الآخرين ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ﴾ من أمثالهم ﴿عَذَابًا مُهِينًا﴾ لأن العقاب من جنس العمل.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١٥٢).

١٥٢- ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ المؤمنون بالله ورسله دون التفريق بين أحد منهم، سوف يؤتيهم أجورهم على أعمالهم الصالحة، لأن الإيمان يجب أن يرافقه العمل، والمعنى أن أمثال هؤلاء المؤمنين لا تذهب أعمالهم هباءً ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ لأمثال هؤلاء المؤمنين.

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ (١٥٣).

١٥٣- ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ المشار إليهم آنفاً أنهم يفرقون بين الرسل يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ﴿أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ وهم اليهود طلبوا من النبي ﷺ أن ينزّل عليهم كتاباً من السماء يلمسونه بأيديهم، وهذا الطلب على سبيل التعنّت والتعجيز، لا طلباً للحجة والإقناع، قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الأنعام: ٦/٧]، وقد يكون أنهم طلبوا نزول الوحي عليهم مباشرة لاعتقادهم أن الوحي الإلهي حكر عليهم.

وإن تعجب أيها الرسول لطلبهم هذا: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ لأنّ أحدادهم سألوا موسى أكبر من ذلك السؤال، ﴿فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ بسبب تكبّرهم وتعنتهم ظنّوا أن أبصارهم يمكن أن تحيط بالله، سبحانه وتعالى عمّا يصفون علوّاً كبيراً، أنظر آية [البقرة: ٢/٥٥]، ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ معبوداً، انظر آية [البقرة: ٢/٥١] ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ جاءتهم البينات كنزول الوحي على موسى، ونجاتهم من فرعون، وانفلاق البحر، وتظليل الغمام عليهم، ونزول المنّ والسلوى عليهم في سيناء ﴿فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ﴾ فلم يستأصلهم تعالى بل أعطاهم المزيد من فرص التوبة ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ وبهذا السلطان نصره تعالى على كفارهم بالرغم من عنادهم وتعنتهم ومشاقتهم موسى عليه السلام.

والمغزى أن ذرية أولئك المتعنتين يسيرون على خطى أجدادهم في الكفر ومشاقّة الرسل.

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (١٥٤).

١٥٤- ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ أي كان جبل طور سيناء شاهداً على ميثاقهم الذي قطعه نقباؤهم الذين اصطحبهم موسى إلى الطور ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ كما ورد في آية [البقرة: ٢/٥٨]، أي ادخلوا فلسطين دخول النقاة المتواضعين، كما دخل النبي ﷺ مكة وقت الفتح، ولا تدخلوها دخول الطغاة المتجبرين ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ لا تعتدوا وتنتهكوا شريعة يوم السبت، انظر آية [البقرة: ٢/٦٥]، ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ ميثاقاً مؤكداً غاية التوكيد، وهو المذكور بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا...﴾ [البقرة: ٢/٨٣].

﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (١٥٥).

١٥٥- ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي بنتيجة نقضهم ميثاقهم المشار إليه آنفاً استحقّ اليهود غضب الله، والميثاق مذكور تفصيله في آية [المائدة: ١٢/٥]، ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ وهذه سمة عامة في جميع المتعصبين، والمتحيزين، والذين توارثوا التقاليد والعادات، أنه مهما وضحت الحقيقة يقولون أن قلوبهم مغلفة عنها وليس لديهم أي استعداد للتفكير الموضوعي، لأن قلوبهم مشتملة على ما يكفيهم من العلم بزعمهم ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ الكفر يحجب الحقيقة عن صاحبه إذ يمنعه من التفكير الموضوعي، ويعمي بصيرته ﴿فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ قليلاً ما يؤمنون بالصواب، لأنّ معتقداتهم متمحورة ومنغلقة حول أنفسهم، ويحتمل المعنى أيضا أنه لا يؤمن منهم بخاتم الأنبياء والرسل إلا القليل، فيظلّ الباقون منهم بانتظار غيره أبد الدهر، انظر آية [البقرة: ٨٨/٢].

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ (١٥٦).

١٥٦- ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ بعيسى عليه السلام، والمعنى أنهم استحقوا غضب الله بسبب كل ما ذكر في الآية السابقة، وأيضا بسبب كفرهم بعيسى عليه السلام كما هو واضح من سياق الآية ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ بسبب قولهم على مريم بهتاناً عظيماً، لأنهم اتهموا مريم عليها السلام بالفاحشة، والبهتان هو الباطل أو الكذب الذي لشدّته يصاب سامعُه بالدهشة ويسكت متحيراً منه.

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ (١٥٧).

١٥٧- ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ إتمام الخطاب من الآيات السابقة، والمعنى أنّ الله تعالى غضب عليهم ولعنهم لأنهم تفاخروا وزعموا أنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم، لأنه بزعمهم ادعى أنه رسول الله، فلم يؤمنوا به وحرّضوا الحاكم الروماني في فلسطين على قتله، وقد يكون المعنى أنهم تفاخروا بقتله مع أنه رسول الله، أو مع علمهم أنه رسول الله ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ نفي قاطع لقتل أو صلب المسيح عليه السلام ﴿وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أي خيّل لهم قتل المسيح واشتبه عليهم موضوع القتل ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ والاختلاف في قتل المسيح عليه السلام واقع بين المسيحية أنفسهم لا يُجمعون على خبر يقيني، فمنهم من يعتقد أن المصلوب كان شخصاً غيره في الوقت الذي كان المسيح واقفاً في مكان قريب يضحك من ضلالهم، ومنهم من يعتقد أن المصلوب كان عيسى نفسه غير أنه لم يمت على الصليب بل كان حياً حين أُنزل منه، ومنهم من يقول إنه مات على الصليب غير أنه عاد إلى الحياة وتحدث إلى تلاميذه عدة مرات، وروايات عديدة أخرى ليس لهم بها من اليقين شيء، فهم يتّبعون الظن والتخمين ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ أي لم يقتلوه على وجه اليقين، والمعنى أنهم كانوا شاكّين فيما إن كانوا قتلوه أم لا؟ وفي فصل (الصلب) من كتاب (المسيحية والإسلام والاستشراق) للكاتب المزيد من التفصيل عن هذا الموضوع،

﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (١٥٨).

١٥٨- ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي مستوفي أجلك في هذه الدنيا لأنّ أصل التوفي في اللغة هو أخذ الشيء وافياً، ثم استُعمل بمعنى الموت، راجع تفسير [آل عمران: ٥٥/٣]، والرفع ذو معنيين فمن جهة هو تشريف الله سبحانه وتعالى للمسيح عليه السلام برفعه إليه، ومن جهة ثانية أن كيد الماكرين الذين تآمروا على قتل المسيح لم يكن ذا بال لأنه تعالى رفعه إليه

فلم يحققوا مرادهم، قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران:/٥٤].

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ فمن عزته تعالى أنه رفع المسيح إليه فلم يقتلوه ولم يصلبوه، ومن حكمته أنه أحبط كيدهم.

﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ (١٥٩).

١٥٩- ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ كلّ واحد من أهل الكتاب من اليهود والنصارى عندما يدركه الموت، سيؤمن بعيسى عليه السلام، فاليهودي سيؤمن أن عيسى لم يكن مدّعياً أو كاذباً بل كان رسول الله حقاً، والمسيحي سيؤمن به رسولاً، وليس إلهاً أو ابن إله أو مصلوباً كما كانوا يزعمون في حياتهم، والمعنى من إخباره تعالى بذلك أن الإيمان عند معاينة الموت لا ينفع صاحبَه، فالأوْلى أن يؤمن أهل الكتاب قبل موتهم (الزمخشري)، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ يشهد عليهم المسيح يوم القيامة بالحقيقة، وبأنهم كذّبوه أو شوّهوا رسالته أو جعلوه مصلوباً أو إلها أو ابن إله.

وفي حين أن مسألة الصلب بذاتها قد لا تكون بالأمر الذي يهتم القرآن الكريم بنفيه لولا أن المسيحية جعلتها أساس العقائد والدين، ثم إنه كَبُر عليهم نفي القرآن الكريم لقتل المسيح وصلبه، وهم لذلك يوردون الشبهات على القرآن والإسلام.

﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ (١٦٠).

١٦٠- ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ الواضح من سياق الآيات أن تحريم الطيبات لم يكن في أصل التوراة وإنما أحدثوه بعد تحريضهم على قتل المسيح عليه السلام، أي أنهم ظلموا أنفسهم بهذا التحريم وبصدّهم عن سبيل الله، وقد ذكر محمد أسد أيضاً

أن تحريم الطيبات عليهم كناية عن وقوعهم تحت قهر الأمم وتشريدهم في الأرض، ومعاناتهم، بعد أن صدّوا عن سبيل الله كثيراً وقتلوا يحيى وتآمروا على قتل المسيح عليهما السلام، كل ذلك من جملة غضبه تعالى عليهم، واللعنة التي حلّت بهم بسبب نقضهم الميثاق، وكفرهم، وقتلهم الأنبياء، وتفاخرهم بقتل المسيح عليه السلام.

وقد ورد موضوع التحريم أيضاً بقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦/٦]، والذي يبدو من سياق هذه الآية أن التحريم المذكور في كتب اليهود فرضه الأحبار أنفسُهم لأنهم كانوا ذوي نفوذ كبير على العوام، حتى أنّهم اتّخذوا لأنفسهم حق التشريع والتحليل والتحريم، واليهود يتّبعون أحبارهم فيما يُدخلون على الكتب من أحكام وتشريعات حتى صارت عندهم بمنزلة الوحي، فالمغزى أنهمّ شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم، وهو معنى قوله تعالى: ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ أي إنّها كانت حلالاً في الأصل فحرّمها أحبارُهم، وقوله: ﴿جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾ فالجزاء من سنن الله في خلقه، ومن يسلك طريق الضلال يقع في عاقبة عمله، وبما أنه تعالى قد سنّ قوانين الكون بأكمله فهو ينسب التحريم، وما يترتب عليه من معاناة، إلى ذاته العليّة.

﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٦١).

١٦١- ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ لأن كتبهم المحرّفة تسمح لهم بأخذ الربا من الأغيار-أي غير اليهود- وتنهى عن أخذ الربا من اليهود (سفر تثنية الإشتراع ٢٣/٢٠)، ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ بالخيانة والخداع والغش

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي الذين كفروا بالرسل، وخاصةً كفرهم بالمسيح والنبي عليهما الصلاة والسلام.

﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١٦٢).

١٦٢- ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ الذين لا يقتصر تديّنهم على المراسم الدينية والطقوس الخارجية، ولا يعتبرون دينهم بمجرد جنسية تقليداً وتعصباً لآبائهم، بل يتعمقون في معنى الوحي لأنه أصل العلم، ويأخذون بالدلائل، ويتفكرون في مغزى الإيمان وجوهره ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ إذ لا يمكن الفصل بين سلسلة الوحي التي نزلت على الأنبياء من بدايتها حتى اختتامها برسالة النبي ﷺ ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ خصّ تعالى منهم المقيمين الصلاة-والمقيمين مفعول به منصوب على الاختصاص أو على المدح- فيكون تقدير الآية: وأخص بالذكر منهم المقيمين الصلاة ﴿وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ في هذه الآية حرى تقديم الزكاة على الإيمان بالله واليوم الآخر لبيان أن العبرة بالدين هي بالعمل به، وليس الانتماء إليه فقط، لأن هذا هو مغزى الآية.

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ (١٦٣).

١٦٣- ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أيها النبيّ ﴿كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ المغزى أن أمر النبي ﷺ كأمر سائر الأنبياء عليهم السلام، وأن سلسلة الوحي التي بدأت بالنزول على البشر منذ القدم قد خُتمت بالوحي المنزّل على النبي ﷺ، فما وجه اعتراض الكفار على ذلك؟ والكلام متعلق بما ورد قبله بالآية

(١٥٠) بأن الكفار يفرّقون بين الله ورسله، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض، ثم سألوا النبي ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، وقد بيّن تعالى أنهم سألوا موسى أكبر من ذلك، ثم نقضوا الميثاق، وكفروا بعيسى، وافتروا على أمه مريم، ثم تآمروا على قتله وصلبه، والخلاصة أن تصرفاتهم منشؤها الكفر والعناد والتعنت، وليس طلب الدلائل والإسترشاد والهداية ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ يعقوب هو ابن اسحق ابن ابراهيم ولقبه إسرائيل، وجاء من ذريته سائر أنبياء أهل الكتاب، ثم انتقلت النبوة إلى محمد ﷺ وهو من ذرية إسماعيل بن إبراهيم، انظر تفسير آية [البقرة:/١٢٢]، ﴿وَالأَسْبَاطِ﴾ مفردها سبط بمعنى ولد الولد، وأسباط بني إسرائيل اثنا عشر، والمقصود أن الوحي نزل في الأنبياء الذين بعثوا فيهم، وليس أن الوحي نزل بالضرورة على كلّ من أولاد يعقوب خاصةً، ومن الخطأ تخصيص لفظ الأسباط بأولاد يعقوب من صلبه فقط ﴿وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ الزبور في اللغة هو الكتاب، وفي الأصل كلّ كتاب زبور، ثم اختُصّ هذا الاسم بكتاب داوود عليه السلام.

﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (١٦٤).

١٦٤- ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي وأوحينا إلى رسل آخرين أخبرناك عنهم قبل هذه السورة ﴿وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ بعثناهم إلى سائر أنحاء الدنيا لا علم لك بهم ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ أي إنه تعالى اختصّ موسى بطريقة خاصة من الوحي، ولا نخوض في حقيقتها وطبيعتها، وهي كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٤٢/٥١].

﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لئلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (١٦٥).

١٦٥- ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ مبشّرين الناس بالنعيم المقيم في الحياة الآخرة لمن آمن منهم وعمل صالحاً، ومنذرين الكفار والمجرمين بعذاب الآخرة ﴿لئلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ كي لا يدّعوا الجهل أو يقولوا إنهم كفروا لعدم وجود من ينقذهم من غفلتهم عن التفكر في الآيات الكونية والدلائل المودية للهداية، أو يدّعوا الانحراف عن الفطرة تقليداً لآبائهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ عزيزاً في تطبيق أحكامه، حكمته بيّنة في الخلق.

﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (١٦٦).

١٦٦- ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ إنْ كان الكفار بعد كل هذه الدلائل المتقدمة لا يشهدون بما أنزل إليك من الوحي ولا يؤمنون به، فإن الله تعالى شاهدٌ على ذلك، وشهادتُه تعالى من حيث إن القرآن عجزَ عن معارضتِه الأولون والآخرون بما تضمنه من الحكمة والبلاغة وعلوم الغيب والكون وعلوم الأنبياء والرسل، وكوْن الآيات والسوَر محكمة النظم مع أنها نزلت على مدى (٢٣) عاماً بترتيب مختلف عن ترتيب المصحف ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ متضمناً من علمه ومن حكمته تعالى: ﴿وَالْمَلاَئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ بنزول الوحي الذي حملوه إلى الرسل ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ فأي شهادة أعظم مما ذُكر، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٣/١٨].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلاَلاً بَعِيدًا﴾ (١٦٧).

١٦٧- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأصرّوا على كفرهم، واستغرقوا فيه، وماتوا عليه ﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ صدّوا عن الإيمان ببعثة النبي ﷺ، وجحدوا بها

لاعتقادهم أن النبوة لا تكون إلاّ في ذرية بني إسرائيل وأن الرسالات السابقة لا يمكن أن تُنسخ ﴿قَدْ ضَلُّوا ضَلالاً بَعِيدًا﴾ لأن أشد الناس ضلالاً من يكون ضالاً ويعتقد أنه على حق، ويحاول إلقاء غيره في مثل ضلاله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ (١٦٨)

١٦٨- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا﴾ كفروا بعثة النبي ﷺ، وظلموا أنفسهم وغيرهم بضلالهم وإضلالهم ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ لأنهم ساروا على طريق الضلال بمحض اختيارهم وإصرارهم، فمن يسير على طريق يصل إلى منتهاه، والمعنى أن انتظار المغفرة من قبل هؤلاء كانتظار النقيض من النقيض، والضد من الضد، أو انتظار إبدال نظام العالم وسننه تعالى وحكمته في خلقه.

﴿إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (١٦٩).

١٦٩- ﴿إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ وهي منتهى طريق الضلال والإضلال ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ فلا يستعصي على قدرته تعالى وهو مقتضى حكمته وسننه.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١٧٠).

١٧٠- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ خطاب إلى الناس كافة ﴿قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ الرسول مع أل التعريف هو النبي محمد ﷺ بالذات، جاءهم بالحق وهو القرآن الكريم، وهو النبي الموعود والمذكور صراحة في كتب اليهود والنصارى، وقد كانوا بانتظاره فلما جاءهم من ذرية إسماعيل رفضوه ﴿فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ لأن خير الإيمان يعود على صاحبه في الدنيا والآخرة، وأنّ الله تعالى غنيّ عن عباده وعن العالمين ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ عليماً محيطاً بشؤون عباده من المؤمنين والكفار لا يخفى عليه شيء من إيمانهم وكفرهم، حكيماً في عاقبة أعمالهم وفي سننه فيهم.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ (١٧١).

١٧١- ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ المقصود بهم النصارى بدليل تتمة الآية ﴿لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ أي لا تُفرطوا في تعظيم المسيح ورفعه إلى درجة الألوهية، فاليهود من جهة كفروا بالمسيح، والمسيحية من جهة ثانية جعلوا منه إلهًا، وكِلا النقيضيْن كفر، وهذا الغلوّ في الدين أدخله في دين النصارى بولس أولاً، والمجمعات الكنسية ثانيًا، ابتداءً من مجمع نيقية الذي انعقد عام ٣٢٥ برعاية قسطنطين الكبير إمبراطور بيزنطة، انظر تفسير آيات [آل عمران: ٣/٣] و [المائدة: ٥/١٣-١٤،٤٧]، ﴿وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ﴾ لا تدّعوا أنّه حلّ في جسد بشر، ولا أن له ولداً أو شريكاً، سبحانه وتعالى عما يصفون علوًا كبيراً ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ بعثه تعالى إلى بني إسرائيل لينقذهم من الأوهام والخرافات والضلالات التي أضافها أحبارُهم إلى رسالة موسى وجعلوها في كتبهم، حتى صار دينهم مجرد عصبية وجنسية، كما بعثه تعالى كي ينهاهم عن عبادة الجبت والطاغوت والمادة، ويبشرهم بقدوم خاتم الأنبياء والرسل، لقوله: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦١/٦].

﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ هو مصداق كلمته، وتحقيق وعده تعالى إلى مريم، والكلمة هي البشارة بميلاد عيسى، انظر آيات [مريم: ١٩/١٩] و [آل عمران: ٣/٤٥]، ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ المسيح مثل سائر البشر خُلق بنفخة الروح أو بروح من الله، لقوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِنْ طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ۞ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾ [السجدة: ٣٢/٧-٩].

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ لأن عيسى ابن مريم رسول من رسل الله ﴿وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ لا تقولوا أيها النصارى: آلهتنا ثلاثة، وهو مذهب التثليث المعروف عندهم، وهم يدّعون الجمع بين التثليث والتوحيد في

آن واحد، وهو تناقض يستحيل على العقول والأفهام ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي تنزّه تعالى عن مشابهة البشر في أن يكون له ولد، وفي كتب اليهود تكرر استخدام تعبير ابن الله بالمعنى المجازي، كما يقال الخلق كلهم عيال الله، ولكن النصارى أساؤوا استخدام التعبير، ولذلك أدانه القرآن الكريم ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ والمسيح من جملتها ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ أي به الكفاية لمن عرفه، وعرف سننه في خلقه، ووكّل إليه أمره.

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ (١٧٢).

١٧٢- ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ يستنكف أي يمتنع أنفةً، والمعنى أن الملائكة المقرّبين لا يمتنعون أن يكونوا عبيداً لله، فكيف بالمسيح ابن مريم؟ ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ جميع الخلق محشورون إليه تعالى في كل الأحوال، فيجازي كلاً بعمله.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾ (١٧٣).

١٧٣- ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ على إيمانهم وقيامهم بصالح الأعمال ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أضعافاً مضاعفة فوق ما يستحقون ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ المعنى أنه تعالى يجازي المحسن بالعدل والفضل، وأما المسيء فيجازيه بالعدل فقط لأن رحمته تعالى سبقت غضبه ﴿وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾ لا يجدون من يتولّى أمورهم يوم القيامة غيره تعالى، ولا نصيراً يدفع عنهم العذاب.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ (١٧٤).

١٧٤- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وهي دلائل العقل والآيات الكونية، وقد تكون الفطرة السليمة، وقيل البرهان هو النبي ﷺ ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ وهو القرآن الكريم، لأنه ينير طريق الحق، وفيه بيان الأحكام والحقيقة.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (١٧٥).

١٧٥- ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾ آمنوا بالله، وتمسكوا بالقرآن، لأنه يعصمهم ويحفظهم ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ﴾ ينالون ثواب الله برحمة منه، ويزيدهم من فضله ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أي يوفقهم ويثبتهم على طريق الإسلام.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١٧٦).

١٧٦- هذه الآية تختم تشريع المواريث الذي سبق أن ورد في أوائل السورة، ويلاحظ فيها انتقال -في ظاهره مفاجيء- من آيات الإيمان، والكفر، والأنبياء، إلى موضوع من صميم التشريع الإجتماعي، وذلك انسجاماً مع أسلوب القرآن الكريم الذي يتعمّد ربط آيات التشريع الاجتماعي والتطبيق الحياتي، مع آيات التوحيد والإيمان والأخلاق، والسبب أنّ حياة الإنسان وحدة متكاملة لا يمكن فصل النواحي الروحية فيها عن النواحي الحياتية المعيشية سواء للفرد أوالمجتمع، فيلزم لذلك اعتبار كلا الناحيتين في آن واحد:

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ الكلالة اسم قد يطلق على الورثة أوعلى المورّث، فمن جهة: الكلالة هم ذوو القربى المحيطون بالميت من غير

الأصول والفروع، فهم كالإكليل المحيط بالرأس، ومن جهة ثانية: الكلالة هو المورّث الذي ليس له ولد ولا والد، لأن الأخوة والأخوات لا يرثون في حال وجود أولاد للميت، أو وجود الوالد، والخطاب في هذه الآية عن الأخوة والأخوات من أب:

﴿إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ ولا والد، والآية لم تذكر الوالد من قبيل الإيجاز البليغ، لأنه كتحصيل الحاصل، ولأن الأخوة والأخوات لا يرثون بوجود الوالد بالإجماع، وقد سبق بيان ذلك في الآية (١٢)، ولم تشترط الآية عدم وجود زوج، أو زوجة، لأن العرب تطلق الكلالة على النسب دون الصهر، ولأن الزوج، أو الزوجة، يرث كالأصول والفروع ﴿وَلَهُ أُخْتٌ﴾ واحدة من أب، شقيقة كانت أم لا ﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ والشرط أن لا يكون للميت ابن ذكر، أمّا إن كان له بنت فتستحق النصف كما ورد في الآية (١١)، ويكون النصف الثاني للأخت ﴿وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ أي إن لم يكن لها ولد ذكر ولا والد، فيرث الأخ كامل ميراث الأخت، أما إن كان لها بنت - فتستحق نصيبها ولا تحجب الأخ ﴿فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ بالتساوي، وإن اختلفتا كان للشقيقة النصف، والباقي للأب فقط السدس تكملة الثلثين، والباقي لمن يوجد من العصبة، إن لم يكن هنالك أحد من أصحاب الفروض كالزوجة، وإلاّ استحق كلّ ذي فرض فرضه أوّلاً ﴿وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ﴾ إلاّ الأخوة لأم فقط، فهم شركاء في ثلث أمهم بالتساوي، لأنهم حلّوا محلّها (الآية ١٢)، ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾ أي يبيّن الله لكم الأحكام كراهةَ أن تضلّوا عن الطريق السوي ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فهو تعالى عليم بمصالح عباده في الحياة والممات.

* * *

سورة المائدة -٥-

مدنية

مقدمة

اشتق اسم هذه السورة من الآية (١١٢) التي تذكر طلب الحواريين من عيسى المسيح عليه السلام تنزيل مائدة عليهم من السماء، وكما هي الحال في باقي سور القرآن الكريم فإن اسم السورة لا يمثل بالضرورة موضوعها الرئيسي، وإنما هو مجرد عنوان أو إشارة للسورة، والجمهور على أنها نزلت في العام العاشر من الهجرة خلال فترة حجة الوداع، وأنها من آخر ما نزل من القرآن الكريم.

ارتباط السورة بما قبلها

تبين هذه السورة الكثير من الأحكام الشرعية المتممة لما سبق نزوله في سور (البقرة-آل عمران-النساء)، كما تبحث مزيداً من أحوال أهل الكتاب من اليهود والنصارى وموقف الإسلام منهم، وفي ترتيب السورة القرآني-التوقيفي- على هذا النحو ما فيه من إعجاز القرآن بالنظر لاستكمال سورة المائدة لمواضيع سور (البقرة-آل عمران-النساء) المتقدمة، مع أنها نزلت بعدها بحوالي سبع إلى ثماني سنوات.

فبعد أن ختمت سورة النساء ببيان حكم إرث الكلالة: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ [النساء: ١٧٦/٤]، تفتتح سورة المائدة بالأمر بالوفاء بالعقود: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١/٥] لأنّ من العقود ما يتضمن إقرار العباد بعبوديتهم لله تعالى والعمل بشرعه كما في آية [المائدة: ٧/٥]، غير أن

اليهود ينقضون المواثيق ولا يوفون بالعقود، لا الإلهية منها ولا مع الناس، كما سيرد:

ففي سورة النساء أن اليهود يعصون الشرائع: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [النساء: ٤/٤٦]، وفي سورة المائدة-كما في آية [النساء: ٤/١٥٥]- أنهم ينقضون المواثيق ويخونون العهد: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٥/١٣].

وفي سورة النساء أن لم يتبقَّ لدى أهل الكتاب سوى نصيب-أي جزء- من الوحي الصحيح ومع ذلك هم مصرّون على الضلال والإضلال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ [النساء: ٤/٤٤]، وفي سورة المائدة بيان لهم بما يخفون من الكتاب: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ٥/١٥].

وفي سورة النساء أن غلوّ النصارى أدّى بهم إلى تأليه المسيح: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [النساء: ٤/١٧١]، وفي سورة المائدة أن ذلك كفر: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٥/١٧].

وفي سورة النساء أن اليهود بالغوا في معاندة موسى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ٤/١٥٣]، وفي سورة المائدة أنهم قالوا له: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٥/٢٤].

وفي سورة النساء أن اليهود أُمروا بدخول الباب سجّداً أي متواضعين: ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ [النساء: ٤/١٥٤]، وفي سورة المائدة أن المقصود

دخول الأرض المقدسة: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢١/٥].

وفي سورة النساء إنذار اليهود بسوء عاقبتهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾ [النساء: ٤٧/٤]، وفي سورة المائدة بيان لمآلهم: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣/٥]، وأيضاً: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠/٥].

وفي سورة النساء زعم اليهود أن الكفار أهدى من المؤمنين: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾ [النساء: ٥١/٤]، وفي سورة المائدة أن اليهود سماعون لأجل الكذب: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة: ٤١/٥].

وفي سورة النساء أن أهل الكتاب جاهدون في إضلال المسلمين: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ [النساء: ٤٤/٤]، وفي سورة المائدة نهي صريح عن اتخاذهم أولياء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١/٥]، أنظر أيضاً [المائدة: ٥٧/٥].

وفي سورة النساء أن غلوّ النصارى أدى بهم إلى الاعتقاد بالتثليث: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ [النساء: ١٧١/٤]، ثم في سورة

المائدة أن القول بالتثليث كفر: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٥/٧٣]، ونهي لهم عن الغلو: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٥/٧٧].

محور سورة المائدة

يدور محور السورة حول المواضيع التالية بالترتيب:

١- الآيات (١-١١) في العقود، ومن ذلك بيان المحرّمات والطيبات، وأحكام الوضوء والصلاة، والشهادة.

٢- الآيات (١٢-٨٦) في أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ودحض عقائدهم، لكونهم أضاعوا-نسوا- جزءاً كبيراً من كتبهم، وتبين الآيات ضلال اليهود عن رسالة موسى وتمردهم، وإفسادهم في الأرض وما يترتب عليهم جزاء محاربتهم الله ورسوله، وسوء سرائرهم، ورفضهم إنجيل عيسى، وأن القرآن الكريم مهيمنٌ على ما تبقى من كتب اليهود والنصارى بحيث أصبح معياراً لمعرفة الغث من السمين منها، الآية (٤٨)، لذا تنهى السورة المؤمنين عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، وتفصّل في ضلال اليهود والنصارى وتبين كفرهم، لكنّ المؤمنين منهم دخلوا الإسلام.

٣- الآيات (٨٧-١٠٨) عودة الخطاب إلى أول السورة في العقود، وحكم اللغو في الأيمان، وحكم الأيمان المعقدة، وتحريم الخمر، وحكم الصيد في الحرم، والنهي عن التنطع في سؤال ما عفت عنه الشريعة، وتوجب الوصية وشهادتها،

٤- الآيات (١٠٩-١٢٠) ختام السورة في عيسى المسيح، وإيمان الحواريين والنصارى به، في حين ضلّت المسيحية عنه وجعلته وأمّه إلهيْن.

وتبلغ السورة أوجها بأن القرآن الكريم يصدّق فقط ما تبقى بين يديه من الوحي الصحيح في كتب اليهود والنصارى، ويغربل الصحيح منها من الزائف:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨/٥].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ (١).

١- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ أمر تعالى بالوفاء بجميع العقود إطلاقاً، ومن العقود ما يتضمن إقرار العباد بعبوديتهم لله تعالى كما في آية [الأعراف: ١٧٢/٧]، والخطاب من الآية (١) حتى الآية (٧) في العقود التي أوجبها تعالى على المؤمنين وختمها بتذكيرهم بالميثاق، الآية (٧)، ومن العقود أيضاً التي يتعاقد عليها العباد فيما بينهم في جميع معاملاتهم الدنيوية المدنية والشخصية، وإطلاق كلمة العقود يعتبر كل عقد بين الناس جائزاً ويجب الوفاء به، ما دام لا يحل حراماً ولا يحرم حلالاً، وفيما عدا ذلك فقد أوكل تعالى تفصيل العقود بين الناس إلى عرفهم ومصالحهم التي تختلف باختلاف الأحوال دون تقييد، وهذه قاعدة عظيمة من قواعد الشرع الإسلامي، لأنه بنتيجتها تنتظم المجتمعات، وتزدهر الأحوال المعيشية والاقتصادية ويستتب الأمن،

﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ الأنعام هي الضأن والماعز والإبل والبقر، انظر آية [الأنعام: ١٤٣/٦-١٤٤]، وبهيمة الأنعام ذات معنى أوسع من الحيوانات الأهلية فقط، فهي تشمل حيوانات البر المشابهة لها، كحيوانات الرعي غير ذات الأنياب، التي تعيش على النباتات ولا تأكل اللحوم، ومن ثمّ فإن لحوم الحيوانات التي من أكلة اللحوم، وكذا الطيور الجوارح، تعتبر محرّمة ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ إلاّ ما يُتلى عليكم تحريمه، كما سيرد في الآية (٣)، ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ حرّم تعالى الصيد على المُحرمين بالحج أو العمرة أو كليهما،

كما حرّم الصيد لمن كان داخلاً في أرض الحرم ولو لم يكن محرماً ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ ما يراه صالحاً للعباد، بحسب علمه المحيط، وحكمته البالغة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٢).

٢- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ لا تجعلوها حلالاً، والشعائر جمع شعيرة وهي ما جُعل شعاراً ومعلَماً لمناسك الحج والدين والفرائض ﴿وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ لا تجعلوه حلالاً، وهو شهر الحج، وقيل الشهر الحرام اسم جنس للشهور الحرم الأربعة، ذي القعدة وذي الحجة والمحرم ورجب، أنظر آية [التوبة: ٣٦/٩]، ﴿وَلا الْهَدْيَ﴾ وهي الأضاحي التي تُهدى إلى بيت الله الحرام، لا تتعرضوا لها ﴿وَلا الْقَلائِدَ﴾ مفردها قلادة، وكانوا يعلقونها في عنق الناقة أو البقرة أو الشاة، علامة على أنها هدي لبيت الله، كي لا يتعرض لها أحد حتى تبلغ البيت الحرام، والمعنى لا تنزعوا هذه القلائد من رقاب الهدي، كي لا يتعرض لها أحد بسبب الجهل أو بالغصب أو السرقة أو الحبس ﴿وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ ولا تحلّوا قتال قاصدي البيت الحرام للعمرة أو الحج، ولا تتعرضوا لهم، ولا تمنعوهم من قصدهم، ولا تقطعوا الطرق عليهم ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ أي هؤلاء القاصدين البيت الحرام يبتغون الفضل من ربهم وهو الثواب، وقيل الفضل هو التجارة المباحة لهم في الحج والعمرة، كما يبتغون رضا الله بحجهم أو عمرتهم ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ يباح لكم الصيد خارج الحرم بعد حلّكم من الإحرام ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ الشنآن هو البغض، وجرَم أي اكتسب جرماً، والمعنى لا يكون بغضكم لقوم منعوكم أو يمنعونكم من الوصول إلى المسجد الحرام، لا يكون سبباً لأن تعتدوا فتكسبوا جرماً، والمنع من الوصول إلى المسجد الحرام قد

يشمل في معناه الواسع منع المسلم من ممارسة واجباته الدينية وفرائضه الإسلامية وشعائره، فلا يجب أن يكون ذلك سبباً للمسلم أن يعتدي ويتجاوز الحدّ، لأن الباطل لا يبرر العدوان ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ البرّ هو ما ثبت في القلوب من الإيمان، وما يظهر من أثره في العمل، واتقاء ما يضر صاحبه في الدين والدنيا، وليس مجرّد الصلاة من دون عمل، انظر آية [البقرة: ١٧٧/٢]، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي اتقوا الله باتباع ما أمركم به وترك ما نهاكم عنه، لأن من سننه تعالى في خلقه أنّ من يخالف ذلك يقع في العقاب الشديد.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣).

٣- في هذه الآية بيان للمحرمات من البهائم المشار إليها في الآية الاولى، وفيها تفصيل ما ورد تحريمه في آيات [البقرة: ١٧٣/٢] و [الأنعام: ١٤٥/٦] و [النحل: ١١٥/١٦]، والمحرّمات أربعة بالإجمال، وعشرة بالتفصيل، كما يلي:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ أي البهيمة التي ماتت حتف أنفها ﴿وَالدَّمُ﴾ وهو الدم المسفوح وإن كان جامداً لقوله تعالى: ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥/٦]، ﴿وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾ هذه الأصناف الثلاثة حُرّمت لأسباب صحية، ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ محرّم أكله لأسباب دينية، والمقصود تحريم ذكر اسم غير الله على الذبيحة كقولهم باسم اللات والعزّى وما شابه.

﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ﴾ البهيمة التي ماتت خنقاً ﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ التي ماتت ضرباً أو بضربة ﴿وَالْمُتَرَدِّيَةُ﴾ التي تموت نتيجة سقوطها من مكان مرتفع أو غير مرتفع ﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ التي نطحتها بهيمة أخرى فماتت ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ التي افترسها الوحش، كلها محرمة لأسباب صحية ﴿إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ ما أدركتم بالذبح قبل أن يفارق الحياة من أصناف المنخنقة والموقوذة والمتردّية والنطيحة وما أكل السبع.

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ ما يذبح تقرباً للأوثان وأشباهها، محرمة لأسباب دينية، والنُصُب والأنصاب حجارة أو أوثان كانوا يذبحون عليها تقرّباً لأصنامهم وآلهتهم بزعمهم.

﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ﴾ وهي محاولة معرفة ما قُسم لهم من الغيب عن طريق السهام كالقرعة، وهي كناية عن كل محاولة لمعرفة المستقبل ﴿ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾ خروج عن طاعة الله،

﴿الْيَوْمَ﴾ يوم عرفة من حجة الوداع بالسنة العاشرة من الهجرة ﴿يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ يئسوا من ردّكم عن دينكم بعد أن تمكّن الإسلام في نفوسكم واكتملت الرسالة ﴿فَلا تَخْشَوْهُمْ﴾ في اتباع دينكم، ولا تمالئوهم وتتزلفوا إليهم ﴿وَاخْشَوْنِ﴾ بإتباع الإسلام ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فلم ينزل بعد هذه الآية تشريع من حلال أو حرام ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ قيل إن رسول الله ﷺ لم يُعمَّر بعد هذه الآية إلاّ واحداً وثمانين يوماً، وقيل إثنين وثمانين يوماً، والآية أيضاً من قبيل الإخبار بالغيب بقرب وفاته ﷺ ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ﴾ أي من اضطر في المجاعة أو ظروف قاهرة لأكل بعض هذه المحرّمات المذكورة ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ غير مائل لأكلها ولا متعمّد ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الله تعالى يغفر أكل المحرّمات عند الضرورة، ومنه قال الفقهاء: الضرورات تبيح المحظورات.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٤).

٤- ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ المعنى أن ما نصّ القرآن على تحريمه لا يندرج تحت صنف الطيبات، لأنّ المحرَّمات، من أشياء وأفعال، تضر بالإنسان جسدياً ومعنوياً واجتماعياً، والنقطة الثانية أنّ ما لم يُنصّ على تحريمه فهو حلال، وذلك واضح من صيغة الحصر في آيات [البقرة: ١٧٣/٢] و[الأنعام: ١٤٥/٦] و [النحل: ١١٥/١٦]،

﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ﴾ عطف على الطيبات، أي وأُحلّ لكم أكل ما تصطاده لكم الجوارح المدرّبة ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ أي كونكم مكلّبين لها، ومفردها مكلّب وهو الذي يدرّب الجوارح على الصيد، واشتقت من الكلب لأنّ أكثر ما يكون التدريب على الصيد في الكلاب ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ تعلّمون الجوارح، مثل العُقاب والباز وغيرها، من التدريب على الصيد، ولأنّ أصل العلم كله من الله ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ المعنى كلوا ما تصيده الجوارح لأجلكم، ما لم تأكل منه، وهو معنى تُمسك الصيد عليكم، أي تجعله موقوفاً لكم ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ عند الأكل أو عند الذبح أو عند الصيد ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ باتباع أوامره والاكتفاء بالطيبات التي أحلّت لكم، واجتناب ما حرّم عليكم ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يوشك أن يقيم القيامة ويحاسب العباد، وقد يرى الإنسان عاقبة عمله في الدنيا، وإن لم يكن فالآخرة قريبة، والموت أقرب بعيد، فسرعان ما يحين الأجل و الحساب.

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٥).

٥- ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ أي الأصل في الأمور الحلّ، وكلّ ما نصّ القرآن على تحريمه لا يندرج تحت صنف الطيبات ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ المحصنات بمعنى العفيفات منهنّ، راجع شرح آية [النساء: ٤/٢٥]، وقد ورد في تفسير المنار أنّ الحكمة في تحليل مؤاكلة أهل الكتاب وتحليل الزواج من نسائهم هي تألف قلوبهم ولتعريفهم بحقيقة الإسلام فيكون ذلك سبباً في انتشاره بين أهل المرأة، أما من يتزوج الكتابية وهو يرى نفسه دونها ويحرص على تقليد قومها من النصارى، ويسمح لها بتنصير أولاده، فليس له من الإسلام إلا الجنسية، ويكون قد خالف الغرض الذي هدف إليه الشارع من تحليل نكاح الكتابيات، وقد حذّر الشيخ محمد رشيد رضا من التزوج بالكتابية إذا خاف الرجل أن تجذبه المرأة إلى دينها بسبب علمها وجمالها، أو بسبب جهله وضعف أخلاقه.

وأما مؤاكلة أهل الكتاب فهي بالطبع لا تشمل أكل المحرمات المذكورة في الآية (٣)، علماً أن هذه المحرّمات محرّمة أيضاً في الشريعة الموسوية، وأن بعثة عيسى المسيح لم تنقض شريعة موسى عليهما السلام، و لم تغير منها شيئاً لقول المسيح عليه السلام أنه لم يأت لنقض الشريعة بل لإكمالها (سفر متّى ٥/١٧)، ولا يوجد في الأسفار المسيحية ما يدلّ أن المسيح ألغى تلك المحرّمات.

وأما الحكمة من السماح للمسلم بتزوج الكتابية في الوقت الذي تُمنع المسلمة من التزوج بالكتابي فلأن المسلم يؤمن بجميع الأنبياء والرسل في حين أن النصارى لا يؤمنون بمحمد، واليهود لا يؤمنون بمحمد وعيسى معاً، ففي بيت الزوجية يكون احترام جميع الأنبياء مؤكداً إذا كان الزوج مسلماً، وفي ذلك ضمان لتماسك الزواج واحترام شعور المرأة، وليست الحال كذلك إذا كان الزوج غير مسلم ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي مهورهنّ، وهو شرط وجوب

المهر لصحة الزواج ﴿مُحْصِنِينَ﴾ عفيفين متزوّجين ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ وهو الزنا المعلن (وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ) الزنا سراً، كلاهما محرّمان (وَمَنْ يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ) تذهب أعماله الصالحة هباءً إن رفض الإيمان بحلّ ما أحلّه الله وتحريم ما حرّمه ﴿وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ يخسر نفسه، لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٦/٢٠].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٦).

٦- تتمة الخطاب من الآية (١) في العقود التي تلزم المسلم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ﴾ أي إذا أردتم أداء الصلاة ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ وهو الوضوء فصّلته السنّة الشريفة ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ أي اغتسلوا ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ الغائط هو المنخفض من الأرض، والمجيء منه كناية عن قضاء الحاجة، لأنهم كانوا في البادية يتسترون بالمكان المنخفض لقضاء الحاجة، وملامسة النساء كناية عن الجماع، وقيل هي على معناها الظاهر، أي مجرّد اللمس المشترك بين الرجل والمرأة، واشترط بعضهم اللمس بشهوة ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾ ويجوز للمريض أن يتيمّم سواء وُجد الماء أم فُقد، لأن فقدان الماء يبيح التيمم للجميع فلا معنى لضمّه إلى المرض، وإنما يعود قوله ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ إلى المسافر، أي إن حكم المسافر إذا أراد الصلاة مماثل لحكم المتغوّط الموجب للوضوء، أو المُجامع الموجب للغسل، فبإمكان كل هؤلاء التيمّم عند فقدان الماء، وقالوا إنه يجوز التيمم إذا كان وجود الماء مع تعذر استعماله،

بسبب حرج كالمرض أو المشقة أو الضرر، أو ندرة وجود الماء ما يجعله كالمفقود ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ الصعيد هو وجه الأرض تراباً كان أو غيره، والطيب هو النظيف الطاهر ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ تفصيل لكيفية التيمم وهو أمر تعبدّي محض، الحكمة منه إبداء إذعان المرء وخضوعه لله تعالى، وقد ورد أيضا في آية [النساء: ٤٣/٤]، ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي فيما شرعه لكم من أحكام الطهارة وغيرها من الأحكام، والحرج هو الضيق والمشقة فيما ضرره أكبر وأرجح من نفعه، مثل وضوء المريض إن كان الماء يضرّه، وإلقاء النفس إلى التهلكة بسبب الامتناع عن سد الرمق بطعام محرّم، وقد رأى الشيخ محمد رشيد رضا أن ربط كل ما لا نصّ فيه بآراء الفقهاء يوقع المسلمين بأشد الحرج والعسر في أمور دينهم حتى صار ذلك مبرراً للكثيرين منهم للابتعاد عن حظيرة الدين.

﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ بالتيمم، وحيث إن التيمم لا يفيد شيئاً في النظافة الجسمية فيكون المقصود طهارة القلب بالامتثال لأوامر الله وطاعته، وكما أن إزالة النجاسات الجسمانية تعتبر طهارة جسمية، فكذلك إزالة العقائد والأخلاق الفاسدة تعتبر طهارة نفسية، ولأن الكفر والمعاصي نجاسة للنفوس، وهو معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨/٩]، ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ بتشريع ما فيه مصلحتكم، وبالتيسير عليكم في أمور الدين ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لأن الشكر هو لمنفعة العبد، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ [لقمان: ١٢/٣١].

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٧).

٧- استمرار الخطاب في العقود:

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ إذ هداكم إلى الإسلام، فعليكم بالتالي لزوم شرعه ﴿وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ الميثاق أخذه الرسول

على قومه، لأنّ قبول دعوة الرسول والدخول في الدين بمثابة عهد وميثاق بالسمع والطاعة، وقد نَسَبَ تعالى الميثاق إلى ذاته العلية كونه أُخذ عن طريق رسوله، وهذا الميثاق عام لكل من دخل في الإسلام أو نشأ فيه، وهو أيضاً العهد الذي أخذه تعالى على بني آدم حين أخرجهم من ظهور آبائهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا، انظر آية [الأعراف: ١٧٢/٧]، وهو أيضاً الدلائل العقلية على التوحيد والشرائع ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بالوفاء بهذا الميثاق ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ خبير بالنوايا.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٨).

٨- بعد أن بيّنت الآيات السابقة بعضاً من جوانب العقود المشار إليها بالآية (١)، كأحكام الحلال والحرام، والوضوء والتيمم، ينتقل الخطاب إلى الأمر بالعدل:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ أي قوموا بأوامر الله ﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ اشهدوا بالعدل لوجه الله تعالى، ولا تشهدوا بالباطل ابتغاء منفعة دنيوية ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ أي لا يحملنّكم بغضكم للمشركين أو الكفار أو غيرهم على أن لا تعدلوا فتكسبوا بذلك جرماً، بل اعدلوا فيهم وإن أساؤوا إليكم، ولا تقابلوا الإساءة بمثلها، ولا تعتدوا ولا تتشفوا بما في قلوبكم من الضغائن، وفي ذلك عودة وتأكيد لما في الآية (٢)، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ لا يخفى عليه شيء من أحوالكم.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٩).

٩- ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ بعد أن شرّع تعالى في الآيات السابقة من الأحكام، وذكّر الخلق بميثاقه الذي

واتقهم به، وأمرهم بالعدل، وعد الذين آمنوا منهم وقاموا بالأعمال الصالحة بالمغفرة، وهي ستر الذنوب وتكفيرها، وبالأجر العظيم وهو الثواب والجنة.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (١٠).

١٠- ﴿والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ وهم الذين كفروا بالله ورسله، أو آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعض، أنظر آية [النساء: ١٥٠/٤]، لا ينفعهم عمل مع الكفر والتكذيب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١١).

١١- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي بالبطش والقتل والغصب ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ المقصود تذكير المؤمنين الذين كانوا مستضعفين في بداية الدعوة بأنه تعالى كفّ أيدي الكفار عنهم، ومنعهم من الوصول إلى مبتغاهم إلى أن قويَ الإسلام وصارت له السيطرة، والآية من ثمّ تشير إلى ضعف الجماعات الإسلامية في بداية نشوئها، في كل العصور وفي كل المجتمعات، حينما تهمّ قوى الشر بالبطش بها ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أيها المؤمنون حتى يكون التوفيق الإلهي معكم، وحتى يكفّ تعالى أيدي الكفار عنكم ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أمَرَ تعالى المؤمنين بالتقوى ثم بالتوكل، والتقوى تكون بالطاعة وبذل الجهد في الوقاية من السوء.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (١٢).

١٢- بعد أن أوجبت السورة الوفاء بالعقود إجمالاً، الآيات (١-١١)، تنتقل هنا إلى بيان ميثاق بني إسرائيل المأخوذ عليهم وعدم وفائهم به، ونقضهم العهود:

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وهو الميثاق الذي أخذه موسى على قومه، انظر آية [النساء: ١٥٤/٤]، نسبَه تعالى إلى ذاته العلية كونه أُخذ عن طريق رسوله موسى، وهو شبيه بالميثاق المذكور في آية [المائدة: ٧/٥]، الذي أخذه تعالى على المسلمين عن طريق نبيّه محمد ﷺ ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ التغيير في الضمائر من الغائب إلى المتكلم، ثم إلى الغائب، الغرض منه بيان أنه تعالى ليس كالبشر، بل ليس كمثله شيء، فلا يمكن التعبير عنه بضمائر الأشخاص، أمّا النقيب فهو الذي ينقّب عن الأسرار ويتحرّى أحوال الناس ويستخبر عنها، وهو أيضاً العريف الذي يرأس الجماعة ويكون مسؤولاً عنها وعن مصالحها، والاثنا عشر نقيباً: واحد من كل سبط من أسباط بني إسرائيل الاثني عشر، وهي القبائل التي انحدرت من سلالة يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، وقد اختار موسى نقيباً من كل سبط يرعى مصالح قبيلته ويشرف على تربيتها الدينية والتزامها بالشريعة ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ الخطاب موجّه إلى بني إسرائيل، وقد وعدهم تعالى بالنصر والتوفيق بشرط التزامهم بالصلاة والزكاة، والإيمان بالرسل جميعاً، بمن فيهم النبي محمد ﷺ المذكور صفته ومجيئه في كتبهم، وعزرتموهم: أي نصرتموهم ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ اشترط عليهم الإنفاق في سبيل الله والقيام بالعمل الصالح، وهو غير الزكاة التي سبق ذكرها، روى الترمذي عن فاطمة بنت قيس عن النبي ﷺ أنه قال: «إنّ في المال حقاً سوى الزكاة» ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ فيزول تأثير سيئاتكم الماضية ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ثواباً لكم ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي الطريق الصحيح، لأن الكافر يخطيء الهداية الإلهية، وهي طريق الاعتدال والتوازن في حياة الفرد والمجتمع، فيتّبع بدلاً منها ما تمليه عليه أهواؤه ورغباته المادية المحضة.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٣).

١٣- ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾ أي بسبب نقضهم الميثاق المذكور في الآية السابقة أخرجهم تعالى من رحمته، ومن نقضهم الميثاق أنهم عاندوا موسى وعصوه، انظر الآيات (٢٢-٢٤)، وعبدوا العجل، ودخلوا فلسطين طغاة متجبرين بدلاً من الدخول دعاة متواضعين، انظر آية [الأعراف: ١٦٢/٧] ونشروا الفساد، وفي العموم فشلوا في حمل الرسالة الإلهية، وكذّبوا الرسل وقتلوا منهم العديد، ثم كفروا ببعثتي عيسى المسيح ومحمد عليهما الصلاة والسلام ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ أي صارت قلوبهم بعيدة عن قبول الحق والإذعان للدلائل، وهذه من سنن الله تعالى في الخلق بأنّ الأعمال السيئة والتمسك بالاعتقادات الخاطئة تؤثر في نفوس أصحابها سلباً، وبما أنه تعالى قد سنّ قوانين الطبيعة بأكملها فهو تعالى ينسب «جعل القلوب قاسية» إلى ذاته العلية، مع أنّ القسوة نتيجة خيار حر من بعض البشر، وليست جبراً مفروضاً عليهم، ولو كان تعالى قد خلقها في قلوبهم ابتداءً لاستحال أن يعاقبهم عليها، ونظيره قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧/٢].

﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ الكلم جمع كلمة، والمعنى أن أحبار اليهود تلاعبوا ويتلاعبون بكلام الوحي الذي نزل على موسى، وحرّفوه ويحرّفونه لفظاً ومعنى، ويكتبون من عندهم وينسبون كتاباتهم إلى الوحي، وذلك واضح من تاريخ كتبهم المقدسة:

يطلق على مجموعة الكتب المقدسة عند اليهود اسم «العهد القديم» وهي مكوّنة من ٣٩ سفراً، كما يطلق على الأسفار الخمسة الاولى منها اسم Pentateuch أي «الأسفار الخمسة» اختصاراً، وهم يسمونها التوراة مجازاً رغم

أنه ليس لها علاقة بالتوراة الحقيقية باستثناء نصوص وعبارات مبعثرة بقيت من الأصل، ومن المعروف أن أسفار «العهد القديم» هذه كُتبت بعد موسى عليه السلام على فترات امتدّت عدّة مئات من السنين، والأسفار الخمسة كتبها الأحبار في أثناء فترة السبي البابلي (٥٨٦ ق م-٥٣٧ ق م)، وكثير منها عبارة عن تأريخ قومي للشعب اليهودي، أما مؤلفوها فليسوا بالضرورة الأنبياء الذين تُنسب إليهم الأسفار فلا يعدو ذلك مجرّد التخمين أو التمنّي، وقد تُرجم العهد القديم إلى اليونانية في القرن الثالث قبل الميلاد في الإسكندرية أيام الإسكندر الكبير وبعده، وتُسمّى الترجمة اليونانية: السبعينية، وهي الترجمة التي هيمنت فيما بعد على مؤلفي كتب النصارى التي يسمونها «العهد الجديد»، انظر أيضا تفسير آية [آل عمران: ٣/٣]، وتعتبر الآية التي نحن بصددها، وغيرها من الآيات التي تشير إلى تحريف--تغيير- اليهود لكتابهم، من معجزات القرآن الكريم، لأن النبي ﷺ لم يكن مطلعاً على كتب اليهود، و لم يكن بإمكانه أن يعرف أنها محرفة أو أنه قد طرأ عليها التغيير وأنه ضاع جزء كبير منها،

﴿وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ الحظُّ في اللغة هو النصيب أي الجزء، وما ذكّروا به هو التوراة، والقرآن يطلق كلمة الذكر على الوحي، لأنه تذكير للبشر بالميثاق الفطري المأخوذ عليهم، انظر [الأعراف: ٧/١٧٢]، والمعنى أنهم أضاعوا قسماً من توراتهم و لم يعملوا بالقليل الذي بقي عندهم منها، بل غيّروه وفسروه حسب هواهم، والنسيان هو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ٢/١٠٦].

﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ خائنة بمعنى خيانة، أي لا تزال أيها الرسول، وأيها المسلم، تطّلع على خيانة منهم، أو على أعمال ذات خيانة منهم، فلا تحسبنّ أنك بمعاهدتهم تأمن مكرهم وخداعهم، فإنهم قوم لا يؤمن جانبهم، لا وفاء لهم ولا عهد ولا أمان، وقد أوصى النبي ﷺ بإجلائهم عن جزيرة

العرب، أخرج مالك في الموطأ عن مالك عن ابن شهاب أنه ﷺ قال: «لا يجتمع دينان في جزيرة العرب»، وأخرج أحمد في مسنده أنّ آخر ما عهد به النبي ﷺ أن قال: «لا يترك بجزيرة العرب دينان»، ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ﴾ أقلية مؤمنة منهم ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ الإشارة إلى الأقلية المؤمنة منهم، أو الباقية على العهد فلا يؤخذوا بذنوب غيرهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ لأنّ الذي يعفو يكون محسناً فيكون قريباً من الله.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (١٤).

١٤- ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ اشتقت كلمة النصارى في القرآن الكريم من النصرة، وقد جاء على لسان عيسى المسيح قولُه تعالى: ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢/٣]، أجابه الحواريون أنهم أنصار الدعوة إلى دين الله، وقد شرّفهم القرآن بهذه الصفة التي ادّعاها الحواريون لأنفسهم فسمّاهم نصارى، وإن كان مَن بعدهم -من أتباع كنيسة بولس- لم يلتزموا بنصرة دين المسيح، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ أي نسبوا أنفسهم إلى نصرة المسيح، حسب قولهم، وتكرر هذا الوصف في الآية (٨٢).

ومن المعروف أن عيسى المسيح لم يفوض أتباعه أن يسموا أنفسهم مسيحيين -نسبة إليه- كما لم يبتدع اسماً خاصاً لهم، ولا للتعاليم التي جاء بها، لأنه لم يأت ليؤسس ديناً جديداً مخالفاً لشريعة موسى، وإنما جاء لإصلاح اليهود وإحياء شريعة موسى الأصلية، وهو نفسه كان يهودياً يحترم الشريعة الموسوية ويتقيد بها، باستثناء ما وضعه عن اليهود من الأمور التي ابتدعوها وجعلوها عبئاً على الدين، لقوله تعالى على لسان عيسى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠/٣]، وقد نقلوا عنه في

الأسفار قوله إنه لم يأتِ لينقض الناموس أي شريعة موسى لكن ليتممه، وكان أتباعه الأوائل يصلّون جنبا إلى جنب مع اليهود في معبد القدس لأنهم لم يعتبروا أنفسهم طائفة مستقلة عنهم (سفر أعمال الرسل٣/١-١٠، ٢١/١٤-٢١)، غير أن التباعد والانفصال بين الطرفين جاء تدريجياً بعد عيسى، فمن جهة أعلن بولس، الذي كان قبل ذلك عدواً لدوداً للمسيح، انفصاله عن اليهودية وادعى أن مجرّد الإيمان بعيسى كافٍ للخلاص، ومن جهة ثانية أعلن أحبار اليهود أن أتباع المسيح هراطقة مرتدّون، وكان يطلق عليهم لقب النصارى Nazarenes (أعمال الرسل٢٤/٥).

ومن معجزات القرآن الكريم أنه استخدم كلمة (النصارى) من جديد بعد أن كانت قد اضمحلّت وطغت عليها تسمية «المسيحية»، ولم يكن بوسع النبي ﷺ أن يعلم ذلك، لأن لقب النصارى كان قد اضمحل منذ القرن الأول بعد المسيح، ثم استُعمل لقب «المسيحيين» للمرة الأولى سنة ٤٣-٤٤م في أنطاكية خلال زيارة بولس لها حيث كان يدعو الناس إلى دينه (أعمال الرسل١١/٢٦) وكان معه الحواري برنابا قبل أن يختصما في حقيقة تعاليم المسيح وقبل أن ينفك أحدهما عن الآخر، وهكذا فإن المسيح عليه السلام لم يكن المسيحي الأول بمعنى المسيحية الحالية، وإنما كان «النصراني» الأول، أما «المسيحي» الأول فهو بولس، بلا جدال.

﴿أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾ وهو كالميثاق الذي أخذه تعالى على المسلمين عن طريق نبيه محمد ﷺ -الآية ٧-، وكالميثاق الذي أخذه على بني إسرائيل عن طريق موسى عليه السلام -الآية ١٢-، ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ الحظ في اللغة هو النصيب أي الجزء، وما ذكّروا به الإنجيل، والقرآن يطلق كلمة الذكر على الوحي لأنه تذكير للبشر بالميثاق الفطري المأخوذ عليهم، [الأعراف: ١٧٢/٧]، والمعنى أنهم أضاعوا قسماً من إنجيلهم ولم يعملوا بالقليل الذي بقي عندهم منه،

وسبب ذلك أن الإنجيل الحقيقي الذي نزل على المسيح عليه السلام لم يُـدوّن في زمنه، ولذا ظهر بعده عدد كبير من الأسفار يزيد عن العشرين وقيل أكثر من ذلك بكثير، كلّ منها يروي سيرة حياة المسيح وأقواله حسبما وصل إلى علم الكاتب أو المؤلف كما سمعه شفاهةً من غيره، بلا تحقيق، والملاحظ أن هذه الأسفار كُتبت باللغة اليونانية، وليس بالآرامية التي نطق بها عيسى المسيح وحواريّوه عليهم السلام، ورغم أن هذه الأسفار بدأت كتابتها خلال فترة تتراوح ما بين ٤٥-٩٥ عاماً بعد المسيح فإن أقدم المخطوطات اليونانية عن هذه الكتابات الموجودة بين أيدينا اليوم يعود تاريخها إلى العام ٢٠٠ بعد الميلاد، ثمّ في عام ٣٢٥ للميلاد انعقد في نيقية في آسية الصغرى المجمع المسكوني الأول برعاية إمبراطور روما قسطنطين الكبير الذي دخل المسيحية وجعلها الدين الرسمي للدولة، وأدخل فيها من العقائد الإغريقية الوثنية التي كانت مهيمنة على فكره، وعلى فكر بولس من قبله، وقد تقرّر في ذلك المجمع اعتماد أربعة أسفار فقط من مجموع الأسفار الكثيرة التي كانت متداولة وقتئذٍ، وأطلقوا عليها لقب الأسفار القانونية أو المعتمدة Canonical Gospels وأحرقت الأسفار الباقية واضطُهد أتباعها،

﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ كان نسيان حظ كبير من كتابهم سبباً لاتباعهم الهوى، وتفرقهم طوائف كثيرة جداً يعادي ويبغض بعضها بعضاً، حتى سُفكت دماء كثيرة في الحروب الدينية بينهم، ومن ذلك أيضاً انقسامهم إلى طوائف وكنائس كثيرة لا يزال يتزايد عددها إلى اليوم تزايداً هندسياً، وقد أسند تعالى إغراء العداوة والبغضاء بينهم إلى ذاته العلية مع كونه من أعمالهم الاختيارية بمقتضى سننه في خلقه من أسباب ومسببات ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ ينبئهم يوم القيامة بحقيقة ضلالهم، ويحاسبهم عليه.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (١٥).

١٥- بعد بيان ضلال اليهود والنصارى عن كتبهم، تدعوهم هذه الآية إلى الإسلام:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ وهم اليهود والنصارى، والكتاب اسم جنس للوحي ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ محمد خاتم الأنبياء والرسل ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ إخفاء الكتاب أنهم أضاعوا الجزء الأكبر منه، وتعاموا عن الباقي الذي يخالف أهواءهم، واتبعوا دعوة بولس ونسبوها إلى المسيح في حين أهملوا رسالة المسيح، فجاء القرآن يبيّن لهم الشريعة على حقيقتها ﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ يترك الرسول الكثير مما نُسخ من شرائعهم، كما يقال عفا عليها الزمن، ويعفيهم من الكثير الذي أضافه الكتبة والكهنة على كتبهم، ويعفيهم من الرهبانية، ومن الكثير من التحريم الذي ابتدعوه ولم يكتبه الله عليهم ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ النور الذي جاءهم من الله هو نور الإسلام أضاء لهم الحقيقة وميّزها عن الضلال الذي هاموا و يهيمون فيه، والكتاب المبين هو القرآن، لأنه ظاهر الإعجاز لغير المُكابر.

﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٦).

١٦- ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ﴾ أي بالقرآن ﴿مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ أي من كان مبتغاه من طلب الدين التوصل إلى الدين الذي يرضاه الله تعالى فيهديه إلى سُبل السلام ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾ أي الطرق المؤدية إلى الإسلام وما يرافق ذلك من السلام الذي هو السكينة والاطمئنان الروحي والمادي ﴿وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾ من ظلمات الكفر والخرافات والأوهام، والعبودية للرؤساء والزعماء،

إلى نور الإيمان، والتوحيد الخالص، والتحرر من عبودية الدنيا ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يوفّقهم ويثبّتهم على طريق الإسلام.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٧).

١٧- بعد أن بيّن تعالى أخذ ميثاق الذين قالوا إنهم نصارى، ونسيانهم حظّاً من ذكرهم، وتفرقهم طوائف كثيرة، تبين هذه الآية سبب انحرافهم عن النصرانية:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ وهم أتباع كنيسة بولس، والكفر في اللغة هو تغطية الشيء، كقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ [الحديد: ٢٠/٥٧]، فقد زعم بعضهم أن المسيح هو الإله المتجسد، وزعم بعضهم الآخر أنه ابن الله، وأنه الشخص الثالث في ثالوثهم الذي ابتدعته المجمّعات المسكونية، وهم في كل هذه الأقوال ينكرون الحقيقة.

﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي من يقدر أن يدفع عنهم قضاء الله وقدره إن أراد هلاكهم ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ يحكم فيها ما يريد بحكمته ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي إن معجزات عيسى العديدة، وخلقه من غير أب، ليس موجباً لتأليهه، لأن خالق الكون والسنن والأسباب والمسببات يخلق ما يشاء ولا يستعصي على قدرته شيء.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (١٨).

١٨- ﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ إدعاء اليهود بذلك مذكور في أسفارهم، انظر (سفر الخروج ٢٢/٤) و (سفر جرميا

٩/٣١)، وتكرّر ادعاء النصارى به في بعض أسفار العهد الجديد، وقد استخدم اليهود تعبير أبناء الله مجازاً، بمعنى أحبائه، غير أنّ النصارى استخدموا التعبير على أنه حقيقة بالنسبة للمسيح عليه السلام-تعالى الله عمّا يقولون علوّاً كبيراً- ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ إن كنتم أبناء الله كما تدّعون فلم يعذّبكم بذنوبكم؟ فانظروا ما حدث لكم من العذاب والقتل والتشريد والفتن في تاريخكم، وكيف يتكرر هذا العذاب في كل زمان عندما يحصل سببه، فلستم معصومين منه في الدنيا، عدا ما ينتظركم من عذاب الآخرة ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ تنطبق عليكم سننه تعالى وتتحملون عواقب أعمالكم كغيركم من البشر ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ يغفر ذنوب من يشاء من أهل طاعته ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ يعذّب من يشاء تعذيبه من أهل معصيته ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ يحكم فيها ما يريد بحكمته ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ تؤول إليه أمور خلقه دون غيره، فيعذبهم في الآخرة على كفرهم وغرورهم، وعلى ادعائهم الباطل أنهم أبناء الله وأحباؤه.

﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٩).

١٩- ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ﴾ من اليهود والنصارى ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ النبي المنتظر المذكور في كتبكم، والذي كنتم تتطلعون إلى قدومه، انظر مثلاً ﴿سفر متّى ٣/١١﴾ و﴿سفر يوحنا ١/١٩-٢٥﴾، ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ يبين لكم الشرائع والدين الصحيح، ويبين التغيير ويصحح التحريف الذي طرأ على كتبكم منذ بعث أنبيائكم، ويحرركم من الوهم بأنكم شعب الله المختار أبد الدهر، أو أنكم أبناء الله وأحباؤه، ويحرركم من العقائد الفاسدة، التي دخلت على دينكم ممّا لم يأتِ بها موسى ولا عيسى المسيح عليهما السلام ﴿عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ بعد انقطاع من الرسل، يقال فتر الشيء فتوراً إذا نقصت حدّته، وسميت المدة التي بين الأنبياء فترة لفتور العمل بشرائعهم، وقد جاءت بعثة خاتم الأنبياء والرسل

بعد بعثة المسيح آخر أنبياء بني إسرائيل بأكثر من ستة قرون، وكانت الرسل قبله تترى في بني إسرائيل ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ﴾ أي كراهة أن تعتذروا فتقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير يعيدنا إلى الطريق القويم، لأنهم كانوا بانتظار قدوم النبي المنتظر، المخلّص من الضلال، فلمّا جاءهم لم يؤمنوا به ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ ليبين لكم أن الأمر ليس منوطاً بالأماني والأوهام، ولكن بالإيمان والعمل، فبطلت حجّتكم ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو قادر على الاستجابة لحاجات خلقه ونصرة دينه بأن بعث فيهم خاتم الأنبياء والرسل.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٠).

٢٠- في هذه الآية يعود الخطاب لموضوع الآيات (١٢- ١٣) عن بني إسرائيل خاصة، وما يليها عن النصارى وأهل الكتاب عامة:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ المعنى اذكر أيها النبي لبني إسرائيل ولغيرهم من الناس، ما قاله موسى لهم مذكّراً إيّاهم بنعم الله عليهم ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾ بُعث في بني إسرائيل الكثير من الأنبياء المذكورين في كتبهم، فمن جهة شرّفهم تعالى بكثرة بعث الأنبياء فيهم، وهو من جهة ثانية دليل على ارتكاسهم المتكرر نحو الوثنية والضلال ممّا استدعى تقويمهم باستمرار، إلى أن بُعث فيهم آخر أنبيائهم عيسى المسيح عليه السلام فرفضوه، ثمّ رفضوا خاتم الأنبياء والرسل محمد ﷺ، وما زالوا إلى اليوم ينتظرون قدوم المسيح وقدوم النبي المنتظر ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ لأنّ بني إسرائيل، بعد تحررهم من عبودية فرعون، صاروا ملوك أنفسهم، وقضى تعالى أن يكون منهم الملوك الأنبياء كداود وسليمان ﴿وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ أي في زمانهم، آتاهم تعالى الوحي الذي نزل على موسى عليه السلام، كما آتاهم الكثير من المعجزات في زمن موسى كانفلاق البحر، ونزول المن والسلوى،

وتظليل الغمام عليهم في صحراء التيه، وانفجار الماء من الصخر باثنتي عشرة عيناً.

﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (٢١).

٢١- ﴿يَا قَوْمِ﴾ استمرار خطاب موسى لهم ﴿ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ وهي فلسطين، وسمّيت مقدسة لكثرة ما بُعث فيها من الأنبياء ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي كتب الله لكم دخولها والدعوة إلى دين الله فيها، وليس في الآية ما يدل على اختصاص فلسطين بهم وحدهم دون غيرهم من الناس، ولا امتلاكها أبد الدهر فذلك مخالف للواقع التاريخي، كما أن وعد فلسطين لهم مرتبط ومشروط بحمل الدعوة والرسالة الإلهية لغيرهم من الأمم، وفشلوا في ذلك أشدّ الفشل، وقد ساكنهم في فلسطين، منذ أن دخلوها، غيرهم من الأمم كالكنعانيين والآشور والكلدان واليونان والرومان، ولم تحصل لليهود الدولة الدنيوية في جزء من فلسطين سوى حوالي أربع مئة عام وهي ما بين مُلك طالوت (شاؤل) عام ١٠٢٠ ق.م وحتى سقوط القدس بيد نبوخذنصّر عام ٥٨٦ ق. م.، فقد حكمهم الفرس ثم اليونان ثم الرومان، إلى أن أحلاهم الرومان عن فلسطين نهائياً عام ٧٠ م فكان بداية عصر الشتات لهم الذي استمر قرابة ألفي عام، وقد دخل المسلمون القدس عام ٦٣٨ م في خلافة عمر، وكان من شروط الفتح التي وضعها بطرك القدس أن لا يدخلها اليهود كما هو مدوّن في العهدة العمرية، انظر شرح الآية (٣٣) حيث عاقبهم تعالى بالنفي من أرض فلسطين نهائياً، وأن إقامتهم فيها لا تكون دائمة (وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ) أي لا تنكصوا إلى الوثنية والضلال، كما كان دأبكم، فتخسروا دينكم ودنياكم.

﴿قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ (٢٢).

٢٢- ﴿قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ ذوي قوة شديدة وبطش، وهو ما بلغهم عن طريق النقباء المذكورين في الآية (١٢) الذين تجسسوا لهم عن أحوال الأرض المقدسة وعادوا لهم بهذه المعلومات ﴿وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ جبنوا عن دخول الأرض المقدسة حين تبيّن لهم أمر الجبّارين وشدة بطشهم، كأنهم أرادوا أن تكون مهمتهم بقوة الخوارق والمعجزات التي اعتادوا عليها، دون عمل ولا تضحيات من جانبهم، ويبدو أنهم اعتادوا العبودية والجبن والضعف طيلة إقامتهم في مصر حتى أن بعضهم أراد العودة إلى العبودية في مصر خوفاً من تحمل المسؤولية والتضحية، وقد أشار تعالى لذلك بقوله على لسان موسى: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ أي اهبطوا مصرَ إن شئتم، انظر شرح آية [البقرة: ٦١/٢]، ومن جهة ثانية فأي فائدة تكون في إخراج الجبارين من سكان فلسطين- الكنعانيين-، فالمقصود من الرسالة هداية الناس، كما فعل المسلمون في البلاد المفتوحة، وليس إخراجهم من بلادهم، وقد يكون المقصود بالجبارين ملوك كنعان فتكون مهمة بني إسرائيل تحرير السكان من الملوك الطغاة وهدايتهم إلى الدين الجديد.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٣).

٢٣- ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ أي يخافون الله، وقيل هما اثنان من النقباء الاثني عشر ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بالهداية والتوفيق ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ أي بمواجهة أمامية دون غدر ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾ لأن الله وعدكم النصر، الآية (٢١)، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم مؤمنين يقيناً بنبوة موسى وبوعد الله لكم.

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ﴾ (٢٤).

٢٤- ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ﴾ أصرّوا أن يكون دخولهم الأرض المقدسة عن طريق الخوارق، وليس عن طريق العمل والتضحية واتباع سنن الله في خلقه، ولم تنفع فيهم موعظة الرجلين، فكان منهم هذا الجواب الخارج عن حدود الأدب حتى أنهم قالوا ﴿وَرَبُّكَ﴾ ولم يقولوا: ربّنا.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٥).

٢٥- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي﴾ شكى موسى أمره إلى الله تعالى معتذراً إنه لا يملك إلاّ أمر نفسه وأمر أخيه هارون، ولا يستطيع أن يحمل الباقين على طاعته بمن فيهم النقيبين، إذ يبدو أنّ الأقلية لم تجرؤ على الإقدام بعد أن تخاذل الناس ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي فاقضِ بيني وأخي والأقلية التي معنا من جهة، وباقي القوم الفاسقين من جهة ثانية، وهم الخارجون عن الطاعة.

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٦).

٢٦- ﴿قَالَ﴾ تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي إن فلسطين الأرض المقدسة محرمة على هؤلاء القوم الذين معك ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ﴾ فتاهوا في أرض سيناء أربعين سنة حتى فنوا، ونشأ في التيه الجيل الثاني منهم الذي دخل الأرض المقدسة بعدهم، والآية تفيد معنيين:

١) أنها محرمة عليهم تحريماً نهائياً إذا تم الوقف بعد كلمة ﴿عَلَيْهِمْ﴾، والدليل على ذلك الآية (٣٣)، ولا يمنع ذلك أن يقيموا فيها مؤقتاً في بعض الأوقات لفترات محدودة،

٢) وهي أيضاً محرمة عليهم، في زمن موسى، أربعين سنة إذا تم الوقف بعد كلمة ﴿سَنَةً﴾ ﴿فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي لا تحزن يا موسى على هؤلاء العصاة.

وفي تفسير المنار أن الشعوب التي تنشأ في الاستبداد وتساس بالظلم والاضطهاد، تفسد أخلاقها وتذل نفوسها ويذهب بأسها وتألف الخضوع وتأنس بالمهانة والخنوع، وإذا طال عليها أمد الظلم تصير هذه الأخلاق مكتسبة موروثة حتى تصبح كالغرائز الفطرية والطبائع الخلقية، فإذا أُخرج صاحبها من بيئته وجدته ينزع بطبعه إليها، وقد أفسد ظلم الفراعنة في مصر فطرة بني إسرائيل وطبعهم بالذل والمهانة، حتى بُعث تعالى موسى فيهم وأراهم الكثير من المعجزات والآيات الدالة على وحدانيته وقدرته وعلى صدق نبوة موسى، وأخرجهم من الذل والعبودية في مصر إلى الحرية والاستقلال والنعيم، ومع كل ذلك كانوا يتململون من موسى ويتطيرون منه ويعصونه ويذكّرونه بمصر، ويلومونه لأنه أخرجهم منها ويحنّون إلى العودة إليها رغم ما فيها من العبودية، انظر آية [البقرة: ٢/٦١]، ولما غاب موسى عنهم أياماً لمناجاة ربه، اتخذوا عجلاً لهم من حليّهم وعبدوه لِما رسخ في نفوسهم من إكبار سادتهم المصريين، وإعظام معبودهم العجل، وقد سبق علمُه تعالى أنّ نفوسهم الذليلة لا تطيعهم على دخول أرض الجبّارين، وأن الوعد الذي أعطاه لأجدادهم إنما يتم وفق سننه في طبيعة المجتمع البشري، فلزم أن يهلك ذلك الجيل الذي نشأ في العبودية والوثنية، وينشأ بعده جيل جديد في حرية البداوة وعدل الشريعة ونور الآيات الإلهية، وما كان تعالى ليهلك قوماً بذنوبهم حتى يبيّن لهم حجته عليهم ليعلموا أنهم أنفسهم يظلمون، انظر آيات [هود: ١١/١١٧] و [الأنعام: ٦/١٣١]، وقد أمرهم تعالى دخولَ الأرض المقدسة بعد أن أراهم عجائب تأييده، فأبوا واستكبروا وجبنوا فأخذهم بذنوبهم، وأنشأ من بعدهم قوماً آخرين.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٢٧).

٢٧- ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي على بني إسرائيل، فالكلام لا يزال عنهم ﴿نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ﴾ أي خبرهما، والخطاب متعلق بالآية (١٥)، وقوله تعالى: ﴿ابْنَيْ آدَمَ﴾ مجازاً، أي هما من بني آدم، وليسا بالضرورة ابني آدم من صلبه، والعرب تقول بني آدم عن جنس البشر، انظر آيات [الحجر: ١٥/٢٨-٤٢]، ولأن الكلام لا يزال عن بني إسرائيل، فيحتمل أنهما رجلان منهم، بدليل قوله تعالى في آخر القصة: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (٣٢).

﴿بِالْحَقِّ﴾ أي أخبرهم بحقيقة القصة، وبالغرض المقصود منها وهو تقبيح الحسد وعاقبته السيئة، لأن علاقة الآية بما قبلها هو موضوع الحسد بالذات، وأن الحسد قديم في بني آدم كما في بني إسرائيل بالذات، ومن ذلك أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى كفروا بالبعثة الإسلامية لحسَدِهم محمداً ﷺ فيما آتاه الله من الدين الحق، ولأنهم ظنّوا أنّ النبوة لا تكون إلا فيهم ولا تخرج عنهم، فعتوا واستكبروا.

﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ القربان هو ما يُتقرّب به إلى الله تعالى، كالأُضحية أو الصدقة، ولم تذكر الآية كيف عَلِما أنّ القربان تُقبّل من أحدهما ولم يُتقبّل من الآخر، ولعلّهما عِلما ذلك من نبيّ في زمانهما، وأما قول البعض أن النار كانت تنزل من السماء فتأكل الذبيحة أو القربان المقبول فذلك من الإسرائيليات، وأما قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ [آل عمران: ٣/١٨٣]، فلأن اليهود كانوا يحرقون القرابين بالنار بحسب شريعتهم، ولا تزال طائفة السامريين منهم تحرق القرابين في نابلس بفلسطين إلى اليوم.

﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ أي قاله الذي لم يُتقبّل قربانه لأخيه متوعّداً إياه، فأجابه: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ بيّن له أخوه سبب قبول قربانه: وهو

التقوى، والمعنى: عليك يا أخي بالتقوى، فإنّه تعالى لا يقبل الأضاحي والصدقات إلاّ من المتّقين، ثمّ تابع قوله واعظاً أخيه:

﴿ لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٨).

٢٨- ﴿لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ﴾ أي لا يمكن أن أكون قاتلاً، فهذا منافٍ للتقوى ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ بأن أصبح قاتلاً، فهو يعظ أخاه ليثنيه عن محاولة القتل، وليس في الآية ما يفيد عدم دفاعه عن نفسه، وإنما هي موعظة لأخيه وتأكيد عدم إقدامه على القتل، وفي الحديث: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، قيل يا رسول الله هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال كان حريصاً على قتل صاحبه».

﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٩).

٢٩- ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ وهي تتمة موعظة الرجل لأخيه، وقد ذكر الزجّاج أن تقدير الآية: إني أريد -أن تكفّ عن قتلي كراهة- أن تبوء بإثم قتلي، وإثم فعلك الذي من أجله لم يُتقبّل قربانك.

وهذا الحذف أو الإضمار-قبل حرف أن- شائع في التنزيل، كقوله تعالى: ﴿يبيّن الله لكم أن تضلّوا﴾ [النساء: ٤/١٧٦]، أي كراهة أن تضلوا أو لئلاّ تضلّوا، وقوله (وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم﴾ [النحل: ١٦/١٥] أي كراهة أن تميد بكم ، وغير ذلك من إضمار الجُمل أو إضمار المضاف كثير،

﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ المعنى: أخاف عليك يا أخي أن تكون عاقبتك في النار، فهي جزاء الظالمين لا محالة.

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٣٠).

٣٠- ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ﴾ رغم كل المواعظ من أخيه فإنّ نفسه الأمارة بالسوء ذللت له أمر القتل فأطاعها ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ خسر أخاه، وخسر نفسه في الدنيا والآخرة.

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ (٣١).

٣١- ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ﴾ السوأة هي ما يسوء ظهوره أو يسوء مظهره، ورؤية جسد الميت، ولا سيما القتيل ممّا يسوء الناظرين إليه، والمعنى أن القاتل إضافةً إلى جريمته ترك جثة أخيه في العراء بلا دفن، حتى بعث الله غراباً يحفر في الأرض بحثاً عن الطعام، ممّا أوحى إلى القاتل أن يحفر حفرة للدفن أخيه القتيل: ﴿قَالَ يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي﴾ قالها متحسراً بعد أن اكتشف فظاعة الواقع الذي انتهى إليه ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ صدمته فكرة دفن جثة أخيه تحت الأرض، وأحسّ بفظاعة الجرم الذي اقترفه.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ (٣٢).

٣٢- ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ﴾ أي من أجل مثل هذه الجرائم التي يُقتل فيها الأبرياء ﴿كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي شرّعه تعالى عليهم، ولا يمنع أن ينطبق هذا التشريع على الناس جميعاً في كلّ الأزمنة والأمكنة، وإنّما خصّ بني إسرائيل بالذكر لكون الحديث عنهم، والإفساد فيهم أكثر من غيرهم ﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي بغير سبب القصاص الذي شرعه تعالى: ﴿أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي لإفسادٍ في الأرض، وقد أُضمر حرف الجر ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ لأن الفوضى تعم ويصبح كل إنسان عندئذ معرضاً للقتل، والإشارة إلى تكافل المجتمع وتضامنه، وهو ما يشار إليه في التعبير الحديث بالحق العام ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ إذا امتنع كل فرد عن القتل يكون الجميع آمنين على أنفسهم في المجتمع ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بُعث في بني إسرائيل الكثير

من الرسل يبيّنون لهم طريق الحق ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ مسرفون في المعاصي، وخاصةً القتل، رغم مجيء رسلهم لهم بالبيّنات -وفي الآية التالية بيان جزائهم على ذلك-، وكانوا يقتلون الرسل قبل غيرهم من الناس.

وشبيه بذلك قوله تعالى مخاطباً بني إسرائيل: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٢/٨٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٣/٢١].

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٣٣).

٣٣- استمرار الخطاب، فبعد أن ذكر تعالى عصيان بني إسرائيل ونقضهم الميثاق وخيانتهم وتمردهم على موسى عليه السلام، وحسدهم النبي ﷺ ومحاربتهم له، وإسرافهم في قتل الأنبياء، بيّن تعالى في الآية التالية ما حلّ ويحلّ بهم من التقتيل والتنكيل في الحياة الدنيا جزاءً لهم على ذلك، بموجب سننه تعالى في خلقه، فقال جلّ شأنه:

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ المقصود الذين يحاربون الله ورسله، لأنّ الرسول في هذه الحالة اسم جنس للرسل ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا﴾ وهم اليهود، لأن الكلام من الآية (٢٠) حتى الآية (٣٤) متصل، وهو عنهم، ولقوله تعالى في الآية المتقدمة: ﴿أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ﴾، وجزاؤهم: ﴿أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ﴾ الواضح أن الآية لا تهدف إلى تشريع القتل أو الصلب، أو تقطيع الأيدي والأرجل من جهات مختلفة لمن يحاربون الله ورُسُلَه، وإنما تُكنّي الآية عن واقعهم

الذي يصيرون إليه فعلاً في الحياة الدنيا، بموجب نظام الأسباب والمسببات، جزاءً على ما ارتكبوه من شرور عبر العصور، وهو معنى قوله ﴿مِنْ خِلافٍ﴾ أي من خلافهم، ومخالفتهم الرسل، حتى صار خلافهم الرسل سمة متأصلة فيهم، وأما الصلب فكناية عن العذاب-قال الألوسي في تفسيره آية [الأعراف: ١٢٤/٧]: التصليب مأخوذ من الصلب وشاع في تعليق الشخص بحبل في عنقه ليموت وهو المتعارف اليوم-، كما يحتمل أن تقطيع الأيدي والأرجل كناية عن زوال المقدرة،

﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾ تكررت الإشارة إلى خزي اليهود في الدنيا في آيات [البقرة: ٨٥،١١٤/٢]، وآية [المائدة: ٤١/٥]، عدا هذه الآية، ومن هذا الخزي الذي حلّ بهم تاريخياً:

أولاً: سقوط مملكة إسرائيل بعاصمتها شكيم (نابلس) بيد ملك آشور سرجون الثاني عام ٧٢١ ق.م ونفي وتشتيت قبائل إسرائيل العشرة إلى غير رجعة، ثم سقوط مملكة يهوذا بعاصمتها القدس بيد ملك الكلدانيين نبوخذنصّر عام ٥٨٦ ق.م. ثمّ نفي ما بقي من اليهود إلى بابل، ثم معاناتهم المريرة والمستمرة مئات السنين تحت حكم الفرس واليونان والرومان بعد عودتهم من النفي، وبعد أن رفضوا آخر أنبيائهم عيسى المسيح عليه السلام وحاولوا قتله، تم إحلالهم عن فلسطين عام ٧٠ م على يد تيطس إمبراطور روما، ثم تمّ تخريب معالم القدس والهيكل تماماً وقتل وتشريد من بقي من اليهود على يد القائد الروماني أدريانوس عام ١٣٥م، فكان في ذلك نفيهم وشتاتهم نهائياً في أنحاء العالم، ثم كان نفيهم من جزيرة العرب بعدما حاربوا النبي ﷺ وتآمروا عليه، ثم اضطهاد المسيحية لهم في أوروبة منذ ذلك الحين حتى العصر الحديث على يد النازيين، كل هذا الواقع يعتبر أيضاً مصداقاً لما جاء في آيات [الإسراء: ٤/١٧-٨]، ومصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾ [المائدة: ١٣/٥] أي أبعدهم

تعالى من رحمته، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٧/٧-١٦٨]، وقد حلّ فيهم التقتيل والتعذيب والتقطيع، من خلافهم أي مخالفتهم الرسل، كما حلّ فيهم النفي من الأرض أي من فلسطين، وتشتّتوا في أنحاء العالم، ولا عبرة بإنشاء دولتهم و لمّ شمل عدد كبير منهم في فلسطين في العصر الحاضر إذ لا شكّ أنه سيتكرر مصيرهم الذي تشير إليه هذه الآية عندما يغيّر المسلمون ما بأنفسهم.

ومن جهة ثانية: فإنّ لفظ كلمات الآية (يُقتّلوا) بتشديد التاء وليس (يُقتلوا)، و(يُصلّبوا) بتشديد اللام وليس (يُصلبوا) يدل على التكثير والتدريج، فالتقتيل والتصليب غير القتل والصلب، وهو لذلك ينصرف إلى أعداد كبيرة منهم وليس إلى أفراد محدودي العدد، ويعزّز ذلك أنّ الخطاب في الآية هو بالجمع: ﴿الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وليس بالمفرد، بالمقارنة مع قوله تعالى في آية حدّ السرقة: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨/٥] فاستخدم المفرد.

ومن جهة ثالثة: فإن سياق الكلام واتصال الآية بما سبقها يقتضي أن يكون الكلام عن عقاب بني إسرائيل بالذات، فالكلام عنهم وعن محاربتهم الله ورسله ورسوله محمد ﷺ بالذات، والسياق ليس في معرض تشريع العقاب ضد أفراد من الناس.

ومن جهة رابعة: فإن الآية تتحدث عن: (١) الذين يحاربون الله ورسوله: وهي المرة الوحيدة في القرآن الكريم التي يرد فيها هذا التعبير، وهو شبيه بقوله تعالى عن اليهود ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ (٦٤)، بسبب كفرهم المتكرر برسالات الله وبرسله وقتلهم الأنبياء وهم قد كفروا بنبوة عيسى المسيح ثم بنبوة محمد عليهما الصلاة والسلام وتآمروا على قتلهما، وترصّدوا ويترصّدون بالمسلمين شرًّا ويكيدون لهم، و(٢) ويسعون في الأرض فساداً:

دأبَ اليهود على إفساد المجتمعات واستغلال البشرية والتحكم بها، ونشر الشذوذ والأمراض الاجتماعية والعضوية فيها، والدليل أن اليهود بالذات هم المقصودون واضح من الآيات (٥٩-٦٤)، وفي الآية (٦٤) تكرّر وصفهم بأنهم ﴿يَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا﴾، وهي المرة الوحيدة في القرآن الكريم التي يرد فيها هذا الوصف حرفياً سوى الآية التي نحن بصددها، وأيضا قوله تعالى في الآية المتقدمة: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ﴾ (٣٢) ، فالكلام في هذه الآية استمرار لما سبقها، وأيضاً قوله تعالى لهم على لسان موسى ﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٢/٦٠]، وقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء: ١٧/٤]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ١٧/٨]، أي إن عدتم إلى الإفساد عدنا إلى عقابكم، والمعروف أن اليهود يعتقدون منذ القدم أن البشر قسمان: اليهود، والأغيار حسب تعبيرهم، والأغيار مَن ليسوا على دينهم، وأنه من واجبهم إفساد مَن ليس على دينهم كي تبقى لهم السيطرة (انظر كتاب إسرائيل شاحاك/تاريخ الديانة اليهودية)، ودينهم دين عنصري لا يريدون من غيرهم الدخول فيه بل هو مختص بهم فقط حسبما يعتقدون.

﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ كل عذاب الدنيا المذكور آنفاً هو بالإضافة لما ينتظرهم من العذاب العظيم في الآخرة، وهذه الآية من درر سورة المائدة وفيها كشف عن الغيب وتشخيص لأحوال اليهود وطبائعهم على المدى القصير والطويل، وهم قد بذلوا قصارى جهدهم لمحاربة الإسلام على المستويين الديني والسياسي، فمن جهة أدخلوا الكثير من الإسرائيليات في التفسير القرآني وفي الحديث الشريف لكي يفسدوا على المسلمين دينهم، كما سبق أن أفسدوا اليهودية والنصرانية، ومن جهة ثانية فإن التحدي اليهودي للإسلام على المستوى الديني والسياسي والعسكري قد بلغ ذروته بتفكيك الدولة العثمانية، ثم باحتلال اليهود لفلسطين والقدس.

وأما القول إنّ الآية عبارة عن تشريع لعقوبة قطاع الطرق والخارجين على الحكومة الإسلامية، فعدا أنّ هذا المعنى ضيّق وبعيد جدّاً ولا يستقيم مع النظم القرآني، فإن أصحاب هذا القول لم يتفقوا على تحديد أي من العقوبات، القتل أم الصلب أم التقطيع أم النفي، تنطبق على المجرمين ولأي ذنب من الذنوب؟ وهم قد حاروا في تحديد معنى النفي من الأرض؟ إذ لا يعقل نفي المجرم من بلد إسلامي إلى بلد إسلامي آخر لينقل جرائمه إليه، كما لا يعقل نفيه إلى بلد غير إسلامي، وفسّر بعضهم ذلك بالسجن في زنزانة تحت الأرض، وهو لا يكاد يفي بالمعنى، عدا كون بعض هذه العقوبات مطابقة لعقوبة فرعون لمخالفيه، قال تعالى على لسان فرعون: ﴿لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٤/٧]، فلا يليق أن تكون عقوبة الطاغية فرعون للمؤمنين كعقوبته تعالى لمن يحاربون الله ورسوله.

﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣٤).

٣٤- ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ أي تابوا عن محاربة الله ورسله، وتابوا عن الإفساد في الأرض، وكانت توبتهم قبل أن ينتشر الإسلام وقبل أن تصبح السيطرة للدولة الإسلامية وتكون لها اليد العليا، لأن توبتهم بعد ذلك لا يكون لها قيمة حقيقية أو دينية أو أخلاقية، سوى أنها مُسايَرة للأوضاع السائدة، فلا تكون-على الأغلب- عن قناعة منهم، والمعنى أنه ما لم تكن توبتهم صادقة فإنهم يستمرون في المعاناة من العذاب المشار إليه في الآية السابقة، وقد تاب بعضهم، وأظهر بعضهم الآخر الدخول في الإسلام أيام الدولة الأموية والعباسية وفي الأندلس وفي الدولة العثمانية ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي إنّ الله تعالى يغفر ذنوب الذين يتوبون منهم قبل ذلك، فينجيهم من العذاب العظيم في الآخرة، المشار له في آخر الآية السابقة.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٣٥).

٣٥- ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ اتصال المعنى بما قبله ذو مغزى، أي لا تكونوا أيها المؤمنون كاليهود الذين يحاربون الله ورسُلَه ويسعون في الأرض فساداً، ويحفزهم الحسد، ويغرّون بدينهم ويزعمون أنهم أبناء الله وأحبّاؤه، فحوّلوا دينهم إلى جنسية عصبية، فاعتبروا بعاقبة اليهود من قبلكم، وعليكم بتقوى الله ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ الوسيلة ما يُتوسّل به إلى المقصود، والمعنى توسّلوا إلى مرضاته تعالى بالعلم والعبادة والعمل واتباع مقاصد الشريعة ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ الجهاد من الجهد وهو المشقة والتعب، والمعنى أن التقوى وابتغاء الوسيلة إلى مرضاته تعالى تحتاج أن يجاهد المرء نفسه، عدا عن مجاهدته أعداء الدين بالحجة والإقناع، والدفاع عن دار الإسلام.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٣٦).

٣٦- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الإشارة إلى اليهود وغيرهم ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ بعد أن حثّ تعالى المؤمنين على التقوى وابتغاء الوسيلة إليه والجهاد في سبيله، أوضح لهم في هذه الآية أن لا يغتروا بما عند الكفار من الغنى وأملاك الدنيا، لأنها على كثرتها لن تنفعهم في الآخرة ﴿مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ لأنّ فترة الاختبار والتكليف في الحياة الدنيا قد فاتتهم، بعد أن كان لهم فيها حرية الخيار ، فبعد أن تُكشف الحجب يوم القيامة، وتظهر الحقيقة جليّة، لا تنفعهم شفاعة الشافعين، ولا ما خلّفوا في دنياهم من المادة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ النتيجة الطبيعية لمنكري الحقيقة ومعاندي الفطرة.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ (٣٧).

٣٧- ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ أي أنهم يريدون التوبة بعد أن أيقنوا بالحقيقة التي سبق أن ضلّوا عنها، ويودّون لو أنّ لهم فرصة أخرى للاختبار بعد أن فات الأوان، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ٦/١٥٨].

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٣٨).

٣٨- قد يلاحظ في هذه الآية انتقال -في ظاهره مفاجئ- من آيات الإيمان والكفر والأنبياء، إلى موضوع التشريع العملي، غير أنّ أسلوب القرآن الكريم يتعمّد، في كثير من المواضع، ربط آيات التشريع الاجتماعي والتطبيق الحياتي مع آيات التوحيد والإيمان والأخلاق، والسبب أنّ حياة الإنسان وحدة متكاملة لا تنفصل النواحي الروحية فيها عن النواحي الحياتية المعيشية.

ومن جهة ثانية، يحتمل أن يكون ارتباط المعنى بما قبله أنّ أكثر أموال الكفار من اليهود وغيرهم-المشار إليها بالآية ٣٦- قد جمعوها بالسرقة وبطرق غير شرعية، فبيّن تعالى جزاءهم:

﴿والسارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيديَهما﴾ الخطاب موجّه للإمام أو الحكومة، وقد أجمعوا أنه ليس لآحاد الرعية إقامة الحدود على الجناة، و يُنظر إلى حدّ السرقة في الإسلام ضمن المبدأ الإسلامي: أن لا تكليف على المسلم-ولا عقوبة- إلاّ أن يكون له حقّ بالمقابل، فمن حقوق أي شخص في المجتمع الإسلامي أن يتمتّع بحماية المجتمع، بكلّ ما في هذه الكلمة من معنى، وعلى المجتمع أيضاً أن يضمن لكلّ شخص مستوى أدنى من الحياة المعيشية بما يتناسب مع مقدرة المجتمع وموارده الاقتصادية، لأنّ المجتمع الإسلامي لا يكتفي بتزويد المرء بحاجاته الروحية فقط بل يضمن حاجاته المادية أيضاً، ويحقق له فرص العمل

بما يضمن الحد الأدنى من رفاهية الحياة التي من دونها لا يمكن أن يكون هنالك كرامة، ولا حرية فكر، ولا حرية اختيار للمرء، ومن الواضح استحالة وجود مجتمع فاضل ومتناسق وقوي ما دام بعض أفراده محرومين، في حين يتمتع بعضهم الآخر بما يفوق حاجاتهم بكثير، فعندما تكون موارد المجتمع موزّعة على الناس بصورة شاذة بحيث يعيش البعض في تبذير وبحبوحة فاحشة، ويعيش الباقون في ضيق وضنك، ولا يجدون فرصاً للعمل، فعندئذ يكون المجتمع بأكمله في خطر، وقد يختل الأمن، وقد يدفع الوضع بالمجتمع إلى أحضان المادية الملحدة، وفي الحديث: «كاد الفقر أن يكون كفراً»، ففي حال ضَمِنَ المجتمع الإسلامي العدالة الاقتصادية-الاجتماعية لجميع الناس، ووفّر الحماية والأمن لهم، فعندئذٍ لا يمكن التساهل مع السارق لأن ضرره لا يقتصر على أفراد محدودين، وإنما يتعداه إلى المجتمع بأكمله.

ولو أهمل المجتمع حقوق الأفراد لأصبح الإغراء على السرقة لدى بعض المحرومين لا يقاوم، بسبب الحاجة والفقر المدقع، وعندئذ يمتنع تطبيق حد السرقة حسب النص، لأن المجتمع يجب أن يقوم بواجباته تجاه الأفراد أولاً، حتى يمكن بالمقابل تطبيق الحدّ المنصوص على السارق، وفي حال تقصير المجتمع يجب الاكتفاء بعقوبات على السرقة أخف من نصّ الآية، ولعل هذا هو السبب أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أوقف حد السرقة في عام المجاعة، لأن الدولة عجزت عن تأمين أسباب العيش الكريم للجميع، ومن العجيب الطريف في هذا العصر أن بعض الدول الإسلامية تظن أن تطبيق الشريعة الإسلامية يبدأ بتطبيق الحدود، في حين أن تطبيقها لا يتأتّى إلا بعد ضمان رفاهية العيش أولاً، وفي جميع الأحوال فقد اشترطوا عدة شروط في قطع اليد، منها أن يكون الشيء المسروق في الحرز، أي لا يكون معرّضاً، كما اشترطوا حدّاً أدنى للقيمة المسروقة وإن اختلفوا فيها، كما اتفقوا أن لا قطع في سرقة الطعام.

﴿جزاءً بما كَسَبا﴾ أي ذلك الجزاء على ما اكتسب السارق أو السارقة من الإثم ﴿نكالاً من اللهِ﴾ ليكون ردعاً أو عبرة للغير ﴿واللهُ عزيزٌ حكيم﴾ عزيز في عقابه، حكيم في شرعه.

﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣٩).

٣٩- ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي من تاب عن السرقة بعد أن ظلم غيره بسرقة مال الغير، وظلم نفسه بهذه المعصية، ثم أصلح أعماله بعد توبته فإنه تعالى يقبل توبته، وقالوا يسقط عنه قطع اليد إذا تاب قبل أن يصل أمرُه إلى الحاكم، وفي جميع الأحوال لا يسقط حق صاحب المال فلا بدّ من إعادة المسروقات إلى أصحابها حتى تصحّ التوبة.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤٠).

٤٠- ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ أي بعد كل ما تقدّم، والخطاب موجّه لكل مسلم، أو لكلّ من يقرأ القرآن ﴿أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ فتجري الأمور فيهما وفق سنة الخالق في خلقه ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ من الكفار والعصاة المجرمين، ويمهل الباقين منهم، ولولا ذلك لهلك كل كافر وعاصٍ عقب كفره ومعصيته دون إمهال ﴿وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ من التائبين ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من ثواب وعقاب.

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٤١).

٤١- استمرار الخطاب من الآيات (٢٠-٣٧)، والخطاب وإن كان للنبي ﷺ، غير أنه يخصّ كلّ مؤمن بالقرآن في كل عصر، والآية كما تتحدث عن المنافقين واليهود في زمن البعثة النبوية، فهي تشير أيضاً إلى جميع المغرضين والمتحيّزين ضدّ الإسلام في كلّ العصور، الذين لا يبالون أن يأخذوا معلوماتهم عن الإسلام من أي جهة كانت، بدلاً من الرجوع إلى القرآن نفسه إن كانوا يريدون الاستنارة حقاً:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ أي لا تحزن إذا ظهر منهم الكيد للإسلام والتآمر مع الكفار، فما عليك إلاّ البلاغ ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ وهم المنافقون ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ هم اليهود وقيل سمّوا يهوداً حين تابوا من عبادة العجل فقالوا: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦/٧]، وقيل لنسبهم إلى يهوذا ابن يعقوب.

﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أي يسمعون منك لأجل الكذب عليك، وليس لغرض التعلم منك، فكانوا يمزجون كلام النبي بالزيادة والنقصان والتبديل والتشويه، وهذا الكذب على النبي ﷺ لم يقتصر على زمن البعثة النبوية، بل تعداه إلى قرون متأخرة بعد ذلك، حيث دسّ اليهود القصص الإسرائيلية في التفسير والحديث ﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ هم جواسيس لقوم آخرين لم يحضروا إلى عندك، أي أنهم سمّاعون من الرسول لأجل قوم آخرين من اليهود أرسلوهم ليكونوا جواسيسَ لهم ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ يحرّفون ما يسمعون من الكلام، كما سبق أن حرّف أحبارهم نصوص التوراة، وتقدير الخطاب: يحرفون الكلم من بعد وضعه في مواضعه ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ يريدون إقناع أنفسهم أنهم مؤمنون بالوحي، ومع ذلك فإنهم ينتقون من الوحي ما يلائم أهواءهم ورغباتهم وشهواتهم فقط، ويتركون ما عدا ذلك ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾ الفتنة هنا بمعنى الضلال لأن هذا

هو محور الآية ﴿فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ لأن سنته تعالى في خلقه اقتضت أن يتمتع الإنسان بحرية الخيار ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ لأن من يختار الضلال فإنه تعالى لا يجبره على الهدى، وإلا بطُل التكليف وصار الإيمان قسراً ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ وهو المصير الذي يلاقيه المنافقون واليهود في الحياة الدنيا ﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ جزاءً لهم على ما اختاروه من الضلال، بعد أن بعث لهم تعالى خاتم الأنبياء والرسل ليبين لهم الحقيقة ويصحح معتقداتهم.

﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٤٢).

٤٢- ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أي إنهم، من أجل الكيد للإسلام ولتشويه سمعته، مستعدّون لتلقّي الكذب من أي جهة لأجل نشره، ويقال فلانٌ سمع الكذب أي قَبِله ﴿أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ السحت هو المال الحرام، وهو أيضاً الاستئصال لأن الحرام يستأصل صاحبه، قال تعالى: ﴿فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾ [طه: ٦١/٢٠]، ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ﴾ احكم بينهم إن جاؤوك مخلصين في طلب الحكم والقضاء ﴿أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ إن كان هدفهم بحرّد التشويش و الشغب أو البحث عن حكم يطابق هواهم ﴿وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا﴾ لأنك على الحق، ولقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (٦٧)، ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ أي بالعدل وفق المبادئ الإسلامية التي جاء بها القرآن، وليس وفق رغباتهم ونزواتهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ الذين يحكّمون العدل.

﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٣).

٤٣- ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ كيف يحكّمونك؟ و لم يسبق لهم أن احتكموا إلى التوراة الصحيحة! وفيها أحكام شريعتهم كما نزلت على موسى ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ فقد تولّوا عن التوراة بعد أن نزلت عليهم، فكانوا وأجدادهم يحرّفون الكلم من بعد مواضعه فيما لا يطابق أهواءهم ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ فلو كانوا مؤمنين حقاً لقبلوا التوراة الصحيحة بكاملها، ولكنهم تلاعبوا ويتلاعبون بالوحي الذي نزل عليهم، ويكتبون من عندهم، ويرفضون الوحي الذي نزل على غيرهم، لأنهم لا يريدون الإيمان إلاّ بما يطابق هواهم، فقد اختاروا الضلال على علم منهم، وليس عن جهل.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٤٤) .

٤٤- ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ ذكر الرازي أن الهدى هو بيان الأحكام والتكاليف والشريعة الكاملة، والنور هو بيان التوحيد والنبوّات والآخرة ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ هم أنبياء بني إسرائيل ابتداءً بموسى ومَن بعدَه مِن أنبيائهم-وهم كثر- حتى بعثة عيسى المسيح عليهم السلام، وأسلموا بالمعنى العام لأن جميع الأنبياء كانوا مسلمين، أي أسلموا وانقادوا وأذعنوا لله على ملة إبراهيم عليه السلام، ولأنّ أنبياءهم لم يكونوا موصوفين باليهودية أو المسيحية أصلاً، وإنما جاءت هذه الأوصاف بعدهم، انظر شرح الآيات (١٣-١٤).

﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ وهم اليهود، والمعنى أن أنبياء بني إسرائيل كانوا يحكُمون لليهود بما في التوراة، لأن شريعة التوراة خاصة بهم دون غيرهم ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ

وَالأَحْبَارُ﴾ ويحكم بالتوراة أيضاً الربّانيّون والأحبار، أما الربّانيّون فالمقصود بهم المنسوبون إلى الربّ لأنهم متعمقون في معاني الوحي وملتزمون به، والأحبار هم علماء اليهود ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ كتاب الله هو التوراة المفترض أن يحكم بها النبيون والربانيون والأحبار بأحسن فهم لها، لقوله تعالى مخاطباً موسى ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥/٧].

﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ المعنى أن أنبياء اليهود والربّانيون والأحبار، وعوا المعنى الحقيقي للكتاب وأيقنوا به، فكأنهم شهودٌ على صحته ﴿فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ الخطاب موجه إلى الربانيين والأحبار اليهود زمن البعثة الإسلامية، والمعنى احكموا بالصحيح من كتابكم ولا تخشوا قومكم، وخاصةً فيما عرفتموه عن مجيء خاتم الأنبياء والرسل ﴿وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ الثمن القليل هو الزعامة الدنيوية والدينية التي كان اليهود يخافون فواتها لو تبعوا النبي ﷺ، فقد رسخ فيهم الوهم أنهم شعب الله المختار، وأن النبوة محصورة فيهم إلى الأبد ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ لأنهم فضّلوا أحكامهم الظنية وأهواءهم على حكم الله.

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنْفَ بِالأَنْفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٤٥).

٤٥- ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ أي النفس تُقتل بالنفس قصاصاً ﴿وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنْفَ بِالأَنْفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ وردت هذه العقوبات المشددة عند اليهود في كتابهم (سفر الخروج ٢١/٢٣-٢٥)، غير أنّ المقصود منها المماثلة والمساواة في العقوبة، وعدم التجاوز والتعدّي، والنهي عن التشفّي والانتقام، وهو معنى القصاص لغةً ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ أي إن العفو، من قِبل وليّ المقتول أو من قبل الجريح،

يكفّر من ذنوب القتيل أو الجريح، ويحتمل أن هذا التخفيف كان في شريعة اليهود أيضاً فتركوه لشدة تعصبهم وتعنتهم ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ بوجوب التسوية، وتحريم الغلوّ والتعدي في العقاب ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ المغالون في العقوبة يظلمون غيرهم وأنفسهم، راجع أيضاً شرح آية [البقرة: ١٧٨/٢].

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٤٦).

٤٦- ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أي أرسلنا عيسى بن مريم على آثار أنبياء بني إسرائيل المشار إليهم في الآية السابقة ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ مصدقاً ما تبقّى بين يديه من صحيح التوراة وقت بعثته، بعد أن حرّف اليهود بعضَها وأضاعوا بعضَها الآخر وأضافوا إليها ما شاءوا، انظر شرح آيات [المائدة: ١٣/٥] و [آل عمران: ٣/٣]، ﴿وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ تصحيحاً لانحراف اليهود ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ الإنجيل أيضاً، وقت نزوله، كان مصدّقاً لما تبقى من صحيح التوراة في ذلك الوقت.

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٤٧).

٤٧- ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ أي بموجب الوحي الذي نزل على عيسى المسيح، لأن الواقع أنهم لم يلتزموا برسالة المسيح و لم يحكموا بها، وإنما اتبعوا الديانة التي ابتدعها بعده بولس، ثم أقرها رسمياً المجمع المسكوني الأول في نيقية عام ٣٢٥م برعاية قسطنطين الكبير إمبراطور بيزنطة، ولذلك يسمّون هذه الديانة اليوم مسيحية بولس Pauline Christianity نسبة إلى اشتملت عليه من إقرار ألوهية المسيح، أو جعله ابن إله، مما لم يكن معروفاً للمسيح ولا لأتباعه، وبولس المذكور لم يكن من تلاميذ المسيح كما أنه لم يلتق به في حياته،

وكان قد قاوم بعثة المسيح وأنصاره مقاومة مريرة واستعدى الرومان عليهم، ثم بعد رَفع المسيح عليه السلام، ادّعى بولس النصرانية بعد أن كان في طريقه إلى والي دمشق للوشاية ببعض النصارى.

كان بولس متشرباً للثقافة اليونانية «الهلنستية» الغاصة بقصص آلهة اليونان وسلالاتها الخرافية فاستساغ إدخالها على عقيدة المسيح، وأكثر كتابات العهد الجديد من تأليفه، وقد لاقت أفكاره هوى لدى قسطنطين الكبير إمبراطور بيزنطة لأنه كان هو نفسه وثنياً هلنستياً يوناني الثقافة، وكان يخشى وقوع الحروب الأهلية بين الطوائف المسيحية في بلاده، فادّعى النصرانية وقرر جمع مملكته على مبدأ بولس، ولهذا الغرض عقد مؤتمر نيقية تحت إشرافه عام ٣٢٥م وجمع فيه مختلف رجال الدين المسيحي من كل الفئات، وأصدر مرسوماً إمبراطورياً بإعلان ديانة بولس ديانة رسمية للدولة، و لم يوافقه على ذلك سوى أقلية من رجال الدين المجتمعين في نيقية، ثم حدثت الاضطهادات الرهيبة في الإمبراطورية ضد الموحدين بزعامة أريوس أسقف الإسكندرية الذي رفض ألوهية المسيح واعتبره بشراً كباقي الناس، وأريوس هو الذي وردت الإشارة إليه في رسالة النبي ﷺ إلى هرقل إمبراطور بيزنطة عندما كتب له: «أسلم تسلم فإن تولّيت فإنّ عليك إثم الأريسيين»، انظر أيضاً شرح آيات [آل عمران: ٣/٣]، [النساء: ٤/١٧١]، [المائدة: ٥/١٣].

﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ المعنى أن أهل الإنجيل لم يحكموا بالإنجيل، وإنما حكموا ويحكمون إلى أفكار ومبادىء بولس الدخيلة مما لم ينزل به الوحي، فأولئك هم الفاسقون بالمعصية والخروج عن أصل الشريعة.

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (٤٨).

٤٨- هذه الآية استمرار الخطاب، الذي بدأ بالآية (٤١)، للرسول ﷺ، فبعد أن وجّهت الرسولَ لكيفية التعامل مع اليهود والمنافقين، وذكرت نزول التوراة على بني إسرائيل وأنهم لم يحافظوا عليها و لم يقوموا بمقصدها، ثم نزل الإنجيل على عيسى المسيح عليه السلام كي يرشد اليهود من ضلالهم إلى جادة الصواب فكفروا به، ثمّ إنّ النصارى أنفسهم لم يتمسّكوا بإنجيل عيسى و لم يحافظوا عليه، وإنما ضلّوا عنه إلى ديانة بولس، وفي هذه الآية يكمل تعالى الخطابَ لرسوله، فقال جلّ ثناؤه:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ الكتاب هنا بمثابة اسم علَم للقرآن لأنه تعالى ذكره تخصيصاً بعد التوراة والإنجيل، والمعنى: أنزلنا، إليك أيها الرسول، القرآن متضمناً ومبيّناً الحق في كل الأمور التي ضلّ عنها أتباع الرسالات السابقة بعد أن حرّفوا وبدّلوا وأضافوا في كتبهم ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ الكتاب هنا اسم جنس للكتب السابقة التي نزلت على الأنبياء، والمعنى أن القرآن يصدّق الصحيح مما تبقّى في كتبهم-وهو معنى قوله ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي ما بقي من الكتاب الصحيح، وليس ما أضافوه أو حرّفوه ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ لأن القرآن ختم الرسالات السابقة فأتى بشرائع وتكاليف جديدة، ونسخ من التكاليف والشرائع السابقة، انظر آية [البقرة: ١٠٦/٢]، وهو أيضاً المعيار الذي به يُعرف صدق، ما تبقى من الوحي السابق من زيفه، بعد أن اختلط كلام البشر بالكتب المنزلة ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أي احكم في أمور العقيدة لديهم بموجب هذا المعيار -وهو القرآن- ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ التي أضلتهم، فقالوا بالتثليث، ونسبوا الألوهية إلى المسيح، أو جعلوه ابن إله ﴿عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ لا تميل عما جاءك من الحق، لأنه تصحيح لانحرافاتهم

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ الشرعة هي ما يُشرع به أو يُبدأ به، والمنهاج هو الطريق الواضح السهل الموصل إلى الهدف، والمعنى أنه تعالى جعل

لكل أمة، عبر العصور، مبدأ وطريقاً يوصلها إلى السلامة الدنيوية والروحية، ومتناسباً مع ظروفها وعصرها ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ بأن أجبركم على مبدأ وطريق واحد منذ بدء الخليقة ﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ فمنحكم حرية الخيار تكريماً لبني آدم، حتى يكون اختياركم الحق من الضلال عن طريق الاقتناع، باستعمال الفكر والعقل، وليس بالقسر والإكراه ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ أي تنافسوا باستخدام العقل والفكر للوصول إلى الخير والتفاهم، وليس العداوات ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ في الآخرة ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي يخبركم يوم القيامة ما كنتم عليه من الحق أو الضلال، فيجازيكم عليه من ثواب أو عقاب.

﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ (٤٩).

٤٩- ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ التكرار في التوجيه الإلهي تمهيد للتحذير الذي يليه، وهو في نفس الوقت ذو دلالة عامة، أي إن الحكم بين الناس يجب أن يكون بموجب الشرع الذي قرره الوحي وليس بموجب الأهواء، أي الأحكام الوضعية ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ احذرهم أيها النبي، والدلالة احذرهم أيها المسلم في كل الأزمنة والعصور، أن يفتنوك أي يذهبوا بعقلك، لأن الفتنة بهذا المعنى ذهاب العقل، والمعنى أنّ من يميل إلى تصديقهم في بعض ما يقولون كالتثليث وتأليه المسيح وغيره من الضلالات، فكأنما ذهب عقله ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ إن تولّوا عن الحكم بمعيار القرآن في أمور عقيدتهم ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ وليس بجميع ذنوبهم، لأنه لو أصابهم بها جميعاً لهلكوا على الفور، والمعنى العام أيضاً أن التولي المتعمّد عن تعاليم القرآن يحمل في طياته بذور

النزاعات الداخلية وتفسخ وهلاك المجتمعات ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ عاصون، خارجون عن الشرعة التي جعلها الله لهم.

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (٥٠).

٥٠- ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ اليهود والمسيحية يريدون حكم الجاهلية، بعد أن تولّوا عن القرآن و لم يقبلوا بحكمه، وليس المقصود الجاهلية بمعناها الضيق التي سبقت الإسلام في الجزيرة العربية، وإنما هي تعبير عن كل مجتمع في أي مكان وأي عصر يبني نظامه على أحكام وضعيّة مخالفة للشريعة، طبقاً لما يراه الناس أو الأفراد مناسباً لهم، أو مطابقا للذّاتهم، أو مفيداً لمصالحهم الاقتصادية، ولو على المدى القصير، بغض النظر عن دواعي العقل والأخلاق والدين، وفي الآية أيضاً تحذير ضمني للمسلمين في كل العصور من تحويل مجتمعاتهم إلى مجتمعات جاهلية -الآية ٥٤- ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ الذين لديهم إيمان بالله يوقنون أنّ الشرع الذي أنزله الوحي أفضل لمصالح البشر من الأحكام الوضعية.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥١).

٥١- بعد أن ذكر تعالى أنه أنزل التوراة على بني إسرائيل فلم يعملوا بها، ثم أنزل الإنجيل فلم يعمل به النصارى، فقد أنزل القرآن مهيمناً على كتبهم جميعاً، معياراً مبيناً الصحيح من الزيف، فيما تبقى منها، ثمّ حذّر المؤمنين أن يفتتنوا بهم، وهنا ينتقل الخطاب إلى النهي الصريح عن التحالف معهم ضد باقي المؤمنين:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ الكلام عن اليهود والنصارى كمجتمعات ودُوَل، وليس كأفراد، وفيه نهي صريح عن اتخاذ اليهود والنصارى أنصاراً وحلفاء ضد أهل الإسلام، كما هو نهي صريح عن تقليدهم

كمجتمعات جاهلية لأن الخطاب استمرار للآية المتقدمة ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي أن اليهود أولياء بعضهم البعض، والنصارى أيضاً أنصار لبعضهم البعض، كما أن مجتمعات اليهود والنصارى قد تتحالف معاً ضد الإسلام، وفي ذلك إخبار بالغيب لأن اليهود والنصارى كانوا أعداء بعضهم لبعض، قبل الإسلام وحتى عهد قريب، و لم يتحالفوا معاً ضد المسلمين إلا بعد ثورة البروتستانت ونشوء التحالف البروتستانتي- اليهودي واستمراره إلى اليوم، وما صار يعرف بالمسيحية الغربية المتصهينة، أو الأصولية المسيحية، أو اليمين المسيحي المتطرف، ومغزى الآية أيضاً أن يكون المسلمون أنصاراً وحلفاء بعضهم لبعض ضد التحالف المسيحي- اليهودي ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ مَن يكون من المسلمين حليفاً معهم ضد إخوانه، يكون كالخارج عن دينه، ولا يمنع ذلك مودة المسالمين منهم والإحسان إليهم، انظر آيات [الممتحنة ٦٠/٨-٩]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ المسلمون الذين يتحالفون التوجيه الإلهي المذكور في هذه الآية فيتحالفون مع مجتمعات اليهود أو النصارى ضد بني دينهم، ويقيمون مجتمعاتهم على الجاهلية اليهودية أو النصرانية، أمثال هؤلاء يختارون طريق الضلال فيحرمهم تعالى من توفيقه وهديه.

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ (٥٢).

٥٢- ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ هم المنافقون ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ يسارعون في التحالف مع دُول اليهود والنصارى، وتقليدهم، حرصاً على مصالحهم المادية، خاصة عندما يكون اليهود والنصارى ذوي قوة عسكرية، وهيمنة اقتصادية وسياسية ﴿يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ المنافقون يخافون أن تدور الدائرة في المستقبل، لصالح دُوَل اليهود والنصارى ضد المسلمين، فهم يريدون اتخاذ الحيطة سلفاً، حفاظاً على مصالحهم الآنية ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ

بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ قد يفتح الله تعالى على المسلمين بالنصر المباشر، أو غير المباشر ممّا لم يكن في الحسبان، فيكون ذلك مدعاة لحسرة وندم المنافقين ﴿فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ (٥٣).

٥٣- ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بعضهم لبعض، تعجباً من أمر المنافقين: ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ لأنّ المنافقين سبق أن أقسموا أغلظ الأيمان أنهم مع المؤمنين، ثم تبيَّن كذبهم بانكشاف حلفهم مع اليهود والنصارى ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ وهو مغزى الآيات (٥١-٥٣) لأنّ أعمال المنافقين بنتيجة تحالفهم مع مجتمعات اليهود والنصارى ضد المؤمنين، وتقليدهم، لا تعود عليهم إلا بالفضيحة والخذلان، فيخسرون دنياهم وآخرتهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٥٤).

٥٤- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ الخطاب استمرار لما سبقه، والمعنى أنّ المسلمين الذين يريدون إنشاء مجتمعات جاهلية، الآية (٥٠)، أو الذين يتخذون اليهود والنصارى أولياء فيتحالفون معهم ضد إخوانهم المسلمين، الآية (٥١)، في أي عصر من العصور، وفي أي مجتمع من المجتمعات، يكونون كمن ارتدّ عن دينه، وبالتالي فإنّ مصير دولتهم إلى الزوال كما هو مذكور في تتمة الآية: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ فتزول دولة المرتدين-المتحالفين مع دُوَل اليهود والنصارى ضد إخوانهم المسلمين، أو المقيمين مجتمعاتهم على أسس جاهلية- ويحل محلّهم أقوام يقيمون مجتمعهم على

الإسلام ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ ينحمّلون التضحيات، على النقيض ممن في قلوبهم مرض- الآية ٥٢- ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ وهو الجهاد وصفاء القلوب من النفاق ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ الله تعالى واسع المقدرة، غالبٌ على أمره، عليمٌ بالعواقب.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (٥٥).

٥٥- ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾ الخطاب استمرار لما سبق، والولاية بمعنى النصرة، والمغزى أن لا فائدة من المسارعة باتخاذ مجتمعات اليهود والنصارى أنصاراً لبعضكم ضدّ بعض، لأن ذلك كالردّة عن الدين، وإنّما الذي ينصر المؤمنين فعلاً هو الله، باتباعكم كتابه ﴿وَرَسُولُهُ﴾ باتباعكم سنّته، واتّباع الذين آمنوا المتصفين بالخشوع: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ المراد من الركوع هو الخضوع والخشوع، والمعنى أن المسلمين المقيمين لأركان الإسلام، عن خضوع وخشوع لله تعالى، هم الذين يرجو منهم المسلم أن يكونوا أنصاراً له.

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (٥٦).

٥٦- ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ بعد أن نهى تعالى المؤمنين أن يتولّوا مجتمعات اليهود والنصارى، وأخبرهم أنّ أولياءهم الحقيقيين هو الله، ورسوله، والمؤمنون الخاشعون، فهذه الآية تؤكد لهم أن الذين يعتمدون في نصرتهم على الله ورسوله، وعلى المؤمنين الخاشعين، فإن الغلبة النهائية تكون لهم، وقد شرّفهم تعالى بلقب حزب الله.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٥٧).

٥٧- ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ﴾ أعاد تعالى النهي عن اتخاذ أهل الكتاب والكفار أولياء للمؤمنين، وعلّل هذا النهي بأن أهل الكتاب والكفار قد جعلوا من دين الإسلام هزواً ولعباً، فكيف يجوز التحالف معهم؟ وكيف يؤمن جانبهم؟ فإنهم إن تحالفوا مع طرف من المسلمين فهو للكيد للإسلام وأهله، وليس حباً بهم أو حرصاً على صالحهم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي من تقوى الله أن لا تتخذوا مجتمعات اليهود والنصارى والكفار أولياء لكم، ومَن لا يتّق الله في ذلك، لا يكون مؤمناً، بل يكون كمن ارتدّ عن دينه (الآية ٥٤).

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ﴾ (٥٨).

٥٨- ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ يسخرون من الأذان ومن الصلاة، ويحاولون إظهار الإسلام على غير حقيقته السامية، بقصد التأثير سلباً في ضعاف العقول، وهو ما يسمى في عصرنا الحاضر تسخير وسائل الإعلام لإضلال البشر ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ﴾ أي إن سبب سلوكهم ذلك، هو أن ملَكة العقل لديهم أضلّتهم، بدلا من أن تدلّهم على الطريق الصحيح.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٥٩).

٥٩- ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ المعنى ما مبرر نقمتكم علينا يا أهل الكتاب؟ وما مبرر تآمركم علينا؟ وما مبرر محاولاتكم إظهار الإسلام على غير حقيقته؟ فنحن نؤمن بالله، ونؤمن بالقرآن، ونؤمن بالكتب السماوية التي نزلت قبله، والعقل يدلّ أنها جميعاً من مصدر واحد هو الله تعالى، فكيف تنقمون منّا الإيمان بالله وحده الذي أنزل الكتب على عباده، فهذا أمر لا يستحق النقمة

وإنما يستحق التأييد والمديح، ولكن السبب ليس فقط قلّة إنصافكم، بل كون أكثركم فاسقين، أي خارجين عن أديانكم أصلاً، اليهود عاندوا موسى وعصوه وعاندوا غيره من أنبيائهم وقتلوهم، وتلاعبوا بالتوراة، والنصارى أيضا تخلوا عن دين المسيح واتبعوا ديانة بولس، وأضاعوا الإنجيل، وكتبوا أسفاراً من عندهم، فلا غرابة أن أكثرهم لا يؤمنون بالقرآن، انظر شرح الآيات (١٣، ١٤، ٣٣، ٤٣، ٤٧، ٤٨).

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (٦٠).

٦٠- ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ الأدهى من نقمتكم علينا، التي ليس لها مبرر، هو الجزاء الذي سوف تلقونه من الله تعالى، فهو قد أبعدكم من رحمته، وغضب عليكم، وجعلكم بمثابة القردة في نزواتكم، وكالخنازير في اتباع غرائزكم وشهواتكم ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ وقد عبدتم الطاغوت، أي من يطغى عن الحد وهو كلّ رأس في الضلال، والعبادة بمعنى الطاعة المطلقة، فقد ارتكس اليهود إلى عبادة آلهة الوثنية مراراً وتكراراً في تاريخهم ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا﴾ في الدنيا والآخرة ﴿وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ بعيدين جداً عن الطريق الصحيح.

﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ (٦١).

٦١- ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ وهم أهل الكتاب، قد يدّعون الإيمان نفاقاً، أو اعتقاداً منهم أن ما يؤمنون به من الضلال هو الإيمان الصحيح ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ جاؤوكم بنيّة سيئة سلفاً، وبفكر منغلق من البداية، لا بفكر منفتح باحث عن الحقيقة، ومن يجيء بهذه العقلية لا يستفيد من الحوار، ولا يستنير بالهدي ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ لا تعلمون ما جاءوا به من المكر والخداع والكيد والنفاق.

﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٦٢).

٦٢- ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ الكيد للمسلمين شغلهم الشاغل، فيعطونه الأولوية في نشاطهم وأهدافهم، وقد كان هذا دأبهم عبر التاريخ كما تشهد بذلك الحروب الصليبية التي أشعلوها ولا تزال مستمرة بشكل أو بآخر بعد أن أقاموا إسرائيل ودعموها ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ وهو المال الحرام، وسمّي سحتاً لأنه يستأصل صاحبه ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تقبيح لحربهم ضد الإسلام، أي هو عمل يعود عليهم بالبؤس في الدنيا والآخرة، وقد يسبب البؤس لغيرهم في الدنيا.

﴿لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (٦٣).

٦٣- ﴿لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الإِثْمَ﴾ كان الأحدر بالربانيين، أو الذين يظنون أنفسهم ربانيين، وهم كبار رجال الدين عندهم، وجدير بأحبارهم، أن يرشدوهم ويبيّنوا لهم ما هم عليه من الضلال، وبالتالي أن يأمروهم بالكف عن التآمر والكيد للمسلمين ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ وهو المال الحرام الذي يبتزّونه وينهبونه من الناس ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ الصنع إتقان العمل، والمغزى: تقبيح ما يتقنه الربانيون والأحبار، من تزيين الباطل لأتباعهم حفاظاً على مؤسساتهم الدينية ومناصبهم ومصالحهم.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٦٤).

٦٤- ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ وهو تعبير مجازي قَصَد منه اليهود تعيير المسلمين في بداية البعثة النبوية والانتقاص من مصداقيتهم، والمعنى: إن كنتم تدّعون نزول الوحي الإلهي عليكم، فكيف يتركككم الله ضعافا فقراء

مضطهدين من قبل الناس؟ وهذا القول يعبّر عن عقلية منتشرة لدى الكثير من الناس في كلّ العصور ممّن يظنون أن الغنى الدنيوي دليل على كون صاحبه على الطريق الصحيح، وهذا الاعتقاد تنفيه الآية في تتمة الخطاب ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ وهو دعاء على اليهود تحقّقَ فيهم، لأنهم أكثر أقوام الدنيا حبّاً للمادة وتهالكاً على تحصيلها، بشتى الوسائل غير الشرعية، ليس أقلها الربا الفاحش والفساد والإفساد ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ اليدان تعبير مجازي عن السلطة والغنى، والمعنى أن إغداق المال على الأفراد أو المجتمعات، في وقت من الأوقات، لا يفيد بالضرورة كونهم على الصراط المستقيم، أو أنهم مؤيَّدون من الله ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ اليهود ازدادوا طغياناً وكفراً بسبب نزول الوحي على النبي ﷺ، لأنهم كانوا -وما زالوا- يظنّون أن النبوات يجب أن تكون محصورة فيهم، وأن النبي الموعود يجب أن يكون من بني إسحاق وليس من بني إسماعيل، انظر آية [البقرة: ٢/١٠٥]، فكانت محاربتهم النبي ﷺ من قبيل الحسد والعصبية وخوف زوال امتياز الزعامة الذي كان لهم بين عرب الحجاز الذين كانوا ينظرون إليهم على أنهم أهل كتاب وعلم.

﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ بُعث عيسى المسيح عليه السلام إلى بني إسرائيل فرفضه أكثرهم، وتبعته أقلية منهم، فالعداوة والبغضاء هي بين اليهود وبين الذين اتبعوا عيسى، وقد تكون أيضاً العداوة والبغضاء بينهم وبين باقي الناس ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ ونظيره قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ١٧/٨]، والخطاب عن اليهود، دأبوا على محاربة الرسل عبر تاريخهم، انظر شرح آية [آل عمران: ٣/٢١]، فقد عاندوا موسى عليه السلام وعصوه وعبدوا العجل، ثمّ عصوا مَن جاء بعده مِن أنبياء بني إسرائيل وحاربوهم، ثم كفروا ببعثة عيسى المسيح عليه السلام وحاولوا قتله، وأخيراً كفروا ببعثة خاتم الأنبياء والرسل محمد ﷺ وتآمروا عليه وحاربوه،

ولذلك قال تعالى عنهم ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المائدة: ٣٣/٥].

﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا﴾ كما في آية [المائدة: ٣٣/٥]، ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ فلا يصلون إلى مبتغاهم من السعادة الدنيوية، وينالهم عقاب الآخرة.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (٦٥).

٦٥- ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا﴾ برسالة خاتم الأنبياء والرسل ﴿وَاتَّقَوْا﴾ أتبعوا إيمانهم بالعمل الصالح مما فيه تقوى الله ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ نتيجة إيمانهم ﴿وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ بنتيجة تقواهم.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ (٦٦).

٦٦- ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾ على صورتها الصحيحة التي نزلت بها، و لم يحرّفوها ويضيفوا إليها ويحذفوا منها ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وهو القرآن ﴿لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ أي لنعموا بخيرات السماء الروحية ﴿وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ وخيرات الأرض المادية ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾ معتدلة في أمور الدين بلا مغالاة ولا تطرف ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ الكثير منهم يضمرون الحقد ضد الإسلام والمسلمين ويكيدون لهم.

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٦٧).

٦٧- بعد أن ذكرت الآية المتقدمة أنّ أهل الكتاب لم يقيموا التوراة والإنجيل، تبيّن هذه الآية أنّ رسالة القرآن نزلت لهدايتهم، بدليل تتمة الخطاب في الآية (٦٨) الذي ينص أن عليهم إقامة التوراة والإنجيل والقرآن:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ لأهل الكتاب، وللبشرية قاطبة، والمعنى جميع ما أُنزل إليك، والخطاب وإن كان في الأصل للرسول فهو

بالتالي تكليف لجميع المسلمين بنشر الدعوة الإسلامية، وضرورته واضحة من ضلال أهل الكتاب الذي سبق تفصيله ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ إن لم تبلّغ جميع ما أنزل إليك للناس عامةً فلا تكون قد بلّغت الرسالة، لأن الرسالة عامة ومتكاملة لا تتجزأ ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فيمنع أذاهم عنك، وقيل هي العصمة من القتل، وفيه تنبيه أنه يجب عليه أن يحتمل كل ما دون النفس من أنواع البلاء، لشدة تكليف الأنبياء ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أي ما على الرسول إلا البلاغ، أما من صمّموا على الكفر فالله لا يجبرهم على الهدى.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٦٨).

٦٨- ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ أي لستم على شيء يُعتدّ به من الإيمان ﴿حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾ على أصلها، وعلى وجهها الصحيح، وفيها الكثير من النبوءات عن مبعث النبي الأحمد ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وهو القرآن -بدليل تتمة الآية- لأنّ فيه تصحيح معتقدات اليهود والنصارى ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ إذ حوّلوا دينهم إلى جنسية عصبية، وابتكروا من المعتقدات ما ألصقوه بدينهم، وهذا ممّا يزيد في طغيانهم وكفرهم بالوحي الذي نزل على النبي ﷺ ﴿فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ لأن المطلوب منك هو البلاغ فقط، وهو شبيه بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ (٤١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٩).

٦٩- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي الذين آمنوا برسالة النبي محمد ﷺ ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ أي اليهود وقيل سمّوا يهوداً حين تابوا من عبادة العجل فقالوا ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦/٧]، وقيل لنسبهم إلى يهوذا ابن يعقوب ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾

وفي اللغة الآرامية الصابغون، وهم طائفة موحّدة بين اليهود والنصارى اشتق اسمهم من الكلمة الآرامية: صبغة، لأنهم كانوا يعمّدون أي يصبغون المعتنق الجديد لدينهم في نهر الأردن، فصاروا يدعون الصابغة، وهذا شبيه بقوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨/٢]، وكانت العرب في إحدى لهجاتها تلفظ الغين همزة فصارت الصابئة، وهم أتباع يحيى عليه السلام (انظر عبد الأحد داود)، ويجب عدم الخلط بينهم وبين صابئة حرّان الذين انتحلوا الاسم لأنفسهم للاستفادة من تسامح الدولة الإسلامية مع أهل الكتاب ومع طوائف الموحّدين، وقد ذكر تعالى الصابئين قبل النصارى لأن بعثة يحيى سبقت بعثة عيسى عليهما السلام (وَالنَّصَارَى) اشتق اسمهم من النصرة، لأنهم نصروا عيسى عليه السلام، كما في قوله تعالى على لسان عيسى ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢/٣].

﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ وحده لا شريك له ﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ آمن بالبعث والحساب ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ اقترن إيمانه بالعمل الصالح ﴿فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يجب قراءة هذه الآية ضمن سياقها، فالآية التي قبلها تؤكد أن أهل الكتاب ليسوا على شيء من الحق ما لم يقيموا التوراة والإنجيل -على وجههما الصحيح- وما أنزل إليهم من ربهم وهو القرآن، والآيات التي بعدها تبيّن إصرار اليهود على المعصية وتقرر كفر من ألّهوا المسيح واعتنقوا التثليث، فهذه الآية تستثني من أهل الكتاب مَن آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً، لأن كل إنسان يحاسب بعمله، ولا يُسأل عن غيره، والواضح أن هذه الآية لا تهدف إلى تفصيل جميع أسس الإيمان والعبادات فذلك مفصّل في آيات أخرى من القرآن الكريم.

وقد تكرر ورود هذا المعنى في آية [البقرة: ٦٢/٢]، غير أنه في هذه الآية وردت كلمة ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾ بالرفع، ومن وجوه إعرابها أنها مبتدأ خبره محذوف، وتقدير الكلام-والصابئون كذلك-.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ (٧٠).

٧٠- ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وهو الميثاق المذكور في الآية (١٢)، ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ بعث لهم تعالى الكثير من الرسل بعد موسى عليه السلام، وتلك حجة عليهم لكثرة ارتكاسهم إلى الوثنية والمادية، وتكرر الحاجة إلى إعادة تقويمهم، فقتلوا الكثير من الرسل، انظر آية آل عمران: ٢١/٣)، وقتلوا يحيى عليه السلام، ولما جاءهم المسيح المنتظر عيسى عليه السلام حاولوا قتله، وكذلك عندما جاءهم النبي المنتظر خاتم الأنبياء والرسل محمد ﷺ المذكور بشارته في كتبهم (سفر التكوين٤٩/١٠، سفر التثنية١٨/١٨، سفر حجّي٢/٧) كفروا به وتآمروا على قتله، ويلاحظ الانتقال في التعبير من الفعل الماضي ﴿كَذَّبُوا﴾ إلى الفعل المضارع ﴿يَقْتُلُونَ﴾ لإيضاح استمرارية النية المبيّتة لدى اليهود بتكرار قتل بعض الأنبياء أو محاولة قتل بعضهم الآخر.

وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧/٢].

﴿وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (٧١).

٧١- ﴿وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي إن تكذيبهم وقتلهم الرسل كان بناء على حسبانهم أن لن يقع عليهم عقاب، لظنهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، الآية (١٨)، (فَعَمُوا وَصَمُّوا) عميت بصيرتهم عن الحقيقة، وصمّوا آذانهم عن سماع الحق، فأصابهم الله بذنوبهم ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ بتوبتهم، فأمهلهم ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا﴾ تكرر ارتكاسهم إلى الوثنية، وتكرر بعث الرسل إليهم وعصيانهم، ونزول الكوارث بهم ثمّ توبتهم ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ الأكثرية منهم على

هذا المنوال، والعبرة بالأكثرية، لأن القليل النادر لا تأثير له في الصلاح أو الفساد العام ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ فيحازيهم عليه، كما في الآية (٣٣)، وأيضاً قوله تعالى مخاطباً بني إسرائيل ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨/١٧] أي إن عدتم إلى الإفساد، أو إن عدتم عن التوبة، عدنا إلى عقابكم، وهو مغزى التكرار في قوله تعالى: ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا﴾.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ (٧٢).

٧٢- استمرار الخطاب عن بني إسرائيل: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ وهم أتباع بولس الذي ابتكر هذه العقيدة ابتداءً، ثم فرضها قسطنطين الكبير إمبراطور روما بمرسوم إمبراطوري، في المؤتمر المسكوني الأول يوم ٢٠ مايو ٣٢٥ م، الذي انعقد في نيقية-حالياً إزنيق في تركية- على مسافة ١٩٥ كم جنوب بيزنطة-حالياً إستانبول- ، انظر شرح الآيات (١٤و٤٧)، والنص الإمبراطوري الذي فرضه قسطنطين-الذي كان وثنياً لتاريخه- هو التالي:- أن عيسى المسيح بصفته ابن الله هو الله نفسه، ليس مخلوقاً ولكن ناشئاً عن الله الأب، ومتحداً معه في الجوهر- وقد تم فرض هذا المبدأ على أنحاء الإمبراطورية بقوة الجيش والاضطهاد.

﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ الخطاب موجّه إلى بني إسرائيل لسببين: أولاً أنه كان مبعوثاً إليهم ابتداءً، وثانياً أن اليهود هم الذين ابتكروا بعده تأليه المسيح، ونشروا هذه العقيدة المسيحية، وطمسوا تعاليم عيسى ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ وقد بقي قول المسيح بعبادة الله الأحد في أسفار النصارى شاهداً على الحقيقة لم يلحقه الحذف والتشويه (سفر متى٤/١٠)، (سفر لوقا٤/٨)، (سفر

يوحنا ١٧/٢٠)، وقد ذكرت الموسوعة البريطانية Encyclopaedia Britannica، الطبعة ١٤، ما يلي نصه بقلم الأب شارل أندرسون سكوت :-إنّ كتابات الأسفار الثلاثة الأولى من العهد الجديد تؤكد عقيدة مؤلفيها بأن المسيح لم يكن سوى بشر، ولا يوجد في الأسفار ما يبرر الاعتقاد أن المسيح ابن الله، كما ليس في أقوال المسيح وقت العشاء الأخير ما يبرر المعاني التي استخلصت منها فيما بعد، كما لا يوجد أي تلميح من قريب أو بعيد عن أية علاقة بين وفاة المسيح وبين مفهوم الخطيئة الأصلية أو الفداء-.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٣).

٧٣- ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ تطورت فكرة الثالوث عند أتباع بولس منذ المجمع المسكوني الأول المنعقد في نيقية، وحصلَ جدل مرير بين فلاسفتهم عن ماهية الشخص الثالث الذي قالوا إنه الروح القدس، ثم في المجمع المسكوني في القسطنطينية عام ٣٨١م أصدروا قراراً بتعريفه أنه منبثق عن الأب و الابن، و هو ما تندد به هذه الآية الكريمة بأنه كفر صريح، ومع أنهم قرروا هذه الفكرة في العام ٣٨١م إلا أنها لم تعمم في الكنائس حتى القرن الحادي العشر، وقد انتقدها فوتيوس أسقف القسطنطينية بشدة، و لم تقبل الكنيسة الشرقية هذه العقيدة إلا بعد المؤتمر الكنسي الثالث المنعقد في القسطنطينية عام ٦٨٠م ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ هو الله وحده، والجميع مخلوقاته ﴿وَإِنْ لَمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ﴾ عن مثل هذه الافتراءات التي يبتكرونها من عندهم، وليس لهم بها علم من المسيح أو الوحي، وإنما هي من تأثير الثقافة الوثنية اليونانية المحضة التي هيمنت على أفكارهم، وعلى فكر بولس من قبلهم ﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ والجدير بالذكر أنه لم يرد في كتاب النصارى، المسمّى بالعهد الجديد، سوى إشارة واحدة فقط عن التثليث، وردت

في رسالة يوحنا الأولى بالفقرة ٧ من الفصل ٥، وقد تم حذف هذه الفقرة من الطبعة المنقحة المعتمدة RSV التي صدرت عام ١٩٧١، والتي شارك بإعدادها ٣٢ عالماً من كبار علماء النصارى تدعمهم لجنة استشارية تمثل خمسين من طوائفهم المتعاونة بعضها مع بعضٍ، ويبدو أن عموم النصارى لم يلقوا لذلك اهتماماً.

﴿أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧٤).

٧٤- ﴿أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ﴾ فيعودون عن أفكار الكفر، التي جعلوها مبادئ دينية يصدرون بها المراسيم من عندهم، من مؤتمر لآخر، حتى اخترعوا ديناً جديداً نسبوه إلى عيسى المسيح ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ في حال توبتهم.

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (٧٥).

٧٥- ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ﴾ ذكرت الموسوعة البريطانية Encyclopaedia Britannica، الطبعة ١٤، عن هذا الموضوع ما يلي نصه بقلم الأب شارل أندرسون سكوت:-من الواضح أن المسيح صنّف نفسه بين الأنبياء إذ قال: لا يليق بنبي أن يهلك خارجاً من القدس (لوقا ٣٣/١٣)، وقال عنه بطرس يوم عيد الحصاد: إنه رجل مُرسَل من الله (أعمال ٢٢/٢)، ولم تترك الأسفار أي مجال للشك بأنه كان بشراً يجوع ويشعر بالعطش وبالتعب والتعاس، وينام مثل غيره، ويُفاجأ بالأحداث-، ﴿انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ انظر أيها الرسول، أو أيها القارئ: كيف نبيّن لهم البراهين والعلامات، ومع ذلك ينصرفون عن الحق.

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٧٦).

٧٦- ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا﴾ كيف تعبدون المسيح وتدعونه، وهو لم يملك أن يدفع الضرر عن نفسه ضد اليهود الذين كانوا يقصدونه بسوء، كما لم يملك إيصال النفع إلى صحابته أو أن يدفع عنهم ضرر الكائدين، فمن باب أولى أنه لا يستطيع إيصال الضرر أو النفع إلى أحد منكم، فكيف يكون إلهاً يُعبد من لا يسمع دعاءكم ولا يعلم حالكم ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ولكن الله وحده هو الذي يسمع دعاء المستغيثين، فيرفع عنهم الضرّ إن شاء، لأنه العليم بأحوال عباده.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (٧٧).

٧٧- ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ لا تبتدعوا في دينكم من العقائد، كتأليه المسيح والتثليث، مما سبق ذكره بالآيات (٧٢-٧٣)، ﴿وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ القوم الذين ضلّوا من قبل، هم اليهود الهلنستيون الذين تبنّوا مسيحية بولس وقد انضبعوا بالفلسفة اليونانية، وأداروا ظهورهم للنصرانية، وعلى رأس هؤلاء بولس الذي كان يهودياً ثم صارت المسيحية الحالية تُنسب إليه، فيقولون مسيحية بولس Pauline Christianity لأنه مؤسسها الحقيقي، ولأن المسيحية الحالية لم يعد لها علاقة ببعثة وتعاليم المسيح سوى أنهم جعلوا المسيح رمزاً لها، ومن هؤلاء أيضاً الإمبراطور قسطنطين الذي كان وثنيا يوناني التفكير هلنستي الثقافة، انظر شرح الآيات (١٤ و ٤٧)، ﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ من الناس، إما بالأوهام كما فعل بولس، وإما بالاضطهاد وقوة الجيش كما فعل قسطنطين، وهم أيضاً يضلون الناس كثيراً بحملات التبشير التي تنفق عليها الكنيسة إلى اليوم مبالغ طائلة في كافة أنحاء العالم ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ وهذا هو الضلال الثاني، أي بعد أن ضلّ اليهود

من قبل عن تعاليم المسيح، ضلّوا أيضاً عن تعاليم البعثة الإسلامية، لأن الإسلام هو سواء السبيل، أي السبيل المعتدل الوسط، الذي لا غلوّ فيه ولا تفريط.

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٧٨).

٧٨- ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ﴾ وهذا اللعن مذكور في كتبهم، انظر مزامير داود (٢١/٧٨-٢٢، ٣١-٣٣)، ﴿وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ انظر (سفر متّى ٣٤/١٢ و٣٣/٢٣-٣٥)، والآية استمرار الخطاب لأهل الكتاب، والمعنى: لا تتبعوا أهواء القوم الذين ضلّوا من قبل فهم قد لُعنوا على لسان داود وعيسى ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ سبب لعنهم هو عصيانهم الأنبياء، وعدوانهم على الشريعة بما أدخلوه عليها من الغلوّ، ثم بيّن تعالى ما أدّى بهم إلى المعصية والعدوان بقوله:

﴿كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٧٩).

٧٩- ﴿كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ كانوا وما زالوا يشهدون الضلال ويسكتون عنه، بل يقرّون به ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ فسوف يلحق البؤس بهم، لأن الضلال والفساد في الأمّة يبدأ عادة بأقلية محدودة، فإذا لم يقف الرأي العام في وجه الأقلية المفسدة، واكتفى بموقف المتفرج، سرعان ما يستشري ويلحق ضرره بالمجتمع ككلّ.

﴿ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ (٨٠).

٨٠- ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لأنّ اليهود بعد أن عصوا داود وعيسى عليهما السلام، تحالفوا مع الوثنية اليونانية-الهلنستية- ضد النصرانية، ثم تكرر ذلك منهم وقت البعثة الإسلامية إذ تحالفوا مع مشركي العرب ضدّ خاتم الأنبياء والرسل محمد ﷺ، ولا يزال يتكرر ذلك منهم عبر

التاريخ إلى اليوم حيث يتحالفون مع الكفر ضد الإسلام (لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ ساء ما قدّموا لآخرتهم من المعصية والعدوان إذ كانت نتيجته غضب الله عليهم: ﴿أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾.

﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (٨١).

٨١- ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ لو كان اليهود يؤمنون بالله، وبالنبيّ موسى عليه السلام، ويؤمنون حقّاً بما أُنزل على موسى من التوراة، لقبلوا رسالة عيسى ورسالة الإسلام، ولما تحالفوا مع الوثنية والشرك ضدّهما ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ لأن مجيء خاتم الأنبياء والرسل مذكور في كتبهم وكانوا بانتظار بعثته، فكان المفروض أن يكونوا أول من يسارع إلى الإيمان به، ولكن بدلاً من ذلك أنكروه وتحالفوا مع المشركين ضدّه.

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (٨٢).

٨٢- ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ﴾ لأن اليهود يعتقدون أنهم مميّزون من غيرهم من البشر لظنهم أن الله اختصهم بالوحي دون غيرهم من الناس، وهم لذلك يصنّفون البشر قسمين: اليهود، والأغيار حسب تعبيرهم، والأغيار مَن ليسوا على دينهم، ويعتبرون دينهم عنصرياً لا ينبغي للأغيار الدخول فيه، ومن ثمّ كانت شدة عداوتهم لمن ليسوا على دينهم، فلم يدخل منهم في الإسلام منذ البعثة النبوية إلاّ القليل ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ المشركون أيضاً شديدو العداوة لمن يعتقد بالتوحيد، ومنهم المسيحية المنشقين عن النصارى وقد ابتدعوا تأليه المسيح وعقيدة الثالوث، وغيرهم ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ

آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ والمقصود بهم النصارى على ديانة المسيح فعلاً، وليس على ديانة بولس ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ الذين بقوا منهم على حقيقة النصرانية، ولا يخفرهم الغرور على التكبّر و الاعتقاد أن الدين قد ختم بهم، أو أنه مقتصر عليهم دون غيرهم من البشر.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٨٣).

٨٣- ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ لأنهم كانوا يترقبون بعثة النبي المنتظر خاتم الأنبياء والرسل المذكور في كتبهم (سفر يوحنا١/٢٠-٢١)، فلما جاءهم عرفوه وآمنوا بالوحي الذي نزل عليه، فكان من شأن أكثرية النصارى، من سكان بلاد الشام والعراق ومصر، أن دخلوا الإسلام طواعيةً بعد الفتوحات الإسلامية، وهذه الآية من قبيل الإعلام بالغيب إذ تنبأت بدخول النصارى في الإسلام ولّما تتحقق الفتوحات الإسلامية بعد ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي الشاهدين على الحق.

﴿وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ (٨٤).

٨٤- ﴿وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾ ليس هنالك مبرر لعدم الإيمان بعد أن جاءنا الحق، أو قد يكون المعنى: كيف نبقى على عدم الإيمان بالله وبالحق الذي جاءنا؟ وفي الوقت نفسه نطمع بدخول الجنة: ﴿وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾.

﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٨٥).

٨٥- ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا﴾ أثابهم الله بما اعتقدوا وآمنوا من الإسلام، بعد قولهم المشار إليه آنفاً ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ (٨٦).

٨٦- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ وهي آيات الله الدالّة على الوحدانية وعلى صدق نبوّة النبيّ ﷺ ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ كلّ فرد يُثاب ويُعاقب بحسب ما اختار من التصديق أو التكذيب.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (٨٧).

٨٧- بعد انتهاء الخطاب عن أهل الكتاب الذي استمر من الآية (١٢) حتى الآية (٨٦)، يعود الخطاب بهذه الآية (٨٧) وحتى الآية (١٠٨) إلى موضوع أول السورة عن العقود والطيبات والمحرمات:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ بعد أن ذكر تعالى إيمان القسيسين والرهبان من المتعمقين في النصرانية، ومَدَحهم بأنهم لا يستكبرون لأنّ الغرور لا يحفزهم على الاعتقاد أن الدين قد ختم بهم أو أنه مقتصر عليهم دون غيرهم من البشر ، ولمّا كان الرهبان قد اشتهروا بالتقشف والزهد ظنّاً منهم أنّ ذلك يقربهم إلى الله زلفى، ولكي لا يقع الناس في هذا الالتباس الذي وقع فيه بعض الزهّاد والمتصوّفة، نهى تعالى المؤمنين أن يحرّموا ما أحلّ الله من الطيبات ممّا تتمتع به وتستسيغه الفطرة السليمة المعتدلة، لأن الإسلام ينشد التوازن والاعتدال في متطلبات الروح والجسد، وينشد الوفاء في كل منهما، والمسلمون في ذلك أمة وسط، وقدوة للناس، انظر آية [البقرة: ١٤٣/٢]، ﴿وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ لا تعتدوا بتجاوز الطيبات الحلال إلى الخبائث المحرّمة، ومن جهة ثانية لا تعتدوا بالإسراف في التمتع بالطيبات واللذّات بحيث يكون ذلك أكبر همّكم.

﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ (٨٨).

٨٨- ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالاً طَيِّبًا﴾ كلوا من الحلال الذي لم يحرمه الله-كتحريم الميتة والدم ولحم الخنزير، الآية (٣)- وكلوا من المال الذي كسبتموه بالحلال، ولا تأكلوا من مال السحت كالربا أو الغصب أو السرقة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ فلا تحرّموا الحلال ولا تُحلّوا الحرام.

﴿ لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٨٩).

٨٩- علاقة الآية بما قبلها أنه لما كان بعض المُبالغين في النسك والزهد قد حلفوا على ترك بعض الطيبات بيّن لهم تعالى كفّارة الأيمان:

﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ اللغو هو الكلام الذي لا يُعتدّ به، كالحلف في أثناء الكلام دون قصد ولا عمد، فليس له كفّارة [البقرة: ٢/٢٢٥]، ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ﴾ أي بما صمّمتم عليه من اليمين عن قصد ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ الحنث باليمين العمد يوجب الكفّارة، والكفّارة صفة مبالغة من الكفر وهو في الأصل: الستر والتغطية، والكافر هو من يغطي الحقيقة و ينكرها، والكافر أيضاً بمعنى الليل المظلم، لأنه يستر ويغطي كل شيء، وهو أيضاً المزارع لأنه يغطي البذور بالتربة كما في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ [الحديد ٥٧/٢٠]، وهنالك أيضاً كفران النعمة أي تغطيتها بمعنى إنكارها وجحودها، فيكون معنى الكفّارة أنها تغطي الذنوب وتسترها حتى لا يكون لها أثر في الدنيا والآخرة، فالذي يريد أن يكفّر عقد اليمين عليه إطعام عشرة مساكين من متوسط ما يأكل أهله، أو كسوتهم، أو عتق رقبة

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ إن لم يستطع إطعام المساكين أو كسوتهم أو أن يعتق رقبة ﴿ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ وحنثتم باليمين العَمَد ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ حفظ الأيمان ذو ثلاثة وجوه: فمن جهة لا تكثروا من حلف الأيمان بلا مبرر، ومن جهة ثانية إذا حلفتم حافظوا على يمينكم ولا تحنثوا، ومن جهة ثالثة إذا حنثتم باليمين العَمَد فالتزموا بالكفّارة، وفي الحديث: «إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها، فكفّر عن يمينك، وأتِ الذي هو خير»، وأما اليمين الغموس فهي التي يحلف صاحبها وهو يعلم أنه كاذب، قاصداً الخيانة أو الغش أو أكل حقوق الآخرين، فلا يكفّرها شيء، بل لا بد من أداء الحقوق لقوله تعالى في أول السورة: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ ولا بدّ من التوبة والاستقامة، وفي الحديث الشريف: «من حلف على يمين، وهو فيها فاجر، يقتطع بها مال غيره، لقي الله وهو عليه غضبان»، ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ من الحكمة والتشريع ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي بأن أحلّكم من الأيمان المعقّدة فجعل لها كفّارة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٩٠).

٩٠- بعد أن نهى تعالى عن تحريم الطيبات، ومنعاً للالتباس بأن يعتبر البعض الخمر والميسر من الطيبات، فقد بيّن تعالى حرمتها بقوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ ومن حكمته تعالى أن جعلَ تحريم الخمر تدريجياً بسبب تعلق الناس بها في الجاهلية، فلو نزل التحريم مرة واحدة لكان صارفاً للكثيرين منهم عن الإسلام، وأول ما نزل من تحريم الخمر آية [البقرة: ٢/٢١٩] وهو تحريم ظنيّ كان متروكاً لاجتهاد المجتهدين، ثم نزل في آية [النساء: ٤/٤٣] وهو تحريم قطعي في الأوقات القريبة من الصلاة، ثم كان التحريم القطعي في كل الأوقات بهذه

الآية، والخمر ليس مقتصراً على المشروبات الكحولية بل كلّ ما شأنه أن يعطّل الفكر، وفي الحديث: «كلّ مسكر خمر، وكلّ خمر حرام».

وأمّا الميسر فهو القمار، والأنصاب هي الحجارة أو الأوثان التي نصبوها للعبادة، وكانوا يذبحون القرابين عندها ظنّاً منهم أنها تقربهم إلى الله تعالى، ويدخل في ذلك كل الممارسات الوثنية كتقديس الأضرحة والأولياء ودعاؤهم والاعتقاد بمقدرتهم.

والأزلام هي السهام كانوا يقترعون بها تفاؤلاً أو تشاؤماً كي يختاروا ما عليهم عمله، وكل هذه الأمور رجس، أي إنها عمل شيطاني مستقبح مادياً ومعنوياً.

﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ أي فاجتنبوا هذا الرجس، وقالوا إن الأمر بالاجتناب أبلغ من الأمر بالترك، لأنّ الاجتناب يفيد بالإضافة إلى الترك، البعد عن المتروك، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ [النجم: ٣٢/٥٣]، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وقد أضاف تعالى الفلاح لمن يجتنب هذه الأشياء.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (٩١).

٩١- ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ لأنه عندما يشمل المرء يفقد عقله وتستولي عليه الشهوة، ويسارع إليه الانفعال، وقد تحصل المشاحنة بينه وبين غيره، وكذلك في الميسر عندما يخسر ماله، فالخمر والميسر سببان من أسباب خراب النظام العائلي والمجتمع ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ﴾ لأنه في الحالتين يستغرق المرء فيما هو فيه من الشمالة أو الانهماك في الميسر ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ وهو استفهام يتضمن الأمر بالانتهاء، قال الزمخشري هو من أبلغ ما يُنهى به، لأنه تعالى عدّد ما ينطوي عليه الخمر والميسر من الرجس ومن عمل الشيطان، وقرنها بالأنصاب

والأزلام، وأنها تصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة، فيكون المعنى: ألا تنتهون عنها بعد أن عرفتم لها كل هذه المفاسد؟

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ (٩٢).

٩٢- ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أطيعوا الله تعالى فيما نهاكم عنه من الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، وأطيعوا الرسول فيما بيّنه لكم عن ذلك ﴿وَاحْذَرُوا﴾ مخالفة ما نُهيتم عنه لما فيها من سوء العاقبة لكم في الدنيا والآخرة ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ إن عصيتم ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ الحجّة قد صارت بيّنة عليكم، والرسول أدّى واجبه من البلاغ، ولن يكون هنالك إكراه، وإنّما يتحمل كل إنسان عاقبة خياره بعد أن صار على بيّنة من الأمر.

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٩٣).

٩٣- ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ أي من المُحرّمات عند الضرورة، كما في الآية(٣)، ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ لأن العبرة بالتقوى والإيمان والعمل الصالح والإحسان، وليست العبرة بمجرّد الامتناع الشكلي عن المحرّمات من طعام وشراب فقط ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا﴾ المقصود مداومتهم على التقوى والإيمان والإحسان ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾،

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٩٤)

٩٤- هذه الآية استمرار لبيان المحرّمات، وهي أيضاً عودة بالخطاب إلى تحريم الصيد خلال الإحرام (الآية ١)، والإعادة هنا لبيان الجزاء:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ أي إن الله تعالى يختبر طاعتكم من معصيتكم، في أثناء إحرامكم، بأن يجعل الصيد في متناول أيديكم وأسلحتكم فيكون وفيراً سهل الأخذ ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ ليُظهرَ تعالى الذين يخافونه ﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ من اعتدى بالصيد خلال الإحرام، بعد هذا البيان، يلقى عاقبة عمله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ (٩٥).

٩٥- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ واتفقوا أنه لا يدخل في ذلك الحيوانات المؤذية أو الضارة أو الضارية ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ الجزاء لمن قتل الصيد متعمداً أن يذبح من النَّعم، في المنطقة الحرام-وهو المقصود بالكعبة- ما يكافئ الصيد ويتصدق بلحومه على الفقراء، ويحكم ذوا عدل بتحديد الأضحية المكافئة ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ﴾ لمن كان فقيراً لا يستطيع شراء النعم المكافئ للصيد ﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ لمن كان فقره لا يسمح له بإطعام المساكين ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ فيتحمل عاقبة عمله، وهذا الجزاء أو الكفارة هو عن الصيد العمَد في المرة الأولى، لأنه قد يكون بسبب الجهل بالتحريم، أو بسبب النسيان ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ في المرة الأولى، فالكفارة في الدنيا تمنع عقاب الآخرة ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ في حال الصيد العمد مع التكرار والإصرار، فيستحق صاحبُه عقاب الدنيا والآخرة.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٩٦).

٩٦- ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ﴾ تتمتعون به ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ السيّارة بهذا المعنى هم المُحرمون بدليل تتمة الآية، والمعنى أن صيد البحر وطعامه حلال للمُحرم وغير المُحرم ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ بالنسبة إلى المُحرم اقتصر التحريم على صيد البر فقط ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فتحاسبون على عملكم.

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٩٧).

٩٧- ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾ تقوم بها حياتهم الروحية والاقتصادية والاجتماعية، فهي فائدة لهم في دينهم ودنياهم ﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ ينعمون بالأمن خلال الشهور الحُرم، وفي الحَرم على مدار العام، والمقصود بالناس عرب الجزيرة، فقد كان اجتماعهم في الحرم كلّ عام سبباً لتقاربهم ولنشوء العلاقات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والتهادن بينهم، والشهر الحرام اسم جنس للأشهر الحُرُم الأربعة ذي القعدة وذي الحجة والمحرم ورجب، وقد تواطأت العرب على تحريم القتال فيها، فيهادن بعضها بعضاً على ما قد يكون بينهم من خصومات، يلتقون ويحجّون ويعتمرون ويتاجرون، فيأمن الناس بعضهم بعضا خلال هذه الأشهر كما يأمنون في الحرم، انظر آية العنكبوت ٢٩/٦٧.

﴿وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ﴾ القلائد كانوا يعلقونها في رقبة الأنعام المهداة إلى الكعبة يعرفها الناس بقلائدها فتمر بسلام مع القوافل، وتُنحر في الحَرم، وتُوزّع لحومها على الفقراء، وتقدير الخطاب: والشهر الحرام والهدي والقلائد أيضاً جعلناها قياماً للناس، فهي معطوفة على البيت الحرام.

﴿ذَلِكَ﴾ الإشارة إلى نعمه تعالى من جعل الحرم آمناً، زماناً ومكاناً، حتى الصيد حرّمه تعالى على المُحرمين ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أي هذه النِعم من جعل الحرم آمناً، زماناً ومكاناً، وفوائده المذكورة، دليل على علمه تعالى بخفايا الأمور وبمصالح عباده، فقد ألقى في قلوب العرب من التعظيم والمهابة للحَرَم وللأشهر الحُرُم بما يقوم من معايشهم ومصالحهم، رغم ما كانوا عليه من طباع الغلظة والحروب الأهلية وحب الاقتتال والإغارة والغزو والسلب والنهب، ولولا هذه الهدنة السنوية التي تمتد على الثلث من كل عام لاستمر اقتتالهم على مدار العام دون هوادة، ولانهارت أوضاعهم الاقتصادية والمعيشية إلى الحضيض، فمن عِلمه تعالى بحالهم أن منَّ عليهم بالحرم والأشهر الحرم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ بالدقائق والتفاصيل والخفايا.

﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٩٨).

٩٨- بعد أن ذكر تعالى من أنواع رحمته بالناس، بيّن هنا أنه شديد العقاب لمن عصاه ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن انتهك المحارم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن حافظ عليها.

﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ (٩٩).

٩٩- ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ أي إن مهمة الرسول -وبالتالي مهمة كل مسلم كفو- محصورة في البلاغ، ويتحمل الناس مسؤولية أعمالهم، انظر آية [فصلت: ٤٦/٤١]، وحسابهم من ثواب وعقاب على الله ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ محيط بعلانيتكم ونواياكم فيحاسبكم على أعمالكم.

﴿ قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١٠٠).

١٠٠- قال الرازي: بعد أن زجر تعالى عن المعصية، ورغّب في الطاعة (الآية٩٨)، ثم أتبع ذلك بالتكليف، وبأن ما على الرسول إلا البلاغ، وأنه

يحاسب الناس بأعمالهم ولا يخفى عليه شيء منها (الآية٩٩)، أتبع ذلك بإرشاد الناس أن الخبيث والطيب لا يستويان:

﴿قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ أي لا يغرّنك أيها السامع كثرة الخبيث، لدى الكثير من الناس، من المال الحرام والسحت، ومن الربا والرشوة والغلول والخيانة وأكل مال الآخرين بلا حق، والجاه الزائف والزعامات الزائلة التي تقوم على الظلم أو الضلال، وظنّ البعض أنّ ذلك دليل على رضا الله عن أصحابها، فلا يغرّنك كل ذلك، لأن عاقبة الخبيث وإن كثر ليست كعاقبة الطيّب من المال الحلال والأعمال الصالحة ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تفكّروا في ذلك يا أصحاب العقول الراجحة لتتقوا سوء العاقبة في الدنيا والآخرة.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (١٠١).

١٠١- هذه الآية تُقرأ مع قوله تعالى: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ (٩٩)، فالرسول قد أدى ما عليه من وظيفة البلاغ الذي كَمُل به الإسلام، لقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ (٣):

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ لا ينبغي للمؤمنين الإكثار من الأسئلة عن الأحكام الشرعية ودقائق التكاليف ممّا لم يتنزّل به الوحي و لم يُخبر عنه الرسول، لئلاّ يكون ذلك سبباً لزيادة التكاليف وتشديدها فيشقّ على الأمّة احتمالها، والأَوْلى بالعاقل أن يسكت عمّا لا تكليف فيه، لأنّ الله تعالى أعلم بمصالح العباد من أنفسهم ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ إن تسألوا عن أشياء نزل بها القرآن و لم تفهموها فالرسول بيديها لكم ويبيّنها لكم، وإن تسألوا عن أمور لم ينزّلها القرآن، فإنّ بيانها قد يسدّ في وجوهكم باب الاجتهاد الذي فوّضه تعالى إليكم، وقد يقيّدكم بقيود

أنتم في غنى عنها، وفي الحديث: «أعظم المسلمين جُرماً من سأل عن شيء لم يُحرّم فحُرّم من أجل مسألته»، ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ من قبيل العفو لم يذكر تعالى هذه الأمور في كتابه، فاسكتوا عنها، وفي الحديث: «لا تشدّدوا على أنفسكم فيُشدّد عليكم، فإن قوماً شدّدوا على أنفسهم فشدد الله عليهم»، وفي الحديث أيضاً أن النبي ﷺ خطب الناس فقال: «أيها الناس إن الله قد فرض عليكم الحج فحجّوا، فقال رجل: أكلّ عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً، فقال ﷺ: لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم، ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه»، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل الناس بالعقوبة، بل يترك لهم فرصة التوبة.

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ (١٠٢).

١٠٢- ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ الذين أكثروا السؤال عن تفصيل الأحكام التشريعية من الأمم قبلكم لم يعملوا بما ظهر لهم منها، بل تركوها استثقالاً لها، والخطاب عن الأمور الدينية المحضة، وأما المصالح المدنية والسياسية والحربية فهي شورى.

وقد كتب الشيخ محمد رشيد رضا في تفسير المنار ما يلي: «العبرة من هذه الآية أن كثيراً من الفقهاء وسّعوا بأقيستهم دائرة التكاليف، وأكثروا من استنباط الفروع الكثيرة في العبادات والمعاملات، وانتهوا بها إلى العسر وإلى الحرج المرفوع بالنص القاطع، وقد افتتنت بعض الجماهير بالكتب الفقهية الملأى بالفروع التي نهى الشرع عن الخوض فيها، وأجمع السلف على ذم الاشتغال بها، ثم جمُدت بعض الجماهير على التقليد، فكان أن تركت جماهير أخرى من المسلمين -وحكوماتهم- الشريعة جملةً، وفُتحت لهم أبواب انتقادها والاعتراض عليها، مع أن كل ما في الفقه من التشديد والتقييد هو من اجتهاد الفقهاء، ولا سيّما المصنّفين منهم الذين جاؤوا بعد الصحابة والتابعين».

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ (١٠٣).

١٠٣- ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ﴾ وهي أربعة أنواع من البهائم كانوا في الجاهلية يحرّمونها على أنفسهم ويتركونها لطواغيتهم، فالبحيرة هي الناقة إذا أنتجت خمسة أبطن آخرها ذكر، كانوا يشقّون أذنها ثم يمتنعون من الانتفاع بها ويتركونها لآلهتهم بزعمهم، والسائبة بمنزلة البحيرة وهي البهيمة يسيبونها أي يتركونها لأصنامهم، والوصيلة هي الشاة التي تصل أنثى بأنثى في الولادة ثم بعد سبعة أبطن يحرمون على أنفسهم الانتفاع بها، والحامي فحل الإبل يتركونه بعد عشر سنين، وقال المفسرون نحو ذلك في شرح هذه الأنواع الأربعة.

ومعنى الآية أنّ الله تعالى لم يشرّع لهم تحريم هذه البهائم، وهو استمرار الخطاب من الآيات السابقة، فبعد أن نهى تعالى عن تحريم الحلال، ونهى المؤمنين أن يكونوا، بكثرة أسئلتهم، سبباً في تحريم شيء لم يكن محرّماً من قبل، ضرب لهم مثلاً في هذه الآية عن ضلال الناس في الجاهلية إذ حرّموا ما لم يحرّمه الله ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ لأنهم كانوا ينسبون التحريم إلى الله تعالى، ولو بشكل غير مباشر، إذ يقولون ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٨/٦]، وهم بقولهم هذا كأنهم يدّعون الجبر مع أنه تعالى أعطى الإنسان حرية الخيار، فعدم إجباره لهم على الفعل أو الترك ليس دليلاً على رضاه تعالى عمّا اختاروه لأنفسهم من الضلال،

﴿وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ لا يستخدمون العقل -بل يتّبعون التقليد كما سيرد في الآية التالية-، والآية وإن كانت خاصة في ممارسات الجاهلية إلاّ أن مغزاها عام ينطبق على كل الناس في كل العصور، فقد يزعم البعض أنهم يتقربون إلى

الله تعالى بأعمال وممارسات ابتدعوها ما أنزل الله بها سلطاناً، في حين أنه تعالى لا يُعبد إلاّ بما شرعه في القرآن أو على لسان رسوله ﷺ فلا عبادة ولا تحريم إلاّ بنص، وليس لأحد أن يزيد أو ينقص في العبادات أو في التحريم.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ (١٠٤).

١٠٤- استمرار الخطاب من الآية السابقة بأن أكثرهم لا يستخدمون العقل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ هم ملتزمون بتقليد آبائهم، ومغزى الآية واضح في النهي عن التقليد الأعمى، ووجوب إعمال الفكر واستخدام ملكة العقل، وقد وردت آية مشابهة لها في سورة البقرة [البقرة: ١٧٠/٢]، ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾ أي هل يغني تقليد الآباء والأجداد عن اتّباع الحق؟ حتى لو كان الآباء والأجداد لا يعلمون شيئا من الحقيقة ولا يهتدون إليها؟

وقد ذكر الشوكاني في كتابه (إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول) ما يلي: اختلفوا في المسائل الشرعية الفرعية: هل يجوز التقليد فيها أم لا؟ فذهب جماعة من أهل العلم أنه لا يجوز مطلقاً، قال القرافي: مذهب مالك وجمهور العلماء وجوب الاجتهاد وإبطال التقليد، وادعى ابن حزم الإجماع على النهي عن التقليد، ونقل عن مالك قولَه: «أنا بشر أخطئ وأصيب فانظروا في رأيي، فما وافق الكتاب والسنة فخذوه، وما لم يوافق فاتركوه»، وبهذا نعلم أن منع التقليد مذهب الجمهور، ولا خلاف أن رأي المجتهد، عند عدم الدليل، إنما هو رخصة له، يجوز له العمل بها، ولا يجوز لغيره أن يعمل بها بأي حال، ولذلك نهى كبار الأئمة عن تقليدهم وتقليد غيرهم، ومن زَعَم أنه يجب على الناس التمسك برأي المجتهد والعمل به فقد جعل هذا المجتهد صاحب شرع، ولم يجعل الله ذلك لأحد من الأمة بعد النبي ﷺ، وأما سؤال الجاهل للعالم فيما

يعرض له من مسائل فهو سؤال عن الشرع، وليس سؤالاً عن رأي خاص أو اجتهاد محض، (المنار).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١٠٥) .

١٠٥- استمرار الخطاب لما قبله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ أي لا عليكم أيها المؤمنون من هؤلاء المقلّدين- المذكورين في الآية السابقة- إذا قمتم بواجباتكم من العبادات والعمل، وقمتم بواجبكم في الدعوة إلى الإسلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا تؤاخذون بضلال غيركم، حتى لو أصر الآخرون على المعصية، وليس عليكم إكراه الآخرين على الهدى ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ مصيركم إلى الله أنتم ومن خالفكم ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيجازي كل إنسان بعمله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الآثِمِينَ ﴾ (١٠٦).

١٠٦- انتقال الخطاب إلى التشريع: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ أي شهادة ما بينكم من المنازعة أو الخصومة التي قد تنشأ عن الوصية ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ إذا شارف أحدكم على الموت، بظهور إمارات قربه من الموت، كالعجز أو المرض أو غيره ﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ يشهد على وصيته اثنان من الشهود العدول أي المعروفين بالعدل والاستقامة، وهذا المعنى دليل على وجوب الوصية وتأكيد أهميتها، انظر آية [البقرة: ١٨٠/٢]، وضرورة الإشهاد عليها، وقوله تعالى: ﴿مِّنكُمْ﴾ معناه شاهدان من دينكم ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من غير دينكم، إذا كان أحدكم على سفر ولم يجد

شاهدين مسلمين ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ﴾ كنتم على سفر ﴿فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ شارف أحدكم على الموت بالمرض أو غيره ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ ارْتَبْتُمْ﴾ إن كان لديكم شك في شهادة الشاهدين فتوقفوهما بعد الصلاة حتى يُقسمان على صحة ما شهدا به ﴿لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ وهو فحوى قسم الشاهدين ومعناه: لا نشتري بيمين الله ثمناً دنيوياً، ولو كان المستفيد من أقاربنا ﴿وَلا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الآثِمِينَ﴾ وهو تتمة قَسَم الشاهدين، أي لا يكتمان الشهادة التي أمر الله أن تُذكر على حقيقتها، فهما يشهدان على نفسيهما بالإثم إن قالا زوراً، وهذه العبارة نظير قوله تعالى: ﴿وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢/٢٨٣].

﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٠٧).

١٠٧- ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ لأنّ الإثم يترتب على شهادة الزور، فإن ظهر لدى أولياء الميت كذب الشاهدين بعد أن أقسما ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ بدلاً ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ﴾ الأوليان الشاهدان اللذان حلفا اليمين أولاً، استحقّ عليهم الإثم فتُردّ أيمانهم لأنهما استحقّا أموال المتوفّى ظلماً، فيقوم مقامهما اثنان من أولياء الميت أو ورثته يقسمان بردّ يمين الشاهدين ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾ وهو مضمون اليمين الثانية بأن يمين الشاهدين باطلة، وبأنهما كاذبان، وبأن الميت ما كان ليوصي بذلك، فيردّان بأيمانهما اليمينَ الأولى، ويشهدان على أنفسهما بعدم الظلم والتعدّي: ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (١٠٨).

١٠٨- ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا﴾ ذلك أقرب أن يأتوا بالشهادة على وجهها الصحيح، لأنه إذا علم الشاهدان سلفاً احتمال ردّ كذبهما، بيمين أولياء الميت، كانا أحرص على قول الحقيقة ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ في هذه الحالة يخافان أن تُردّ الأيمان التي يحلفوها، بأيمان أولياء الميت، والضمير في ﴿أَيْمَانِهِمْ﴾ عائد إلى أولياء الميت ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ اتقوا معصية الله واستجيبوا له طواعيةً، لأن سنته تعالى قد مضت بأن الهداية تكون بحرية الاختيار، وأنه تعالى لا يقسر العصاة على الهداية، وشبيه به قوله تعالى: ﴿وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ (٩٢).

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلامُ الْغُيُوبِ﴾ (١٠٩).

١٠٩- بعد أن فصّلت الآيات (١-١١) والآيات (٨٧-١٠٨) مواضيع العقود والطيبات والمحرمات والأحكام، كما بيّنت الآيات (١٢-٨٦) أحوال أهل الكتاب، وعدم استجابتهم للوحي، وهيمنة القرآن على كتبهم، تختم السورة بشهادة الرسل عليهم، وبالذات شهادة عيسى المسيح عليه السلام:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلامُ الْغُيُوبِ﴾ المغزى أن الناس سوف يُحاسبون بحسب استجابتهم للرسل، فما على الرسل إلاّ البلاغ، والحساب على الله وحده، وأن الإحاطة بالعلوم من الظاهر والباطن والغيب خاص بعلاّم الغيوب، وذلك مغزى قول الرسل: ﴿لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلامُ الْغُيُوبِ﴾، ونظيره الآية (١١٧)، ومن مغزى الآية أيضاً توبيخ الكفار بسؤال الرسل عن استجابة الكفرة لهم، لأن الرسالة وصلتهم فلم يستجيبوا.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي

وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (١١٠).

١١٠- ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ انظر التأييد بروح القدس أيضاً في آية [البقرة: ٨٧/٢]، وقيل إنّ روح القدس هو جبريل عليه السلام، الروح جبريل، والقدس هو الله تعالى، كأنه أضافه تعالى إلى نفسه تعظيماً له ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً﴾ كلام عيسى في المهد هو قوله ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم ٣٠/١٩]، ثمّ تكلم في الكهولة بما نزل عليه من الوحي بعد بعثه نبياً، والمعنى أن كلامه في المهد وفي الكهولة كلاهما معجز.

﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾ تقدير الخطاب: علّمتك الكتاب بما اشتمل من الحكمة والتوراة والإنجيل، لأن المقصود بالكتاب جنس الكتب التي نزلت على الأنبياء، والحكمة هي العلم الصحيح الذي يبعث على العمل النافع، وقد بُعث عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل خاصة فأُوتي الفقه في التوراة، والإنجيل الوحي الذي نزل عليه ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ وردت هذه المعجزة أيضاً في آية [آل عمران: ٤٩/٣] ﴿وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ الأكمه المولود أعمى ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ ويلاحظ تكرار كلمة بإذني، للتأكيد على أن ذلك يتم بقدرته تعالى، وليس بمقدرة عيسى عليه السلام ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بعد أن جئتَ بني إسرائيل بالبينات من الوحي، ومن المعجزات الحسية التي اعتاد بنو إسرائيل وقوعها منذ بعثة موسى عليه السلام، فمنعتُهم من الوصول إليك بأذى ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ فسّروا معجزات عيسى بالسحر، بسبب تصميمهم على الكفر وانغلاق فكرهم سلفاً.

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ (١١١).

١١١- ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ المعنى أنه تعالى ألهم الحواريين أن يؤمنوا بالمسيح بعدما طلبوا منه معجزة خارقة، وهي إنزال مائدة من السماء-الآية التالية- وذلك من تتمة نعمه تعالى على عيسى عليه السلام المذكورة في الآية السابقة، والإيحاء إلى الحواريين بمعنى الإلهام كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨/١٦]، والحواريون مفردها حواري وهو من خلُص لصاحبه، وأصله في اللغة الأبيض خالص النقاء والبياض.

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١١٢).

١١٢- ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ هذا السؤال من الحواريين لعيسى عليه السلام يبيّن بوضوح إيمان الحواريين بأن عيسى بمجرد بشر، وأن عيسى نفسه لم يدّع غير ذلك، وأن لم تكن عنده أي مقدرة على عمل الخوارق من تلقاء نفسه، وأن الخوارق إذا حصلت فمن الله ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي كيف تطلبون المعجزات الخارقة، وأنتم مؤمنون؟ والمغزى أن المؤمن يجب أن يتقي عاقبة مثل هذا الطلب، لأنه بعد نزول المعجزة الخارقة يتضاءل ثواب الإيمان بالغيب، أو ينتفي بالكامل، فمن جهة، يكون نزول المعجزة نوعاً من الإجبار على الإيمان، ولا يليق ذلك إلاّ بمن هم في طفولة عقلية-كمثل بني إسرائيل- إذ فشلوا في استخدام ملكاتهم العقلية للوصول إلى الإيمان، ومن جهة ثانية قد يتعرض طالب المعجزة للعقاب الشديد لأقل هفوة يرتكبها بعد أن يكون قد لمس خوارق الإعجاز لمس اليد، فلم يعد لديه عذر في المعصية والانحراف عن الطريق السوي.

﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (١١٣).

١١٣- ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ وهو شبيه بقول إبراهيم عليه السلام (وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢/٢٦٠]، ﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ نريد أن نضيف إلى إيماننا بالغيب علم مشاهدة المعجزة رأي العين.

﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (١١٤).

١١٤- ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ استجاب عيسى عليه السلام لطلب الحواريين، فدعا ربّه بأن تكون هذه المعجزة الخارقة عيداً للفرح والسرور والعبادة، عيداً خاصاً بالمؤمنين أوّلهم الحواريون، وآخرهم كل من آمن بعدهم على مرّ الزمن ﴿وَآيَةً مِنْكَ﴾ أي تكون علامة منه تعالى لكي يزداد الحواريون طمأنينة ﴿وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ دعاء بطلب الرزق عامة، المادي منه، وغير المادي.

﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (١١٥).

١١٥- ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ ليس في الآية ما يفيد أن المعجزة التي طلبها الحواريون قد حدثت بالفعل، ولذا اختلف المفسّرون فمنهم من قال إن الحواريين تراجعوا عن طلبهم بعد هذا الوعيد الشديد، ومنهم من قال بنزول المائدة فعلاً، والذي يؤيد أن المائدة لم تنزل قولُه تعالى في معرض تعداد نعمه على عيسى ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ أي آمنوا إطلاقاً بلا معجزة خارقة ﴿قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ (١١١)، وقد ذكروا أن المائدة بلغة العرب معناها عطيّة، وهي أيضاً مُعطية، والعرب تقول

مادني فلان أي أحسن إليّ (الرازي)، فإذا أخذنا بالاعتبار أنّ لفظ ﴿مُنَزِّلُهَا﴾ بالتشديد-كما هي قراءة الجمهور- ممّا يفيد التكرار والكثرة، فيحتمل المعنى أنه تعالى أجابهم بأنّه ينزّل الرزق على عباده دوماً وباستمرار، سواء كان رزقاً مادياً كالطعام والشراب، أو رزقاً معنوياً كالوحي الذي يتنزّل على جملة الأنبياء والرسل، وهذه كلّها دلائل عقلانية كافية بحد ذاتها، لغير المُكابر ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ فمن يكفر بعد ذلك بالوحي الذي يتنزّل على الأنبياء والرسل، أو يكفر بِنعَمَهُ تعالى التي لا تحصى من طعام وشراب وغيره، فهو معرّض لعذاب شديد لا يتعرّض لمثله أحد غيره.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (١١٦).

١١٦- ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ وهو خطابه تعالى لعيسى يوم يجمع الله الرسل (الآية ١٠٩) أو بعد رفعه كما سيرد في (الآية ١١٧).

﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي معبودين كائنين من دون الله، سواء كانت هذه العبادة على اعتقاد الألوهية بعيسى ووالدته، أو على اعتقاد وساطتهما عند الله، لقوله تعالى على لسان المشركين ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣/٣٩]، وهذا الاستفهام منه تعالى لتثبيت النفي والإنكار ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ بدأ عيسى جوابه بالتسبيح، تنزيها لله تعالى عما لا يليق به من الشرك، وأضاف أن لم يكن له أدنى حق أن يقول ما قالت المسيحية عنه ﴿ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ فوّض عيسى الجواب بالكلّية إلى علم الله تعالى المحيط بكل شيء، وذلك مبالغةً منه في إظهار الأدب، كي لا يقول: كلا لم أقله ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ أي تعلم ما في غيبي، ولا أعلم ما عندك من

الغيب ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ المغزى أن عيسى لم يسمع بادعاء الألوهية له ولوالدته أثناء وجوده على الأرض، وأن المسيحية ابتكرت هذا الاختلاق بعد رفع المسيح، وأن علاّم الغيوب يعلم ذلك، في حين لم يعلمه عيسى، بدليل تتمة الخطاب بالآية (١١٧).

والملاحظ أنه لا يوجد في الكتاب المقدس The Bible عند النصارى أي إشارة إلى تأليه أو تقديس السيدة مريم، كما أنه خلال ثلاثة قرون بعد المسيح كانت فكرة تأليه أو تقديس السيدة مريم غريبة على المعتقد المسيحي، ولكن نحو نهاية القرن الثالث الميلادي بدأ رجال الكهنوت في الإسكندرية يستخدمون تعبير- والدة الإله- كناية عن مريم، ومن ثم بدأت تنتشر فكرة تقديسها، رغم أن الكنيسة في ذلك الوقت كانت تصم بالهرطقة كل من ينسب أي طابع قدسي أو إلهي للسيدة مريم، واستمر الأمر على هذا النحو حتى انعقاد المجمع الكنسي في إفسس Ephesus -غرب تركية- عام ٤٣١م حيث تقرر رسمياً إضفاء لقب- والدة الإله- على السيدة مريم، وبعدها انتشرت فكرة تقديسها لدى الكنائس حتى طغت أحياناً على-الأب- فكثرت تماثيلها وصاروا يصلّون لها، واعتقدوا أنها تستجيب لدعائهم وتهبّ لنجدتهم ومساعدتهم، وقد أعلن الإمبراطور جستينيان في مقدمة دستوره أن مريم هي حامية الإمبراطورية، وكان قواده يطلبون معونتها في ساحات القتال، وكان هرقل الذي عاصر النبي ﷺ يرفع صورة السيدة مريم على رايته، وكان واثقاً أنه لن يخذل ما استعان بها، ولكن البروتستنت -في حركة الإصلاح الديني- نبذوا فكرة عبادة مريم أو تقديسها، في حين أن الكاثوليك استمروا في هذا المعتقد إلى اليوم-

يقول البروفسور روبرت فنك-مؤلف كتاب «الأسفار الخمسة» The five Gospels ومؤسس «ندوة عيسى» الشهيرة - يقول في كتابه «الأمانة تجاه عيسى Honest to Jesus, Harper, San Francisco ١٩٩٦»:

أنظر حولي وأشعر بالأسى على الذين استعبدتهم شخصية مسيح مبتكرة فُرضت عليهم بنتيجة تراث ضيق وصارم (ص١٩)، نحن نسعى للتوصل إلى إنجيل عيسى ذاته، نبحث عن المسيحية الحقيقية في شكلها البسيط النقي (ص٢٠)، نسعى إلى تحرير المسيح من القيود التي فُرضت على شخصه، وعندئذ قد نكتشف المسيح الذي ينسف مفاهيمنا المتوارثة، ثم نقع في حرج ممّا اكتشفناه، وممّا نحن عليه الآن من العقائد، فلو أطلقنا المسيح من زنزانة عقائدنا الحالية فقد يحتج على الألقاب التي ألصقناها به، وعلى الكنيسة التي أسّسناها باسمه، ويحتج على البابا ورجال الدين والوعّاظ، ويُحتمل حينئذ أننا لن نقبل بالمسيح الحقيقي في نطاق مسيحيتنا الحالية (ص٢٢)، إن المسيحية الحالية لم تبدأ بعيسى، وهو لم يكن المسيحي الأول، فعندما نتكلم عن مؤسس المسيحية الحالية يجب أن نلتفت إلى بولس، لقد رأى بولس، اليهودي المثقف الذي لم يلتقِ عيسى قط، رأى في شخص عيسى الإله المخلّص من الطراز الهلنستي الأسطوري، الإله الذي يموت ثم ينهض من الموت، لقد رفعوا عيسى تدريجياً خلال القرنين الثاني والثالث الميلادي إلى مرتبة الألوهية، إلى أن بدأت المسيحية تأخذ شكلها المحدد بقرارات إمبراطورية وكنسية (ص٣١-٣٥)، إنها عقلية العالَم الروماني/اليوناني في ذلك الوقت، فبالنسبة للثقافة اليونانية كانت عقيدة الآلهة المتعددة وحكاياتها الأسطورية مرافقة للحياة اليومية، وفي ذلك الوسط نشأت المسيحية الهلنستية، لقد تحوّل عيسى محطّم الرموز إلى مجرّد رمز (ص٤٤).

﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (١١٧).

١١٧- ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ وهي رسالة التوحيد خالية من الشرك ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ فقط

﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ أي استوفيت مدة بقائي على الأرض ﴿كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ المعنى أنه تعالى وحده الرقيب على عباده، في حين أن مهمة الرسل هي البلاغ فقط.

﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١١٨).

١١٨- ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ إقرار من عيسى عليه السلام بأنه لا يملك لمن عبدوه في الحياة الدنيا ضرّاً ولا نفعاً، وأن الحساب على الله وحده.

﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (١١٩).

١١٩- ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ قال الله بصيغة الماضي، والمقصود المستقبل، لتأكيد أنّ ذلك واقع لا محالة، فكأنه وقع فعلاً، واليوم المشار إليه هو يوم القيامة، حيث لا ينجو فيه إلاّ من كان صادقاً مع نفسه في الحياة الدنيا ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ثواب الصادقين.

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١٢٠).

١٢٠- ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ أي له وحده، دون غيره، ممّن اتخذوهم آلهة للعبادة ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيحاسب العباد بأعمالهم يوم القيامة.

* * *

سورة الأنعام -٦-

مكية

مقدمة

نزلت هذه السورة في أواخر فترة إقامة النبي ﷺ في مكة، وعلى الأغلب في السنة الأخيرة التي سبقت هجرته إلى المدينة، بعد أن كان قد أمضى حوالي اثني عشر عاماً وهو يدعو الناس إلى الإسلام في مكة، وقد اشتق اسم السورة من الإشارة في الآية (١٣٦)، والآيات التي تليها، إلى عادة مشركي العرب في الجاهلية تكريس بعض الأنعام لأصنامهم، والتوسل بها إلى الله تعالى، وهذا المغزى غير مقتصر على مشركي الجاهلية، بل فيه إشارة إلى ميل بعض البشر، في كل العصور، إلى التوسل بأموات وبأضرحة، وإلى إسباغ قدرات شبه إلهية على مخلوقات ومعبودات وأولياء، وتكريس الذبائح لها، وأحياناً طاعة بعض المخلوقات في الباطل وفي التشريع والتحليل والتحريم.

ارتباط السورة بما قبلها

اختتمت سورة المائدة بالإشارة لشرك النصارى وتأليههم عيسى المسيح وأمّه، ثم افتتحت سورة الأنعام بقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ٦/١]، إذ رغم المعجزات الباهرة من خلق السماوات والأرض، وجعل الظلمات والنور، فالكفار يعدلون بالله غيره، أي يجعلون غيره عدلاً له مساوياً له في العبادة.

وفي سورة المائدة أن القرآن الكريم يصدّق فقط ما تبقى من الوحي الصحيح في كتب اليهود والنصارى ويهيمن عليها فيغربل الصحيح منها من الزائف: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨/٥]، وفي هذه السورة أن لا شيء أكبر من شهادة القرآن: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٩/٦]، وأن رسالته عالمية للناس كافة: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢/٦]، مما يوجب اتباعه لكثرة خيراته: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥/٦].

وفي سورة المائدة أن اليهود يحرفون التوراة: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ٤١/٥]، وفي سورة الأنعام أنهم جعلوا التوراة مجرد أوراق يتلاعبون بها: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١/٦].

وقد فصّلت سورة المائدة في الآيات [١٢/٥-٨٦] والآيات [١١٠/٥-١٢٠] بعض أحوال أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ثم تشير هذه السورة إليهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩/٦].

محور سورة الأنعام

إن الله تعالى كتب على نفسه الرحمة في الخلق، ولكن فريقاً خسروا أنفسهم بالتهالك على الحياة الدنيا، فهم لذلك لا يؤمنون: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ

الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٢)، وإن أهل الكتاب يعرفون النبي محمد ﷺ -الموصوف في كتبهم- كما يعرفون أبناءهم، ولكنهم خسروا أنفسهم بسبب خوفهم فوات الزعامة والمكاسب الدنيوية: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٠)،

وتضرب مثالاً ببعثة إبراهيم، عليه السلام، وطريقة حواره مع قومه وتسلسل النبوات من بعده، وأنه تعالى يوكل بالرسالة من الأمم، على مرّ العصور، من هي جديرة بحملها: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ (٨٩).

وأن المطلوب من الإنسان الإيمان باستخدام العقل والدلائل: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٠٩).

وأنّ من سنن الاجتماع البشري أن يصبح بعض المجرمين أكابرَ في بعض المجتمعات، بحيث يكون إجرامهم سبب كونهم أكابرَ، أي يبلغون مراتب الزعامة بالمكر والخداع والغدر: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٢٣)، وأنه تعالى لا يهلك المجتمعات الظالمة ولا يعاقبها على ظلمها قبل أن يبعث الرسل ويبين الحق من الباطل: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ (١٣١).

وإن القول بالجبرية باطل، وعلم الله القديم هو من صفات الألوهية، ولا يناقض الحرية التي منحها تعالى للبشر: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاّ تَخْرُصُونَ﴾ (١٤٨)، وأن مجرّد الإيمان بلا عمل صالح لا ينفع صاحبه: ﴿هَلْ

يَنظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ (١٥٨)، وأن مسؤولية كلّ مكلّف من الناس متناسبة مع ما آتاه الله من درجات العلم والعقل والرزق والزعامة والجاه: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٦٥).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ (١).

١ - ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ العبارة مذكورة بصيغة الخبر، فهي تفيد أنه تعالى مستحق الحمد سواء حمده حامد أم لم يحمد، وهي أيضاً تنحو منحى الأمر ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ السماوات بصيغة الجمع لأنها إشارة إلى الكون بكامله شاملاً بلايين المجرّات والنجوم والكواكب ممّا لا حصر له، والأرض بصيغة المفرد وهي الكرة الأرضية التي نعيش عليها، ولا يمنع ذلك أنّ الأرضين كثيرة بدليل قوله تعالى: ﴿ومن الأرض مثلهن﴾ [الطلاق ٦٥/١٢]، وسبب ذكرها بالمفرد لأن باقي الأرضين مشمولة في تعبير السماوات ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ وتحتمل معنيين الأول على ظاهره، والثاني مجازي بدليل الآية (١٢٢)، فالظلمات قد تكون كناية عن ظلمات الجهل والهوى والشرك والنفاق والضلال والكفر، والنور قد يكون كناية عن نور الهداية والإيمان، وقد وردت الظلمات بصيغة الجمع، والنور بصيغة المفرد، لأن الباطل كثير والحق واحد، ويُرجّح المعنى المجازي لأن موضوع السورة بأكملها يدور حول الهداية والضلال ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي رغم هذه المعجزات الباهرة من خلق السماوات والأرض، وجعل الظلمات والنور، فإن الكفار يعدلون بالله غيره، أي يجعلون

غيره عدلاً له مساوياً له في العبادة، -وفي هذه الحالة يكون تعلق الجار والمجرور بفعل يعدلون، أي يعدلون بربهم.

ومعنى يعدلون أيضاً ينحرفون، فيضلّون عن الحق - فيكون تعلق الجار والمجرور بفعل كفروا-، ومغزى الآية تأكيد لحقيقة التوحيد لأن الله وحده-لا شريك له- خالق السماوات والأرض، وجاعل الظلمات والنور.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ (٢).

٢- ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ قال الرازي: المشهور أن المراد منه أنه تعالى خلقهم من آدم وأن آدم كان مخلوقاً من طين، وعندي-والكلام للرازي- أن الإنسان مخلوق من الأغذية التي تعود في منشئها إلى النبات، والنبات أصله من الطين، فثبت أن كل إنسان متولد من الطين-انتهى- وكلام الرازي قريب من النظريات العلمية الحديثة التي تقول بنشأة الإنسان من الطين، قال تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾ [المؤمنون: ١٢/٢٣]، ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ الأجل هو الوقت المضروب لانقضاء الأمد، والمقصود به أجل الموت أو القيامة أو كلاهما، فيكون تقدير الآية: ثم قضى أجلاً، وهو أجلٌ معروف عنده فقط ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ الامتراء هو الشك، والخطاب للكفار، أي بعد هذه البراهين الباهرة من خلق الإنسان من طين كيف تشكّون في البعث والخلق من جديد، ومن مغزى الآية تأكيد على حقيقة البعث، لأن الله الذي خلق الإنسان من سلالةٍ من طين قادر على أن يبعث الإنسان من الطين مرة أخرى.

﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ (٣).

٣- ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ﴾ أي هو الله-وحده- ربّ السماوات والأرض ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ متّصف بكمال العلم الباطن والظاهر ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ يعلم ما تستحقون من الثواب أو العقاب على أعمالكم.

﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ (٤).

٤- رغم الآيات الباهرات المذكورة آنفاً كخلق السماوات والأرض، وجعل الظلمات والنور، وخلق الإنسان من الطين، فالكفار ما زالوا معرضين عن الإيمان وعن التفكّر: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ قد تكون الآيات بالمعنى العام وهي الرسالات السماوية التي نزلت على الأنبياء، أو قد تكون بمعنى الآيات القرآنية، أو قد تكون بمعنى المعجزات والدلائل الكونية، راجع شرح آية [البقرة: ٢/٣٩]، ﴿إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ صمّم الكفار على الإعراض عما يأتيهم من آيات الوحي عن طريق الرسل، كما دأبوا على الإعراض عن التفكر في المعجزات الكونية والدلائل التي توجب الإيمان والتوحيد،

وقد رأى الرازي أنّ في هذه الآية دلالة على بطلان التقليد، وتأكيد أن التأمل والتفكر في الدلائل واجب، لأن الإسلام مبني على أساس الدليل والبرهان، وقد تكررت الإشارة لذلك في آيات [البقرة: ٢/١٧٠] و [المائدة: ٥/١٠٤].

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٥).

٥- ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ لم يكتف الكفار بالإعراض عن التفكّر بالآيات والدلائل، أو كونهم غافلين عنها، بل تجاوزوا ذلك إلى تكذيب الرسل والوحي والقرآن لما جاءهم ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ و لم يكتفوا بالتكذيب بل تجاوزوه إلى الاستهزاء، فهذا تأكيد على أنهم سوف يعلمون عواقب تكذيبهم واستهزائهم ، إن في الحياة الدنيا بظهور معجزات القرآن لهم، أو بالبعث بعد الموت، هذا في المعنى العام.

أما في المعنى الخاص فقد تكون الإشارة إلى الهجرة النبوية - التي حدثت بعد نزول هذه السورة مباشرة - ثم الانتصارات الباهرة للإسلام التي تلت ذلك مما لم يكن يتوقعه أحد من كفار مكة.

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ (٦).

٦- ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ ألم يرَ مشركو مكة خاصةً، والكفار عموماً، كم أهلك تعالى من الأجيال والحضارات من قبلهم، من الذين مكّنهم تعالى في الأرض فجعل لهم فيها ملء التصرف والاستقلال، وسخّر لهم من وسائل العلم والعيش والنعم والرفاه ما لم يعطه تعالى لمشركي مكة وللكفار من غيرهم، وتغيير الخطاب من الغائب إلى المخاطَب لأن المعنيين ليسوا كفار قريش فقط بل الكفار في كل عصر ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾ المطر الغزير ﴿وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ لأن الماء هو أساس حياتهم وحضارتهم ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ فكان الهلاك عاقبةً لذنوبهم، ومترتباً عليها، ونتيجةً طبيعية لها، كما هي سنته تعالى في خلقه، والمغزى فليعتبر المشركون والكفار بهلاك أمثالهم من الأمم قبلهم ولا يغترّوا بمقدرتهم وبعلومهم وبالنعم التي يرفلون فيها، فلكلّ شيء عاقبة ونتيجة ترتبط به ارتباط السبب بالمسبّب ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ حلّت مكانهم مجتمعات وحضارات أخرى، التاريخ حافل بأمثلتها.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٧).

٧- ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ بعد أن بيّن تعالى حقيقة التوحيد (الآية ١)، وبرهان البعث من جديد (الآية ٢)، وأظهر كمال علمه بالباطن والظاهر (الآية ٣)، ونهى عن التقليد، وأوجب النظر في الدلائل (الآية ٤)، وأن الناس مع ذلك بين مكذّب ومستهزئ (الآية ٥)، وحضّ الناس على الاعتبار بمصير الأمم من قبلهم

(الآية ٦)، بيّن تعالى في هذه الآية أن الحجة مهما تكن باهرة، والشبهة مهما تكن واهية، فذلك لا يستلزم إيمان الجميع، إلا مَن كان مِن الناس منفتح الذهن،

أما مَن كان على العكس، منغلق الذهن، معجباً بنفسه وبرأيه، متكبراً معانداً متمسكاً بالتقليد، فقد أقفل على نفسه باب النظر والبصيرة، لا تنفع معه المعجزات، حتى لو نزل القرآن على النبي ﷺ مكتوباً في كتاب فلمسوه لمس اليد، والبشرية غاصّة بأمثال هؤلاء المكابرين، وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ۞ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤/١٥-١٥].

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ (٨).

٨- ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ استمرار المعاندة والمكابرة من قبل الكفار الذين لطفولتهم العقلية-أو للتعجيز- يطلبون، كي يؤمنوا، حدوث الخوارق كنزول مَلَك على النبي ﷺ يشاهدونه عياناً، فأجابهم تعالى أن نزول المَلَك، يقتضي الإلجاء والإجبار فنزول الاختيار الذي هو قاعدة التكليف ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ لا يُمهلون بعد ذلك فيكون هلاكهم، بانتهاء فترة الاختبار لهم.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَا يَلْبِسُونَ﴾ (٩).

٩- ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ لأنهم كانوا يقولون: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧/٢٥]، فأجابهم تعالى أن لو جعل رسوله مَلَكاً لأنزله في صورة بشر لاستحالة أن يشاهد الإنسان، أو أن يستوعب رؤية الملائكة ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ وحينئذ يلتبس ويختلط الأمر عليهم كما يخلطون على أنفسهم بهذا النوع من التفكير.

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (١٠).

١٠- ﴿وَلَقَدْ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، والمعنى أن استهزاء البعض بالرسل يحيط بهم في النهاية، أي يعود عليهم وبالاً، ليس فقط في الحياة الآخرة، وإنما أيضاً في الحياة الدنيا، لأن استمرار الأكثرية في تكذيب الوحي يسلب المجتمعات أسسها المعنوية والخلقية، وبالتالي يذهب بسعادتها الدنيوية، وفي النهاية يؤدي إلى هلاكها كما هو واضح من الآية التالية:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (١١).

١١- ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ اعتبروا بما تعلمون من تفسخ وتدهور وانحلال الأمم من المكذّبين قبلكم، ولا تغفلوا عن سبب زوالها، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٢٢/٤٥-٤٦]، والمعنى أن سنن الله لا تبدّل لها، والإنسان مكلّف بالبحث عن تلك السنن بدراسة التاريخ والآثار وعلوم الاجتماع والحضارات ومعرفة أسباب نهوض الأمم وزوالها.

﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٢).

١٢- ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ الله تعالى وحده المنفرّد والمتصرف بخلق السماوات والأرض ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ كتب على نفسه الرحمة في خلقه، فمن رحمته إفاضة نعمه على مخلوقاته ظاهرة وباطنة، انظر الآية (٥٤)، وأيضاً آية الأعراف: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ٧/١٥٦]، وفي الحديث: «قال الله تعالى: سبقت رحمتي غضبي»، ومن رحمته تعالى أنه يمهل ولا يعاجل بالعقوبة، ويؤخّر إلى يوم الحساب كما في تتمة الآية:

﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ومن رحمته تعالى أنه يجمع الناس إلى المحشر يوم القيامة ليقيم الميزان فيثيب المحسن ويجازي المسيء ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ ومن رحمته تعالى أن جعل عباده على بيّنة من الحشر كي لا يرتابوا فيه، ممّا ينفي الظلم والفوضى والإهمال في الحياة الدنيا ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ هم الذين خسروا أنفسهم بخداعها، وبالمكابرة والعناد وبالجحود والعصبية والتقليد وإنكار القرآن، فهُم لذلك لا يؤمنون، وأيضاً الذين خسروا أنفسهم بالتهالك على الحياة الدنيا فهم لا يؤمنون حقيقةً، وإنما إيمانهم بمجرد طقوس وعبادات لا يتجاوزونها إلى الأعمال.

﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (١٣).

١٣- ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ﴾ من المخلوقات ﴿فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ وهو عطف على الآية السابقة أي له ما في السماوات والأرض، وله ما سكن في الليل والنهار ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ يسمع دعاء عباده، ويعلم أحوالهم، فهو وحده المستحق للعبادة، وفي الحديث: «الدعاء هو العبادة».

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٤).

١٤- ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ أي معبوداً- في هذا المعنى- ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي مبدعهما، والفَطر هو الشَقّ، فيقال فَطَرَه فانفَطَر أي انشقّ، وتَفَطّر أي تشَقّق، والفَطر أيضا الابتداء والابتداع، ونظرية العلماء اليوم أن الكون انفطر من كتلة صغيرة جداً كحجم الذرة، ذات كثافة لا متناهية، فكانت بداية الكون بما يسمونه الانفطار الكبير -الانفجار الكبير- Big Bang الذي لا يزال الكون بنتيجته يتسع حتى الآن ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ﴾ المغزى أن الذين تتخذونهم أولياء من دون الله، كالزعماء والطواغيت، يعتمدون عليكم في رزقهم، ومعاشُهم من كدّكم وشقائكم، في حين أن خالق السماوات والأرض هو وحده الذي يطعمكم ويرزقكم، ولا يحتاج إليكم.

وفي قراءة ﴿وهو يُطعَمُ ولا يُطعِم﴾ فيعود الضمير في كليهما إلى المذكور بقوله ﴿أغير الله﴾.

وفي قراءة أيضاً ﴿وهو يُطعِمُ ولا يُطعِم﴾ فيعود الضمير الأول إلى الله تعالى، والضمير الثاني إلى المذكور بقوله ﴿أغير الله﴾، وكل هذه القراءات تؤدي المعنى نفسه.

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ استمرار الخطاب للنبي ﷺ، فهو أول من أسلم من أُمّته، وهو أيضاً أول المسلمين قاطبةً لأنه أكملهم إيماناً وعملاً، وهو معلّمهم وقدوتهم وسيّدهم ﴿وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ المطلوب الجمع بين الإسلام وبين البراءة من الشرك بكافة أشكاله.

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (١٥).

١٥- ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لأنه ﷺ أكمل المسلمين وأوّلهم إيماناً وعملاً- الآية السابقة-، وهو أيضاً قدوتهم، فالخوف من عاقبة المعصية -وهو معصوم عن الذنوب- ومن ثمّ إتقاؤها، موجود عنده كما يجب أن يكون عند كل مؤمن.

﴿ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾ (١٦).

١٦- ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ أي مَن يُصرفْ عنه عذاب ذلك اليوم فقد رحمه تعالى الرحمة الكبرى ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ وهو النجاة من عذاب الآخرة.

﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٧).

١٧- ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الضُرّ هو سوء الحال، والمعنى أن الله تعالى يكشف

عن عباده الضر الذي توصّلوا إليه بأنفسهم واستحقوه بأعمالهم، كنتيجة طبيعية لسنته تعالى في خلقه، كما هو قادر على إيصال الخير إليهم إذا اتبعوا السبل المودية إليه، وذلك بمعنى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١/١٣].

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ (١٨).

١٨- ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ قاهر عباده من المؤمنين والكفار، وكبار القوم وصغارهم على السواء، كلهم خاضع للسنن التي أوجدها تعالى في الكون لا يخرج عنها، ولكلٍّ منهم أجل لا ينفك منه ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ في خلقه وتدبيره.

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (١٩).

١٩- ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ لأن شهادة الله تعالى أكبر الشهادات إطلاقاً-وشهادته تعالى من قبيل المجاز- لأنّ ما أنزل من معجزة القرآن ومن الوحي على الرسل مؤيّداً بالبراهين يدلّ على التوحيد، وما أوجد من الدلائل في الخلق وفي الأنفس وفي العقول، وكل ما هو ظاهر من السنن الكونية ودقّتها ونظامها هي من قبيل الدلائل الكونية على الوحدانية، لأنّ وحدة النظام تدلّ على وحدة واضعه ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ أي ومن بلغه هذا القرآن، والمعنى عموم بعثة خاتم الأنبياء والرسل محمد ﷺ إلى الناس أجمعين من عرب وعجم في كل الأزمنة والأمكنة، وشبيه بذلك قوله تعالى: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ [الجمعة: ٣/٦٢].

﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى﴾ رغم أن هذا القرآن قد بلغكم؟ والخطاب للمشركين عامة ولأهل الكتاب خاصة ،بدليل الآية التالية، فكيف

تزعمون أن الله ثالث ثلاثة بعد كل هذه البراهين الساطعة ﴿قُلْ لا أَشْهَدُ﴾ لا أحالف الوحي والعقل والدلائل ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ الوحي والدلائل والعقل كلها تفرض هذه الحقيقة ﴿وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أبرّئ نفسي من أن أشرك بالله ما لم ينزّل به سلطاناً من العلم اليقيني والعقل والبرهان والدلائل.

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢٠).

٢٠- ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ الخطاب استمرار لما سبق والضمير في (يعرفونه) يعود إلى النبي ﷺ لأن الآية السابقة تشهد على نبوّته بأن الله شهيد بينه وبين الناس، والمعنى أن أهل الكتاب كانوا يتوقعون وينتظرون رسالة خاتم الأنبياء والرسل كما هو مذكور تكراراً في كتبهم، ويعرفونه تمام المعرفة، انظر آية [البقرة: ٨٩/٢]، نظر أيضاً كتاب عبد الأحد داود: «محمد في الكتاب المقدس» ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ الذين خسروا أنفسهم بسبب تمسكهم بالزعامات والمناصب والجاه، وبسبب المكابرة والعناد والعصبية والتقليد، فهم بالتالي لا يؤمنون، وهذا المعنى منطبق على أهل الكتاب زمن البعثة النبوية كما هو منطبق عليهم الآن.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢١).

٢١- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ استمرار الخطاب، والكلام لا يزال عن أهل الكتاب، لأنهم افتروا على الله الكذب فشهدوا أنه ثالث ثلاثة، وأشركوا به المسيح والروح القدس، انظر الآية (٧٣)، ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ كذّبوا بالقرآن والآيات الكونية والدلائل المؤيدة له ﴿ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ الذين افتروا الكذب، ويدخل فيهم الذين أدخلوا على التفسير القرآني وعلى الحديث الشريف من الإسرائيليات والخرافات ما تغص به الكتب، انظر كتاب «الإسرائيليات في التفسير والحديث»، محمد الذهبي، ويدخل فيهم من يزيد في دين الله من عنده من التحريم والتحليل والعبادات.

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (٢٢).

٢٢- ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ جميع البشر، بمن فيهم المشركون الذين افتروا على الله الكذب، المشار إليهم في الآيات السابقة ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمْ﴾ أين آلهتكم، أو أولياؤكم، أو وسطاؤكم، أو شفعاؤكم، أو طواغيتكم، أو قدّيسوكم ﴿الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ تزعمونهم شركاء؟ -بحذف المفعولين-.

﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ (٢٣).

٢٣- ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ التقدير لم تكن عاقبة فتنتهم -بحذف المضاف وهو شائع في التنزيل- والفتنة هنا بمعنى الغواية والضلال وذهاب العقل، لأن من يشرك بالله يكون فاقد التفكير السليم، والفتنة أيضاً الاختبار ﴿إِلاَّ أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ تبرؤوا ممّا كانوا عليه من الضلال في الحياة الدنيا.

﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٢٤).

٢٤- ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾ بأن استبعدوا الفهم والعقل وعبدوا أهواءهم ورغباتهم، كما سيرد بقوله تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٢٨).

﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ افتراؤهم في الدنيا لم ينفعهم في الآخرة، وهو كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨/١٠] والمعنى أن الأوهام زالت عنهم في الآخرة بعد كشف الحجب.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ (٢٥).

٢٥- ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ يستمعون إلى النبي ﷺ استماع مكابرة وعناد، أو استماع بلادة وانحطاط في الفكر ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ

يَفْقَهُوهُ﴾ أي القرآن ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ الأكنّة جمع كنان وهي ما تقي الشيء وتستره، والوقر هو الصمم، والمعنى أن الكفار أغلقوا عقولهم عن الفهم، وصمّوا آذانهم عن سماع الحق، وقد نسب تعالى الفعل إلى ذاته العلية لما مضت به سنته في طباع البشر بأن يكون التقليد الذي يختاره المرء لنفسه مانعاً له من التفكر والاستدلال والبحث عن الحقيقة، انظر آية [البقرة: ٢/٧]، فالمقلّد لا يستمع بهدف الفهم أو البحث عن الحقيقة، بل هو يخشى من تأثير الأفكار الجديدة على عقله، وكذا المكابر والمعاند ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ لأنهم عزموا على التمسك سلفاً بما هم عليه من العقائد والأفكار الموروثة، وغير الموروثة ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ بفكر منغلق لمجرّد الجدال ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الذين صمموا على الكفر ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ لا يعقلون من قصص القرآن إلاّ أنها حكايات وخرافات من أساطير الأولين، وهذا شأن مَن يعالج الأمور بمنظار مسبق، أو ينظر إليها نظرة سطحية، فلا يحاول التعمق في دراسة القرآن، ولا تقويم الرسالة من حيث جدارتها، وهذه الفئة من الناس موجودة في كل الأزمنة والأمكنة.

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢٦).

٢٦- ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ من جهود الكفار في محاربة الإسلام أنهم ينهون الناس عن الاستماع للقرآن وعن دراسته لكي لا يقفوا على حقيقة الإسلام فيؤمنوا به، وهم أيضاً ينأون عنه فكرياً إذ يبتعدون عن دراسته بذهن منفتح، وكان هذا شأن مشركي قريش وقت البعثة النبوية، كما هو شأن الكثير من الناس ممّن يسمّون أنفسهم اليوم بالعلمانيين، وهو أيضاً شأن بعثات المبشّرين والصليبيين في كل العصور، ومن هؤلاء من يترجم القرآن إلى لغات أخرى بأسلوب الدسّ، ومنهم من يكتب المؤلفات في التهجم على الإسلام بطريقة خفية أو ظاهرة، أو يركّز على سلبيات المسلمين ويلصقها بالإسلام ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ﴾ غرضهم هو زوال الإسلام، لكنهم في الواقع

يهلكون مجتمعاتهم، لأن البشرية أحوج ما تكون إلى القيم الإسلامية الحقيقية ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أن الضرر مقتصر عليهم.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧).

٢٧- ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ فأيقنوا بالحق ﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ إلى الحياة الدنيا حتى تكون لنا فرصة أخرى للاختبار ﴿وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا التمنّي بعد كشف الحجب ومعاينة العاقبة.

﴿ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (٢٨).

٢٨- ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ﴾ على أنفسهم، فظهر لهم ما كانوا ينكرون ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ في حياتهم الدنيا حيث الحقيقة كانت ساطعة أمامهم فعميت عنها بصيرتهم ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ لخبث طينتهم وسوء استعدادهم، ولأن نفوسهم اعتادت على ما كانت عليه فهم يعلمون الحق، ولا يعملون به، وهم قد علموا بعثة النبي ﷺ والقرآن، وتبينت لهم العبر فلم ينتفعوا بها، وأكثر البشر عبيد لعاداتهم على علمهم بضررها ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ الكذب على أنفسهم متأصّل فيهم، أنكروا البعث والنشور وزعموا أن الحياة مقتصرة على هذه الدنيا فقط كما سيرد في الآية التالية.

﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ (٢٩).

٢٩- ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ استمرار الخطاب من الآية السابقة أي لو ردّوا بعد المشاهدة لعادوا لما نهوا عنه وإلى القول بالكفر وعدم النشور، وذلك بعطف (قالوا) على (عادوا)، ويحتمل المعنى أيضاً أن ذلك كان قولهم وكذبهم في حياتهم الدنيا.

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (٣٠).

٣٠- ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ يوم الحساب، فيقول لهم تعالى: ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِالْحَقِّ﴾ إشارة إلى البعث والحياة الآخرة، لأنهم زعموا أن الحياة الآخرة ليست سوى وهماً، وكانوا يقولون ﴿إن هي إلاّ حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾ الآية السابقة ﴿قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا﴾ شهدوا على أنفسهم أن الحياة الآخرة هي الحق ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي بنتيجة كفركم، وهي النتيجة الطبيعية لارتباط العلاقة بين إنكار البعث وعذاب الآخرة.

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ (٣١).

٣١- ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ استمر تكذيبهم بالبعث والحساب إلى أن فاجأتهم ساعة الموت، فخسروا، والسبب أنهم لم يغتنموا فرصة التوبة والصلاح قبل الفوات، فأفنوا دنياهم في العبث، وانحصر همّهم في تحصيل اللذات المؤقتة والسعادة الفانية، ولم يعملوا في دنياهم على تحصيل المعارف الحقيقية والأعمال الصالحة ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ نداء للحسرة وهي شدة الندم على ما قصّروا وضيّعوا في حياتهم الدنيا من البحث عن الحقيقة والإيمان والأعمال الصالحة ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ جاؤوا بأثقال ذنوبهم بها من حياتهم الدنيا، لأن الوزر هو الثقل، وحمله على الظهر مجازاً، لأن الذنوب ترهق النفوس كما الأثقال ترهق الأجساد التي تحملها ﴿أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ لأن أسوأ الأثقال أثقال الذنوب، فما أسوأ هذه الأثقال التي جاؤوا يحملونها.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (٣٢).

٣٢- ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ هي لعب ولهو لمنكري البعث لقولهم إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين (الآية٢٩)، لأنهم لا يعقلون أن

الدنيا ليست سوى دار مرور وليست دار قرار، وهي أيضاً لعب ولهو بالنسبة إلى الغافلين الذي يهدرون أوقاتهم بلا طائل ولا فائدة، أو يهدرونها في أعمال باطلة، كمن يجعل همّه محصوراً في الدنيا فقط، وفي الجري وراء الجاه والرئاسة والعلو في الأرض ولو بالباطل، أو الاستغراق في الملذات الجسمية كالبهائم، أو تلبية الأهواء النفسية الشريرة كالشياطين في الكيد والترصد والإيقاع بالآخرين ﴿وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الذين يتقون العبث واللهو في دنياهم، ويدركون أنّ الدنيا ليست غاية في ذاتها ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ حث على استخدام العقل لاستيعاب هذه الحقيقة.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٣٣).

٣٣- ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ وهو قول الكفار بإنكار البعث والحساب، أو قولهم بتكذيب الوحي القرآني مما كان يسبب الحزن للنبي ﷺ ﴿فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ﴾ التكذيب في الحقيقة لم يكن للنبي ﷺ، ولا للدعاة من بعده، وإنما كان جحوداً للحقيقة، لأن مشركي قريش كانوا يعلمون أمانة وصدق النبي ﷺ ولكنهم كانوا يكابرون فيزعمون أنه ساحر أو كاهن أو شاعر أو مجنون ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ الجحود هو الإنكار مع العلم، والمعنى أن الكفار ينكرون من آيات الله ما أيقنت به قلوبهم، وهو كقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ٢٧/١٤]، فسبب الجحود هو المكابرة والاستكبار والاستعلاء، والتمسك بالنظم الاجتماعية القائمة والمناصب، وإنكار المسؤولية.

﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٣٤).

٣٤- ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ كان هذا دأب البشر في تكذيب الرسل منذ القِدم ﴿فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ وهو

أيضاً دأب الرسل في الصبر على التكذيب والأذى حتى يأتي نصر الله ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ وعد الله بنصر رسله لا يمكن أن يتطرق إليه الخُلف والتبديل، وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۞ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾ [الصافات: ٣٧/١٧١-١٧٢]، وقوله عزّ شأنه ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٥٨/٢١].

﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي ولقد جاءك يا محمد بعض أنباء المرسلين في هذا القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٤٠/٧٨]، وقوله عزّ شأنه ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٣٥/٢٤]، وهو تأكيد لسنته تعالى في نصر الرسل، والعبرة أيضاً أن الله تعالى وعد المؤمنين، في كل زمن، ما وعد المرسلين به من النصر.

﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٣٥).

٣٥- ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أيها الرسول-وينطبق على كل داعية- إن عظُم عندك وشقّ عليك رفضهم الرسالة ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ أي معجزة خارقة-غير القرآن- لكي يؤمنوا، والمعنى أنك لن تستطيع وما اقتضت مشيئة الله ذلك، وأي آية أكبر من القرآن؟ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ لألجأهم إلى الإيمان إلجاءً، أو لجعلهم كالملائكة لا يعصون الله ما أمرهم، ولكن ذلك ينافي التكليف المبني على حرية الخيار ﴿فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ بسنّته تعالى في خلقه.

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (٣٦).

٣٦- بعد أن ذكر تعالى في الآيات السابقة إصرار المكذّبين على الكفر، بيّن السبب الذي من أجله يجحدون: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ وهم منفتحو الذهن الذين يستخدمون العقل استخداماً سليماً فيكون سماعهم للقرآن ولحقائق الإسلام سماع تفكّر وتأمّل، وهو سماع من ينشد الحقيقة، لا سماع المكابرة والمكر السيء ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ وهم الكفار المصرّون على التقليد والجحود والمكابرة، شبّههم تعالى بالموتى لأنهم عطّلوا عقولهم عن التفكير السليم، والمعنى أن موتى القلوب-الكفار- عندما يبعثهم الله في الآخرة، فحينئذٍ يسمعون، أما قبل ذلك فلا سبيل إلى سماعهم، وهو كقوله عزّ شأنه ﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: ٢٧/٨٠]، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ للحساب، أي الحساب على الله وحده.

﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٧).

٣٧- ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ طَلَبَ الكفار إنزال معجزة على النبي ﷺ شرطاً لإيمانهم، لأنهم لا يُعملون عقولهم، وإنما يتصرفون بطفولة فكرية يريدون مشاهدة الخوارق العجيبة ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ المعنى أنّ طلبهم من قبيل المكابرة أو الجهل، لأنّ الآيات موجودة حولهم ولكنّهم لا يعلمون، فمن جهة معجزة القرآن التي تحدّاهم بها، ومن جهة معجزات الخلق التي لا حصر لها، كما سيرد في الآية التالية:

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (٣٨).

٣٨- ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ استمرار الخطاب من الآية السابقة، فالكفار يطلبون الخوارق مع أنّ عجائب

الخلق، مما يبهر العقول، محيطة بهم، وضرب تعالى مثلاً بخلق الدواب والطيور، فلو لم يكن الكفار من المكابرين أو الجاهلين لتوصّلوا إلى الإيمان ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ كلّ شيء مكتوب ومشمول بالعلم الإلهي منذ خلق الله السماوات والأرض، ومنه قوله ﷺ: «جفّ القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة»، فيكون الكتاب هو المشار إليه بالآية (٥٩).

ويحتمل المعنى أيضاً أنّ الكتاب هو القرآن، لأن الله تعالى ضمّنه كل ما هو ضروري لهداية البشر، ومن ثمّ صارت الحجة بيّنة على الناس ولا عذر لهم بالجهل أو الغفلة ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ ليوم الحساب، والضمير عائد للكفار الذين قالوا لولا نزّل عليه آية من ربه، وقال بعضهم بل يعود إلى الأقرب وهي أمم الدواب والطيور.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٣٩).

٣٩- ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ رغم كل ما سبق بيانه من معجزات الخلق والأكوان ترى الكفار مصرين على التكذيب، فهُم كمن يتخبط في الظلمات لأنه أغمض عينيه عن الحق، والظلمات هي ظلمات الكفر، وظلمات الجهل، وظلمة العناد، وظلمة التقليد في الباطل، وهم أيضاً كالصم، لأنهم لا يسمعون الآيات سماع تفهم وتفكر لتوهمهم أنهم بغنى عنها سلفاً، وكالبكم لأنهم لا ينطقون بما استيقنته قلوبهم من الحق بل يتكتموا عليه ويجحدوه ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ أي يتركه لما اختار من الضلال بحسب استعداده، ولا يمنعه من الضلال قهراً وحيراً، والآيات في ذلك كثيرة ومنها قوله عزّ شأنه ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦/٢] أي الذين اختاروا الفسوق وأصروا عليه (وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) من يختار الهداية يوفقه تعالى لاستخدام عقله استخداماً يعرف به الحق ويقرّ به ويعمل بموجبه.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤٠).

٤٠- ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ﴾ بمعنى أخبروني ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾ في الدنيا، كالمرض والشدائد ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ أتتكم ساعة الموت أو ساعة القيامة ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ إن كنتم صادقين في جحودكم وكفركم؟ أو إن كنتم صادقين أنّ الشركاء أو الآلهة التي تدعونها قادرة على جلب المنفعة ودفع الضرر؟ فهل تخصّون تلك الشركاء والآلهة بالدعاء عند الشدائد؟

﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ (٤١).

٤١- ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ لأن المعتاد في الشدائد أن يلهج الإنسان بدعاء الله تعالى فقط ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ جعل الاستجابة متعلقة بالمشيئة الإلهية ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ من الشركاء المزعومين.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ (٤٢).

٤٢- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فكفرت الأمم بالرسل وبالرسالات ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ عالجهم تعالى بالبؤس والضر ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ لعلهم يثوبون إلى رشدهم فيخشعوا ويستقيموا، والخطاب استئناف لما قبله لبيان أنّ من الكفار والمشركين، بسبب تماديهم في الضلال، مَن لا يدعو الله تعالى حتى عند مجيء العذاب، فهُم لا يتأثرون بزواجر العذاب الدنيوي، كما لم تنفعهم زواجر الوحي من قبل.

﴿ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٤٣).

٤٣- ﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ ثابوا إلى رشدهم فآمنوا وابتهلوا ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قساوة القلوب منعتهم من الإيمان والدعاء والتضرع ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهو سبب قساوة القلوب لأنّ

الشيطان زيّن لهم ما كانوا يعملون من الكفر والفسوق، فغاب عنهم أن العقاب الذي حلّ بهم كان بنتيجة كفرهم.

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ (٤٤).

٤٤- ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أصرّوا على تجاهل دعوة الرسل والوحي- الذكر-، و لم يتّعظوا بما أصابهم من البأساء والضرّاء، وانهمكوا في الدنيا ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الرخاء والخيرات والرزق ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ اغترّوا وبطروا وظنّوا أن ذلك باستحقاقهم وجدارتهم وذكائهم، فلم يتوبوا و لم يشكروا النعم ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ بالعقاب ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ يائسون، والإبلاس الحسرة والإنكسار واليأس الذي يأتي بعد فوات الفرص.

﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤٥).

٤٥- ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ تم استئصال شأفتهم ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بأن أراح الناس من شرورهم وعقائدهم الفاسدة، وهي ظاهرة تاريخية تكررت وتتكرر في الأمم التي تفقد البُعد الروحي من حياتها، وتنغمس في المادة والترف، فيؤول أمرها إلى المادية والطغيان والتفسخ والإنحطاط ثم إلى الزوال.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ (٤٦).

٤٦- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ السمع والبصر بالمعنى الحرفي وبالمعنى المجازي ﴿وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ فأصبحتم كالبهائم [البقرة: ٧/٢]، كما حصل للأمم التي قُطع دابرها من قبل، نتيجة قساوة قلوبها وإصرارها على الكفر ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ ما يكون شأنكم مع آلهتكم التي تشركون؟

هل تعيد لكم شيئاً منها؟ والضمير في (بـه) راجع إلى أحد المذكورات، أي لا أحد غيره تعالى يستطيع أن يأتيكم حتى بواحد منها ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ﴾ كيف ننوّع الحجج والبيّنات ونكررها على وجوه عديدة ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ يعرضون عنها، وينحنّبون التأمل فيها.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٤٧).

٤٧- ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّـهِ بَغْتَـةً﴾ فجـاةً ﴿أَوْ جَهْـرَةً﴾ شيئا فشيئا بحيث يكون واضحاً لكم غير خفيّ ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ مـن أمثالكم وأمثال الأمم التي قُطع دابرها من قبل، ثم تكون العاقبة للمتقـين، لقولـه تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨/٧]، [القصص: ٨٣/٢٨]، وحتى لـو عـانى بعض المتّقين من العذاب الجسدي فإنهم في حقيقتهم وعاقبتهم ينعمون بالصفـاء والنعيم الروحاني.

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَـحَ فَـلا خَـوْفٌ عَلَيْهِـمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٤٨).

٤٨- ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ﴾ بالنجاة ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ من عصاهم بمصير الأمم التي قطع دابرها قبلهم، أي إن مهمة الرسل مقتصرة على البـلاغ، وليس عليهم الإكراه ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَـحَ﴾ كـان إيمانه مقترنـاً بـالعمل الصـالح ﴿فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لا خوف عليهم من العذاب الـذي أنـذر به الرسل، ولا يحزنون لأنهم ينالون البشرى التي جاء بها الرسل.

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ (٤٩).

٤٩- ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَـانُوا يَفْسُـقُونَ﴾ بمـا أي نتيجة طبيعية ولازمة ومرتبطة بالتكذيب والفسوق كارتبـاط السبب بالمسبب، والإشارة إلى نموذج الأمم المشار إليها بالآيات (٤٢-٤٥).

﴿قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٥٠).

٥٠- ﴿قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ لأن ضعاف العقول من أهل مكة، وغيرهم من الكفار والمشاغبين في كلّ وقت، توهّموا أن الرجل من البشر لا يكون رسولاً إلاّ أن تكون له من خصائص الألوهية أو تكون له قدرات خارقة لا يستطيعها البشر، ويحتمل أنهم تكلموا على سبيل التعجيز، فأجابهم أن التصرف المطلق في الأمور هو لله القادر على كل شيء، فليس من موضوع النبوة أن يكون الرسول قادراً على التصرف بالمخلوقات وتغيير الأسباب والمسببات، ولا أن يكون مطّلعاً على مطلق الغيب مما اختص به تعالى في علمه ﴿وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ بل أنا بشر مثلكم، والحاصل أن النبي ﷺ لم يدّع من صفات الألوهية، كما لم يدّع كونه ملَكاً، فكيف يُطلب منه ما هو في قدرته تعالى وفي قدرة الملائكة فقط؟ وهو لم يقُل سوى أنه عبد الله ورسوله؟ ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ وظيفتي ليست سوى طاعة الله، والبلاغ عن الوحي ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ شبّه الضال بالأعمى إذ عميت بصيرته، والمعنى أن مَن يتوقع مثل هذه الأمور من الرسول فهو أعمى البصيرة، فهل يستطيع أعمى البصيرة أن يسلك طريقه في الحياة الدنيا بالمقارنة مع الذي يتمتع بالرؤية الذهنية الروحية الحقة؟ ﴿أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ﴾ لأن الذي يفكّر ويستخدم العقل يقوّم رسالة النبي من حيث جدارتها، وليس بحسب ما يطلبون من خوارق.

والمغزى في هذه الآية أيضاً النهي عن تأليه الرسول، وإيضاح أن جميع الرسل من قبله كانوا رجالاً بشراً.

﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (٥١).

٥١- ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ أي بالقرآن، والخطاب للنبي ﷺ -ومن ثمّ لكل داعية في كل زمن- ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ الذين يُتوقع أن يكون

لديهم أدنى خوف من الحشر يوم القيامة ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ﴾ لكي يعلموا أنّ نجاة الإنسان إنّما تكون بإيمانه وعمله الصالح، وليس بالاعتماد على الشفاعة، أو توهُّم الانتفاع بصلاح الغير ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ سوء العاقبة في الدنيا والآخرة.

﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥٢).

٥٢- ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ يدعون ربّهم بالغداة والعشيّ أي إنهم مواظبون على الصلاة، يريدون وجه الله فقط لا لغرض دنيوي، والإشارة إلى نوعين من الناس:

أولاً: ضعاف المؤمنين وفقرائهم، والمعنى لا تطردهم أيها الرسول -أو أيها المسلم- ولو كره المترفون، ولو كان وجهاء المشركين يحتقرون الفقراء وينظرون إلى ضعاف الناس الذين سبقوهم إلى الإيمان نظرة دونيّة، فالوجهاء يعتبرون أنفسهم معذورين في التولّي عن الرسول، لأنهم لا يريدون مساواة أنفسهم بالفقراء، ظنّاً منهم أنهم أعلى قدراً وأسمى فكراً، فعندما دعاهم الرسول إلى الإيمان: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ [البقرة: ١٣/٢]، وقد كان هذا دأب المترفين مع رسلهم من قبل، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤/٣٤].

ثانياً: بما أن الآية استمرار لما قبلها، والكلام على الذين لديهم أدنى خوف من الحشر إلى ربهم من مسلمين وغير مسلمين، فيكون معنى الآية أيضاً النهي عن إقصاء أي مؤمن بالله مواظب على الدعاء-حتى لو لم تكن عقائده وأفكاره مطابقة للقرآن تماماً- بل على العكس من ذلك يجب استيعاب أمثال هؤلاء والحوار معهم، ومساعدتهم وشرح الحقائق القرآنية لهم بدلاً من نبذهم واستعدائهم، وهذا المعنى يصح بغض النظر عمّا يُقال من مناسبة النزول، لأن

التوجيهات والتعاليم القرآنية عامّة وصالحة لكل العصور وليست خاصة بالأحداث التي رافقت نزول الوحي فقط، ويؤيد ذلك ما ذكره الرازي عند تفسيره للآية (٥٤) إذ قال: إن الناس اتفقوا على أن هذه السورة نزلت دفعة واحدة، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن أن يقال في كل واحدة من آيات هذه السورة أن سبب نزولها هو الأمر الفلاني بعينه؟ وقد ذكر الطبري أيضاً في تفسيره للآية (١٤١) أن الآية كانت تنزل على الرسول ﷺ بسبب خاص من الأمور، ثم يكون الحكم بها على العام، بل عامّة آي القرآن كذلك:

﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ لأن حساب الجميع على الله، وقد استدل الشيخ محمد رشيد رضا في تفسير المنار أن مغزى الآية نفي الرئاسة الدينية المعهودة في الملل الأخرى كأن يكون لرؤساء الدين حق محاسبة الناس على عقائدهم، أو أن يكون لهم حق حرمان بعضهم من المغفرة بزعمهم، وحق طردهم من الدين كما تفعل الكنيسة، وإذا كان تعالى لم يجعل لنبيه حق محاسبة الآخرين على عقائدهم وعلى عباداتهم-ناهيك عن طردهم من الدين- فمن باب أوْلى أن لا يحق ذلك لأحد غيره من الناس، وهذا المعنى ينطبق اليوم بين طوائف المسلمين من سنة وشيعة ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ مَن يطرد أمثال هؤلاء أو يقصيهم يكون من الظالمين، وعلى العكس من ذلك فقد كان من هدي النبي ﷺ تألّف قلوب ضعاف الإيمان واستيعابهم وإرشادهم، كما كان يعامل المنافقين بما يقتضيه ظاهر إسلامهم فالأحكام تُبنى على الظاهر، والله تعالى يتولّى السرائر.

﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ (٥٣).

٥٣- ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ الأغنياء بالفقراء، والكفار بالمؤمنين، ومعنى الفتنة الاختبار والمعنى أنه تعالى اختبر بني آدم بأن أعطاهم المقدرة على

التفكير والاختيار والمنطق، مما أدى بهم إلى تنوع العقائد والأفكار ﴿ لِيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ أي بالإيمان وفهم القرآن، وهو قول الساخرين منهم، والمتعالين على غيرهم، يستبعدون أن يكون تعالى قد أنزل هدايته على من هم دونهم منزلة بزعمهم، وهذا القول لا يزال يصدر إلى اليوم عن كثير من غير المسلمين من المتحاملين المغرضين، الذين بسبب هيمنة خلفيتهم الثقافية والتاريخية عليهم، يتهكمون على المسلمين، ويرفضون الإقرار بنزول الهداية القرآنية على غيرهم ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ لإحاطة علمه تعالى بالحكمة على أكمل وجه.

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٥٤).

٥٤- ﴿وَإِذَا جَاءَكَ﴾ أيها النبي ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ الذين يؤمنون بآيات القرآن، يستوضحون منك عن حسابهم وذنوبهم وهل تقبل توبتهم- بدليل تتمة الآية- ﴿فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ وهو إخبار منه تعالى بسلامتهم وأمنهم من عقابه ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ بشارة لهم بالمغفرة وبالرحمة ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾ مَن عمل السوء مُنساقاً مع الأماني واللذات العاجلة، واغتراراً منه بتأوّل النصوص، يكون جاهلاً، قال المفسّرون إن كل من عصى الله يسمّى جاهلاً ويُسمّى فعله جهالة، كما في قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام ﴿وإلاّ تصرف عنّي كيدهنّ أصبُ إليهنّ وأكن من الجاهلين﴾ [يوسف: ٣٣/١٢]، وقد ورد هذا المعنى في آية [النساء: ١٧/٤]، ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ﴾ أتبع التوبة بالعمل الصالح ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ غفور بإزالة العقاب، ورحيم بإيصال الثواب الذي هو الرحمة.

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (٥٥).

٥٥- ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ إشارة للخطاب من الآية (٣٧) حتى الآية (٥٤)، لأنهم قالوا: لولا نُزّل عليه آيةٌ من ربه (نُفَصِّلُ الآيَاتِ) أي نفصّل الرسالات لبيان الحق

﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ ليظهر طريق وسلوك المجرمين- المصرّين على المعصية- واضحاً للجميع، بالمقارنة طريق وسلوك المؤمنين التائبين المذكورين في الآية السابقة.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (٥٦).

٥٦- ﴿قُلْ﴾ لهم أيها النبي -وأيها المسلم-: ﴿إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ المعنى: إنكم تعبدون ما تعبدون من دون الله، لأنكم تتّبعون الأهواء وتقلّدون الآباء والأجداد والزعماء، وليس بناءً على الحجة والبرهان والعقل ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ إن اتّبعت أهواءكم أكون ضالاً مثلكم ولا أكون من المهتدين، والمعنى إنكم ضالّون غير مهتدين.

﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ (٥٧).

٥٧- ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ لأني اتّبعت البيّنة والبرهان وليس الأهواء والتقليد ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ أي كذّبتم بالقرآن الذي هو البيّنة الكبرى ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من العذاب فذلك ليس بطاقتي ولا أقدر عليه، لأن الكفار يعتقدون أن عدم نزول العذاب الفوري بهم دليل على صواب عباداتهم وشركهم وضلالهم، فكانوا يقولون ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٨/٣٢]، والمراد أن الله ينزل العذاب في الوقت الذي يريد، بناء على حكمته المحيطة بكل شيء، كإمهال العباد وإعطائهم فرصة للتوبة، وليس بناء على استعجال الكفار أو تحدّيهم ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾ النبي يتبرّأ من أي مقدرة له على تقديم العذاب أو تأخيره ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ تقدير الخطاب: يقصّ الحكم الحق، فيفصل به بين الحق والباطل ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ بين الحق والباطل.

﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٥٨).

٥٨- ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِندِي﴾ في قدرتي وإمكاني ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من العذاب -كما سيرد في الآية التالية-، أو من العذاب الذي تستعجلون، كالأمراض والشدائد والمصائب تنزل بكم حتى توقنوا ﴿لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي لأقررتم أنني رسول الله حقاً، ولكن إقراركم سيكون إلجاءً فلا تكون له قيمة حقيقية، وطلبكم جدير بمن هم في طفولة عقلية، في حين أن الإسلام مبني على الحجة والبرهان والعقل، والقرآن معجزة الإسلام الخالدة لكل الناس بكل العصور، فما الفائدة من معجزة مؤقتة تقتنع بها قريش في وقت من الأوقات؟ ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ من حيث إمهالهم لما فيه من الحكمة ومصلحة العباد، أو من حيث توقيت العقاب الذي ينزل بهم بحسب سننه تعالى في خلقه.

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٥٩).

٥٩- ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ استمرار الخطاب من الآية السابقة، أي: ما عندي ما تستعجلون به والله أعلم بالظالمين، وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاّ هو، أي إنّ النبي وغيره من البشر لا يعلمون الغيب من حيث عقاب الظالمين وتوقيت العقاب والحكمة من إمهال الكفار وما يترتب عليها، والغيب لا يعلمه إلاّ الله أما الإنسان فلا يستطيع إدراكه ولا إدراك كنهه ولا الحكمة من الكثير من الأمور ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ من علم الشهادة-المقابل لعلم الغيب المذكور آنفاً- ولو أن الكثير من عالم الشهادة غائب عن علم أكثر الخلق ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ كناية عن علمه القديم المحيط بالجملات وبالدقائق.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٦٠).

٦٠- ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ أطلق التوفّي على النوم مجازاً، لأن النائم تذهب معظم حواسه فهو كالميت، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٣٩/٤٢]، وذكر الليل لأن النوم غالباً ما يكون بالليل ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ أي ما كسبتم من الأعمال في النهار الذي سبق الليل، وذَكَر النهار لأن العمل غالباً يكون فيه، وجرحتم نسبة إلى الجوارح وهي الأعضاء العاملة ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أي في النهار الذي يلي الليل، والبعث هنا اليقظة، والمغزى أن القادر على بعثكم من توفّي النوم قادر على بعثكم من توفي الموت ﴿لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ يوقظكم ويرسلكم في أعمالكم إلى أن يُقضى وينتهي الأجل المسمى في علمه لكل فرد منكم، وهو أجل الموت ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ بكون رجوعكم إليه وحده عند انتهاء آجالكم ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيحاسبكم عليه.

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ (٦١).

٦١- ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ فلا يعجزه أحدٌ منهم ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ من الملائكة ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ عندما يحين الأجل ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ فلا يفوتهم أحد من الخلق، كلٌّ في أجله.

﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ (٦٢).

٦٢- ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي ردّوا إلى قضاء الله وحكمه وجزائه، واستخدام الفعل الماضي لإفادة تحقق الوقوع لا محالة ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ سيّدهم الحق، وقد زال ما كان من ولاية غيره الباطلة الواهمة -من الزعماء والرؤساء- بزوال عالم الدنيا، وبقي المولى الحق، والحق في اللغة هو الثابت المتحقق، بعكس

الوهم الزائل ﴿أَلا لَهُ الْحُكْمُ﴾ حصراً وليس لأحد غيره، ولا شريك لـه ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ لأن حساب الإنسان يجيء معه، قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ۞ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣/١٧-١٤].

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُمْ مِن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٦٣).

٦٣- ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي من الأهوال والمخاطر والشدائد، وسمّيت ظلمات مجازاً، و﴿يُنجّيكم﴾ بالتشديد لتكرار ذلك المرة بعد المرة ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ خلال الشدّة تدعون الله تضرّعاً أي مبالغين في الدعاء والخضوع والذل لله تعالى، تارةً جهراً وتارة سرّاً بعيداً عن الرياء ﴿لَئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ عند الشدائد تُقرّ الفطرة السليمة بأنه لا ملجأ إلاّ الله.

﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ (٦٤).

٦٤- ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ من كل شدّة ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ لأن الإنسان بعد سلامته ونجاته إلى الأمن والرفاهية يحيل أسباب ذلك إلى مهارته وإلى حوله وقوّته، أو إلى الظروف والصدف.

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ (٦٥).

٦٥- ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ﴾ وحده ﴿عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ أي بأي وسيلة من الوسائل كالأعاصير والزلازل، وإبهام العذاب مراد لأجل الشمول، وحكمته أنه ينطبق على كل الظروف والحالات التي قد تكون خافية على الناس في وقت من الأوقات، وفي هذا العصر يأتي

العذاب مثلاً من القصف الجوي والقنابل الذرية والغازات السامة والألغام، وفسروه أيضاً على المجاز بأن العذاب الذي يأتي من فوق هو من ظلم وقهر السلطان ومن تحت أنه من الرعاع وأراذل الناس ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ الشيع هي الفرق كل منها تجتمع على أمر معين، والمعنى يجعلكم فرقاً يكيد بعضها لبعض، فتلتبس الأمور وتختلط عليكم وتظن كل شيعة أنها على الحق ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ فتصل الأمور بينهم إلى درجة الاقتتال، ويسود الخوف والعنف والطغيان بنتيجة تخلّي المجتمع عن القيم الروحية ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ أي انظر أيها النبي -وبالتالي كل مخاطب بالقرآن- كيف نقلّب الدلائل لهم من جميع الوجوه لعلهم يفقهون الحقيقة ولا يغترّون بالأوهام.

﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (٦٦).

٦٦- ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ﴾ كذّب معظمهم بالقرآن -في أول البعثة-، وكذّبوا بالعذاب ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ لا بد من تحققه ﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ المعنى أن الرسول ليس سوى منذر، ليس موكولاً بإجبارهم على الهدى، ولا يستطيع أن يمنعهم من التكذيب، والله تعالى هو الوكيل [الأنعام: ١٠٢/٦] والمسيطر والمُجازي.

﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٦٧).

٦٧- ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ﴾ من أنباء الله تعالى بالبشارات والثواب والعقاب ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ وقت استقرار وحصول لا محالة، فيثبت لكم عندئذٍ حقّه ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عند حصول كل نبأ من أنباء القرآن الكريم وتحققه وثبوته، ومنها نصر الله لرسوله ودينه وتحقق معجزات القرآن في الدنيا، وعند كشف الحجب في الآخرة.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٦٨).

٦٨- ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ-وهو أيضا لكل مسلم- ﴿الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ يندفعون في الحديث عنها بالطعن والعبث واللعب، وانتصاراً للمذاهب والطوائف واتباعاً للأهواء، ويلاحظ قوله تعالى: ﴿رأيت﴾ ولم يقل سمعتَ، والمعنى وجوب اجتناب مجالس الخائضين أصلاً لمجرد رؤيتها ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ انصرف عنهم حتى لا يكون جلوسك معهم بمثابة إقرار لهم على الخوض أو رضاً عنه، أو مشاركة به، أو إغراء لهم على التمادي فيه ﴿حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ لأن القرآن أجلّ وأسمى من أن يخوض فيه الخائضون، وإن كان دأبهم الخوض في الأحاديث فليكن في غير القرآن، حتى إذا امتنعوا عن الطعن والعبث والتهجم فيمكن عندئذ الجلوس إليهم للنقاش والحوار العقلاني ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ بوسوسته ﴿فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى﴾ أي بعد التذكّر ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ الذين وضعوا التكذيب والطعن والتهكم موضع التصديق والدراسة الجدّية.

﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (٦٩).

٦٩- ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ المطلوب من المتقين الإعراض عن الخائضين في آيات الله، وليس حسابهم، لأن الحساب على الله ﴿وَلَكِنْ ذِكْرَى﴾ على المتقين تذكيرهم بالصواب قبل الإعراض عنهم، أو قد يكون الإعراض في حد ذاته بمثابة تذكير لهم بقبح أقوالهم وأفعالهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ لعل الخائضين يجتنبون الخوض والعبث، وهو شبيه بقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۞ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٨٨/٢١-٢٢].

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٧٠).

٧٠- ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ دعْ معاشرتهم وملاطفتهم، ولا تبالِ بتكذيبهم واستهزائهم، ولا تقِم لهم وزناً، وليس المراد ترك تذكيرهم ومحاجّتهم، بدليل قوله ﴿وذكّر به﴾ في تتمة الآية، ومعنى اتخذوا دينهم لعباً ولهواً أنهم يستغلون الدين أو يتسترون به للتوصل إلى مآربهم الدنيوية من مال وجاه و زعامة، أو كأن اللعب واللهو صار ديناً لهم ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ وذلك سبب إعراضهم عن حقيقة الدين، بل اتخاذه وسيلة للوصول إلى مآربهم الدنيوية ﴿وَذَكِّرْ بِهِ﴾ أي بالدين أو بالقرآن، أو بالميثاق الفطري [الأعراف: ١٧٢/٧]، ﴿أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ كراهةَ أن تصبح النفس في الآخرة، رهينة بما كسبت من الإثم في الدنيا ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ﴾ يوم الحساب ﴿وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْهَا﴾ مهما تابت بعد فوات الأوان لا تقبل منها توبتها، أو تودّ لو تعود إلى الدنيا فتفتدي لخلاصها بكل ما يمكن، فلا يُقبل منها ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا﴾ صاروا رهينة لما كسبوا من الآثام، فصارت سبل الخلاص مسدودة عليهم ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ «بما» تفيد التلازم والارتباط بين الكفر وعذاب الآخرة.

﴿قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٧١).

٧١- الآيات (٧١-٧٣) تشرح كيف يكون التذكير المشار إليه في الآية السابقة:

﴿قُلْ﴾ أيها النبي-وأيها المسلم- للمشركين والكفار الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً -المشار إليهم آنفاً- ﴿أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا﴾ كالأصنام والأولياء والأضرحة والزعماء والرؤساء، وحيث الدعاء هو العبادة،

فالمعنى كيف يمكن أن نعبد هذه الأشياء التي ليس لها مقدرة على شيء ﴿وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ كيف نرتد إلى الجهل والجاهلية والشرك وعبادة الزعماء بعد أن ظهر العلم الحقيقي، وهدانا الله بالقرآن والرسول ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ﴾ كمثل من هَوَت به الشياطين من قمم الهداية إلى حضيض الجهالة بسبب اتّباعه الأهواء والوساوس، وأيضاً استهوته بمعنى ذهبت بهواه وعقله، أو زيّنت له هواه، وتشمل شياطين الإنس من الزعماء ورفاق السوء ﴿حَيْرَانَ﴾ متردّد ﴿لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا﴾ هو ممزّق بين وساوس الشيطان ورفاق السوء، وبين فكر الهداية ودعوة أصحابه المهتدين يقولون: له تعال معنا، فلا يبتّ بقبول الهداية، ولا يتخلّص من الضلال والحيرة وراء المادة، بل يبقى هائماً مضطرباً في حيرته ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ وما غيره من الأفكار والنظم الوضعية هو الضلال ﴿وَأُمِرْنَا﴾ نحن وأنتم ﴿لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فنتبع هديَهُ وحده، ولا نُسلم أنفسنا لغيره، ولا نشرك معه غيره في الدعاء، فاقتدوا بنا أيها المشركون والماديّون.

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٧٢).

٧٢- ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ﴾ بعد المحاجّة الفكرية مع المشركين ودعوتهم إلى الإسلام في الآية السابقة، أمرهم أن يقتدوا بالمسلمين لجهة إقامة الصلاة والالتزام بالتقوى، لأن الإيمان والإسلام ليس بمجرد قناعة فكرية، بل يترتب عليه عبادات وممارسات عملية حياتية في نطاق التقوى ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ ليوم الحساب، فالحساب على الله، وليس على العباد، وما علينا إلا البلاغ.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (٧٣).

٧٣- بعد الدعوة الفكرية والعملية في الآيتين (٧٠-٧١) ختمها ببيان أن الخلق ليس عبثاً:

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي لتحقيق غرض محدد متوافق مع آياته وسننه المطّردة وحكمته البالغة، فكل شيء في الخلق ذو مغزى ومعنى، ولا يوجد شيء عبثاً أو نتيجة الصدفة، ونظيره قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١/٣]، ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ أي قوله الحق يوم يقول للشيء كن فيكون، لا مردّ لقوله وأمره، فتتحقق مشيئته على أحسن نظام وعدل، فلا يكون في الإمكان أبدع مما كان ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ فيحاسب الناس بأعمالهم، حيث يكون له الملك وحده دون غيره يوم القيامة، ويزول ملك الناس الباطل الذي كان في الدنيا ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ عالِم بما غاب عن حس البشر وأذهانهم، كما هو عالِم بما هو ضمن المُشاهَد والمدركات ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ حكيم فيما خلق، خبير فيه.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (٧٤).

٧٤- بعد أن أمرت الآية (٧٠) النبي ﷺ خاصةً -والمسلمين عموماً- تذكير الكفار والمشركين، وبيّنت لهم كيف يكون ذلك: ﴿الآيات ٧١-٧٣﴾، ضرب تعالى مثلاً بطريقة إبراهيم في تذكير أبيه وتذكير قومه ومحاجتهم:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ وُلد إبراهيم في مدينة أور في بابل -منتصف المسافة تقريباً بين بغداد والبصرة اليوم- وبدأت بعثته على الأغلب خلال الفترة ما بين عامي ٢١٠٠- ٢٠٠٠ ق.م. وهي الحقبة الأخيرة من حكم السومريين في بلاد ما بين النهرين، أي قبل بداية عصر حمورابي والحكم البابلي بحوالي ٣٠٠ عام، وقد دخل إبراهيم المعبد ذات مرة وحطم الأصنام، وبذلك كان النموذج الأول لحفيده

محمد ﷺ، ثم اضطر بعد ذلك إلى مغادرة أور مع ابن أخيه لوط هرباً من اضطهاد قومه، وبوحي من الله انطلق برحلة طويلة نحو كنعان ثم إلى مصر ثم إلى شبه الجزيرة العربية، كان يدعو خلالها الناس إلى نبذ الشرك وعبادة الله الواحد، وقد ولد له ابنه البكر إسماعيل عليه السلام من زوجته المصرية هاجَر وهو في السادسة والثمانين من عمره، ثم ابنه اسحاق من زوجته سارة وكان عمره مئة عام، انظر (هود/٧١-٧٢)، واستوطن ابنه إسماعيل مكة المكرمة وتزوج فيها، وكان بذلك جدّاً للعرب المستعربة، وبنى مع أبيه الكعبة المشرفة، انظر آية [البقرة: ١٢٧/٢].

وفي الكتاب المقدس عند اليهود والنصارى ورد اسم أبي إبراهيم على أنه تارح Tarah، وذكرَ محمد أسد في تفسيره «رسالة القرآن» أن الاسم ورد في التلمود اليهودي على أنه زاره Zarah، غير أن مؤرخ الكنيسة يوزيبيوس Eusebius (٢٦٠-٣٣٩م) أورد الإسم على أنه آذر Athar ، ومع أن كل هذه المصادر لا يُعتدّ بها في تفسير القرآن الكريم، غير أنه يحتمل أنّ كان لآزر اسمان كما لكثير من الناس، أو قد يكون أحد الاسمين لقباً له، وفي قراءة: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ أي أتتخذهم عضُداً وقوّة؟ ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (٧٥).

٧٥- ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ الملكوت هو المُلك العظيم، والمعنى كما أرينا إبراهيم ضلال من يتخذ الأصنام آلهة، كذلك أريناه ،رؤية البصيرة والعقل، دلائل وبراهين وحجج ملكوت السماوات والأرض -بدليل الحوار الذي سيلي مع قومه- ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ بنتيجة إبصاره الدلائل ليصبح من الراسخين في اليقين.

ظهر من التنقيب عن آثار مدينة أور في أوائل القرن العشرين أنه كان لدولة سومر، التي استمرّ حكمها بين النهرين حتى حوالي العام ٢٠٠٠ ق.م، ما لا

يقل عن خمسة آلاف من الآلهة، كما كان لكل مدينة من المدن ما يسمّونه كبير الآلهة، وكان كبير الآلهة في مدينة أور يدعى نانّر Nannar أي إله القمر، وهو السبب الذي من أجله سُمّيت مدينة أور أيضاً، قمرينا Kamarina نسبةً لإله القمر، وأما مدينة لارسا كبرى المدن المنافسة لزعامة أور فكانت تدين لكبير الآلهة المسمّى، شَمَش Shamash أي إله الشمس، وكبيريْ الآلهة هذين هما اللذين تشير لهما الآيات التالية (٧٧-٧٨) في حوار إبراهيم مع قومه، ويلاحظ تشابه ألفاظ القمر والشمس مع نفس المسميات في اللغة العربية كونها جميعاً منبثقة من الأصل السامي، وتحتَ إلهيْ القمر والشمس كان لديهم مئات الآلهة الأخرى التي ترمز للكواكب والنجوم، وكانوا ينحتون لها أشكالاً وأصناماً، ولا شك أن الآيتين (٧٧-٧٨) من معجزات القرآن الكريم الباهرة، إذ لم يكن بوسع النبي ﷺ أن يعلم في حينه عن آلهة سومر وعبادة السومريين للقمر والشمس بالذات، الأمر الذي لم يتم اكتشافه إلا من تنقيبات الآثار في أوائل هذا القرن، ويبدو أيضاً أن كبير الآلهة في أور المسمّى نانّر، إله القمر، هو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/٦٣].

وقد تعرضت الدولة السومرية-ومدينة أور بالذات- للعديد من الكوارث بعد بعثة إبراهيم عليه السلام بحوالي قرن من الزمن، إذ استولى عليها الإليمون Elamites وأخذوا ملكها أسيراً ودمّروا المدينة تدميراً تامّاً، ثم أعيد بناؤها مرة ثانية إلى أن استولى البابليون عليها بقيادة حمورابي وأنهوا حكم السومريين لبلاد ما بين النهرين إلى غير رجعة، وهذا من مصداق قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧/١٦]، غير أن التراث السومري بقي واضحاً لدى البابليين، إذ تُصوّر إحدى الرسوم، التي تم اكتشافها في موقع أور، الملك حمورابي وهو يتلقّى قانونه

الشهير، المسمى بإسمه، من إله الشمس «شَمَش»، ويبدو أن بعثة إبراهيم عليه السلام عاصرت حكم ملك السومريين المسمّى أور-نَمّو Ur-Nammu ومنه اشتق اسم النمرود في اللغة العربية.

وقد بلغت أور ذروة ازدهارها وقت بعثة إبراهيم عليه السلام حتى أصبحت أغنى مدن ما بين النهرين، وكان نظام الحياة الدينية فيها وتعدد الآلهة ذا ارتباط وثيق بالنظام السياسي والاجتماعي والثقافي والاقتصادي، ثم كانت بعثة التوحيد التي جاء بها إبراهيم عليه السلام ذات أبعاد كثيرة لم تقتصر على الدين، إذ شكلت تهديداً لطبقة الحكام والكهنة وزعزعت مكانتهم تجاه العوام، وكانت تنذر بالقضاء على النظام الاقتصادي الذي كانت طبقة الكهنة والحكام المستفيد الأول منه، مما يفسر العداوة الشديدة التي قوبل بها إبراهيم واضطهاده ثم طرده.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ (٧٦).

٧٦- ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ أي ستره الليل بظلامه، لأن أصل الجَن الستر عن الحواس، وقيل سُمّيت الجنّ بذلك لأنها لا تُرى ﴿رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ قاله على سبيل المناظرة والمحاجّة مع قومه، أو على سبيل الاستنكار أو التهكم مثل: أهذا ربّي بزعمكم؟ لأن قومه كانوا يعبدون الكواكب وينحتون أصناماً لها، والخطاب موجّه لقومه بدليل قوله ﴿يا قوم﴾ في الآية (٧٨)، ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ قاله لمّا غرب الكوكب واختفى، ويقال فلانٌ أفل نجمه أي زال سلطانه، والمعنى أن الكوكب غير جدير بالربوبية، لأن الرب موجود لا يحتجب ولا يغيب ولا يزول سلطانه.

﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ (٧٧).

٧٧- ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا﴾ أي مشرقاً، وقاله تعريضاً بإله القمر عندهم المسمّى نانّر Nannar ، انظر شرح الآية (٧٥)، ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ لتكرار حجّته

على قومه ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنْ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ قاله على مسمع من قومه، وفي ذلك تعريض بضلالهم أشد من التلميح في الآية السابقة، وأضاف إليه أن هداية البشر متوقفة على الوحي الإلهي لا غير.

﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٧٨).

٧٨- ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾ قاله أيضاً مخاطباً قومه ليقيم الحجة عليهم، أي إن الشمس تظهر أكبر من غيرها فيجب أن تكون أكثر جدارة بالربوبية بزعمكم، وهو بذلك يعرّض بإله الشمس عندهم المسمّى شَمَش Shamash ، انظر شرح الآية (٧٥)، ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾ أي غابت واختفت ﴿قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ انتقل إبراهيم من التلميح بضلال قومه (الآية ٧٦)، إلى التعريض بهم (الآية ٧٧)، إلى التبرؤ من شركهم بعبادة الكواكب والأصنام.

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٧٩).

٧٩- ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي﴾ قلبي وعقلي ﴿لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ وهو كقوله تعالى مخاطباً النبي ﷺ ﴿قل أغيرَ اللهِ أتخذُ وليّاً فاطر السماواتِ والأرض﴾ (١٤).

﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلاً عن كل ما أنتم عليه من الضلال والعوج، ومائلاً عن معبوداتكم الباطلة إلى الاستقامة وإلى عبادة المعبود الحقيقي فاطر السماوات والأرض ﴿وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي وإضافةً إلى ذلك فأنا أعبد الخالق وحده، ولا أشرك بعبادته المخلوقات من كواكب وأصنام وغيرها مما يُظنّ أنها تُقرب إلى الله زلفى.

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (٨٠).

٨٠- ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ جادلوه بالحجج الواهية بعد أن أظهر لهم حجته الباهرة، ومجادلة الكفار دوماً من قبيل التمسك بالتقليد وعدم ترك ما كان عليه آباؤهم، ومن شأن الكفار غالباً أن يجحدوا الحقيقة ولو استيقنتها أنفسهم ﴿قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ أي ما قيمة حججكم الباطلة أمام الهدي الإلهي واليقين الناتج عن الدليل ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ لأنهم اعتقدوا أن لمعبوداتهم قوى غيبية تقدر على إيصال الضرر أو النفع لهم أو لغيرهم فخوّفوه بها ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ إلا أن يشاء ربي نزول الضرر بي بحسب علمه المحيط القديم، لا بقدرة معبوداتكم ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أنّ ما أقوله ثابت في عقولكم، وأنكم مقرّون به ضمناً وإنّما تحتاجون للتذكير، راجع آية [الأعراف: ٧/١٧٢].

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨١).

٨١- ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ من معبوداتكم التي لا تضر ولا تنفع ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ﴾ لأن الشرك هو الأكثر جدارة بأن يكون مصدر خوف لصاحبه ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ الشرك ليس عندكم فيه من الله برهان، لا بالوحي ولا بالعقل، فكيف يُعقل أن يكون هنالك شركاء له تعالى في الخلق والتدبير، أو في الوساطة أوالشفاعة أوالتأثير ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾ مَن أحق بالأمان والاطمئنان؟ فريق الموحّدين الحنفاء الذين يعبدون الله وحده ولا يخافون ولا يرجون غيره، ويعلمون أنه مسبب الأسباب و واضع السنن، أم فريق المشركين الواهمين الذين انضبعوا بتأثير بعض الأسباب والسنن الكونية التي وضعها الله في خلقه فنسبوها إلى الأصنام والكواكب من مخلوقاته ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إن كنتم تعلمون الحق من الباطل، والصواب من الخطأ، أو إن كنتم من أهل العلم والبصيرة حقّاً.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (٨٢).

٨٢- ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ جواب على السؤال في الآية السابقة ، أي إن الذين يستحقون الأمن هم المؤمنون الذين، من جهة لم يخلطوا إيمانهم بشرك، لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦/١٢]، وقوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣/٣١]، ومن جهة ثانية فإن الظلم تعبير عن المعصية والفسوق، فالإيمان إذا لم يرافقه العمل الصالح لا ينفع صاحبه، والآيات كثيرة في وجوب ارتباط العمل الصالح مع الإيمان، انظر مثلاً الآية (١٥٨)، ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ﴾ الأمان والسكينة والاطمئنان ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ إلى الحق، وغيرهم في ضلال.

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (٨٣).

٨٣- ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ وهي الحجة المشار لها في الآيات (٧٥-٨٢)، حجة البصيرة والعقل، أرشده تعالى إليها ليثني قومه عن الشرك وعن عبادة الكواكب والأصنام ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ بالنبوّة وبالعلم وبالحكمة ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ حكيم بتدبير خلقه وبعث من يشاء من رسله، ومن إنعامه تعالى على إبراهيم أيضاً أن جعل من النبوّات في ذريته:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاً هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۞ وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كلٌّ من الصالحين﴾ (٨٤-٨٥).

٨٤-٨٥- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاً هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ إشارة إلى أن الهداية طالت أجداده وذريته معاً ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ أي هدينا أيضاً من ذريته ﴿دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ﴾ وقد ذكر الرازي من ضمن شرحه لذكر الرسل والأنبياء على هذا الترتيب ما يلي: أولاً

أنه تعالى بدأ بذكر أنبياء بني إسرائيل -يعقوب- في هذه الآية، ولذا لم يذكر إسماعيل معهم، إذ لم يخرج من صلب إسماعيل من الأنبياء إلاّ محمد ﷺ، ولأن سلالة النبوة انتقلت من بني إسحاق إلى بني إسماعيل، وأما ذكر نوح فالمقصود منه بيان كرامة إبراهيم من جهة أجداده أيضاً، وليس من جهة ذريته فقط ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ من ذريته ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٨٦).

٨٦- ﴿وإسماعيلَ واليسعَ ويونسَ ولوطاً﴾ هدينا ﴿وكلاً فضّلنا على العالمين﴾ بأن جعلناهم هداةً مهتدين.

﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٨٧).

٨٧- ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ أي وفضّلنا أيضاً بعض آبائهم وبعض ذرياتهم وبعض إخوانهم، بأن كانوا أئمة للهداية ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ اخترناهم واصطفيناهم بالنبوة والرسالة واخترنا منهم الصدّيقين والشهداء ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ في القيام بدعوتهم، فاتبعوا أسلوب الحجة والإقناع والحوار والعقلانية والعلم والترغيب، ولم يتبعوا أسلوب القسر والإكراه والتنفير والتعنيف.

﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٨٨).

٨٨- ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ الهداية ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ وهو الهدي المشار له في مجمل الآيات (٧١-٨٧) ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فلا ينفع مع الشرك شيء من الأعمال الصالحة مهما بلغ فضل أصحابها.

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَـٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ (٨٩).

٨٩- ﴿أُولَئِكَ﴾ الأنبياء الثمانية عشر الذين تقدّم ذكرهم، مع أممهم، لأنه ذكر مع الأنبياء آبائهم وذرّياتهم وإخوانهم، ثم قال يهدي به من يشاء من عباده، أي أن الأمم أُوتيت الكتاب والحكم والنبوّة بظهور الأنبياء فيها ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ الكتاب إسم جنس للوحي الإلهي، والحكم هو الحكمة الناتجة عن معرفة وفهم ما في الوحي من الأحكام والعمل بمقتضاه ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَـٰؤُلَاءِ﴾ من كفار قريش، أو غيرهم من العرب، أو أهل الكتاب، أو الكفار في كل العصور والأمكنة ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا (أي بالرسالة) قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ وهم المسلمون في كل الأزمنة، لأن الله تعالى يوكّل بالرسالة أقواماً آخرين يستحيل أن يكفروا بها، بل يتمسكوا بها ويعملوا بمقتضاها، فهنالك دوماً من هو جدير بحمل راية الدين، وهؤلاء الأقوام موجودون في الدنيا على مرّ العصور وليسوا مقتصرين على جنس معين، وقد يتتابعون في حمل راية الإسلام من قوم إلى قوم آخرين فيشرّفهم تعالى بحمل رسالته، وهذه الآية إخبار بالغيب، واستخدام الفعل الماضي للدلالة أنّ نصره تعالى لدينه واقع لا محالة.

ويحتمل المعنى أيضاً أنه بعد كفر أهل الكتاب من بني إسرائيل، ثم رفضهم آخر أنبيائهم المسيح عليه السلام، ثم انحراف المسيحية نحو ديانة بولس، فقد وكّل تعالى الرسالة السماوية إلى المسلمين من ذرية إسماعيل.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٩٠).

٩٠- ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ هم الموكل إليهم حمل الرسالة والدعوة إليها، المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ لأن الكلام أستمرار مباشر لما قبله.

﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾ أيها المسلم، أو أيها السامع، اتّبعهم، وليكونوا قدوة لك في الإيمان الصحيح والتوحيد والعمل الصالح ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ لأن تبليغ الدعوة من واجب المسلم لكون القرآن ذكرى للعالمين: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ القرآن تذكير بالحق للناس أجمعين، وليس لقوم أو أقوام دون آخرين.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (٩١).

٩١- ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ وهم منكرو النبوّة-بدليل تتمة الآية- في مقابلة الذين هدى الله المشار إليهم في الآية السابقة، لم يعرفوا الله تعالى حق المعرفة بإنكارهم تسلسل النبوات ونزول الوحي على بني آدم، فاليهود أنكروا نبوة كلّ من عيسى المسيح والنبي عليهما الصلاة والسلام، والمسيحية أنكرت بعثة النبي ﷺ ﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ قالوه تهكّماً وإنكاراً للوحي الذي نزل على النبي ﷺ، فهم يزعمون أن الهداية مقتصرة عليهم ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ إن زعموا استحالة نزول الوحي على بشر فكيف بتصديقهم نزول الوحي على موسى؟ ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ بدلاً من أن تكون التوراة نوراً وهدىً في حياتكم العملية، فقد جعلتم منها بحرّد أوراق وشكليات وللتبرك فقط، وجعلتم الدين جنسية وعصبية، و لم يترتّب على التوراة شيء إيجابي في سلوككم، إذ تعملون بالقليل منها، وتظهرون هذا القليل للتستر بالدين، وكذريعة لتبرير مآربكم وأفعالكم، وتتجاهلون وتخفون عن أنفسكم الكثير الباقي ممّا لا يناسب أهواءكم وأطماعكم المادية الدنيوية، عدا عن تلاعبكم بالتوراة وتحريفها

والحذف منها والإضافة عليها ﴿وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ عن طريق الوحي المتتابع ببعث الأنبياء والرسل عبر العصور ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ فما الغرابة في كون منزّل التوراة والإنجيل قد أنزل القرآن على رسوله ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ دعهم، أيها المسلم، في باطلهم إذا لم تنفع الحجة معهم، والمغزى أن الغاية هو الحوار والإقناع بالحجة والبرهان، وليس بالقسر والإكراه، لأنّ الحساب على الله.

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (٩٢).

٩٢- ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ وهو القرآن الكريم، وفي ذلك عودة لموضوع الآية (١٩)، وكون القرآن مباركاً لكثرة خيراته ومنافعه وأنه ثابت ومحفوظ لا يتطرق إليه النسخ ولا التحريف ﴿مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مصدّق ما تقدّمه من الوحي الذي نزل على الأنبياء، ولا يصدّق بالضرورة كتب اليهود والنصارى بوضعها الحالي المشوّه والمحرّف، ولا حتى بالوضع الذي كانت عليه وقت نزول القرآن، فمن المعلوم أن كتبهم قد خضعت لكثير من التحريف والتغيير عبر تاريخها، كما أنه ليس المقصود تأكيد تشريعات اليهود والنصارى لأن القرآن قد نسخها [البقرة: ١٠٦/٢]، ولكن المقصود تأكيد ما تبقى من الحقائق الأساسية في كتبهم وقت نزول القرآن، وهو معنى تعبير -الذي بين يديه-، انظر شرح آيات [آل عمران: ٣/٣] و[المائدة: ١٣/٥-١٤].

﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾ أي لتنذر أهل أم القرى -بحذف المضاف-، وأم القرى هي مكة المكرمة، سمّيت كذلك لأن فيها الكعبة أول بيت وُضع للناس ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ إشارة للبشرية جمعاء، لأن دعوة الإسلام عالمية من جهة، ومن جهة ثانية فنحن نعلم الآن علم اليقين أن المسلمين في كافة أنحاء العالم يصلّون متوجهين إلى مكة فهذا مصداق حرفي لكونهم من حولها ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ

بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ المؤمنون بالآخرة حقّاً ويقيناً يؤمنون بالضرورة بهذا الكتاب المبارك ﴿وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ يؤدونها بحقّها وخشوعها، ملتزمين بمعناها وهدفها الحقيقي وما يترتب عليها من الالتزام، ولا يؤدونها طقوساً شكلية فارغة المحتوى، ولا كالذين هم عن صلاتهم ساهون المشار إليهم بآية [الماعون ١٠٧/٥].

ويلاحظ أن هذه الآية قد ذكرت أربعة خصائص للقرآن الكريم:

١) أنه كتاب مبارك.

٢) أنه مصدق ما بقي من الوحي الذي نزل على الأنبياء من قبل.

٣) أنه موجّه للبشرية جمعاء.

٤) أن الذين يؤمنون بالآخرة إيماناً يقينياً ويحافظون على الهدف والمغزى من الصلاة لا بد أن يكونوا من المؤمنين به إذا اطّلعوا عليه.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلاَئِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٩٣).

٩٣- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن قال ما أنزل الله على بشر من شيء، وأنكر النبوات ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ بادعاء النبوة، كما ادعاها بولس مؤسس المسيحية ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ إما مدّعياً النبوة، أو معتقداً أن القوانين الوضعية يمكن أن تحل محل الشريعة، أو يكتب من عنده وينسبه إلى الله تعالى، كما هي الحال في كتب اليهود والمسيحية، أو زاعماً على سبيل التهكم أن القرآن من عند محمد.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلاَئِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، ولكل من سمع وقرأ، وغمرات الموت هي سكراته وشدته

واستعيرت من غمر الماء كناية عن الشدة الغالبة ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾ من العذاب إن استطعتم، وقيل هي بمعنى أخرجوا أنفسكم من أجسامكم إزهاقاً وتشديداً بلا إمهال، قال الرازي: قال المفسرون: إن نفس المؤمن تنشط في الخروج للقاء الله، ونفس الكافر تكره ذلك فيشق عليها الخروج، وهو معنى الحديث: «من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»،

﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ العذاب مقترناً بالشعور بالهوان، وهو جزاء الاستكبار كما سيرد: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ بإنكار بعثة النبي الأحمد خاتم الأنبياء والرسل، وافتراء كتب من عندكم ﴿وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ واستكباركم عن دراسة وتفهّم الوحي.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (٩٤).

٩٤- ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى﴾ منفردين عن أهلكم وإخوانكم وأنصاركم وأعوانكم ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ في بطون أمهاتكم ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ ما خوّلناكم من المال والجاه والزعامة -لأنكم كنتم مفوّضين بها غير مالكين لها- فأصبحتم يوم القيامة عاجزين عن الانتفاع بها لأنكم لم تقدموا منها لآخرتكم ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ كالأصنام والأولياء والزعماء وأصحاب القبور والقدّيسين ورجال الدين ومدّعي النبوة الذين كنتم تدعوهم ليشفعوا لكم عند الله بزعمكم ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ تقطّع ما كان بينكم من الوصل بزعمكم ﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ضلّ عنكم الشفعاء المزعومون، وضلّت عنكم أوهامكم التي كنتم تركنون إليها، ولم يبق أمامكم إلا مواجهة الحقيقة.

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ (٩٥).

٩٥- ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ وحده ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ بخلاف الشركاء الذين زعمتم فلا يستطيعون من ذلك شيئاً، والحب والنوى هي حبوب النبات، ونوى الثمار، والخطاب استئناف للآيات (٩١-٩٤) لأنهم زعموا الشفعاء والشركاء، والآيات (٩٥-١٠٣) تشير للقدرة الإلهية التي لم يقدروها حق قدرها ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ عندما تنشق تحت التربة فيخرج منها النبات الحي بعد أن كانت حباً ونوىً ميتاً ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ عطف على فالق الحب والنوى، أي هذا الجسم الحي للبشر أو الحيوان أو النبات يتحول إلى جسد لا حراك فيه إذا فارقته الروح ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ﴾ مصدر الإعجاز في الحياة والموت ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ كيف تُصرفون إلى عبادة غيره، أو تشركون معه من لا يستطيع إحياء حبة صغيرة ولا بذرة واحدة، ولا إنبات نبتة ولا وريقة خضراء، ومن لا يستطيع إعادة الروح إلى الجسد الميت.

﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (٩٦).

٩٦- ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ﴾ وهو انشقاق الصبح من ظلمة الليل، والإصباح بدء الصبح ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ فَلَقَ الإصباح بعد أن جعل الليل سكناً، يحصل فيه السكون للبشر والحيوان ويحصل فيه الاطمئنان والهدوء الجسمي والنفسي بعد دوّامة العمل في النهار ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ جعل فيهما وسيلة لحساب الزمن والأوقات، من دوران الأرض حول الشمس للتقويم الشمسي، ودوران القمر حول الأرض للتقويم القمري الهجري ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ العزيز الذي قدّر النجوم والكواكب وفق تواقيت معينة لا تحيد عنها، العليم بخلق النظام الفلكي والكوني وتدبيره.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٩٧).

٩٧- ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ جعل لكم من علم الفلك وسيلة لمعرفة الاتجاهات في البر، وللملاحة في البحر في ظلمة الليل ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الإشارة لآيات القرآن الكريم وإلى الآيات الكونية المعجزة، والمعنى أنه لا يقدّر الإعجاز فيها إلاّ أهل العلم.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ (٩٨).

٩٨- ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ البشر كلهم مخلوقون من أنفس متماثلة، وشبيه بذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء: ٤/١]، وقوله عزّ من قائل ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النحل: ١٦/٧٢]، وقوله جلّ ثناؤه ﴿بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ٣/١٦٤].

﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ إلى أن يحين الأجل الذي يصل إليه المرء فيستقر فيه، فهو نهاية المطاف في دنياه، والمستودع يكون في حياته الآخرة لا يستطيع التحول عنه بعد موته، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: ٦/٦٧] أي وقت حصول لا محالة، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ١١/٦]، فالله تعالى يرزقها إلى أن يحين أجلها -مستقرها-، ويعلم ما تصير إليه في آخرتها- مستودعها-، ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ وهو تفصيل الإعجاز في الأنفس، وما تصير إليه، مما لا يدرك معناه ومغزاه إلاّ المتعمق في الفهم -الفقه-.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ

مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٩٩).

٩٩- ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ بالماء ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من كل الأصناف والأنواع والفصائل، مع أن السبب واحد وهو الماء ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ من النبات-والالتفات في الكلام من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم لبيان أنه تعالى ليس كالبشر وليس كمثله شيء وأنّ الإشارة إليه بضمائر البشر للتقريب إلى الأذهان، ولهذا فإنّ تغيير الضمائر عن الله تعالى كثير في التنزيل- ﴿خَضِرًا﴾ سوقاً خضراء غضّة عندما يبدأ الإنبات ﴿نُخْرِجُ مِنْهُ﴾ من السوق الخضراء ﴿حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾ كما في سنابل القمح والحبوب ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ وهي عناقيد الرُطب والتمر، ودانية قريبة في متناول يد القاطف ﴿وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ أي وأخرجنا جناتٍ من أعناب، وهي كروم العنب ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾ معطوفة على نبات، أي فأخرجنا به نبات كل شيء والزيتون والرمان، وهو عطف الخاص على العام، واختصّ تعالى هاتين الشجرتين بالذكر لكونها عزيزة عندهم ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ تشتبه الثمار على الناظر بأنها متماثلة، ومع ذلك فهي مختلفة في الطعم والنكهة، فيكون تقدير الآية: والزيتون مشتبهاً وغير متشابه، والرمان كذلك مشتبهاً وغير متشابه، ويحتمل المعنى أيضاً أنها مشتبهة لكونها جميعاً من عناصر الماء والمواد العضوية، ومع ذلك فالشجر والثمار غير متشابه إطلاقاً ﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ عند تكوّن الثمار تدريجياً ﴿وَيَنْعِهِ﴾ وانظروا إلى نضوجه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ هذا الإعجاز بيّن لمن عنده استعداد للتفكير الموضوعي والإيمان، أما المكابرين المصرّين على الكفر فلهم شأن آخر، ومنهم من سيلي ذكره في الآية التالية:

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٠٠).

١٠٠- ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ رغم كل الآيات الباهرات المشار إليها في الآيات السابقة (٩٥-٩٩) فقد جعلوا الجن شركاء الله، هكذا من عندهم، لمجرد التخمين بلا برهان، وهم نوع آخر من المشركين اعتقدوا بشرك الجن معه تعالى، وإعراب ﴿شركاءَ الجنَّ﴾ مفعولان به لِجَعلوا ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ جعلوهم شركاء رغم أنه تعالى خالق الجنّ فكيف تُعبد المخلوقات، ويحتمل المعنى أيضاً عود الضمير في ﴿خَلَقهم﴾ إلى المشركين، أي أنهم يعلمون أنه تعالى وحده خالقهم، ومع ذلك لم يمنعهم علمهم أن يتخذوا مَن لا يخلق شريكاً للخالق ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ﴾ اخترعوا له بنين وبنات، خرقاً لكل منطق وتفكير سليم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بغير علم يقيني، ولا تحقُّق منه، فمن جهة تقول المسيحية: إن المسيح ابن الله، ومن جهة ثانية كانت العرب في الجاهلية تقول: إنّ الملائكة بنات الله ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيه له عن كل ما لا يليق به ﴿وَتَعَالَى﴾ عن كل اعتقاد باطل وقول فاسد، فهو بعيد كل البعد عن النقصان والعيب الذي تضمنه قولهم بنسب الذرية والشركاء إليه، قال الرازي: التسبيح يعود إلى أقوال المسبّحين، والتعالي يعود إلى صفاته الذاتية التي لا تحصل لغيره ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ لأن أي محاولة لوصفه تعالى، أو لتحديد صفاته، ليست سوى استحالة منطقية، وأما صفاته تعالى المذكورة في القرآن الكريم فلا يقصد منها الإحاطة بحقيقته، وإنّما بيان أثر هذه الصفات في الخلق وفي الكون من حولنا.

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١٠١).

١٠١- ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ مبدعهما وخالقهما على غير مثال سابق، انظر شرح الآية (١)، ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾ فمن أبدع السماوات والأرض لا يستحيل عليه خلق عيسى المسيح من أم بلا أب، فلا يكون ذلك مبرراً لجعل المسيح ابن الله، وقصارى ما في الأمر أن يكون ذلك

إبداعاً منه ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ما من شيء إلاّ هو خالقه والعالم به، وليس الأمر مقتصراً على خلقه المسيح من غير أب.

﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (١٠٢).

١٠٢- ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ القادر على كل شيء، كما ورد في الآيات (٩٥-١٠١) ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وغيره لا يقدر على شيء من الخلق ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ وحده، لأن من انفرد بهذه الصفات كان وحده الجدير بالعبادة ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ مالك الأرزاق، لا مدبّر إلاّ هو، الموكل بأمور عباده والرقيب عليها، وبيده الآحال، غير أنّ هذا العالَم عالَم الأسباب، قال الرازي: لولا الأسباب لما ارتاب مرتاب.

﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١٠٣).

١٠٣- ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ لا تحيط به أبصار عباده ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ وهو محيط بأبصارهم وبصائرهم ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ هو وحده اللطيف من حيث أن العقل والفهم والخيال البشري كلها لا تستطيع الإحاطة به، وبالمقابل فهو وحده الخبير المحيط بأمور مخلوقاته.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ (١٠٤) .

١٠٤- ﴿قَدْ جَاءَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وهي آيات القرآن الكريم، لأنه تحصل بها البصيرة عند من اختار الإيمان، والبصيرة إدراك القلب ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾ من يختار الإبصار يعود بالنفع لنفسه ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ ومن اختار عمى القلب يعود بالضرر على نفسه ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ وهو قول الرسول لهم، وقول كل داعية مسلم، أي لا أقوم بحفظ أعمالكم، ولا أحصيها عليكم، ولا أجازيكم بها، إنما أنا نذير، والله هو الحفيظ عليكم.

﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (١٠٥).

١٠٥- ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ﴾ يوضحها تعالى من كل الوجوه ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ فيقول الخصوم أن النبي ﷺ أشبعها دراسة كي تظهر بهذا الإعجاز ﴿وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ تصريف الآيات وإيضاحها من كل الوجوه هو لغرض بيان القرآن لأهل العلم من ذوي الذهن المنفتح، الذين لا يعارضون القرآن تقليداً ولا عناداً، ولا قبل أن يقرؤوه ويتفكّروا في معانيه، وأما زعم البعض أنه ﷺ دارس بالقرآن اليهود وغيرهم من أهل الكتاب فينقضه أن هذه السورة مكية نزلت قبل أن يتصل بهم في المدينة، ولو تلقى عنهم القرآن بالمدارسة لما سكت اليهود عن بيان ذلك للمشركين حين أرسلوا إليهم يسألونهم أكثر من مرة، وعلى شدة تشوّق اليهود لتكذيب النبي ﷺ فإنهم لم يقولوا بهذا الزعم، يضاف إلى ذلك أن القرآن مهيمن على كتبهم، انظر آية [المائدة: ٥/٤٨]، وقد نسخ منها ما نسخ [البقرة: ٢/١٠٦]، وأظهر تحريف وتلاعب الأحبار بها، وكون أكثرها من تأليفهم، انظر شرح آيات [آل عمران: ٣/٣] و[النساء: ٤/٤٦] و [المائدة:/١٣-١٤].

﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٠٦).

١٠٦- ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ لا تبال، أيها الرسول، ولا تلتفت إلى سفاهات الكفار كقولهم درست، فالحق يعلو بنفسه ويظهر بقول وعمل وإخلاص أصحابه ﴿وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ﴾ بعد إبلاغهم.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (١٠٧).

١٠٧- ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ فلا يثقل عليك كفرهم أيها النبي، إذ لو شاء الله لخلقهم كالملائكة، فيكونوا طائعين مؤمنين بلا خيار، ولكن مضت سنته تعالى أن يكون للبشر حرية الخيار فلا يجبرهم تعالى على الإيمان والطاعة

﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ لأن الله تعالى وحده الحفيظ والوكيل على عباده، وهذه الآية وأمثالها تأكيد على حرية الدين والعقيدة.

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٠٨).

١٠٨- ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ لا تسبّوا الكفار أو المشركين الذين يدعون أصناماً أو معبوداتٍ من دون الله، وأيضاً لا تسبّوا معبوداتهم التي يدعونها من دون الله-لأن اسم الإشارة يمكن أن يعود على المشركين كما يمكن أن يعود على معبوداتهم- وتعلق المعنى بما قبله أن الله تعالى لم يجعل رسوله حفيظاً ولا وكيلاً على العباد، فمن باب أولى أن يمتنع المؤمنون عن سب الكفار وسبّ معبوداتهم ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا﴾ عدواناً وظلماً ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ عن جهالة ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ لأن الأفراد يستحسنون ما اعتادوا عليه في مجتمعاتهم، وما ورثوه عن آبائهم، من عقائد الإيمان أو الكفر أو التسامح أو التعصب، فالغالبية منهم على التقليد أو الجهل، والأقلية فقط تُعمل العقل والفكر الموضوعي بحثاً عن الحقيقة، والنتيجة أن الكثير من الناس قلّما يستفيدون، بشكل إيجابي، من حرية الخيار التي وهبها الله لعباده ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من خير أو شر، وحق أو باطل، فيحاسبهم عليه.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٠٩).

١٠٩- ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ بعد أن صرّفَ الله تعالى للكفار الآيات الباهرة في القرآن الكريم كالآيات (٩٥-١٠٤)، وبعد أن زعموا أن النبي ﷺ أشبع آيات القرآن دراسةً كي تبدو بهذا

الإعجاز، وهم قد صمّموا على أية حال أنّ القرآن ليس من جنس المعجزات التي يريدونها، وقد يكون ذلك لطفولتهم العقلية، أو للتعجيز، لذا أقسموا الأيمان المؤكدة أن سيؤمنون لو جاءتهم معجزة خارقة، وفي ذلك عودة لموضوع الآية (٧)، ﴿قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ قل لهم أيها الرسول: إنّ الآيات الخوارق تتم بقدرته تعالى فقط، وليس لي مقدرة على ما تطلبون، ولا أدّعي ذلك، وعلى أية حال فالله تعالى لا ينزّل الآيات الخوارق ولا يبديها إلاّ لحكمة ومصلحة للعباد، وليس بناء على معاندة الكفار وتعسفهم وتوقيتهم، ويحتمل المعنى أيضاً أن آيات الله محيطة بكم من كل جانب، في خلقكم وفي أنفسكم وفي خلق الحياة والكون من حولكم ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ أي ما يدريكم أيها الناس كيف يكون سلوك الكفار لو جاءت المعجزات الخوارق التي يطلبون؟ فمن لا يؤمن ولا يتفكّر بكل معجزات الخلق المحيطة به لا ينفعه نزول الخوارق الخاصة، وأمثال هؤلاء الناس لا يؤمنون على أية حال، وتفصيل ذلك بيّنته الآية التالية:

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١١٠).

١١٠- ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾ فيصبحون محتارين مذهولين، يختلقون مختلف الأعذار، وقد يدّعون أن ما شاهدوه ليس سوى سحر أو خداع، وقد يظنّون أن المسّ أصاب عقولهم، أو أن عيونهم وحواسهم أصابتها آفة، أو يستمرون بالإصرار والمكابرة في جميع الأحوال، وقد نسب تعالى تقليب أفئدتهم وأبصارهم إلى ذاته العلية لأن كل شيء في العالم يجري بحسب سننه في خلقه ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ كما لم يؤمنوا بالقرآن قبل ذلك، لأن المكابر الذي لا يستخدم عقله لدراسة القرآن ولمعرفة حدارته الذاتية من حيث إنه كتاب منزل، يتشبّث بالمكابرة عند مشاهدة الآيات الحسية، وقد حدث

ذلك لليهود وقت بعثة موسى عليه السلام فلم تنفعهم الخوارق المذهلة كانفلاق البحر، وتظليل الغمام عليهم في الصحراء، ونزول المن والسلوى، وتفجُّر الماء اثنتي عشرة عيناً في الصحراء، بل تقنطوا في كفرهم وتمردهم على موسى عليه السلام ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يتركهم تعالى لحرية خيارهم فيستمروا في التخبط والطغيان.

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ (١١١).

١١١- تتمة الخطاب من الآية السابقة: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ لو أنه تعالى لم يقتصر فقط على إنزال ما طلبوه من الخوارق، بل لو نزّل عليهم الملائكة تباعاً، وجهاً لوجه ﴿وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى﴾ فأخبروهم بحقيقة الحياة الآخرة بعد الموت ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ كل ما يمكن حشده، وجهاً لوجه، من براهين الحقيقة ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ ما كان لديهم الاستعداد أن يؤمنوا ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ لأن كل شيء يجري في الكون بموجب سننه تعالى في خلقه، فمن فقَدَ الاستعداد للإيمان وأصرّ على الضلال لا يؤمن، ولو شاء تعالى لكان غير ذلك ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ يجهلون سننه تعالى في الخلق، ويجهلون كيفية انطباقها على الأفراد والمجتمعات.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (١١٢).

١١٢- ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ كما جعلنا هؤلاء الكفار والمشركين والمكابرين-المشار إليهم في الآيات السابقة- أعداءً لك أيها النبي، فكذلك جعلنا لكل نبي قبلك أعداءً على شاكلتهم، وهم شياطين الإنس والجن-والشيطان في اللغة هو كل عاتٍ متمرد، والعدوّ يطلق على المفرد والجمع- والمعنى أن من سنة الله تعالى في خلقه أن يكون كل عاتٍ متمرد

متكبّراً لا ينقاد إلى الحق، يناصب الأنبياء والرسالات السماوية والدعاة وأنصارهم العداء، ويؤذيهم بالقول والفعل، وغالباً ما يكون هؤلاء الشياطين العتاة من الزعماء والمترفين، ومن قساة القلوب المفسدين في الأرض، كالمشار لهم في آيات [البقرة: ٢/ ٦-٢٠] ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ﴾ يقول بعضهم لبعض أقوالاً معسولة مموّهة مبطّنة، مستخدمين أساليب ونظريات فاسدة خادعة، كزعمهم أن الإيمان غرور، وأن لا حياة بعد الموت، وأن الكون أوجد نفسه بالصدفة، وأن لا خالق ولا وحي، فيغرّون بذلك ﴿غُرُورًا﴾ خداعاً وباطلاً وأخذاً على غرّة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٦٤].

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ لأن مشيئته تعالى اقتضت أن يكون لديهم استعداداً للخير والشر، وأن يكونوا مختارين في سلوكهم لا مجبرين ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ فإنما عليك البلاغ، والحساب على الله.

﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ (١١٣).

١١٣- ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ﴾ تميل إلى زخرف القول والغرور، لأن الصغو في اللغة معناه الميل، كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤/٦٦]، ﴿أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ تميل قلوبهم إلى تصديق زخرف القول وتصاب بالغرور ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ يقبلون بزخرف القول، ويصبحون راضين عنه دون بحث أو تحقق أو تأكد من صحته ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ فيرتكبوا من الآثام والخطايا بنتيجة رضاهم وقبولهم كلام الخداع والباطل، واغترارهم به.

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (١١٤).

١١٤- قل لهم أيها النبي، أو أيها القارىء، أو أيها السامع: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ إن كنتم مكابرين ومصدّقين لزخرف القول وراضين به، فالله تعالى يحكم بيني وبينكم ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾ فصّل كل الحجج والبراهين العقلية والعلمية، وفصّل الحق من الباطل، وفصّل الأحكام الشرعية ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ﴾ فهم ﴿الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ أي القرآن ﴿مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ وهو برهان آخر على صدق نبوته ﷺ ﴿فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ لا تكونن أيها السامع، أو القارىء، أو من بَلَغته هذه الرسالة، من الشاكّين.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١١٥).

١١٥- ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ بتنزّل القرآن على خاتم الأنبياء والرسل، الذي أتمّ به الوحي الذي نزل على الأنبياء من قبل، فالكلمة بمعنى الوحي، فيكون إتمام الكلمة هو ختم الوحي، والكلمة أيضاً بمعنى القضاء، أي تم قضاؤه تعالى منذ الأزل بما قضى وقدّر، وهي أيضاً بمعنى الوعد، وإتمامها تحقيق الوعد المذكور في كتب اليهود والنصارى ﴿صِدْقًا﴾ تصديقاً لوعده في التوراة والإنجيل ببعث النبي محمد ﷺ ﴿وَعَدْلاً﴾ لأن القرآن يبشر المؤمنين، وينذر الكافرين، بتحقيق العدالة إن في الدنيا أو في الآخرة ﴿لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ مطابقة لما سبق علمه، ولا بدّ من تحقق وعده، والمعنى أيضاً أن القرآن محفوظ من كل تحريف وتبديل ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ الجدير بالعبادة لكونه يسمع دعاءكم ويعلم حالكم.

﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ (١١٦).

١١٦- ﴿وَإِنْ تُطِعْ﴾ أيها المؤمن، أو أيها السامع، أو القارىء ﴿أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لأن أكثرية الناس في غالب الأحوال يتبعون

أهواءهم، ولا عبرة بالأكثرية إن كانت على الضلال ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾ فيما يتعلق بحقيقة الخلق، والحياة بعد الموت، والأخلاق، والخير والشر، والعبادات، وقواعد السلوك البشري ﴿وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ أي يكذبون بنتيجة الظنّ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (١١٧).

١١٧- ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ الذين يحلّون ويحرّمون من عند أنفسهم، كما سيرد في الآيات التالية ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ بعدما تبيّن الحق من الباطل، وبعدما قام الرسول والدعاة بواجبهم، فلم يبقَ إلاّ تفويض أمر الناس إلى الله، لأنه تعالى أعلم بمن يهتدي منهم، ومن يضلّ، وحسابهم عليه.

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ (١١٨).

١١٨- الجاهلية لم تكن مقتصرة على العرب قبل الإسلام، فهنالك جاهلية تُمارس في كل العصور والأمكنة: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ وحده، لأنّ المشركين في الجاهلية، وفي كل وقت، يتعبدون بتقديم الذبائح إلى أوثانهم وآلهتهم ويذكرون اسم آلهتهم أو أوثانهم عليها، فنهاهم تعالى عن ذلك وأمرهم أن يذكروا اسم الله وحده عليها ﴿إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ لأن الشرك بالله والإيمان لا يجتمعان، والخطاب استمرار للآية (١١٦) بالنهي عن طاعة الأكثرية الضالة.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ (١١٩).

١١٩- ﴿وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ الكلام لا يزال في التوحيد ونفي الشرك، وتقدير الخطاب: وأيّ شيء ثبت لكم من الفائدة -أيها المشركون- في ترك الأكل مما ذُكر اسمُ الله عليه وحده؟ أو: ما يمنعكم أن تأكلوا مما ذُكر اسم الله عليه وحده؟ والحال أنكم تأكلون من الذبائح ما أُهلّ به

لغير الله من أوثانكم وآلهتكم؟ وهو استفهام إنكار ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ لأن المحرّمات قد فصّلها تعالى لكم، فما بال بعضكم يجعل الحلال حراماً، وبعضكم يجعل الحرام حلالاً؟ -وتفصيل التحريم مذكور في الآية (١٤٥) من هذه السورة- ﴿إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ بسبب شدة الجوع، فحينئذٍ يزول التحريم و يجوز لكم الأكل من الطعام المحرّم، انظر الآية (١٤٥)، و آية [المائدة: ٣/٥]، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ﴾ أي بموجب أهوائهم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يقيني، فيحرّمون الحلال ويحلّون الحرام على هواهم، والإشارة عامة وغير مقتصرة على المأكل والمشرب-وقد استنتج الرازي منها أن القول في الدين بناء على التقليد حرام، لأن التقليد والعصبية عبارة عن اتباع الهوى، ممّا ينفي دور العقل، وقد حرّمته الآية- ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ الذين يتجاوزون حدود الشرع، ويبتدعون حدوداً وتشريعات من عند أنفسهم، ولأن من يحرّم ما أحلّ الله، كمَن يحلّ ما حرّمه الله، لا فرق بينهما.

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ (١٢٠).

١٢٠- ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ ما أعلنتم منه وما أسررتم، فلا يكون لديكم مقاييس أخلاقية مزدوجة، مختلفة في العلن عمّا هي في السر، وفي الحديث: «اليسير من الرياء شرك»، وفي الحديث أيضاً: «ما تضعضع امرؤ لآخر يريد به عَرَض الدنيا إلاّ ذهب ثلثا دينه»، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ﴾ بأفعالهم الظاهرة، أو بالدسائس الخافية والمكر السيء والخداع والتمويه ﴿سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ أي بنتيجة ما كانوا يقترفون من الإثم، وهو الارتباط بين السبب والمسبَّب، لقوله تعالى: ﴿ومن يعمل مثقال ذرة شرّا يره﴾ [الزلزلة: ٨/٩٩].

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ (١٢١).

١٢١- ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ كالذبائح التي تذبح للأوثان والأصنام والطواغيت ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ والحال أنها -أي الذبائح- فسقٌ، أُهلّ بها لغير الله، لقوله تعالى: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ (١٤٥)، فيكون النهي في الآية مختصًّا بالفسق فقط، أي ما أُهلّ لغير الله به، ولقوله ﷺ: «ذِكرُ الله على قلب كل مؤمن مَن سمّى أو لم يسمِّ».

﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ﴾ من شياطين الإنس والجن ﴿لَيُوحُونَ﴾ يوسوسون ﴿إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ من المشركين ﴿لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ في الحلال والحرام ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ في استحلال الحرام وتحليل الحرام، وفي إحلال القوانين الوضعية محل الشرائع الدينية ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ لأن من يفضل قوانين البشر على شرع الله يُثبت حاكماً غير الله تعالى فيصير مشركاً، كما أنّ من يرضى بالذبائح التي ذبحت على الأصنام والأوثان فقد رضي بزعم ألوهيتها ممّا يوجب الشرك، ومثال ذلك كثير.

﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٢٢).

١٢٢- ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ شرح للآية السابقة، وقد شبّه تعالى الكافر بالميت، والهداية بالإحياء، لأن مدارك الكافر محدودة إما بسبب طغيان المادة عليه، أو لضيق أفقه، أو لجهله، أو لإعجابه برأيه، أو لغفلته، أو لكل ذلك معاً، فهو أسير هواه، والحقيقة غائبة عن وعيه، لأنه حَجَرَ عقله على الجمود والتقليد، فإذا اهتدى صار حيًّا، متفتح الذهن، عقلانياً، وصار على بيّنة من حقيقة الدنيا والآخرة ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ وهو نور القرآن الكريم، يهتدي به، فتطمئن به نفسُه، ويكون واثقاً منها، فيهدي به غيره ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ بالمقارنة مع الذين يتخبطون في ظلمات الجهالة، وقد فسدت فطرتهم، وعقولهم قاصرة عن إدراك الحقيقة

والاقتناع بها، وإذا توصلوا إليها فهم يجحدونها من قبيل التكبر والعصبية والتقليد الأعمى وإتباع الأكثرية المسيطرة وحب الدنيا ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهي إقرار حقيقة واقعة، بأن عقول أمثال هؤلاء الكافرين بعد أن طغت عليها العصبية والتقليد الأعمى وحب الدنيا، قد زُيّن لهم ضلالهم حتى يكون أحدهم من أذكى الناس ثم يبرر لنفسه السفاهة والحماقة والخرافة التي يعتقد بها، ويوجه سلوكه الظاهر والباطن بموجبها.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٢٣).

١٢٣- استمرار الخطاب من الآية السابقة ومعطوف على قوله ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ القرية-بلغة القرآن- هي المجتمع أو الشعب أو الأمّة، أو المدينة الكبرى التي يقيم بها أولو الحل والربط، والمعنى استمرار من الآية السابقة، أي كما زُيّن للكافرين عملهم وتمبطهم في ظلمات الجهالة والتقليد والتعصب وحب الدنيا، كذلك فإنه من سنن الاجتماع البشري أن يصبح بعض المجرمين من هؤلاء أكابرَ في بعض المجتمعات، بحيث يكون إجرامهم سبب كونهم أكابر، أي يبلغون مراتب الزعامة بمكرهم وخداعهم وتدليسهم وغدرهم، ويصدق فيهم قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ۝ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢/٢٠٤-٢٠٥]، وقد ينكرون الوحي والرسل لكي يحكموا الناس على هواهم، وقد يدّعون العلمانية بزعم التحرر، ويكثر ذلك في الأمم التي تنتشر فيها المطامع والتنافس على الزعامات، وتزداد عندما تكون الشعوب جاهلة ومتخلفة ومغلوبة على أمرها.

ويُحتمل أيضاً أن الأكابر تحوّلوا إلى مجرمين، لأنهم جعلوا أنفسهم فوق القانون، وفوق المعايير الأخلاقية، وفوق عامة الناس، فصاروا يرفضون الانتقاد الموجّه إليهم، ولا يحاسبون أنفسهم إذ زيّن لهم الشيطان أعمالهم، فيصدق فيهم قوله تعالى: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ والضمير في أنفسهم يعود لأكابر المجرمين وأشياعهم، لأن المجتمعات التي تمكّن مجرميها من التحكم فيها والسيطرة عليها، سواء كان ذلك نتيجة تخلفها وجهلها، أو سوء أخلاقها وانتشار الفساد فيها، تؤول في نهاية المطاف إلى الدمار مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣/٣٥]، وقوله عزّ من قائل ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦/١٧]، أي إنه تعالى يأمر الأكابر المترفين بالإصلاح والطاعة، فلا يستجيبون، ويكون التفسخ والانحطاط والانهيار عاقبة أمرهم.

﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ (١٢٤).

١٢٤- ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ وهم الأكابر المشار إليهم سابقاً، أي جاءهم وحي من السماء عن طريق الرسول ﷺ ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ لا يصدّقون الرسل، ويريدون أن يُنزّل الوحي عليهم مباشرة، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً﴾ [المدثر ٥٢/٧٤].

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ الله أعلم بحكمته من يصطفي من الرسل والأنبياء ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ وهم منكرو الوحي سيصيبهم الهوان والذل، بعد التكبر والعظمة ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ إن في الدنيا أو في الآخرة أو كلاهما معاً ﴿بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ بسبب مكرهم، وبنتيجته.

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٢٥) .

١٢٥- ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾ يشرح الله تعالى صدرَ مَن حافظ على سلامة فطرته، وابتعد عن الكبرياء والحسد، وحافظ على استقلال الفكر، ورفض التقليد والعصبية، عندما يدرس الإسلام دراسة موضوعية يجد فيه الحقيقة التي يبحث عنها فينشرح صدره للإسلام، ويشعر بالسرور والقبول تجاهه ويفيض علم القرآن ونوره في قلبه وعقله ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ وهو الشخص المصر على الكفر، الذي أفسد فطرته بالأفكار الشاذة التي تربّى عليها وقبلها، وضاق تفكيره بما لا يطابق ما اعتاد عليه من عقيدة أهله وقومه، حتى لا يكاد يستطيع الإطلاع على غيرها من العقائد، ناهيك عن دراستها دراسة جدية موضوعية، وهو إلى كل ذلك متكبر معجب برأيه وبما هو عليه من الضلال، وهو في نفس الوقت حسود لأنه يرى نفسه وقومه أحق من الآخرين بالمعرفة الحقيقية، فينفي سلفاً إمكانية صواب غيره ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ وهو تشبيه علمي، لأن من يرتقي في طبقات الجو العليا يضيق صدره لقلة كثافة الهواء كلما ازداد صعوداً، فيصعب تنفسه ويشعر بثقل وضغط كبير على صدره-وهو من إعجاز القرآن العلمي- وذلك مثل الجاحد المصر على الكفر عندما تُعرض عليه الرسالة الإسلامية يضيق صدره عنها ويتبرم بها ويُعرض عنها ﴿كَذَلِكَ﴾ أي على ذلك النحو المذكور ﴿يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ المصرّون على الكفر، فيخلّي بينهم وبين أنفسهم، ويحصل لديهم الخواء والشعور الرهيب بعدم جدوى الحياة وأن لا معنى لها ولا غاية، والرجس الخَبَث، المعنوي والحسّي، وهو هنا بمعنى العذاب الروحاني، راجع شرح آية (الأعراف: ٧/٧١).

﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ (١٢٦).

١٢٦- ﴿وَهَذَا﴾ الذي جاء به القرآن ودين الإسلام ﴿صِرَاطُ رَبِّكَ﴾ طريقه الذي ارتضاه لعباده، وطريقته التي اقتضتها حكمته ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ عادلاً مطّرداً لا

تغيير في سننه، مطابقاً للفطرة السليمة، لا إفراط ولا تفريط ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ﴾ أظهرنا الحجج وجعلناها واضحة مفصّلة ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ لذوي العقول المبصرة والفطرة السليمة، يذّكرون المعارف والحقائق المغروسة في استعدادهم، فتطيب حياتهم بها.

﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٢٧) .

١٢٧- ﴿لَهُمْ﴾ أي للمتذكرين الذين اتبعوا الصراط المستقيم ﴿دَارُ السَّلامِ﴾ السلام من أسمائه تعالى، ودار السلام الجنة تُنسب إليه جلّ شأنه، كما أنهم ينعمون بالسلام الروحاني في حياتهم الدنيا ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ وعداً عليه حقاً ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾ متولٍّ أمورهم وكافيهم وموفّقهم في كل ما يعنيهم ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بما أي بسبب أعمالهم الصالحة التي قدّموها في حياتهم الدنيا، وقد ركّزت الآية على ذلك كي لا ينقطع الإنسان عن العمل والجهد، والإيمان وحده لا يكفي، فلا بدّ من العمل لأنّ السنن الكونية قائمة عليه، والآية أيضاً نافية للجبر فهي صريحة بربط الجزاء بالعمل.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (١٢٨) .

١٢٨- في هذه الآية عودة لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ (١٢١):

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَامَعْشَرَ الْجِنِّ﴾ المعشر: الجماعة الذين يعاشر بعضهم بعضاً، ومعشر الرجل أهله، والمعنى أنه يقال يوم الحشر للذين كانوا يعاشرون عناصر الشر ﴿قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الإِنسِ﴾ أي أضللتم وأغويتم كثيراً من الناس وجعلتموهم أتباعاً لكم فحُشروا معكم ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الإِنسِ﴾ الذين أطاعوهم وكانوا لهم أنصاراً وأعواناً ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ استمتع

بعضُنا بصحبة بعض، لأن المصالح الدنيوية كانت متبادلة بينهم ﴿وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ وهو يوم البعث والجزاء، قالوا ذلك معترفين بذنوبهم، مظهرين الحسرة والندامة ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾ مقامكم ومصيركم كنتيجة طبيعية لما قدّمتم في حياتكم الدنيا، فلا ينفع الندم بعد الفوات ﴿خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ حكيم بما تتعلق به مشيئته، وعليم بما يستحق المجرمون من عقاب، فمشيئته تعالى مترتبة على الحكمة والعلم.

﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٢٩).

١٢٩- ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ وهم الذين كانوا يعاشرون عناصر الشر، يكونون أولياءً وأنصاراً بعضهم لبعض، لأنهم على شاكلة واحدة في الخبث والفساد ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بنتيجة اشتراكهم في عمل السيئات وهو سبب تقاربهم وتناصرهم.

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ (١٣٠).

١٣٠- ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ يتلون عليكم آياتي التي أوحيتها إلى الرسل ويأمرونكم بالإيمان ومكارم الأخلاق وصالح الأعمال ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ وهو يوم البعث والحساب ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا﴾ بأن الرسل قد بلّغت الرسالة وأن ليس من عذر بالغفلة-الآية التالية-، وإنما غلبتهم الحياة الدنيا على صالح أمرهم ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بكثرة المال، واتباع الشهوات، والتطلع إلى الجاه الزائف والتسلط على الناس ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ أقرّوا أنهم لم يؤمنوا بما جاء به الرسل، أو أنهم لم يعملوا بما يترتب على الإيمان من العمل الصالح والإذعان للرسالة السماوية.

﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ (١٣١).

١٣١- ﴿ذَلِكَ﴾ وهو ما تقدّم من بعثة الرسل وإنذارهم الناس بسوء العاقبة إن لم يؤمنوا ويعملوا صالحاً ﴿أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ﴾ أي بظلم منها ﴿وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ عن الحقيقة، فلا يترك لها عذراً بالجهل أو الغفلة، أي الله تعالى لا يهلك المجتمعات الظالمة ولا يعاقبها على ظلمها وإفسادها، قبل أن يبعث إليها الرسل ويبيّن لها الخطأ من الصواب، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٧/١٥].

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (١٣٢).

١٣٢- ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ فيكون حساب كلّ فرد بحسب عمله الذي قام به واعياً مختاراً، لأن الثواب والعقاب مترتّبان على سلوك المرء مختاراً في الحياة الدنيا، ودرجات عمله من خير أو شر ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ فيحاسبهم بما يختارون من السلوك والعمل.

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ (١٣٣).

١٣٣- ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ﴾ غنيّ عن عباده وعن طاعتهم وأعمالهم ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ وهو في نفس الوقت رحيم في تكليف العباد وفي ثوابهم وعقابهم، وفي إمهالهم على المعاصي إلى ما شاء ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ كما أهلك الأمم من قبلكم، وهي سنته تعالى بأن تندثر الأمم التي تتفسخ ويستشري فيها الفساد ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ من الأمم فيكونوا خيراً منكم ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ نشأتم على أنقاضهم.

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (١٣٤).

١٣٤- ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ الذي توعدونه من البعث والحساب، والثواب والعقاب في الآخرة، واقع لا محالة، وذلك غير الهلاك والعذاب الدنيوي

واستبدال أمم أخرى بهم-الآية السابقة- ﴿وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ لا تستطيعون الخروج عن قدرته تعالى، ولا عن سننه في الخلق والعباد.

﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (١٣٥).

١٣٥- ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ الخطاب للرسول ﷺ بمواجهة كفار قومه، وأن يظهر لهم منتهى الثقة بأمره، وعدم المبالاة بهم، فيتحداهم بأن يعملوا غاية ما بإمكانهم واستطاعتهم من المعاندة والعداوة لأن ذلك لن يجديهم شيئاً في نهاية المطاف ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ على مكانتي في مصابرتكم وفي الدعوة إلى الإسلام ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ عاقبة دار الحياة الدنيا، والمعنى سوف تعلمون أن الظفر والعاقبة الحسنى ستكون للإسلام لا محالة، وأن الدائرة سوف تدور عليكم ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ فلا يظفروا بغايتهم، وهذا الأمر وإن كان موجهاً في الأصل إلى النبي ﷺ فهو-كما في كل آيات القرآن الكريم- أمر لكل مسلم وداعية في الثبات على عقيدته في كل زمن.

وقد يقول قائل: ما بال المسلمين إذن قد ضعفت شوكتهم واستعلت عليهم الأمم واستهانت بهم وتلاعبت بهم واستغلتهم، ما دام تعالى قد وعدهم بالنصر وأن تكون لهم عاقبة الدار؟ والجواب أنه تعالى لم يعد بنصر الذين يدّعون الإسلام اسماً كيفما اتفق، وإنما وعد بنصر من يقيم الإسلام على حقيقته عن فهم، أما عندما يكون حظ المسلمين من دينهم كحظ من سبقهم من اليهود والمسيحية الذين حوّلوا دينهم إلى مجرد جنسية وعصبية لا غير، فعندئذ لا يكون لهم ميزة دينية على غيرهم تستدعي نصر الله لهم، بل تقتصر أسباب النصر في سائر الأسباب المادية والفنية والمعنوية، كإقامة العدل والنظام والشورى والعمل والصبر والثبات.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (١٣٦) .

١٣٦- رغم بعث الرسل الذين أتوهم يقصّون عليهم آيات الله، وينذرونهم لقاء الآخرة، فإنهم استغرقوا في ممارسات الجاهلية مما سيلي وصفه، وفيه عودة إلى موضوع الآيات (١١٨-١٢١):

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ مما خلق-ومنه الذرية- ﴿مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ الكفار والمشركين جعلوا وكرّسوا لله تعالى نصيباً -فقط- من خلقه كنتاج الزرع والمواشي التي يخصصونها للتبرع، فيتصدقون بهذا النصيب-الجزء- للفقراء والمساكين، والنصيب الآخر ينفقونه على أوثانهم و كهنتهم وسدنة معابدهم ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾ تتقرب لله بنصيبه فقط، حسب زعمهم، والباقي يتقربون به للشركاء المزعومين إذ قالوا: ﴿وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ يتقربون به لمن يزعمون أنهم شركاء لله تعالى، كائنين ما كانوا، وإضافة الشركاء إليهم لأنهم اتّخذوها لأنفسهم ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ﴾ لا يكون له علاقة بالصدقات والمساكين، بل ينصرف إلى الكهنة والسدنة وصيانة الأوثان ومعابدها ﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾ لأن النصيب الذي يكرّسونه لله تعالى يضر بعقيدتهم إذ يعزز عندهم الاعتقاد بالشرك وبأنصاف الآلهة، أو بقوى وهمية، أو بوسطاء وهميين، فهو بالتالي يصل إلى هؤلاء الشركاء لجهة إفساد عقيدتهم ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ كم هو سيئ هذا الحكم الذي يخترع قدرات وهمية وشبه إلهية لمخلوقات لا حول لها ولا قوة، والمغزى غير مقتصر على سلوك المشركين في الجاهلية، بل فيه إشارة إلى سلوك المشركين في كل العصور كونهم يسبغون قدرات شبه إلهية على مخلوقات وأموات وأضرحة ومعبودات عاجزة.

﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (١٣٧).

١٣٧- ﴿وَكَذَلِكَ﴾ عطف على ما قبله، أي كما قسموا القرابين بين الله تعالى وبين الشركاء المزعومين، وكان ذلك مستحسناً في عقولهم، كذلك استحسنوا قتل أولادهم ﴿زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ الشركاء المزعومون زيّنوا للمشركين قتل أولادهم حتى صار ذلك مستحسناً عندهم، والشركاء هم الكهنة وسدنة المعابد الوثنية، وقيل هم الجن والشياطين يوسوسون لهم، وسُمّوا شركاء لأنهم أطاعوهم في معصية الله تعالى، وكانوا في الجاهلية يدفنون البنات على قيد الحياة، خشية أن تُسبى في الغزوات وخشية العار، أو يقتلون الأولاد خشية الفقر، أو يقتلونهم نذراً لبعض آلهتهم ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ الشركاء زيّنوا لهم هذه المنكرات ليردوهم، أي ليهلكوهم عن طريق إغوائهم وإفساد فطرتهم وجعل قلوبهم قاسية خالية من عاطفة الأبوّة والرأفة والرحمة، ويكون الهلاك بهذا المعنى معنوياً بالإضافة للإرداء الحسّي وهو قتل الأولاد ﴿وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ ليخلطوا عليهم حقيقة الدين، وهو دين آبائهم ملّة إبراهيم وإسماعيل، حتى اعتقدوا أن ما يقومون به ضروري للتقرب للآلهة، وفي الآية معنى عام لا يقتصر على عادات الجاهلية قبل الإسلام، بل يشمل عادات بعض البشر -في كل الأزمنة- الذين ينسبون صفات شبه إلهية لمخلوقات عاجزة أو لقوى وهمية، يسترضونها ويستعطفونها بارتكاب أفعال وطقوس وحشية وقاسية، عدا كونها سخيفة ومنافية للعقل، والنتيجة هي الإرداء-الهلاك- المعنوي، لما فيه من العبودية لهذه القوى الوهمية وبالتالي فقدان الحرية الروحانية والتفكير السليم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ الله تعالى أراد منهم استخدام عقولهم وفطرتهم ومنطقهم السليم، وأراد منهم استخدام حرية الخيار- التي منحها لهم- استخداماً صحيحاً بعد أن بيّن لهم الحق من الباطل، والصواب

من الخطأ، ولو شاء لغيّر سننه في بني آدم بأن جعلهم مجبرين غير مختارين، كجنس الملائكة، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ دعهم وما يختلقون من الكذب على أنفسهم، وما عليك أيها الرسول إلا البلاغ، ولله تعالى سنن في الهداية لا تتغير، وحسابهم على الله.

﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (١٣٨).

١٣٨- ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ وهذا نوع ثالث من أحكامهم الفاسدة، أولها أن جعلوا لغير الله نصيباً من الحرث والأنعام (الآية١٣٦)، وثانيها أنهم كانوا يقتلون أولادهم (الآية ١٣٧)، والثالث أن حرّموا على البعض أكل بعض الأنعام والزروع التي خصّصوها لآلهتهم بزعمهم، والحِجر بمعنى المحجور أي الممنوع أو المحرّم التصرف به ﴿لا يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ لا يأكلها -أي الأنعام والحرث التي حجروها- إلاّ خدم الأوثان، والرجال منهم فقط دون النساء، حسب زعمهم ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ أي حرّموا ركوبها ﴿وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ بل يذكرون عليها أسماء أوثانهم وآلهتهم عند التضحية بها ﴿افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾ كذباً على الله تعالى، لأنه لم يأمرهم بذلك ﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ سوف يلاقوا جزاءهم بما كانوا يفترون الكذب على الله.

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (١٣٩).

١٣٩- ﴿وَقَالُوا﴾ وهو نوع رابع من فنون كفرهم، وأحكامهم السخيفة في التحريم والتحليل ﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ﴾ التي حرّموها ﴿خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾ ما في بطون الأنعام من اللبن أو الأجنّة خصّصوه للذكور

منهم فقط، وحرّموه على الإناث ﴿وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ إن وُلد الجنين ميتاً يأكلون منه جميعاً، الذكور منهم والإناث ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ سيجزيهم وصفهم الكذب على الله تعالى، أي التحريم والتحليل من عندهم، وهو كقوله جلّ ثناؤه ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ [النحل: ٦٢/١٦]، أي في إطلاق الأحكام بغير علم ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ حكيمٌ وحده في تشريع الحلال والحرام، فلا يجوز لغيره أن يتخذ لنفسه هذه السلطة، وهو عليم بصالحهم.

وقد ذكر الألوسي في روح المعاني استدلال البعض من الآية أنه لا يجوز الوقف على الأولاد الذكور دون الإناث، وأن مثل ذلك الوقف يفسخ ولو بعد موت الواقف لأنه من فعل الجاهلية، واستدل بعض المالكية على مثل ذلك في الهبة، وعن عائشة رضي الله عنها أنّها قالت: يعمد أحدكم إلى المال فيجعله للذكور من ولده، إن هذا إلا كما قال تعالى: ﴿خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (١٤٠).

١٤٠- هذه الآية تبين نتيجة مَن يُحلّلون ويحرّمون مِن عندهم، ويقتلون أولادهم، والنتيجة هي الخسران، والضلال، وعدم إمكان الاهتداء: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ﴾ كانوا يقتلون الأولاد ويئدون البنات (الآية ١٣٧) خوف السبي والعار أو الفقر، والخسارة كبيرة فهي تشمل خسارة الأولاد أنفسهم، وخسارة لعاطفة الأبوة والأمومة، وخسارة الدين وسوء العاقبة (سَفَهًا) لخفة عقلهم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بغير علم يقيني يبرر فعلتهم ﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ من الأنعام المذكورة آنفاً ﴿افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾ ابتدعوا التحريم من عندهم ونسبوه إلى الله ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ عن الطريق السوي، في الدين والدنيا ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ إلى الحق والصواب، وما كان لهم أن يهتدوا إلى الصواب ما بقوا على هذه الحال من التمسّك بالجهالة، ومبتدعين للأحكام الفاسدة ومعجبين بها.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (١٤١).

١٤١- افترى المشركون الكذب على الله، بالشرك، وقتل الأولاد والبنات، وفي التشريع والتحليل والتحريم سفهاً بغير علم، زاعمين أن الله تعالى أمرهم بها، كل ذلك رغم معجزات ودلائل الخلق حولهم والنظام الكوني البديع الذي يبهر ذوي العقول، مما يدلّ على وحدانية الخالق، ومنها نشوء الزروع والبساتين - الجنّات -:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ المعروشات نباتات الأرياف والعمران من زراعة الإنسان، وغير معروشات من النباتات التي تنمو في البراري، والمعروشات أيضاً التي تحتاج للتسلق على العرائش أو على غيرها من النباتات، وغير المعروشات ممّا ينبت على سوقه دون التسلق على غيره ﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ﴾ وأنشأ أيضاً النخل والزرع مختلفاً في الهيئة والكيفية وفي الثمار ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾ أنشأهما أيضاً، وخصّهما تعالى مع النخل بالذكر لكونها عزيزة عندهم ﴿مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ أي أن أُكُلُه، وهو الثمار، قد يكون متشابهاً في المنظر وغير متشابه في الطعم والنكهة، أو أن الزرع متشابه في أصله لكونه من مواد عضوية واحدة، أو متشابه لنشوئه من الماء والبذور المتشابهة، أو متشابه في شكله عندما ينبت صغيراً، وغير متشابه عندما يكبر ويثمر ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ وهو زكاة الزروع، فصّلتها السنة الشريفة بأنّ ما سقته السماء، أو العين السائحة، أو سقاه الطلّ- الندى-، أو كان بعلاً، ففيه العشر، وما سقته القُرَب، أي بمجهود كالضخّ، ففيه نصف العشر، ويوم حصاده أي يوم كيْله، وقيل إن زكاة الزروع صدقة غير الزكاة المفروضة ﴿وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ لا تسرفوا في

الصدقة لدرجة الإجحاف بصاحب المال، وأيضاً لا تمنعوا الصدقة، فالمراد من الإسراف هو مجاوزة الحدّ سواء في كثرة الإنفاق، أو كثرة التقتير والبخل، لأنه تعالى لا يحبّ المسرفين.

﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (١٤٢).

١٤٢- ﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ تتمة الخطاب من الآية السابقة، والتقدير: وهو الذي أنشأ جنّاتٍ، وأنشأ من الأنعام ما يحمل الأثقال، وما يُفرش للذبح، أو يُركب، أو ما يُنسج الفرش من وبره وصوفه، والحَمولة أيضاً الأنعام التي صارت في سن الحَمْل، والفرش صغارها التي لصغر أجسامها تمشي دانية من الأرض،- وأمّا الحُمولة بضمّ الحاء فهي الأحمال، وهي غير الحَمولة أي التي تحمل- ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ من لحوم الأنعام ﴿وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ في التحريم والتحليل من عند أنفسكم، تارةً تحرّمون ظهورها للركوب أو الحمل، وتارةً تحرّمون أكل لحومها أو ما في بطونها من الحمل ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ عداوته بيّنة لبني آدم، لقوله ﴿لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ١٧/٦٢].

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٤٣).

١٤٣- استمرار الخطاب ممّا قبله، والكلام ما زال في عادات الجاهلية، وتحريمهم ركوب بعض الأنعام وأكل لحوم بعضها، وتقدير الخطاب: وأنشأ من الأنعام حَمولةً وفرشاً ثمانيةَ أزواج، فيكون ﴿ثَمَانِيَةَ﴾ بدل من قوله ﴿حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾، والمقصود تبكيت لهم على تحريم ركوب بعضها، أو الحَمل عليها، أو تحريم الحَمل الذي في بطونها، وقد يكون تقدير الخطاب أيضاً: كلوا ممّا رزقكم

الله ثمانية أزواج-.، وهو تبكيت لهم على تحريم أكل بعض لحومها أو تحريم أكل ما في بطون بعضها من اللبن أو الأجنّة:

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ الواحد إذا كان وحده فهو فرد، فإذا اجتمع معه غيره من جنسه سُمّي كل فرد منهما زوجاً، فالزوج ضد الفرد، وكلّ واحد من القرينين الذكر والأنثى في الحيوانات المتزاوجة يسمّى زوجاً وهما زوجان، والدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى﴾ [النجم: ٤٥/٥٣]، وقوله تعالى: ﴿مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [هود: ٤٠/١١]، وقوله جلّ ثناؤه ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ ثم فسّرها بقوله-من الضأن اثنين، ومن المعز اثنين، ومن الإبل اثنين، ومن البقر اثنين، فالمجموع ثمانية، وقد يطلق الزوج أيضاً على مجموع الزوجين ولكنه غير مراد في هذه الآية وإلاّ كانت أربعة أزواج، وعلى هذا تكون كلمة (اثنين) صفة كما في قوله تعالى: ﴿لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [النحل: ٥١/١٦]، والزوج أيضاً القرين لقوله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢/٣٧] أي وقرناءهم.

﴿مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾ يعني الذكر والأنثى: الكبش والنعجة (وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ) التيس والعنز، ومفردها ماعز ﴿قُلْ أَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ﴾ أي قل لهم أيها الرسول: أحرّم الله الذكرين الكبش والتيس، أم حرّم الأنثيين النعجة والعنز، أم حرّم الأجنّة التي اشتملت عليها أرحام الأنثيين؟ والاستفهام للإنكار، أي إنه تعالى لم يحرم شيئاً من هذه الثلاثة، ومغزى الآية إبراز التناقض والغموض في خرافاتهم التي يفرضونها على أنفسهم وعلى غيرهم ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ﴾ يقيني، وليس بالظن أو التخمين أو التقليد ﴿إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم بالتحليل والتحريم، والمعنى أنكم لا تقرّون بشريعة سماوية، فكيف تحكمون بأن هذا حلال وهذا حرام، وشريعة أي نبي هذه التي تحرّمون وتحلّون بموجبها؟ والمغزى من كل ذلك أن الأصل في الأمور الحلّ إلاّ ما حرّمه تعالى بالوحي صراحةً.

﴿وَمِنَ الإبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٤٤).

١٤٤- ﴿وَمِنَ الإبِلِ اثْنَيْنِ﴾ الجمل والناقة -معطوف على قوله سبحانه ﴿من الضأن اثنين﴾- ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ الثور والبقرة ﴿قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾ الجمل والثور ﴿أَمِ الأُنثَيَيْنِ﴾ الناقة والبقرة ﴿أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا﴾ أية شريعة سماوية هذه التي تستندون عليها؟ لأن العبرة ليست بقولكم أو قول الرهبان والكهنة والسدنة، وإنما العبرة بالعلم اليقيني الذي تنزّل به الوحي ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن أطلق أحكاماً ونسبها إليه تعالى: ﴿لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فينتج عن إطلاق مثل هذه الأحكام إضلال الناس لأن الأحكام التي أطلقوها، بالتحليل والتحريم وغيره، لا تستند على علم، وإنما هي من الافتراء أو التخمين أو التقليد أو الظن ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ إلى طريق الحق، لأن الظلم يصد الناس عن استخدام عقولهم فيما يهديهم إلى الصواب.

﴿قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٤٥).

١٤٥- بعد أن بيّن تعالى فساد أحكام الجاهلية في التحليل والتحريم، أتبعه بالبيان الصحيح في هذا الموضوع: ﴿قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ المعنى أنّ التحريم لا يكون إلا بطريق الوحي الذي نزل على النبيّ ﷺ، وأن الأصل في الأشياء هو الحلّ، ولا يُحرّم على العباد إلاّ ربُّهم، ومن يحرّم ويحلل من عنده فهو مفترٍ معتدٍ على مقام الربوبية، ومن أطاعه فقد اتخذه شريكاً لله في ربوبيته ﴿عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ أي على آكل يأكله ﴿إِلاَّ أَنْ يَكُونَ﴾ ذلك

الطعام ﴿مَيْتَةً﴾ وهو ما لم يذبح شرعياً ومنه المنخنقة وغيرها المذكورة في آية [المائدة: ٣/٥]، ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ مصبوباً سائلاً، ثمّ لا بأس بالدم الذي يبقى في العروق بعد الذبح ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ﴾ أي الخنزير ﴿رِجْسٌ﴾ أي نجس- قذر-، ويحتمل أن يعود الضمير في (إنه) إلى جميع الأصناف الثلاثة المذكورة آنفاً ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ وهو ما ذبح على اسم الأوثان أو الأنصاب أو الآلهة أو الشركاء المزعومين، وأصل الفسق الخروج عن أمر الله، وسمّي الذبح لغير الله فسقاً لشناعته، والمعنى أن المحرمات من الطعام هي في هذه الأصناف الأربعة حصراً، انظر أيضاً آية [النحل: ١١٥/١٦] و[البقرة: ١٧٣/٢] و[المائدة: ٣/٥]، ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ في مجاعة، أو تفادياً للهلاك ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ لا يبغي الطعام المحرم ولا يشتهيه ولا يستسيغه ﴿وَلَا عَادٍ﴾ ولا يتعدّى حاجته منه بما يقيه الهلاك ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ممّا يفيد الرخصة للعباد عند الضرورة، ومنه قولهم: الضرورات تبيح المحظورات، وقد ذكر الشيخ محمد رشيد رضا في المنار أنّ ما صحّ من الأحاديث في النهي عن طعام غير الأنواع الأربعة المذكورة فهو إما للكراهة وإما لعلة مؤقتة.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (١٤٦).

١٤٦- ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا﴾ وهم اليهود ﴿حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ وهي الطيور والبهائم من ذوات الأظفار والمخالب حُرّمت بكاملها، وهو تحريم مختص باليهود فقط لأن الآية صريحة في ذلك، ولأن المحرمات على المسلمين محصورة في الأصناف الأربعة المذكورة آنفاً، وأمّا ما روي من الحديث أنه ﷺ حرّم كل ذي ناب من السباع وذي مخلب من الطيور، فقد ذكر الرازي أنه ضعيف رغم روايته في الصحيحين، لأنه خبر آحاد مخالف لكتاب الله تعالى

فوجب ألاّ يكون مقبولاً، أي إنه ضعّفه من جهة المتن، ولأن ما ورد فيه من لفظ التحريم قد يكون مرويّاً بالمعنى لا بلفظ الرسول ﷺ، وقد يكون اللفظ هو الكراهة، وقد قالوا: إن من علامة وضع الحديث مخالفته للقرآن ولكل ما هو قطعي، وخاصة عندما يتعذر الجمع بين الحديث الظني وبين القرآن، و في هذه الحالة يمكن الجمع بينهما بحمل النهي في الحديث على الكراهة وليس التحريم (المنار).

﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ لم يحرّم على اليهود من البقر والغنم سوى الشحوم الخالصة التي تُنزع منها بسهولة ﴿إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ الشحوم التي تشوب الظهر والأمعاء والعظم استثنيت من التحريم ﴿ذَلِكَ﴾ الجزاء أو التحريم ﴿جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾ أي هذا الجزاء بنتيجة بغيهم وظلمهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ٤/١٦٠]، ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ أي صدق الله وحده فيما كتبه على البشر من المحرّمات، وكذب اليهود في افترائهم التحليل والتحريم من عند أنفسهم.

ويبدو أن التحريم المذكور في كتب اليهود فرضه الأحبار من عند أنفسهم، انظر سفر (اللاويين ٧/٢٣)، لأنهم كانوا ذوي نفوذ كبير على العوام حتى اتّخذوا لأنفسهم حق التشريع والتحليل والتحريم، ودليل ذلك قوله جلّ ثناؤه ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [آل عمران: ٣/٩٣]، ثمّ جاء المسيح عليه السلام ليحلّ لليهود بعض ما حرّموه على أنفسهم: ﴿وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٣/٥٠]، لأن اليهود كانوا يتّبعون أحبارهم فيما يُدخلون على الشريعة من أحكام وتشريعات حتى صارت عندهم بمنزلة الوحي، قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٩/٣١]، فكانوا يأخذون بأقوال الأحبار والرهبان فيما يتعلق

بالتحريم والتحليل ولو كان في أصل الشريعة ما يخالفها، وهو سبب عقوبته تعالى لهم، وهي معنى قوله ﴿جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾ والجزاء من سنن الله في خلقه بأنه من يسلك طريق الضلال يقع في عاقبة عمله، وبما أن الله تعالى سنّ قوانين الطبيعة بأكملها فهو ينسب التحريم وما يترتب عليه من معاناتهم إلى ذاته العليّة، وقد ذكر محمد أسد في (رسالة القرآن) أن تحريم الطيبات على اليهود ليس مقتصراً على الطعام وإنما كناية عن وقوعهم تحت قهر الأمم وتشريدهم في الأرض بعد أن صدّوا عن سبيل الله كثيرا وقتلوا الأنبياء وتآمروا على قتل المسيح، ثم تآمروا على قتل النبي ﷺ.

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١٤٧).

١٤٧- ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ أي المشركون أو اليهود إن كذّبوك في النبوة، وفي التحليل والتحريم ﴿فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ فلا يعجل عليكم بالعقوبة، ويمهلكم لحصول التوبة ﴿وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ المصرّين على المعصية، فالعذاب واقع بهم لا محالة.

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ﴾ (١٤٨).

١٤٨- ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ يدّعون الجبرية، وهذه هي الحجة الأخيرة -ذكرها تعالى بصيغة المستقبل- التي يلوذ بها المصرّون على الشرك، والمكابرون في إنكار النبوّة، والذين يحكمون في الدين بغير حجة ولا دليل، ويحرّمون ويحلّون ويبتدعون الشرائع من عند أنفسهم، فإذا تبيّن لهم الحق وأيقنوا أنهم على الباطل لم يذعنوا ولم يُقرّوا، بل يزعمون أنهم مجبرون، مسيّرون وفق المشيئة الإلهية، وأنه تعالى لو لم يكن راضياً بما هم عليه من العقيدة لما تركهم على ما هم عليه ﴿وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ أي لو شاء الله ما

أشركنا ولا أشرك آباؤنا، ولا حرّمنا من الحرث والأنعام ما نحرّم، ولا شرّعنا ما نشرّع، كأنهم غير مخيّرين في استخدام ملكاتهم العقلية، وقد أجابهم تعالى بقوله ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ أي إن مثل هذا القول كذب، سبقكم إليه أقوام من قبلكم وأصرّوا عليه، حتى استوجبوا لأنفسهم العذاب ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ أي هل عندكم من علم يقيني فتظهروه لنا؟ بأن الله قد أمركم بتعطيل عقولكم؟ أو للبرهان على ما تدّعونه من الجبرية، وأن ما تقومون به مقدّر ومحتّم عليكم؟ ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ والظن لا يغني عن العلم ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ أي تكذبون الكذب المبني على الحزر والتخمين.

﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١٤٩).

١٤٩- ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ أي أنّ حجّتكم بالجبرية باطلة، لأن الله تعالى أزال الأعذار والموانع عنكم، وأعطاكم العقول والأفهام، وأمكنكم من حرية الخيار، وأقدركم على الخير والشر، فإن شئتم عملتم صالحاً، وإن شئتم عملتم بالمعاصي والمنكرات، وأمّا علم الله القديم بما هو كائن وما سوف يكون، وبالتالي أن لا مفر ممّا هو مقدّر، والذي هو من صفات الألوهية، فليس من الجبرية ولا يناقض الحرية التي منحها تعالى للبشر ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي لو كان هنالك جبرية لكانت في حملكم على الإيمان والطاعة وليس العكس، ولكن الإجبار على الإيمان، والإكراه على الطاعة يبطلان الحكمة من التكليف ويجرّدان الأخلاق والفضيلة من معناها.

﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ (١٥٠).

١٥٠- ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ المطلوب إحضار جماعة من أهل العلم، أو كتب سماوية غير محرّفة، تشهد بصحة ما

يدّعون من التحريم، وفي ذلك عودة واستكمال للآية (١١٨)، ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ لأن الشهداء في هذه الحالة متحاملون متحيّزون، وكتبهم محرّفة طرأ عليها التبديل والتشويه، والخطاب وإن كان للنبي ﷺ فالمراد به عامة المسلمين ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ نهي عن اتباع الكفار، كالذين يسمّون أنفسهم علمانيين، لأن أفكارهم مبنية على:

١) اتباع الهوى وتكذيب الآيات.

٢) إنكار البعث والحساب.

٣) أنهم يعدلون بربّهم قوى غامضة، كادّعائهم أن الكون قد أوجد نفسه بنفسه، أو وُجد بطريق الصدفة، وغير ذلك من نظرياتهم «العلمية».

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١٥١).

١٥١- بعد أن بيّن تعالى فساد ما ابتدعه ويبتدعه المشركون من عند أنفسهم في التحريم والتحليل، وتمسكهم بطقوس شكلية سخيفة كتحريم لحوم بعض الأنعام، وتحريم ركوب بعضها الآخر، وتخصيص ما في بطون بعضها للذكور دون الإناث وغيره، في حين أنهم يتساهلون في أمور جوهرية عظيمة كالشرك بالله، وقتل الأولاد والبنات، أتبع في الآيات التالية بيان الأشياء الجوهرية التي حرّمها الوحي، والتي لا تستقيم حياة الأفراد والمجتمعات إلا بتجنبها ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾:

﴿ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ عليكم ألاّ تشركوا بالله شيئاً، كالأصنام والأوثان والكواكب والجن والأولياء والقبور والشفعاء والبنين والبنات، وبما أنه تعالى غنيّ عن العالمين فإن تحريم الشرك لا يفيد سوى العباد لأنه يحررهم من وهم

الخرافات، ومن العبودية لأشخاص وأشياء لا تضر ولا تنفع، وبذلك يحافظ الإنسان على كرامته.

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ حرّم عليكم الإساءة إلى الوالدين، بل أمركم بالإحسان إليهما إحساناً، وقد تكرر في القرآن الأمر بالإحسان للوالدين، بعد الأمر بعبادة الله وحده.

﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ﴾ أي من فقر، كما كانوا يفعلون في الجاهلية ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ التحريم غير مقتصر على وأد البنات وقتل الأولاد في الجاهلية، فقد يتعدّاه إلى تحريم الإجهاض،

﴿وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ الفواحش جمع فاحشة، وهي كل ما جاوز الحد مما تستقبحه الفطرة السليمة والعقل الراجح، والمقصود بها المعصية الكبيرة، وكانوا يطلقونها على الزنا واللواط وشدة البخل والربا الفاحش والقذف بالفحشاء والبذاءة المتناهية وغيرها، والآية تنهى عن الفواحش الظاهر منها والباطن، والمعنى لا يكون لديكم مقاييس أخلاقية مزدوجة، إذ لا يخفف من الفاحشة كونها سرّاً، بل قد يكون ذلك سبباً لانخداع الناس بمرتكبيها، ولا يمنع ذلك أن الجهر بالفواحش في حد ذاته يعد فحشاً لأنه يشجع الفساد في المجتمع، ويفسد الأفراد من ذوي الفطرة السليمة.

﴿وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ قتل النفس وإن كان داخلاً في جملة الفواحش، فقد أفرده تعالى بالذكر تعظيماً له ﴿إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ يجوز قتل النفس لجرم يصدر منها كقتل القاتل عمداً بشرطه، أو القتل دفاعاً عن النفس، أو القتل في حرب عادلة دفاعية، والأصل في قتل النفس، مسلم أو غير مسلم، هو الحرمة، وحلّه يحتاج لدليل منفصل.

﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى كل المحرّمات المذكورة، ولا يخفى الإعجاز في ترتيبها على هذا النحو ﴿وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وصّاكم بعدم انتهاك حرمتها، لعلكم تستعملون عقولكم في معرفة فوائد هذه الوصايا وتطبيقها.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١٥٢).

١٥٢- ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ تتمة المحرّمات من الآية السابقة، حرّم تعالى على وليّ اليتيم أن يأخذ من مال مكفوله إلاّ بالتي هي أحسن، كالسعي في تنمية المال لصالح اليتيم، وإن كان الوليّ فقيراً يأكل من المال بالمعروف، وإن كان غنياً يعفّ عنه [النساء: ٦/٤]، ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ أي حافظوا على مال اليتيم حتى يبلغ سن الرشد ثم ادفعوه إليه، انظر [البقرة: ٢٢٠/٢] و[النساء: ٦/٤].

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ وهو تحريم الغش والاحتيال، وتشمل جميع المعاملات بين الناس أن تكون بالقسط -العدل-، وليس فقط معاملات البيع والشراء والتجارة ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ وهي قاعدة اليسر ونفي العسر، وحصر التكليف بما في الوسع، ورفع الحرج فيما عدا ذلك، حتى لا يتحمل الناس ما يشق عليهم كالدقة الشديدة في الوزن والحساب.

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ وهو تحريم شهادة الزور وتحريم النفاق، ووجوب العدل في الشهادة، وفي إبداء الرأي، وفي التحكيم، وعدم محاباة الأقرباء على حساب العدالة.

﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ وهو تحريم الغدر والنكث بالعقود، و وجوب الوفاء بالعهد الذي قطعه الإنسان مع خالقه [البقرة: ٢٧/٢]، والوفاء بالعهد الذي يبرمه الإنسان مع غيره من الناس [الإسراء: ٣٤/١٧]، ﴿ذَلِكُمْ﴾ وهي المحرّمات المشار إليها في هذه الآية ﴿وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أمركم بتذكّرها وباجتناب مخالفتها.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٥٣).

١٥٣- ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ أي وقل لهم أيها النبي: إن هذا صراطي، أي صراط الإسلام، أو هو القرآن الكريم، مستقيماً أي قويماً لا اعوجاج به عن الحق ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ الأخرى، أي الطرق الأخرى، من ديانات شوّهها أو ابتكرها أصحابها، ومن عقائد وضعية ابتكرها البشر ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ لأن كل هذه السبل تفرّقكم عن سبيل الإسلام فرقاً متشعبة ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ التمسك بالإسلام وترك السبل الأخرى ﴿وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لعلكم بالتمسك بطريق الإسلام تتقون تفكك المجتمعات وتدهورها، أي تتقون الضرر العام الذي يلحق بالأمة، والضرر الخاص الذي يلحق بالفرد.

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٥٤).

١٥٤- استمرار الخطاب من الآية (١٤٦)، فبعد أن ذكر تعالى المحرمات على بني إسرائيل بنتيجة بغيهم، أتبعها بنزول التوراة على موسى إتماماً لنعمته عليهم وتفصيلاً لشريعتهم، وقالوا أيضا ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف بمعنى الواو، ونظيره كثير في التنزيل، انظر إعراب القرآن للزجاج الباب الثالث، والآية أيضاً استمرار الخطاب من الآية السابقة، والمعنى هذا صراط القرآن ومن قبله كتاب موسى، وقد يكون التقدير أيضاً: ثم قل أيها النبي للمشركين أنا ﴿آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ أي آتينا موسى التوراة لإتمام نعمتنا تماماً على من أحسنَ باتباع موسى والاهتداء به ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ من أمور الشريعة والمعاملات والعبادات في وقته ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ هدى لهم من التخبط في الضلال، ورحمة لهم في دنياهم وآخرتهم ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي لعلّ اليهود بعد نزول التوراة يؤمنون بالآخرة، فيشعرون بالمسؤولية ويستعدّون للحساب.

﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١٥٥).

١٥٥- ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ﴾ وهو القرآن الكريم ﴿أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ كثير الخيرات والمنافع، لا يدخل عليه التحريف والتغيير ولا النسخ ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ اتبعوا ما هداكم إليه ﴿وَاتَّقُوا﴾ إتباع غيره ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لعلكم -باتباعه- تُرحمون، بالعيش الرغد في الحياة الدنيا، وبثواب الآخرة، وفي هذه الآية تأكيد واستكمال للآيات (١٩) و (٩٢) و (١١٥).

﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ (١٥٦).

١٥٦- ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ أي كراهة أن تقولوا، أو لئلاّ تقولوا، أن الوحي نزل من قبلنا على اليهود والنصارى و لم ينزل علينا، والمعنى أنه تعالى لم يترك للناس عذراً بادعاء الجهل بعد بعث النبي محمد ﷺ وبعد إنزال القرآن للعالمين كافة ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ لأنّ موسى وعيسى عليهما السلام بُعثا إلى بني إسرائيل خاصةً، فكنّا غافلين عن دراسة رسالتهما.

﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ (١٥٧).

١٥٧- ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ مع أن الخطاب موجّه لمشركي الجزيرة العربية وقت البعثة النبوية، لكنه غير مقتصر عليهم وينطبق على المشركين والكفار، في كل الأوقات، ممّن يرفض الإيمان بالوحي ما لم يكن قد تنزّل عليهم خاصّةً ﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ إن كنتم صادقين في دعواكم أنكم طلاّب حقيقة، فقد جاءكم القرآن الكريم يبيّن لكم الحق من الباطل ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ بعدما

جاءته البيّنة وعرف صحتها وصدقها، أو كانت عنده الإمكانية لمعرفة صحتها وصدقها ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أعرض عنها بلا تفكّر، أو أعرض عنها وصرف الناس عنها ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ العذاب سيكون نتيجة طبيعية لإعراضهم عن الآيات، وعدم تفكّرهم بها، وصرفهم الناس عنها.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ (١٥٨).

١٥٨- وهنا تعود السورة لموضوع الآية (١٢٤): ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي ماذا ينتظر هؤلاء المعرضون بعد بعثة النبي ﷺ وبعد نزول القرآن رحمة للعالمين إذا لم يؤمنوا، فليس بعد ذلك إلا أحد ثلاث: ﴿إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلاَئِكَةُ﴾ ملائكة العذاب ساعة الموت ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ يوم القيامة، بمعنى يأتي أمر ربك بالعذاب -بحذف المضاف- ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ أي من آياته القاهرة، أو من علامات الساعة ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ لأنه بعد ظهور علامات الساعة، وكشف الحجب عن الغيب، يكون فاتَ أوان التكليف والاختبار، ولأن الآيات إذا شوهدت يحصل العلم الاضطراري، وينتفي الإيمان بالغيب، وهو المكلف به الإنسان، فيكون الإيمان وقتها كالإيمان عند الغرغرة، فحينئذٍ لا ينفع الإيمانُ نفساً ما آمنت قبل ذلك، وما كسبت في إيمانها خيراً قبل ذلك.

وقد أوجب تعالى العمل الصالح مقروناً بالإيمان في الكثير من الآيات، وقد رأى الزمخشري أنه تعالى لم يفرّق بين النفس الكافرة إذا آمنت بعد الفوات، وبين النفس التي آمنت قبل الفوات و لم تكسب خيراً، ليُعلم أنّ قوله - الذين آمنوا وعملوا الصالحات - هو جمع بين قرينتين لا ينبغي أن تنفكّ إحداهما عن

الأخرى، وفي الحديث: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها كلمة أن لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق».

﴿قُلْ انتَظِرُوا﴾ أوهامكم بلا طائل ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ تحقق وعد ربّنا لنا ولكم، وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ [محمد: ٤٧/١٨].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (١٥٩).

١٥٩- ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ الذين فرّقوا -أو فارقوا- دينهم فجعلوه فرقاً وطوائفاً، فلم يكسبوا في إيمانهم خيراً -لأن الخطاب استمرار لما قبله-، كل فرقة تتشيّع لمذهبها، وتبتدع من عندها وعلى هواها ما ليس في الدين، وهذا المعنى ينصرف بشكل رئيسي إلى اليهود والمسيحية لأنهم ابتدعوا لأنفسهم ديانات جديدة منحرفة، ليس لها من بعثة موسى وعيسى عليهما السلام إلا الإسم، ثم افترقوا مئات الطوائف، انظر تفسير [آل عمران: ٣/٣] و[المائدة: ٥/١٣-١٤، ٤٧].

ومن ناحية أخرى فإنّ هذه الآية متمّمة لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ٦/١٥٣]، فهي بالتالي تحذّر المسلمين من البدع والأهواء، ومن التشرذم إلى طوائف متعصبة كل طائفة منها تظنّ وتدّعي أن الدين الصحيح حكر عليها فقط، وتعادي مَن ليسوا على رأيها.

﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أنت منهم ومن بدعهم ومن ادّعاءاتهم ومن ضيق أفقهم ومن تفرّقهم، أيها النبي، بريء ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ يتولّى أمر جزائهم بمقتضى سننه في المجتمع البشري من ضعف المتفرقين وإخفاقهم وتسلط الأقوياء عليهم، فليبسهم شيعاً يذيق بعضُهم بأس بعض، قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد ٤٧/٢٢].

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ﴾ يوم القيامة ﴿بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ فيبين لهم الصحيح من الخطأ، ويحاسب عليه كما في الآية التالية:

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (١٦٠).

١٦٠- ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا﴾ تتمة الخطاب من الآية السابقة بأن من يتجنّب الفرقة والبدع والتشيّع والتعصب لطائفة بذاتها ويحافظ على استقلال الفكر وينهل فقط من القرآن والسنة الصحيحة فيكون محسناً ويُثاب أضعاف إحسانه، ومن كان ضيق الأفق مبتدعاً متعصباً لرأيه معجباً به، تَبَعاً لطائفة معينة يتشيّع لها، ويعتقد أن الحقيقة حكراً عليها، أو طلباً لمطمع دنيوي، فيكون مسيئاً ويُجزى بسيئته، ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ لأن الله تعالى كتب على نفسه الرحمة، الآية (١٢).

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٦١).

١٦١- ﴿قُلْ﴾ لهم أيها النبي ﴿إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو الإسلام، والآية تتمة المعنى من الآية (١٥٩) و الآية (١٥٣) وهو قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (١٥٣)، كما فيها عودة لقصة إبراهيم الآية (٧٤).

﴿دِينًا قِيَمًا﴾ فهو منظومة من القيم السامية، قال تعالى: ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البيّنة: ٥/٩٨]، لا تعقيد فيه ولا عسر ولا شرك، وهو دين العقل والعلم والبرهان.

﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ حنيفاً أي مائلاً عن الأديان الباطلة، بعيداً عن البدع والخرافات والشرك، والإشارة إلى ملّة إبراهيم دون غيره من الرسل لأن اليهود

والنصارى ومشركي العرب جميعاً كانوا يقرّون بنبوته ويدّعون أنهم أتباعه ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ لأنهم كانوا يدّعون أنهم على ملّته عليه السلام، وهو لم يكن مشركاً.

﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٦٢).

١٦٢- ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وهو بيان إجمالي لتوحيد الألوهية بالعمل، بعد بيان أصل التوحيد المجرّد بالإيمان في الآية السابقة، وأصل النسك العبادة، وقد يخصص ليكون بمعنى ذبيحة الحج أو العمرة أو ذبيحة الفدية كقوله تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦/٢]، والجمع بين الصلاة والنسك مذكور بقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢/١٠٨]، وقد يكون النسك بمعنى الحج لاشتماله على الهدي.

وكون المحيا والممات لله بمعنى أنّ الأعمال الصالحة التي يقوم بها في حياته ويموت عليها وعلى الإيمان، كلّها خالصة لله تعالى، وليست لأغراض دنيوية محضة.

﴿لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١٦٣).

١٦٣- ﴿لا شَرِيكَ لَهُ﴾ في ربوبيته، ولا في عبادتي، ولا في نُسُكي له ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ أي بإخلاص العقيدة والعبادة والعمل لوجهه فقط-الآية السابقة- ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي إنه ﷺ أكمل المؤمنين إسلاماً، في الإيمان والصلاة والنسك والمحيا والممات.

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (١٦٤).

١٦٤- ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فكيف تفوتكم هذه البديهية؟ لأن الله هو ربّ كل شيء، فكيف أتخذ ربّاً غيره؟ ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ الشرك والباطل الذي تؤمنون به يعود بالضرر على صاحبه وحده، ولا يضيرني شيئاً ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ الوزر هو الحمل الثقيل، وهو أيضاً الإثم لأنه يُثقل صاحبه، والمعنى أنه لا تحمل حاملةٌ حملَ أخرى، أو لا تأثم آثمةٌ بإثم أخرى، وهو مبدأ المسؤولية الفردية في الإسلام بأن لا يحمل أحد ذنب غيره، لأنهم كانوا في الجاهلية يعتقدون أن أوثانهم ترفع عنهم الضرر وتحمل عنهم أوزارهم فلا يعاقبهم الله تعالى عليها، أو أن بعضهم يستطيع أن يحمل إثم بعض، ومن جهة ثانية فقد اخترعت المسيحية فكرة «الخطيئة الأصلية» وابتدعوا أن المسيح افتدى واحتمل خطاياهم سلفاً نيابة عنهم ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ﴾ فيحاسبكم كلاً بعمله، وليس بعمل غيره ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ كتهافت إدعاء حمل الخطيئة نيابة عن الآخرين.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٦٥).

١٦٥- ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ تخلفون بعضكم بعضاً في الأرض على مرّ العصور، فلا تدوم أمة على حالها ولا مجتمع ولا فرد، فتكون الأيام بينكم دولاً، وترتفع أمم وتهبط أمم، وتندثر أمم ومجتمعات، كل ذلك بحسب السنن التي وضعها تعالى في خلقه ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ بالرزق والعلم والعقل والجاه وغيرها ﴿لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ الابتلاء هو الاختبار، فتكون مسؤولية كلّ مكلّف بحسب ما آتاه الله من درجات العلم أو الغنى أو المقدرة أو السلطة ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ لمن كفر النعمة، فيلاقي

كلّ إنسان نتيجة عمله، ووصف العقاب بالسرعة لأن الموت أقرب بعيد، وكل آتٍ قريب ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر الذنوب، ويمهل العباد، ويستر الذنوب.

* * *